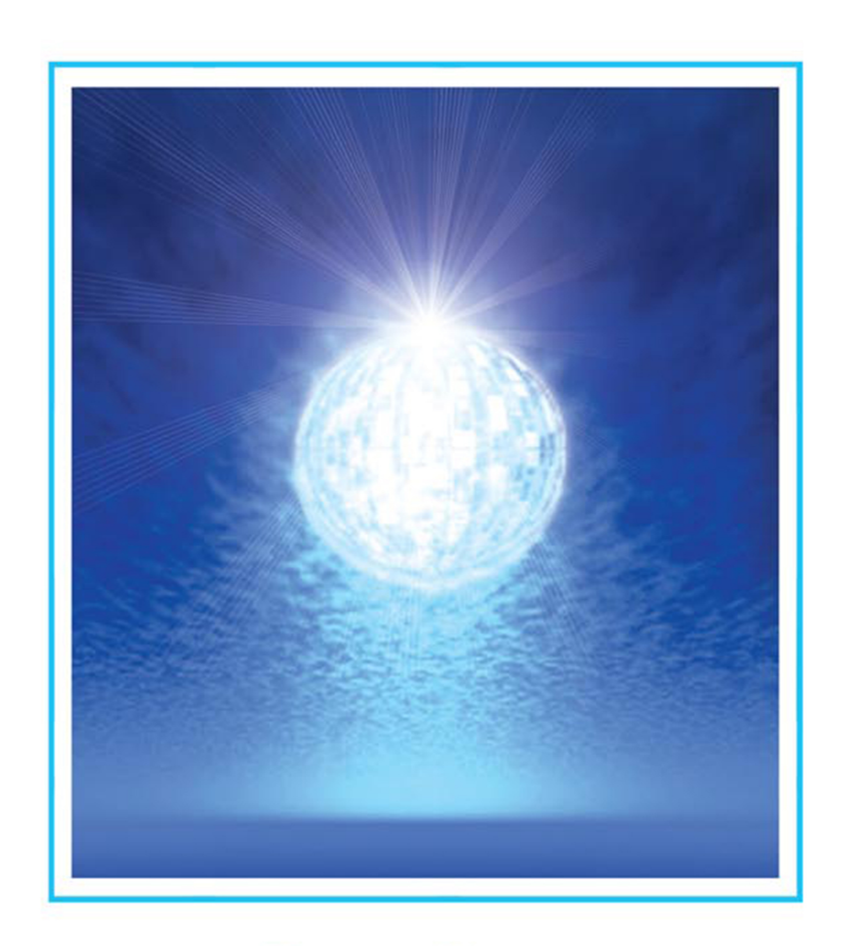


السيرة النبوية



محمد الصوياني

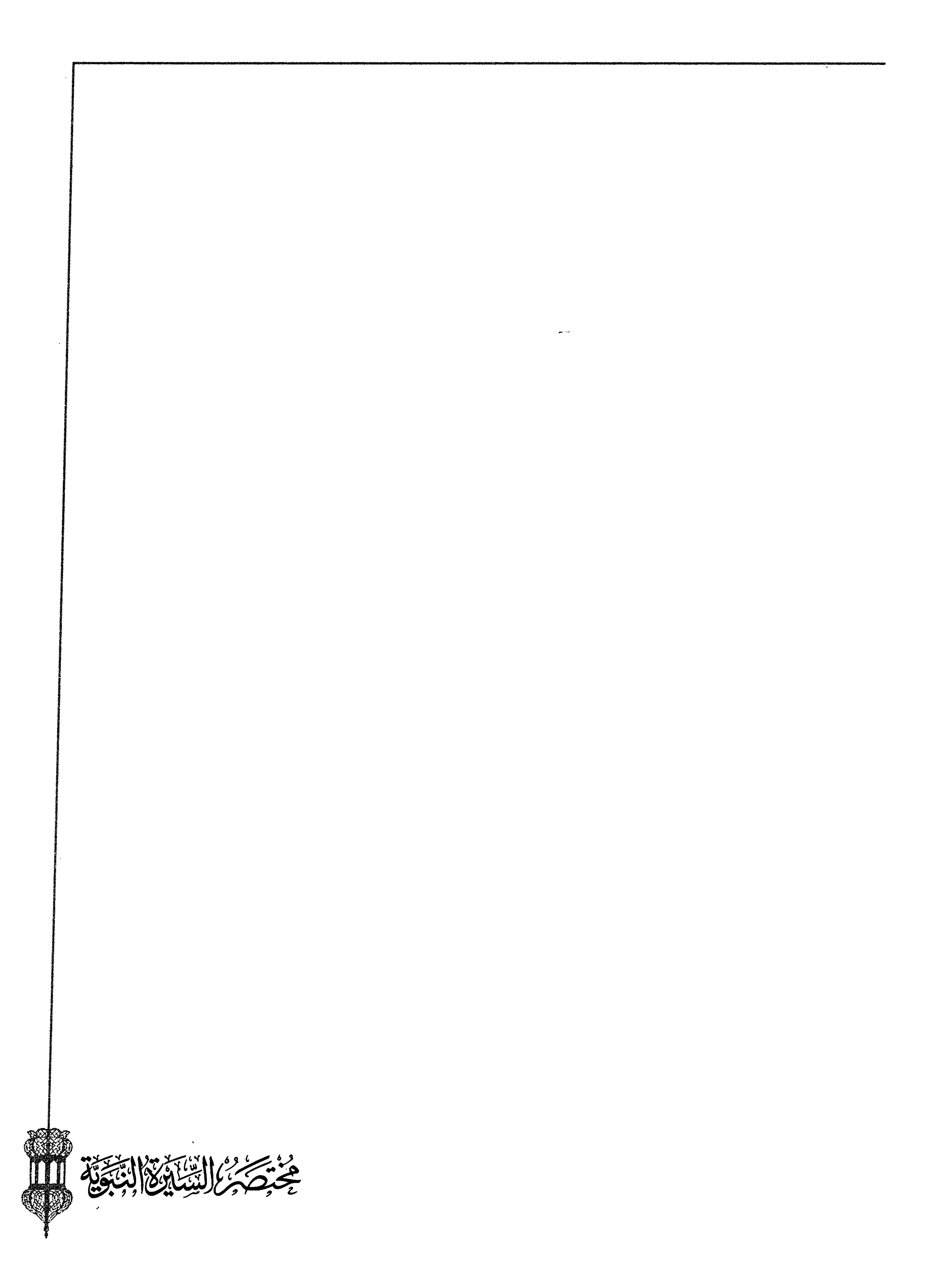
العبيكان
Obekan



محمد الصوياني

العبيكان
Obëkan




مختصر السيرة النبوية

ح العبيكان، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد.

مختصر السيرة النبوية.

محمد الصوياني - الرياض، ١٤٣٦هـ.

٤٠٨ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٢-٧٥٣-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية. أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ رقم الإيداع ١٤٣٦/٢٥٧٩

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

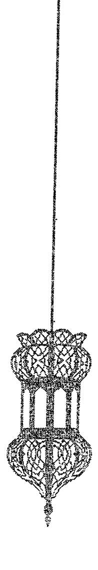
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٨٩٠٢٣

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

www.obeikanretail.com



الإهداء

إلى الرجل النبيل سعادة الأستاذ محمد بن عبدالرحمن العبيكان.

وإلى الصديق العزيز الأستاذ محمد بن عبدالله الفريح.

سبب تأليف هذا الكتاب

لم يكن في نيتي كتابة هذا المختصر على الأقل خلال هذه الأعوام، لكنّ أستاذًا جامعيًّا فاضلًا اتصل بي في آخر يوم من الشهر الثالث من عام (٢٠١٤م)، وقال: إنه مسؤول عن إعداد مناهج إسلامية لإحدى الجامعات، وأخبرني بأنه كلف زميلًا له بتأليف كتاب في السيرة النبوية بوصفه مقررًا جامعيًّا، ولما انتهى منه، وعرضه عليه استبعده؛ لأنه كان تقليديًّا في طرحه، وأن أحدهم اقترح عليه الاطلاع على كتاب (السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة)، فلما اطلع عليه اتصل بي، وعرض علي تأليف كتاب سيرة مختصر على غراره. فتحمست كثيرًا لإنجازه، ولما سألته عن المدة؟ أخبرني بأن لا وقت لديه أكثر من شهرين، فتفرغت للكتاب، وقمت بالعمل بحماس كبير، لكن الدكتور الكريم اشترط علي شرطين غريبين:

الأول: أنه سيقدم لي مبلغ ٢٢ ألف ريال، ثم لا علاقة لي بالكتاب.

الثاني: أن الكتاب لن يكون باسمي.

لم آبه للشرط الأول، فقد أكرمني الله بكتابة أكثر من أربع مئة حلقة، هي ما تم بثه من فقرات (في ظلال السيرة) لإذاعة القرآن الكريم، وعلى مدى ما يقارب الثلاثة أعوام، التي أبدع أستاذي حمد الدريهم في تقديمها أيما إبداع، وكانت كتابة الحلقة الواحدة تستغرق أكثر من أربع ساعات كمعدل، دون أن نأخذ عليها من الإذاعة شيئًا، كنا نستمتع بالعمل، وتدفعنا ردود أفعال المستمعين الرائعة ودعواتهم الصادقة للمزيد، وما عند الله خير وأبقى إن خلصت النيات.

ما حز في نفسي، هو عدم تشريفي بكتابة الاسم على غلاف كتاب جامعي، لا أدري ما السبب: هل هي الفوقية، وهل يُخجل الجامعة أن يكتب لها من لا يحمل حرف الدال؟ ومع ذلك أقبلت على العمل مفوضًا أمري إلى الله، وبعد أن أنهيت الكتاب، وقبيل إرساله بأيام قليلة زارني بعض الأصدقاء الأفاضل من أحد مكاتب الجاليات، وكانوا كثيرًا ما يلحّون علي بكتابة مختصر للسيرة لترجمته لبعض اللغات، فبشرتهم بالخبر، فسُرّوا لذلك، لكن أحدهم تكدر عندما علم بالشرطين السابقين، وأمطرني بوابل من اللوم، وطلب مني أن أتأنّى، فالعصر عصر حقوق فكرية، ولدار العبيكان حقوق في الكتاب الأصل.

اتصلت بمدير النشر في شركة العبيكان للنشر الأستاذ محمد بن عبدالله الفريح، واستشرته، فقال كلمة قاسية جدًّا، وأضاف: أنت ستتعامل مع جامعة، يعني مع جهة معلنة ورسمية، ولديها ميزانية، وتعامل الجامعات يفترض أن يتم بشفافية ووضوح، ثم ما سر عدم ذكر اسمك في الكتاب، وألمح إلى خشيته من العملية...؟ فأكون بقبولي كمن يسهم فيها، ولا سيما أن الأمر شفهي ليس فيه توثيق أو عقد.

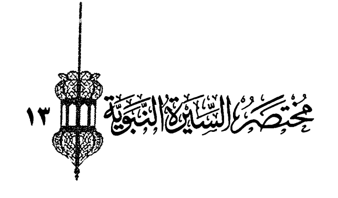
ذكرني هذا الموقف بما جرى في أول لقاء لي مع رجل الأعمال النبيل الأستاذ محمد العبيكان قبل عشر سنوات، عندما وقعت معه عقد نشر كتب (السيرة، والفقه السهل، وغيرها). قلت له: إنني لا أريد مقابلًا ماليًّا، أريد نسخًا لتوزيعها على أصدقائي وأحبتي، فقال كلمة لم أسمعها من غيره، قال لي: نحن تجار، ولسنا في حاجة إلى حقوقك، ولن نأخذها بحجة خدمة الدين، خذها، وافعل بها ما شئت.

كبر الشيخ في نظري، فقد جئته مصدومًا من دار نشر أخرى، سلمتهم ألفي نسخة من كتاب السيرة، أنفقت على طبعها كل الذي ادخرته من مرتباتي آنذاك.

نفدت تلك الطبعة في أقل من شهرين، ولما جئت أطالبهم بحقوقي لأطبع طبعة ثانية، قال لي المسؤول عن النشر: إن الشركاء الثلاثة اختصموا، ثم اقتسموا الدار فيما بينهم، وكتابك دخل في تلك القسمة، فلما قلت له: إنني أعطيتكم كتابًا مطبوعًا لم تنفقوا عليه ريالًا واحدًا، ألا تردّون الأمانة، فالنبي ﷺ يقول: (أَدِّ الأَمانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خانَكَ)؟ اكتفى بزم شفتيه وهرش لحيته.

خجلت من فعلهم، وتعففت عن مطالبتهم، وأدركت ميزة العمل المنظم الذي تقوم به العبيكان بعيدًا عن العواطف والمظاهر، فلهم مني جزيل الشكر.

۞۞۞



الفيل يمزق السكون يوم مولده

تفجر الخوف من جبال مكة.. انتفضت بطحاؤها هلعًا.. مكة اليوم تئن تحت أقدام فيل مخيف، وحراب جيش ضخم زاحف، لهدم بيت الله وكعبته. كان ذلك الجيش يرج مكة من أقصاها إلى أقصاها، فتطاير أهل مكة فوق ذرى الجبال، وتفرقوا بين الكهوف والشعاب، فالأمر فوق ما يحتملون، ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم، وحمل روحه بين كفيه وتوجه لملكهم[1]، ولما وصل مخيم العسكر طلب الإذن بالدخول، ولما أذن له قال للملك: (ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب: إنا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلَّف عبد المطلب، فقام على جبل، فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت.

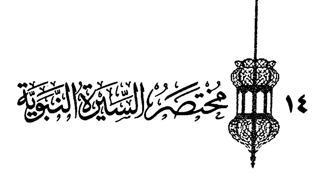
وأَهَلَّ ثم قال:

اللهم إن لكل إله	حلالًا فامنع حلالك
لا يغلبن محالهم	أبدًا محالك
اللهم فإن فعلت	فأمر ما بدا لك[2]

ظل عبد المطلب على الجبل مع قومه. أما الملك فأصدر أوامره للجيش بالزحف. فتحرك الجيش، وارتفع الغبار وصياح الجند المنتشين بقوتهم وضعف عدوهم. أيقنوا أن الكعبة ستصبح رمادًا بعد دقائق، وما إن لامست حوافر دوابهم واديًا، يقال له (محسر) حتى توقف الجيش فجأة.. رفع الملك وجنده أعناقهم

---

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة، كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلًا اسمه سمبر مصفود على عشرين ألفًا... ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.



ورؤوسهم.. اتسعت أعينهم، ورجفت قلوبهم، فقد أقبلت سحابة سوداء مخيفة من جهة البحر الأحمر (بحر الروم).. حدقوا مرات، فإذا السحابة لا ماء فيها ولا برد.. إنها أسراب مخيفة من الطيور، تلتف كإعصار فوقهم.

تحير الجند.. ظلت أعناقهم معلقة بالسحابة السوداء، وفجأة بدأ القصف بحجارة من سجيل.. من طين قاس لايخطىء هدفه.. أمطرت الحجارة، فارتفع الغبار من جديد، وتحول الحماس والصياح إلى صراخ، حين أظلتهم طيرٌ أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[1]. فجعل الفيل يعج[2] عجًّا، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[3]. تناثرت جثثهم كما يتناثر الورق اليابس الذي يسمى العصف.. تناثرت الجثث، وسالت الدماء، واختلط الصراخ بالموت والأنين، ولم ينج سوى القليل، وتحول الوادي إلى ساحة لمعركة بين السماء والأرض. وأهل مكة هناك بين الجبال.. يرون ما يحدث في السما، ويجهلون ما يجري على الأرض. في تلك المدة كانت آمنة تعاني آلام الوضع لتلد ابنها (في يوم الفيل)[4]، ولدته حياة للعالم، وموتًا للهمجية والضلال، وُلد محمد، ومات أصحاب الفيل، وانحدرت قريش لتجد البيت آمنًا.. تحميه الملائكة وأسراب الطيور. انحدرت قريش لتجد رب البيت سبحانه يرزقها غنائم الحرب، دون أن تسل سيفًا أو ترمي سهمًا. رزقها الغنائم، وهي مختبئة خائفة.

---

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) كما ذكرتُ وردتْ روايات ضعيفة ، فاكتفيت بما كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم ٢-٥٣٥ من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم:... إسحاق ثقة حافظ. التقريب ٩٩ وشيخه ثقة. التهذيب ٢-٥٧ وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف برغم قول الحافظ: فيه لين، فجرحه غير مفسر، قال ابن معين: ثقة جائز الحديث، إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، وقال الساجي: ليس بثبت، يقدم عليًّا على عثمان، وهذا جرح غير قادح. وقال يعقوب: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجلي: كوفي لا بأس به. وللخبر شواهد، ومع ذلك فمصدر ابن عباس يظل مجهولاً.

(٤) إسناده جيد، رواه ابن سعد ١-١٠١ من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، يونس حديثه حسن. الكاشف ٢-٣٠٣ وحجاج كذلك وسعيد وابن معين أعلام.



ولدت آمنة طفلها (بعدما توفي أبوه)[١] [٢]، وكانت ولادته (يوم الاثنين)[٣] أحد أيام (شهر ربيع الأول)[٤] من عام الفيل، وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عامًا.

التسمية

قبل عبد الله وقبل عبد المطلب، وقبل مئات السنين، كان هذا المولود حروفًا.. وعدًا يتلفظ به الأنبياء ويبشرون، ويوصون أممهم به.. عيسى ابن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم، ويقول لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٥]. ولهذا يقول ﷺ: (سميت أحمد)[٦]، وقد يكون جده عبد المطلب هو من سماه، أو أمه آمنة بنت وهب، ولكنه في النهاية سمي محمدًا، أما:

رضاعه وحضانته

كانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشاركها أَمَةٌ لعمه أبي لهب، واسمها: ثويبة. وقد (أرضعت ثويبة رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن

---

(١) رواه مسلم ٣-١٣٩٢ وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٢) الأحاديث التي تتحدث عن المدة بين موت أبيه وولادته ﷺ ضعيفة الإسناد متضاربة، فأعرضت عنها.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٢-٨١٩ حيث قال: ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه».

(٤) كونه ولد في شهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان، يقوي بعضهما بعضًا، الأول: عند ابن أبي شيبة، وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١-١٩٩)، والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس، وهو مرسل محمد بن جبير ابن مطعم (ابن كثير ١-١٩٩)، لكن تحديد أي يوم من ربيع، فلم أعثر على خبر صحيح، وترجيح العلماء لا يفيد، لأنه خبر وليس فتوى، والخبر يحتاج إلى سند صحيح.

(٥) سورة الصف.

(٦) سنده حسن، رواه ابن سعد ١-١٠٤ من طريق أبي عامر العقدي، وهو ثقة، اسمه: عبد الله بن عامر، وقد حدثه بهذا شيخه زهير بن محمد التميمي، وهو حسن الحديث إذا روى عنه غير شامي. وهذه رواية بصري، وهي مستقيمة، كما قال الإمام أحمد. التهذيب ٢-٣٤٨ وشيخه عبد الله بن محمد بن عقيل حسن الحديث، وشيخه محمد بن علي بن أبي طالب يروي عن والده.

عبد الأسد المخزومي)[١]. هذا في بداية الأمر، وبعد مدة من الزمن غشيت مكة مجموعة من نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش.

محمد في هوازن

استقر محمد اليتيم في أحضان امـرأة طيبة من هـوازن، اسمها (حليمة السعدية).. شغفها حبًا، وحملته على راحلتها، ليسترضع في مضارب (بني سعد ابن بكر)[٢] قوم حليمة وأهلها، وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو، ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين، وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات، ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة، ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم. كان طفلًا طاهرًا كأنفاس الصباح.. كحبات المطر. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمات، ويمرحان ويلعبان، وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليمة من زاد ليأكلانه، فيسكن ما بهما من جوع، ويعاودان اللعب في مراتع البراءة.. كانت أيامًا تشع بالبراءة والجمال والبهجة، لم يعكر صفوها سوى صراخ أخيه الصغير ذات صباح قائلًا:

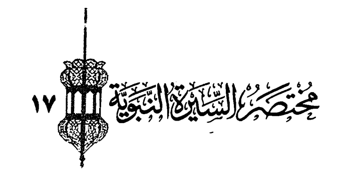
إن محمدًا قد قُتِل

أشرقت الشمس وتنفس الصبح في الصحراء، فودع محمد وأخوه أمهما حليمة، وخرجا من الخباء خلف أغنامهما، ولم يذكرا أنهما بلا زاد إلا عند وصولهما إلى المرعى، وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلى أخيه، فقال: (يا أخي اذهب فأتنا

---

(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) حديث حسن، رواه أحمد ٤-١٨٤ حدثنا حيوة ويزيد بن عبد ربه قالا ثنا بقية حدثني بحير بن سعد عن خالد ابن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد السلمي أنه حدثهم. وعبدالرحمن مجهول لكن يشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه حسن بعمومه.



بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)[١]. وبعد أن أصبح اليتيم يلهو مع البهم وحيدًا في المرعى رفع رأسه فإذا المشهد مرعب.. طائران كبيران يهبطان عليه من السماء. ارتجف قلبه، وتغير لونه، وزاغت عيناه البريئتان، وهو يراهما يأخذانه، ثم يضجعانه على الأرض.

إنه يتحدث بنفسه، فيقول: (فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب، مملوء ثلجًا، فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني. فوزنتهم. ثم قال: زنه بمئة من أمته. فوزنني بمئة. فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بألف. فوزنتهم. فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنهم)[٢]. في تلك الأثناء أقبل أخوه ومعه غيره، فرأوا ما يفعل بأخيهم، فعادوا نحو أمهم، والرعب يقطع أنفاسهم، يصرخون: أن محمدًا قد قتل. استقبلتهم آمنة بقلب مفجوع، تصفحت وجوههم وصدورهم التي ترتفع وتنخفض، وكلماتهم التي يقطعها الخوف. فتركتهم وركضت نحو المرعى تبحث عن قرة عينها. طار الملكان، ونهض محمد مذهولًا، فرأى أمه تقبل نحوه.. تضمه تغمض عينيها ويديها عليه.. ترفع ثوبه وتتحسس جسده:

ما هذا. إنه أثر جرح قد التأم حديثًا، لم تره من قبل وهو يستحم بين يديها أو تغير ثيابه. كانت معجزة لا تحدث للبشر، أحد رفاقه رأى أثر تلك العملية يقول: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ

---

(١) جزء من الحديث السابق، ويشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة.

(٢) هذا الحديث حسن، وقد مر معنا، عند الحديث عن استرضاع رسول الله ﷺ في بني سعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى، وهي في الحديث الآتي.

الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أَعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره حليمة) فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون)[١] أي متغير اللون . ويواصل حديثه، مؤكدًا ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)[٢].

تأملت آمنة هذا الجرح الملتئم حديثًا في صدر طفلها. لا يمكن لجرح أن يلتئم بهذه السرعة[٣]، فخشيت أن يكون للجن يد في الأمر. فجهزت بعيرها، وجمعت ثياب محمد، وركبت، ووضعت محمدًا بين يديها، وانطلقت تتمايل بها مطيتها، ثم انحدرت عبر الجبال نحو مكة، ليعود محمد لأحضان آمنة ترعاه وتحنو عليه.. تحدثه ويحدثها، تلاعبه ويلاعبها، وتقص عليه، وتملأ دنياه، ويملأ دنياها، فأي براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليمة. لا شيء كبراءة الأطفال، فأي براءة كان محمد، وهو صغير..

يا لبهجة آمنة وسعادتها به، ويا لشقائه بها وحزنه عليها، بعد أن أخذته معها متجهة به نحو أخواله في (يثرب)، حيث قضى وقتًا هناك يمرح في طرقاتها ويتأملها، وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب، فسأعود لأضع لك اسمًا جميلًا خالدًا، كجمال التوحيد وخلوده. وبعد رحلة حميمة زارا فيها أخواله الكرام الطيبين (بني النجار)، رجعت آمنة بصغيرها إلى مكة تلاعبه وتقص عليه، وترد على أسئلته

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٤٧).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٤٧).

(٣) هناك أمثلة كثيرة طالما كذبها أناس من المستخفين بالسنة، منها حديث البخاري أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شراب أحدكم فليغمسه كله في الشراب، ثم يخرجه فيرميه، لأن في أحد جناحيه داءً، وفي الآخر دواءً، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث، وحاربوه، واتهموا الإمام البخاري بالكذب، واستغل بعض الشيعة هداهم الله ذلك، فصار يطعن في الأحاديث وفي السنة -وهم لا يؤمنون بالأحاديث التي نقلها الصحابة- فماذا كانت النتيجة؟ لقد جاءت الشهادة بصحة هذا الحديث، من أرقى وأحدث المختبرات العلمية في العالم، وأكدوا صحة هذا الحديث علميًا ومخبريًا، انظر كتاب الدكتور خليل إبراهيم خاطر (الإصابة في صحة حديث الذبابة). ومن أراد الدهشة فليراجع موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الإنترنت، فسيجد استمرار معجزاته ﷺ.

التي تعن له في الطريق. يبكي فتلجأ لكل الحيل والألعاب لإرضائه.. تطعمه وتهدهده وتعبث بشعره الناعم بأناملها، فيغفو بين ذراعيها كملاك صغير، وينهض في اليوم التالي فتغمره بقبلاتها، وتمرغ وجهها في صدره حتى تملأ ضحكاته الجميلة قلبها وأجواءها وطريقها.

وفي مكان يقال له (الأبواء) بين مكة والمدينة، توقفت الحكايات والضحكات، وتوقفت المطايا، ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها، وقد تعلقت عيناه بها، وهي تتوجع وتئن أمامه، ويشتد وجعها، فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها، سوى نظرات حائرة خائفة.. نظرات حزينة.. تزيد آلامها، فيزيد أنينها ورحمتها بهذا الطفل البريء، ثم تضعف نظرات آمنة شيئًا فشيئًا، وتذبل وتموت، وهو يأمل أن تفيق.. أن ترد عليه، لكنها لا ترد ولا تفيق، بل تؤخذ من بين يديه، وتدفن أمام عينيه الغارقتين بالدموع.. يمسحهما بيديه الصغيرتين وهو ينظر إليها وإلى الرجال وهم يهيلون التراب على قبرها، بعيدًا عن مكة، بعيدًا عن عبد المطلب، بعيدًا عن أعمامه.

تؤخذ آمنة منه، وتوارى تحت أكوام التراب، فيعود باكيًا وحيدًا حزينًا على الراحلة ، ينتبه من نومه في أثناء الطريق، فلا يجد آمنة تحتضنه أو تقبله أو تسأله: هل هو جائع؟ منظر يذيب القلب.. طفل صغير زائغ العينين، تتمايل به الراحلة والأقدار، حتى يصل مكة، وقد تيتم مرة أخرى.. يعود إلى ذلك البيت الصغير، ويجول ببصره في أركانه الصامتة..

هنا كانت ترقد آمنة، وهنا كان يخبىء ألعابه، وهنا كانت تعد له طعامه، أما هنا فكان يستحم بيديها، وهنا كانت تلاعبه، وتسعى لإضحاكه، عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكيًا.. كان بيتًا كالدموع.. تجول فيه الذكريات وبقايا آمنة الحبيبة. ربما تنبه ليلة فلم يجدها بقربه، ففاضت عيناه بالدمع، وألجمه



الحزن والحنين إليها، أو ربما كان يسأل جده وأعمامه أو عماته عنها، فيتجرعون الصمت، وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزنًا، فتتيه عنهم الإجابة. ربما مر طيفها الحبيب بمخيلته يومًا، فركض قلبه خلفها، وهتف باسمها، فيتلفت فلا يراها، وينكسر، فتفيض عيناه ويبكى من حوله. ربما سأل عنها.. أين ذهبت؟ ومتى ستعود؟ وهل ستتركه وحيدًا أم سيذهب إليها...؟ أسئلة كلها بث وانكسار، متى ما حاصرت المرء خفض رأسه وفاضت عيناه.

لقد تعلق بها برغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يوم بقبرها فرئي له بكاء لم يبكه من قبل. يقول أحد أصحابه: (فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى، فاستقبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت. فما رؤيت ساعة أكثر باكيًا من تلك الساعة)[١]. وذات مرة زار (قبر أمه فبكى وأبكى من حوله)[٢] لكن ما قد يخفف بعض معاناته كونه الآن:

في بيت عبد المطلب

أخذ محمد إلى بيت جده، حيث تربى في كنف هذا الرجل الحنون، الذي أحبه وهو يرى النبوغ يشع في طفولته، فلم يرسله في حاجة إلا جاء بها، ولم يأمره بأمر إلا قام به على الوجه الأكمل، إلا في يوم من أيام الحج، حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب زعيم قريش وسليل الأنبياء، لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول..

---

(١) سنده صحيح، رواه البيهقي ١-١٨٩من طرق عن سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه. سليمان تابعي ثقة وعلقمة ثقة أيضًا التقريب ٢٥٠و٣٩٧، ورواه ابن حبان ٣-٢٦١وغيره بسند حسن، لولا عنعنة ابن جريج فيه، ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٧١ .

مذهول يهرول نحو بيت الله لا يلوي على شيء، وما أن أصبح بجوار الكعبة، حتى رفع عقيرته، يناجي ربه:

يا رب رده واصطنع عندي يدًا ربي رد إليّ راكبي محمدًا

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل، لكن حالته كانت تثير التساؤل، فقال ذلك الغريب لمن حوله:(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني لقد حزنت عليك حزنًا، لا تفارقني أبدًا)[١]. لم يفارق هذا الفتى جده، لكن جده لم يدم له، فها هو بعد مدة ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقة ومرارة، لقد مات عبد المطلب جده، وآخر آبائه، لينتقل ربما[٢]:

إلى بيت أبي طالب

حن أبو طالب بن عبد المطلب على ابن أخيه اليتيم، ورق لحاله وكربه وبثه، ورعاه كأنه من صلبه.. ينسيه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحنانًا، فكان يلازمه ويرافقه في بعض الرحلات. وكبر محمد، وبدأ يكسب رزقه بكده وعرقه

رعي الغنم

لم يكن محمد ﷺ شابًّا خاملًا تتعثر به الحياة.. يقتات من نسبه، ويتسول بشرفه. لقد كان حياة للحياة.. كان شبابًا متجددًا. تعاملت معه قريش كلها، حتى

(١) هو جزء من الحديث السابق.

(٢) أقول: ربما. لأنني لم أجد حديثًا أو خبرًا صحيحًا يحدد عند أي أعمامه انتقل بعد وفاة جده.



اقتطع منها لقبًا طغى على كل اسم هو له. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة، فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)[١]. (الأمين) هذا هو اللقب الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يبذلوه له بألسنتهم، لقد جربوه وخبروه، والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب، وليس لدى محمد الشاب ما يبذله من مال أو سلطة ليرغمهم على قول ذلك، لا سيما وهو من أصغرهم سنًا، بل وربما كان أفقرهم.. ألجأه الفقر إلى أشقى المهن وأبسطها. كان يسير طوال نهاره خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)[٢]، مهنة شاقة تمارس بأجر بخس، لكن أول شرط لممارستها (الأمانة). مهنة البسطاء وقادة الأرض والعظماء، وهل هناك أعظم من نبي. ومع ذلك (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم)[٣]، فالرعي بقدر ما يولد من القسوة والخشونة، يهب له قلبًا عطوفًا على رعيته، والأنبياء قادة تتوافر فيهم هذه الصفات، لكن بعيدًا عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام، ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشباب، ويعيش بينهم، ويسمع مغامراتهم في ارتياد كهوف البغاء، والقصف في الخمارات، لكنه كان يرتفع عما يسيء إلى اسمه ورجولته، وإن كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش، والأمر عنده لم يتجاوز دائرة حديث النفس والأماني.. لا أكثر. يمر عليه مرور سحاب الصيف، الذي يمر ولا يمطر، فهو شاب كغيره، لكن رقيه يحجز بينه وبين تلك الأشياء.

إنه يتحدث عن تلك الأمور التي خطرت له عندما كان يمسك بعصاه يهش بها على غنمه، فيقول: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من

(١) حديث صحيح، سيمر معنا تحت عنوان (بيني الكعبة ويضع الحجر).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٢-٧٨٩ بلفظ: (كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٢- ٧٨٩.

النساء، إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة -ونحن في رعاية غنم أهلنا- فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى. فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر. فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته)[1]. كان شابا لاحَ له من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب له شيئًا من المرح، فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البريء ما أزاح ركام الهم عن قلبه، ليبقى مشرعًا للسرور والابتهاج، ومع ذلك لم تكن المرأة بعيدة عن خياله وأحاسيسه. كان -كأي شاب سوي- بحاجة لفتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف، وتمسح عن جبينه همومًا تقذف بها يوميات مكة المتعبة، لكنه لم يجد فتاةً بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال، ولها من المال شيء وفير. سمعت بمحمد بن عبد الله فشدها ما سمعته: أمانة ورجولة

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ١-٣١٥ وابن حبان زوائده ٥١٥ وأبو نعيم ١٨٦: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي. قال ابن حجر : إسناده حسن متصل ورجاله ثقات. لكن أحد رجال هذا السند؛ هو ابن قيس من رجال الشيخين؛ إلا أن الحافظ قال في التقريب: (مقبول) أي عند المتابعة، وله شاهد ذكره الذهبي في سيرته من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وفيه جهالة زياد،سكت عنه في (الجرح والتعديل ٣- ٥٣٦ ولم يعرفه الدارقطني. المغني ٢- ٢٤٣.

واتزان، فتمنته زوجًا برغم كبر سنها بالنسبة إليه، وبرغم زواجها من قبل، وتم لها ما أرادت، ظفرت بهذا الفتى العشريني وهو حلم كل فتيات مكة ، وسمعته تعطر الطرقات والأندية، فكم من فتاة حسدت خديجة على فتاها. تزوج محمد وواصل حياته يشارك قومه في أنشطتهم، ومن أهمها:

بناء الكعبة
ووضع الحجر الأسود

لما بلغ محمد عليه السلام الخامسة والثلاثين من عمره، كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح، فقد كانت (مبنية بالرضم[١]، ليس فيها مدر[٢]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[٣]، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم يسدل سدلًا عليها، وكان الركن الأسود موضوعًا على سورها، باديًا، وكانت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة[٤]، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريبًا من جدة انكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا روميًّا عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجارًا، فقدموا بالخشب، وقَدِمُوا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيت ربنا....

فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي.. تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعًا)[٥] وقد شهد العباس هذه الحادثة، فقال:

---

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.

(٢) المدر هو الطين اللزج.

(٣) أي أن جدارها قصير، إلى درجة تجعل العناق تستطيع اقتحامها، والعناق: أنثى أولاد الماعز.

(٤) مثل حرف D.

(٥) ما بين الأقواس ليس بحديث، لكن سنده صحيح إلى أبي الطفيل، ولا أدري ممن سمعه، فهو قد ولد بعد هذا الحادث بعشرين عامًا. رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ عن معمر، عن معمر، عن عبد الله، عن أبي الطفيل. معمر أحد الأعلام الثقات، التهذيب ١٠-٢٤٣ وشيخه عبد الله بن خثيم، تابعي ثقة حجة. التهذيب ٥-٣١٤ وأبو الطفيل صحابي.

(كنت أنا وابن أخي -محمد ﷺ- ننقل الحجارة على رقابنا، وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا[١] الناس ائتزرنا)[٢]. ارتفعت الكعبة من جديد، وابتهجت قريش، ولم يبق سوى رد الحجر الأسود إلى مكانه؟

إن بناء الكعبة واسع لدرجة استيعاب العشرات للمشاركة فيه ونيل شرفه، لكن الحجر الأسود لا يحتاج إلى أذرع لحمله. اختلفت بطون قريش، في زمن متكئ على العصبية والعقول المتحجرة، التي لا تحل الأمور الصعبة إلا بأنهار الدماء، في زمن دارت الحروب فيه عشرات السنين من أجل بعير جمل. إنها جاهلية تعشق الدماء، وتفخر بالسلب والنهب، وتهيم بالثأر. جاهلية لم تؤلف كتابًا، ولم تبن مدرسة، وأكثر ما تحسبه هو ضحاياها وأيام ثأرها.

هاهو أحد شهود العيان يروي قصة الحجر الأسود، فيقول: (بلغنا الحجر، وما يرى الحجر منا أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل، يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: بل نحن نضعه. حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف. فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا. قالوا: أول رجل يطلع من الفج[٣] فجاء النبي ﷺ. فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو)[٤] وبيده الكريمة أوقف سيلًا من الدماء كاد أن ينفجر: أتاكم الأمين. اسم انتزعه من مكة كلها.. من رجالها ونسائها وأطفالها.. من شوارعها وميادينها وقلوبها.

---

(١) أي أقبلنا عليهم واختلطنا بهم.

(٢) حسن، رواه يونس بن بكير. ابن إسحاق (٥٧) من طريق عمرو بن ثابت، وهو ضعيف، عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه. عكرمة ثقة، وسماك قوي إلا عن عكرمة، لكن الحديث حسن. انظر: صحيح موسوعة السيرة.

(٣) الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٤) سنده صحيح، رواه أحمد ٣- ٤٢٥ وأبو نعيم في الدلائل من طرق عن ثابت بن يزيد، حدثنا هلال بن خباب عن مجاهد عن مولاه، قال. وهؤلاء كلهم ثقات. ثابت ثقة، وكذلك هلال بن خباب العبدي، التقريب-١٣٣و٥٧٥، ومجاهد تابعي ثقة معروف، ومولاه هو الراوي.



يشتغل بالتجارة

ترك محمد ﷺ رعي الأغنام ليدخل عالمًا آخر.. عالم الاقتصاد، يبيع ويشتري، ويربح ويتنامى نشاطه وماله وعلاقاته، ويقيم شراكة بينه وبين رجل من قومه اسمه: السائب بن أبي السائب، وكان السائب ينافس أبا بكر في القرب منه ﷺ حتى قال السائب: (أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي «مرحبًا بأخي وشريكي» كنت شريكي «في الجاهلية» فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري)[١].

أصبح لدى محمد مال، فاشترى عبدًا صغيرًا اسمه زيد بن حارثة[٢]، لكنه لم يعامله معاملة غيره لعبيدهم، بل لم يعامله معاملة الخادم. لقد أحبه وتبناه، وسماه زيد بن محمد، وأحبه حبًّا كأنه من صلبه.

بنات محمد

أربع بنات كالزهرات: أكبرهن زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة أصغرهن سنًّا. ملأن حياته وحياة خديجة بالجمال والبراءة، وملأ حياتهن بالحب والعطف والدلال.. يساعدن أمهن في ترتيب بيتهن وتنظيفه، ويلعبن خارجه مع صديقاتهن بين بيوت مكة الصغيرة، فإذا ما رأينه تسابقن إليه، أيهن تحظى بالعناق الأول والقبلة الأولى.. أيهن تأخذ منه ما يحمله من مشتريات، يالسعادة خديجة بهذا الزوج الجميل الرائع، ويا لسعادتها وهي ترزق بهن بعد سن الأربعين، أما زوجها فقد أحبه كل من عرفه، ولم يقتصر هذا الحب على احتلال القلوب، لقد انداح في كل اتجاه حتى لقد أحبته الأشجار والأحجار:

---

(١) سنده قوي، رواه ابن أبي الدنيا في الصمت ١٠٧ حدثنا أحمد بن جميل أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا المسعودي حدثنا الأعمش عن مجاهد: حدثني مولاي عبد الله بن السائب. والمسعودي هو الثقة كما في الآحاد والمثاني ٢- ٣٣ واسمه عبد الملك بن معن. التقريب ٣٦٥ والزيادات للحاكم ٢-٦٩.

(٢) سيمر معنا بعد قليل حديث فيه إشارة إلى ذلك، وستأتي أحاديث أخرى.

حتى الحجارة تحبه

حجارة صماء في مكة كانت تسلم عليه إذا مر بها، فكان يحمل ذكراها في قلبه، ويحدث بها أصحابه، فيقول: (إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث)[١]. لكن هذا السلام، والطائران اللذان شقا صدره في مرابع أمه حليمة وغيرها حيرته، فهو لا يجد لها تفسيرًا، لذا لجأ إلى حبيبته خديجة، إلى قلبها الدافىء، ليقول لها: (إني أرى ضوءًا، وأسمع صوتًا، وإني أخشى أن يكون بي جنن؟ فتقول له: لم يكن ليفعل ذلك يا ابن عبدالله)[٢]، ثم تستأذنه في الذهاب لابن عمها القس النصراني الطاعن في السن (ورقة بن نوفل) لتسأله، عله يجد جوابًا في الكتاب المقدس لما يحدث لزوجها. فيجيبها ورقة قائلًا: (إن يكن صادقاً، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي، فسأعزره وأنصره وأؤمن به)[٣]. كان هذا القس يتوجس.. ينتظر، فالوضع على الأرض أكثر من سيء، وبحاجة إلى منقذ يزيح هذه الظلمة الجاثمة.

لا أصنام

كان محمد ﷺ يحس بتفاهة هذه الطقوس وتخلفها.. كان يحتقر أصنامهم، ويرفض كل ما يمت لها بصلة. ها هو مع ابنه زيد أمام أحد الأصنام، فيدفع الفضول زيدًا فيقول: (كان صنم من نحاس يقال له إساف أو نائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ، وطفت معه، فلما مررت مسحت به. فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٧٨٢.

(٢) سنده حسن، رواه أحمد ١-٣١٢ من طريقين عن حماد: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس. وأخبرنا عمار بن أبي عمار.. مرسلًا. والمسند أصح، لأن الراوي عن حماد في المرسل هو عفان ثقة ثبت. والرواة عن حماد في المسند فهما ثقتان، وهما: مظفر بن مدرك والحسن بن موسى الأشيب.

(٣) حديث حسن هو السابق.

فمسحته. فقال رسول الله ﷺ: ألم تُنَّه؟ فوالذي أكرمه وأنـزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[١].

حتى في الحج، وفي يوم الوقوف بعرفة بالتحديد.. يخالف قومه الذين تطرفوا، فأرادوا منح أنفسهم امتيازًا على بقية الناس، وذلك بوقوفهم بمكان يقال له مزدلفة، ويسمون أنفسهم الحمس. أما هو فكان يخالفهم، كان يقف بعرفة. شاهده شاب يدعى جبير بن مطعم فقال: (أضللت بعيرًا لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفًا مع الناس بعرفة. فقلت: هذا من الحمس، فما شأنه هاهنا)[٢]. غربة مريرة لم يعشها محمد وحده. عاشها أفذاذ آخرون:

غرباء

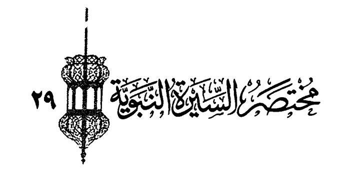
زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل بعض هؤلاء الغرباء. أصحاب عقول متحررة، لم يستسيغوا تلك الحجارة الصماء البكماء الموضوعة فوق الكعبة، ولا ما ينسج حولها من أساطير وخرافات، فأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد (خرج إلى الشام يسأل عن الدين، فلقي علماء أشاروا عليه بدين إبراهيم (التوحيد)، فعاد إلى مكة غريبًا كيوم غادره.. يتأمل مكة ويتأمل قومه.. أحقًّا كانت هذه الأرض أرض التوحيد؟!! ما بالهم يشركون؟!!.. تشاهده طفلة صغيرة اسمها أسماء بنت أبي بكر.. تراه (مسندًا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم)[٣]. ثم يؤدي حركة غريبة كغربته.. حركة تتوهج

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي من طرق عن الحسن بن علي بن عفان، وهو ثقة. التهذيب ٢-٣٠٢ حدثنا حماد بن أسامة وهو ثقة ثبت، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث. التهذيب ٩-٣٧٥ عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. وهما تابعيان ثقتان من رجال التقريب، عن أسامة بن زيد عن أبيه.

(٢) متفق عليه.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ٩٦، حدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أمه أسماء بنت أبي بكر. ابن إسحاق لم يدلس وشيخه ثقة معروف، ووالده أوثق منه.



شوقًا إلى الله، شوقًا يعبر عما في قلبه من حرقة، يرفع كفه ثم يسجد على راحته، وكان يصلي إلى الكعبة، ويقول: (إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم)[1].

كان هذا الغريب إنسانًا عظيمًا.. يرى الرجل يحمل ابنته الصغيرة على ذراعيه.. خارجًا بها من بيتها وأمها تبكي. يأخذها خارج مكة لا ليعينها بتسليتها وإلهائها، بل ليضعها على الأرض وهي تهتز براءة وتنظر إليه. ثم يحفر في الأرض حفرة ثم يمد يديه نحوها وهي تهتز، ثم يضعها في قعر الحفرة، ثم يهيل عليها التراب. يملأ عينيها وفمها، فتختفي نظراتها، وتختفي ضحكاتها، ثم يعود لبيته وقد تحول قلبه إلى حجر. كان زيد بن عمرو يعترض طريق أولئك القساة المتخلفين، ويتوسل إليهم ألا يفعلوا، فإذا أصر الواحد منهم على جريمته قال له: (لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها. فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها)[2]، فقد علمه التوحيد أن الله أرحم من عباده، وأنه لم يخلقها لتدفن.

ذات يوم كان في الشام فلفت انتباه راهب فقال له الراهب: (أراك تريد دين إبراهيم، كان حنيفًا، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحق ببلدك، فإن نبيًا يبعث من قومك في بلدك، يأتي بدين إبراهيم بالحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله)[3]. عاد زيد لكن المنية وافته قبل أن تقر عينه برؤية النبي المنتظر، لكنه سيبعث عندما تبعث الأمم (أمة وحده يوم القيامة)[4].

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩١ .

(٣) حديث حسن، رواه ابن سعد ١-١٦٢، أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال زيد.. علي قال عنه ابن معين: ثقة، ثقة، ثقة، وإسماعيل صدوق يخطيء. التقريب ١٠٩ أي حسن الحديث، وفي والده ضعف، ويشهد له حديث البخاري السابق، والطيالسي ٢-١٦١ وفيه جهالة نفيل.

(٤) سنده قوي، رواه الطبراني ٥-٨٦ من طريق أحمد حدثني حماد بن أسامة وأبو يعلى ١٣-١٣٧ من طريق آخر كلاهما عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة و يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة، وهو سند حسن رجاله ثقات، إلا ابن علقمة فهو صدوق له أوهام. التقريب ٤٩٩ أي حسن الحديث.

أمور لا تحدث إلا لنبي

تتصاعد الأحداث حول محمد ﷺ، وتنحت في نفسه الوجوم والاستفهام: أصوات وأضواء وأسرار، وماذا بعد؟ الناس لن تصدق، والصمت مرير، وليس سوى خديجة من منصت. ربما لدى بعض الناس من تفسير، لكن من هذا البعض؟ ربما أخطأت السؤال طريقه، فتكون النتيجة كلمات لا تطاق: محمد مجنون.

أصبح يفضل العزلة والتعبد كل عام شهرًا في غار على قمة جبل يقال له حراء، (وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها)[١]. وكان ينزل أحيانًا ليقوم بأعمال جميلة ورائعة، فـ (يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)[٢]. رأى شيئًا مهولًا.

أعظم ليالي الدنيا

في ليلة من ليالي الغار.. ليلة من ليالي العشر الأواخر من رمضان، انتثرت النجوم، وخيم السكون في الكون.. شعر محمد بحركة في مدخل الغار، حدق فإذا النجوم قد اختفت، وإذ بطيف مخيف يحجب السماء.. يسد فتحة الغار، ويقبل بهدوء مخيف نحوه. نهض محمد نحو هذا الغريب الضخم الذي لا يعرف: ما هو، ولا من هو؟ فإذ به يقف أمامه وجهًا لوجه، ثم يفتح يديه ويلفهما حول محمد، ويضمه ضمة قوية كادت تخرج روحه من شدتها، ويأمره بأمر غريب، قائلًا: اقرأ.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٤.

(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه في نهاية النص الذي بعده، وهو جزء منه.

فيصـف ﷺ مشـاعره والغريب يطلقه، فيقول: (قلت: ما أنـا بقارئ. فأخذني حتى بلـغ مني الجهد، ثم أرسـلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنـا بقارئ. فأخذني فغطني ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

ثم أفلته واستدار وخرج من باب الغار، فارتجف قلب محمد لكنه لم ينهر. بل لحق بالغريب يريد أن يعرف أين ذهب، تلفت وتلفت فلم يره. اختفى فزاد خوفه ﷺ، فانحدر من الغار خائفًا يرجف فؤاده، ولما لامس الأرض أطلق قدميه حتى دخل مكة وسعى في طرقاتها المظلمة، يركض نحو بيته، فدخل على خديجة بنت خويلد، وما إن دخل حتى هتف بها وببناته: (زملوني.. زملوني. فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «ياخديجة ما لي» لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[1].

هدأت ضربات قلبه، وذهب عنه الخوف، وغفا على كلماتها الحانية، وفي الصباح (انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبر رسول الله ﷺ خبر ما رأى) قص عليه النبي ﷺ ما حدث له في العار، فاهتز قلب الشيخ ودهش وبشره، فقال: (هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا، إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

(٢) رواه البخاري. بدء الوحي (٣) والزيادة عند أحمد ٦- ٢٣٢ من الطريق نفسه.

إذًا فهي النبوة، وتلك الكلمات هي كلمات الله الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.. يهمي مطرًا ينعش وجه الأرض الشاحب بالشرك والخرافة، والجهل. نزل القرآن فنهض محمد ﷺ برسالة ربه، وأسلمت خديجة فكانت أول من أسلم على الإطلاق، وفرح ورقة وأسلم وبشر رسول الله ﷺ، فكان أول من أسلم من الرجال، لكنه لم يعش إلا فترة قصيرة (ثم لم ينشب ورقة أن توفي)[١] بعد أن زفر بتلك الأمنية.. مات ورقة بعد أن حباه الله برؤية النبي الذي طالما ذرع الأرض بحثًا عنه، لكن جبريل لم يظهر ثانية، والنبي ﷺ أصبح في حيرة وحزن، فهو لا يدري ما المطلوب منه.

توقف الوحي

انقطع جبريل فلم ينزل بعد تلك الليلة (وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ)[٢] فصار بعدها حائرًا لا يدري ما يفعل.. ماذا بعد (اقرأ).. ما رسالته وما مهمته؟ ما المطلوب منه ؟ وذات يوم وبينما كان يمشي في طرقات مكة سمع صوتًا مهيبًا؟ تلفت فلم ير شيئًا، ورفع رأسه فرأى شيئًا مخيفًا، هاله المشهد، فجثى من روعته على الأرض.

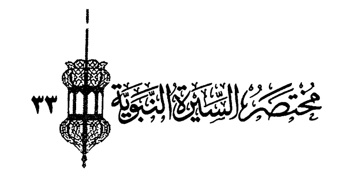
يتحدث ﷺ عن تلك المفاجأة، فيقول: (فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي، فجئثت منه فرقًا، حتى صرت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني.. زملوني.. فزملوني. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٣]

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٩٤.

(٣) سورة المدثر. والحديث صحيح متفق عليه.



نـزل القـرآن .. جعله يفيـق: قم يا محمـد، وأزح عنك هذه الأغطيـة، فما كان بالأمس حلمًا جميلاً.. أصبح اليوم حملًا ثقيلاً، قم يا محمد، فالأرض مليئة بالقلوب المعتمة، والبطون الخاوية، والأصنام والشرك واستبداد الطواغيت. نهض ﷺ يحمل سـطرين من القرآن.. سـطرين طالما بحثت عنهما أفكار البشر، وبدأ بتنفيذ الأمر سـرًا في البداية، فالأمر جد خطير، لأن للأصنام جيوشًا من الغضب مستعدة لنحر من يقترب منها. أسـلمت خديجة، وأسـلم ورقة، وأسـلمت بناته وأسـلم ابنه زيد، فكتموا إسلامهم، ولما أمر ﷺ ببدء الدعوة والإنذار استمر يدعو داخل سراديب من الكتمان والتستر.

من أول من أسلم..؟

من أول من أسلم بعد خديجة وأسرة محمد: أبو بكر الصديق، أم علي، أم غيرهما رضي الله عنهم جميعًا؟ لماذا لم تحسم هذه الإشكالية؟ دعونا أولًا نتوجه إلى إسلام كل فرد منهم:

أبو بكر الصديق.. اسمه: عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة.. صديق الطفولة والشباب.. ذهب إليه رسول الله ﷺ وحدثه أن الوحي قد جاءه في غار حراء، وأن دين الله يأمر بالتوحيد والعلم والنظافة والجمال وترك الأصنام، فما زاد أبو بكر على كلمة واحدة: صدقت، ولذا يخاطب أصحابه، فقال: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي، فهل أنتم تاركو لي صاحبي)[1]. ولما أحرج أبو بكر زفر بهذه الكلمات: (ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست صاحب كذا)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٩.

(٢) سنده صحيح، رواه الترمذي ٥-٦١١ وابن حبان ٥-٢٧٩ من طرق عن شعبة عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، قال أبو بكر: أبو نضرة المنذر بن مالك تابعي ثقة. التقريب٥٤٦ والجريري ثقة اختلط. التهذيب ٤-٧، وشعبة سمع منه قديماً، فصح السند.

علي بن أبي طالب.. ابن عم رسول الله ﷺ، هو الآن في السابعة من عمره، وهناك من يقول: (إنه أول من أسلم)[١]. وهناك من قال: (أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه، أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب)[٢]. هو ليس منقطعًا عن رسول الله ﷺ، لكن أن يكون أول من أسلم فمستحيل، لأن خديجة وبناتها هن الأسبق.. هن أول من قابله بعد انحداره من الجبل خائفًا. وهناك آخرون غير أبي بكر وعلي، ظنوا أنهم أول من أسلم.

الشاب سعد بن أبي وقاص يقول: (ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام)[٣]، بل حتى ذلك الغريب القادم من دياره ويدعى عمرو بن عبسة، يقول: (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)[٤]، وعمرو هذا شهد لبلال حين سأل النبي ﷺ قائلا: (من تبعك على هذا؟ قال ﷺ: حر وعبد. يعني أبا بكر وبلال)[٥]. الأمر نفسه يقوله أخو عمرو لأمه، والذي يدعى أبو ذر الغفاري، فيقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت النبي ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ)[٦].

هذه الكلمات كلها صادقة، لكن لماذا يلوح التناقض في ألفاظها؟

---

(١) لكونه تربى في بيت رسول الله ﷺ. لكنه ليس هناك حديث صحيح يدل على أنه تربى في بيته، فالذي ورد غير صحيح، بل من قول ابن إسحاق ومجاهد. البيهقي ٢/١٦٠.

(٢) سنده صحيح، خصائص النسائي٢ عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة، سمعت زيد بن أرقم. عمرو ثقة. التقريب ٤٢٧ وشيخه طلحة بن يزيد ثقة، التهذيب ٥-٢٩.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٦٤.

(٤) حديث حسن، رواه الطيالسي ١٥٧ حدثنا الربيع بن صبيح قال حدثنا قيس بن سعد عن رجل من فقهاء أهل الشام، عن عمرو بن عبسة. وفيه الربيع صدوق سيء الحفظ بالإضافة إلى جهل التابعي، لكن له شواهد كثيرة عند أحمد ٤-١١١ وغيره.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم ١-٥٦٩.

(٦) حديث حسن، رواه الحاكم ٣-٣٤١: حدثنا الحسين بن محمد بن زياد. ثقة حافظ ١٦٨ حدثنا عبد الله بن الرومي صدوق ٣٢٢، حدثنا النضر بن محمد الجرشي ثقة. التهذيب ١٠-٤٤٤ حدثنا عكرمة بن عمار وهو حسن الحديث عن أبي زميل سماك بن الوليد الحنفي ليس به بأس ٢٥٦ عن مالك بن مرثد تابعي ثقة، وللحديث شاهد عند البخاري.

للدعوة أسرارها

ماذا يُتَوقع من جيوش الأصنام: أصنام العادات والتقاليد، والثارات، وأصنام الحجارة.. أكثر من ثلاثمئة وستين صنمًا مختلفة الأحجام منصوبة على الكعبة.. تسال لها الدماء، ويحلف بها، وتستشار ويصلى لها، ماذا يتوقع من وثنيين لم يعرفوا كتابًا أو يبنوا مدرسة؟ إن من أشعلوا أربعين عامًا من الحروب من أجل بعير أو حصان، لعلى استعداد لارتكاب أشرس من ذلك، من أجل أصنامهم، فهل يظن أحد أن يقدم محمد ﷺ قائمةً بأسماء السابقين إلى دعوته، ويأمرهم بالمجاهرة بها أمام قريش.. هكذا وبكل سذاجة؟!

إن هذا النبي ﷺ جاء ليحيي الشعوب، لا ليقامر بحياتها، لكن لماذا يخاف من إظهار دعوته، ويأمر أتباعه بهذا الكتمان والتستر، مع أن الله قد أنطق له الأحجار، وشق صدره دون أن يمس بأدنى أذى؟ أليس الله بقادر أن يحميه وينجيه وينصره وأصحابه؟

الإسلام نزل للبشر، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، ولم يطالبهم بالمستحيلات، ولم يدعهم إلى مثاليات ليست بمقاييسهم. لا يقول لهم: كونوا ملائكة. ولا يقول: أنتم شياطين. بل يقول: كونوا بشرًا، ولكن صالحين، والصالحون بشر يعثرون وينهضون، والإسلام يرفع الإنسان من وهدة الحياة وحفرها، فبتوفيق الله ثم بجهد رسول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين من بعدهم يستمر الإسلام.. ينتصر. ذلك هو ما أراده الله، وبضعفهم وتخاذلهم ينحسر، ويقبع في زاوية من الأرض منتظرًا. لذا لا بد للرسول ﷺ من تطبيق منهج ربه.. لا بد أن يحتاط ويتكتم.. يدعو سرًا.. يطرق البيوت ليلًا.. يحمل النور إلى حجراتها، وهكذا فعل ﷺ. كان يحدث أبا بكر ثم يشير بالكتمان، وإن دعا، ويحدث عليًّا ثم يشير بالكتمان، وإن دعا، وكذلك يفعل مع سعد.. مع عمار.. مع بلال.. مع صهيب.. مع عمرو بن عبسة

مع غيرهم.. مع غيرهم. وما كان ﷺ يتصرف هذا التصرف من عنده، لولا أنها أوامر الله..! إنه لا ينطق عن الهوى، فهل سيتصرف دون أمر الله..! إنها سنته ﷺ في عمل الأسباب وجعل نتائجها على الله.

الجهر بالدعوة

بعد مدة من الزمن من الصعب تحديدها[١] نزل الوحي يأمر النبي ﷺ بالجهر بدعوته، لكنه لم يجهر بأسماء أصحابه خوفًا عليهم، ولا كيف اتبعوه. لقد ظل ذلك مدفونًا عن الأعين، فهؤلاء الأتباع قلة ضعاف، ولو امتدت يد قريش إليهم لمزقتهم تعذيبًا. نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٢]. فقصد ﷺ جبلًا صغيرًا قرب الكعبة اسمه الصفا، فـ(صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه) فتحت الأبواب والنوافذ وترددت الأسئلة: (من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد)[٣].

أقبلت مئات الخطوات نحو الجبل، وشكلت دائرة من الأعين المفتوحة والآذان المصغية. فنداء يا صباحاه لا يقال إلا عند الحروب، أو حدوث أمر مفزع وخطير، ولما اكتمل الحشد (انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجرًا. ثم نادى: يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فهتف: يا صباحاه)[٤]، ثم بدأ يحدد من يخاطبهم، ويقول: (يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

---

(١) لأن الروايات فيها ضعيفة. يقال: إنها ثلاث سنوات، قاله ابن إسحاق بلاغًا دون إسناد. ورواها ابن سعد ١-١٩٩ من طريق الواقدي -وهو ضعيف جدًا- عن القاسم مرسلًا. وعن عروة مرسلًا أيضًا.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم – الإيمان ١-١٩٣.

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم – ١-١٩٣.

يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها)[1] (يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا)[2].

ذهلت قريش.. الكل مأخوذ والكل ساكت، وفجأة دوت صرخة نشاز، أطلقها عم لرسول الله ﷺ اسمه عبد العزى، ويلقب بـ(أبي لهب).

أبو لهب.. أول مكذب

أحب النبي ﷺ أن يسجل موقفًا، وأن يحصل على شهادة قبل أن يتفوه برسالته، فقال: (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تبًا لك.. أما جمعتنا إلا لهذا. ثم قام)[3].

لم يسأل أبو لهب ابن أخيه عن دليله على نبوته، ولم يقدم أي استفسار عن النبوة ومعناها برغم أنه هتف مع قومه قبل قليل، فقال: (ما جربنا عليك كذبًا) ناقض أبو لهب نفسه في ثوان معدودة، وقف في أول الطريق، ليطلق ألسنة من اللهب على ابن أخيه الأمين ﷺ دون مبرر، لكن هذه الألسنة أحرقته هو.

لم يكن أبو لهب وحده.. شاركته زوجته أم جميل بنت حرب، التي داست على أنوثتها، ونافست زوجها شراسة، فاستحق هذان الزوجان عارًا لا يزول أبدًا. نزلت سورة توثق تخلف هذا الطاغوت وزوجته وتعلقهما بموروثهما البالي.

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم أيضًا -١-١٩٣ الإيمان. أي سأصلكم لأنكم أقاربي.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٧٨٧.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان ١-١٩٣.

أنزل الله آيات تقول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[١].

سادت مكة أجواء من الذهول، لكن النبي ﷺ لم يتوقف، ولم يصب بإحباط من كلمات عمه، بل قام بمحاولة أخرى تجاه أعمامه وأبنائهم.

النبي ﷺ يدعو أعمامه.

أقام ﷺ لهم وليمة بسيطة حافلة بالبشاشة والمعجزات، (جمع ﷺ أو دعا بني عبد المطلب، فيهم رهط[٢] كلهم يأكل الجذعة[٣]، ويشرب الفرق[٤]، فصنع لهم مدًا[٥] من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر[٦] فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب)، اندهش الجميع من هذا الطعام والشراب القليلين، كيف أشبعهم ورواهم. معجزة نهض بعدها محمد ﷺ وخاطب أقاربه برقة، فقال: (بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون: أخي وصاحبي؟ فلم يقم إليه أحد) عندها نهض الطفل علي بن أبي طالب فمد يده، فقال ﷺ: اجلس)[٧] ثم خاطبهم فقال: (بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم

---

(١) سورة المسد، والحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان ١-١٩٣.

(٢) رجال أقل من عشرة.

(٣) الجذعة: ولد الشاة، له سنتان.

(٤) الفرق: مكيال معروف بالمدينة يساوي (١٦) رطلًا.

(٥) المد: مكيال يساوي (١,٥) رطل أو رطلين..

(٦) الغمر: القدح الصغير.

(٧) سنده قوي، رواه أحمد (١-١٥٩) حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة، وهما ثقتان، عن عثمان بن المغيرة ثقة، عن أبي صادق تابعي ثقة، عن ربيعة بن ناجذ، ثقة أيضًا، وقد بينت في الموسوعة شذوذ بعض الألفاظ. وسبب جرح الذهبي له، وعلة الرواية التي قصدها الذهبي (٢٤).

يبايعني على أن يكون: أخي وصاحبي؟) كان يتمنى أن يقوموا كلهم، فلم يقم سوى علي، فقال ﷺ: اجلس، ثم كررها ثالثة، فلم يقم أحد، فقام علي، فمد ﷺ يده، وضرب بها على يد علي.

الله واحدٌ لا شريك له

لم تترك قريش محمدًا دون أن تطرح عليه أسئلة ملحة عن طبيعة هذا الدين.. عن هذا الإله الذي يأمر بإفراده بالعبادة.. عن هذا الإله الذي يأمر بنسيان آلهة الآباء والأجداد. فأجابهم وحيًا ترتكز عليه كل الحقائق، وتنطلق منه أنوار تنير سراديب هذا الكون وأسراره: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1].

لم يجرؤ أحد على إعلان إسلامه إلا ستة عمالقة، لم يأبهوا بردود الأفعال، ولا بما قد يلاقون من عنت، هم: (أبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[2] بدأ هؤلاء الأفذاذ يدعون لدين الله جهرة، فأسلم بإسلامهم خلق كثير، وبدأ كبار قريش يشعرون بتغير أحوال بعض نسائهم وأبنائهم وعبيدهم، فأيقنوا أن التوحيد قد انساب لبيوتهم، فشعروا بالفزع، فاتجهوا نحو رسول الله ﷺ يحملون في أيديهم ألوانًا من الأذى والعذاب عله يتراجع، ويتراجع أصحابه معه.

يؤذون رسول الله

كانت البداية امرأة. زوجة عمه أبي لهب أم جميل بنت حرب، انتفضت لما سمعت قول الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

---

(١) سورة الصمد.

(٢) سنده حسن، رواه أحمد ١-٤٠٤ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة، وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلًا. ابن كثير ١/٤٩٤ وقد مر معنا.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، أحرقتها الآيات فخرجت من بيتها كالمجنونة، تولول وتبحث في الطرقات عن حجر يملأ كفها، فالتقطته وواصلت حفر الطريق بأقدام ليست لأنثى، تسأل في الطرقات عن مكان محمد ﷺ، فقيل لها: إنه عند الكعبة، فأسرعت نحو المسجد الحرام، فرأت أبا بكر الصديق، فأقبلت عليه تشتم وتصيح: (مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنا ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر، قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني. وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت، أن صاحبك هجاني؟ فقال أبو بكر: لا، ورب هذا البيت، ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها)(١). (قال أبو بكر: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، فما يدريه ما في جيدي؟ فقال النبي ﷺ: قل لها: ترين عندي أحدًا..؟ فإنها لن تراني.. جعل بيني وبينها حجاب. فسألها أبو بكر، فقالت: أتهزأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحدًا)(٢). ثم ولت تولول وتحرض مراهقي مكة، تستخفهم، ليؤذوا رسول الله ﷺ في مشاهد أحزنت الصحابة وكدرتهم، فقرر بعضهم الخروج من كتمانه.

تعذيب الصحابة

بدأ كبار قريش بالترغيب، ومحاولات الثني والتراجع فلم يفلحوا، فتحولوا إلى طغاة بعد أن رأوا رسوخ الإيمان وعمقه في أرواح شبابهم وعبيدهم، فبدأ

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه الحميدي ١-١٥٣، حدثنا الوليد بن كثير وهو ثقة من رجال الشيخين، عن أبي الزبير، عن أسماء، وأبو الزبير ثقة، لكنه مدلس، ولم يصرح بالسماع.

(٢) حديث حسن بما قبله، رواه البيهقي ٢-١٩٦ من طرق عن الثقة علي بن مسهر، عن الثقة سعيد بن كثير بن عبيد عن أبيه عن أسماء، وحديث والده جيد في المتابعات، وهذا منها.

أسلوب الإرهاب والرعب، وبدأت الأصفاد والحبال والسياط تتكلم. نكلوا بعبيدهم. سلخوهم بالسياط تحت أشعة الشمس الحارقة، وفي عز القيظ ولهب الظهيرة، فلزم الكثير منهم الحذر وأخفى إيمانه، حتى قال أحد الصحابة: (أول من ظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد.. أحد)[1]. كان العذاب موجع.. مبكيًا لدرجة قال عنها أحد الصحابة: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله..؟ فيقول: نعم، افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)[2].

لقد سكن العذاب هذه الأجساد الطاهرة، فطاب له المقام، حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يفعل شيئًا، وكيف يفعل وهو لا يستطيع حتى حماية نفسه من هؤلاء القساة، الذين سفلوا إلى درجة جلد النساء وتعذيبهن. هاهي سمية بنت خياط وزوجها الشيخ ياسر وابنهما عمار، أسرة صغيرة ضعيفة وفقيرة، يتسلى الطاغوت أبو جهل بسلخهم وصلبهم، فيمر ﷺ بهم، فيرفع الشيخ الكبير حاجبيه المثقلين بالشيب والدماء، فيرى الحزن في وجه نبيه وقائده إلى الجنة، فتهون نفسه، ويهون العذاب، فيحب أن يواسي رسول الله ﷺ قبل أن يواسيه، فيقول: (يا رسول الله

---

(١) حديث حسن، مر معنا تخريجه.

(٢) سنده جيد، رواه ابن إسحاق /ابن هشام٢-١٦٢ حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير: قلت لعبد الله ابن عباس.. حكيم فيه كلام حول تشيعه، قال أبو زرعة: محله الصدق، وهذا الحديث ليس في المذهب، ثم إن ما قبله يشهد له، فهو حسن لذاته أو لغيره.

الدهر هكذا! فقال النبي ﷺ: اصبر. ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت)[١] (أبشروا آل عمار، وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة)[٢].. (اصبروا آل ياسر، موعدكم الجنة)[٣].

كأن ذلك الشيخ الصابر يريد أن يطمئن نبيه ﷺ أنه لا يخشى السياط، ولا يخشى القيود.. إنه يتزين بها للجنة، ويرجو أن يكون أول شهيد. لكن حبيبته كانت أسرع منه إلى بواباتها الفاتنة.

أول الشهداء امرأة

حدث ذلك حين أقبل الطاغوت أبو جهل نحو ضحاياه، يتطاير الشر من عينيه، وقد شد بقبضته رمحًا فيتجه نحو أم عمار، التي تثير جنونه بكلمة: لا إله إلا الله. يفقد صوابه ورجولته، فيطعنها في أسفل بطنها حتى يخرج الرمح من ظهرها، فيصرخ عمار مفجوعًا، وينتفض جسد العجوز النحيل من حر الطعنة، ثم يهدأ شيئًا فشيئًا حتى يسكن، لتحيط به دائرة من الدم الزكي، وتصعد روح أول شهيد في الإسلام (امرأة).

ويصاب قتلة النساء بنوبة طغيان أخرى، فيجهزون على الشيخ ياسر، فيتلبط الشيخ أمام عيني ابنه عمار، الذي يئن من جديد، ويأتي الدور على عمار، وقبل أن تخترق الرماح جسده يضربونه (ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه أحمد ١-٦٢ ثنا عبد الصمد ثنا القاسم بن الفضيل عن عمرو بن مرة عن سالم ابن أبي الجعد عن عثمان. وفيه انقطاع بين سالم وعثمان.

(٢) رواه الحاكم ٣-٤٣٨ والبيهقي ١-٢٨٢ والطبراني في الأوسط ٢-١٤١ من طرق عن الثقة هشام الدستوائي، عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس، فيشهد له ما سبقه.

(٣) حسن بما قبله، رواه الطبراني في الكبير ٢٤ - ٣٠٣ حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ثنا أسد بن خالد عن سليمان بن قرم عن الأعمش عن ابن أبي الزناد عن عبد الله بن الحارث عن عثمان بن عفان، وأسد ضعيف.

جالسًا من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله..؟ فيقول: نعم، افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)[١]. لم يكتف طواغيت قريش بالتعذيب. لقد سفلت أخلاقهم حتى قام أحدهم بالسطو على مال الضعفاء الموحدين.

ينهبون أموال الفقراء

خباب بن الأرت.. عبد من عبيد قريش، ويبدو أنه عمل لأحد سادات قريش، وهو العاص بن وائل والد (عمرو) مقابل مبلغ من المال، فعلم العاص بإسلامه، وذات يوم أقبل خباب نحو بيت العاص لاسترداد ماله، فخرج العاص فرأى خبابًا واستمع لطلبه، ولما انتهى قال له: (والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد). فهان مال خباب مقارنة بإسلامه، وقال: (والله لا أكفر به أبدًا حتى تموت ثم تبعث. فقال العاص: فإني إن بعثت، كان لي مال ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[٢]. لم يكتف الطواغيت بسرقة مال خباب. لقد أصبح (ممن يعذب في الله)[٣]، واشتهر بصموده حتى (لم يكن أحد إلا أعطى ما سألوه يوم عذبهم المشركون، إلا خبابًا، كانوا يضجعونه على الرضف[٤]، فلم يستغبوا منه شيئًا)[٥]. أي لم يحصلوا على شيء منه.

---

(١) سنده جيد، رواه ابن إسحاق /ابن هشام٢-١٦٢ حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير: قلت لعبد الله ابن عباس.. حكيم فيه كلام حول تشيعه، قال أبو زرعة: محله الصدق.

(٢) متفق عليه.

(٣) سنده صحيح، رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٣: حدثنا سعد بن محمد الصيرفي وثَّقهُ تلميذه أبو نعيم، تذكرة الحفاظ ٢-٦٦١، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعث وهو ثقة، حدثنا سفيان ابن عيينة عن مسعر بن كدام وهو أحد الأعلام الثقات. التهذيب ٨-٤٠٣ عن قيس بن مسلم وهو ثقة. عن طارق بن شهاب، وله رؤية.

(٤) الحجارة المحماة.

(٥) سنده صحيح، رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٤ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس بن حبيب، وهما ثقتان، حدثنا أبو داود حدثنا شعبة، وهما إمامان معروفان، حدثنا أبو إسحاق وهو تابعي ثقة، سمع من شيخه التابعي حارثة بن مضرب، قال: قال خباب...

كانـوا يربطون يديه ورجليه ويكشـفون ظهره، ثم يسـحبونه من بعيد ليمرروا ظهره على الحصا والتراب، ثم على كتل الجمر، فيتطاير الشرار، ويتطاير صراخ خبـاب، وهو يتلـوى من الجمر الملتصـق بظهره، لكـن الجمر لم ينطفـىء، فيثور صـراخ المجرمين لتكرار المحاولة، فيكررونها ليتحول ظهر المسـكين إلى شواء، ولا تتوقف عملية السحل حتى ينطفىء الجمر. إنه لم يسرق بيوتهم ولا ماشيتهم.. إنه لم يشتم حتى آلهتهم.. كل الذي فعله هو أنه قال: لا إله إلا الله.

إنه يقول: (أوقدوا لي نارًا، فما أطفأها إلا ودك[١] ظهري)[٢] ويقول: (لم يكن لي أحـد يمنعني، فلقد رأيتني يومًـا أخذوني، وأوقدوا لي نارًا، ثم سـلقوني فيها، ثم وضـع رجل رجله على صـدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض إلا بظهري)[٣]. عندما يسير المرء في شوارع مكة، فيشم رائحة شواء في غير موعد طعام يدرك أن حفلة تعذيب تقام لخباب بن الأرت، فماذا عن رفيقه بلال بن رباح.

تعذيب بلال

المنحدر من شـلالات أفريقيا وأنهارها، سـاق القدر أمـه وأباه إلى مكة، فولد كالليـل مليئًـا بالأسـرار والحـزن والعبودية. هموم تمـلأ قلبه، وقيـود تحز رقبته وآدميته. كانت حياة آسنة عكرة لا بشائر فيها، حتى سمع برسول الله ﷺ، فوجده يحمل ما كان يبحث عنه (الحرية والعدل)، لم يجد عند قريش والعالم إلا سراب. وجـد الحقيقة عند محمد ﷺ فماذا ينتظر..؟ أنصـت له فأدرك أسـرار القوافل التي تمر بهذه الدنيا ثم ترحل، فأدرك أين تستقر. قدم النبي ﷺ له إجابات عجز

---

(١) الودك هو الشحم.

(٢) رواه أبو نعيم ١-٤٤ عن الشعبي قال: سأل عمر بلالًا. وظاهره الإرسال. لكن يشهد له ما سبق.

(٣) حسن، رواه ابن سعد (١٦٥/٣) أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا حبان بن علي عن مجالد عن الشعبي، قال: وهذا الإسناد ظاهره الإرسال، لكن لـه شواهد كثيرة تقويه.

الفلاسفة والحكماء، عن الوصول إليها.. أدرك أن هذه الدنيا ليست سوى أيام وساعات تتبخر.

علم الطواغيت باختيار بلال، فعذبوه تحت الشمس، وكووه بالسياط، ولكي يجعلوا منه عبرة يقومون بربط عنقه بطرف حبل، ثم يلقون بالطرف الآخر للمراهقين الأشرار.. منهم من يجره، ومنهم من يمشي بجانبه يشتمه، ومنهم من يكون خلفه يركله ويدفعه، وهو يترنح.. ينزف، فإذا ما تعثر وتدحرج على الأرض علت أصواتهم وهم يسحبونه يركلونه لينهض من جديد ويكملوا حفلتهم، فينهض كالطود لا يلين.. لا ينحني إلا للواحد الأحد.. أحد أحد.. كلمة تثير جنونهم، فيزداد عنفهم. (هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد.. أحد)[1].

كان أخوته المؤمنون يشاهدونه.. تفيض أعينهم وهم لا يستطيعون صنع شيء يخفف عنه، فرق أبو بكر لحال أخيه بلال، فسأل مالكه أمية بن خلف عن ثمنه، فطلب المجرم خمس أواقي من الذهب، فلم يفاصلهم أبو بكر، بل أحضرها ووضعها في يده، ثم توجه في ساعة الظهيرة نحو ساحة التعذيب نحو أخيه بلال ليحرره، فوجده مدفونًا بالحجارة، فأزاحها عنه ومد يده نحوه وانتشله من جحيم الوثنيين، فاستغرب الجلادون عدم مفاصلة أبي بكر، وقالوا له: (لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال: لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذته)[2]، ولذا قال أحد الصحابة: (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالا)[3]

---

(١) مر معنا، وإنه حديث حسن.

(٢) سنده قوي، كما قال الإمام الذهبي، ورواه ابن أبي شيبة ٧ - ٣٣٧ حدثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس. سفيان ثقة معروف، وأستاذه إسماعيل بن أبي خالد ثقة ثبت. التهذيب ١-٦٨ وقد أكثر الرواية عن شيخه المخضرم: قيس بن أبي حازم البجلي، وهذا الأخير رحمه الله أدرك الإسلام والجاهلية، ورأى النبي ﷺ وهو ثقة مقبول. التقريب ٤٦٥.

(٣) صحيح البخاري ٣ -١٣٧١.

تحرر بلال وأصبح ملازمًا لنبيه، فتحدث ﷺ عن بطولات بلال، وقال: (لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من يوم وليلة، وما لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)(١)، لكن رغم كل هذه المعاناة كان الإسلام يكسب كل يوم شبابًا وفتيات، لأن النبي ﷺ كان يمتلك شيئًا مقنعًا.

سلاح النبي ﷺ في مواجهة التطرف

كان ﷺ يمتلك سلاحًا فعالًا، لا تمتلكه قريش، هو سلاح الكلمة. الكلمة والإقناع فقط، بها كسب العقول والقلوب، بل لم يعدهم بشيء غير الجنة والنجاة من النار، كان يقابل القسوة بالابتسامة، والتجهم بالبشاشة، والقطيعة بالصلة، كان لا يترك منتدى ولا سوقًا للكلمة أو التجارة إلا أشرق عليه مبشرًا، وكان من أبرز أعدائه شاب تجاوز الخامسة والعشرين يدعى عمر بن الخطاب، الذي سمع يومًا بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فقد أنصت سعيد لوالده زيد الموحد، ولما بعث النبي ﷺ سارع للإسلام، لكن خبر إسلامه وزوجته تسرب إلى عمر بن الخطاب، فتغير وجهه من الغضب، وتوجه لبيتهما، فأخضعهما لجلسة تحقيق، اعترفا فيها بإسلامهما، ورفضا التخلي عنه، فأحضر عمر الأغلال وقيد أخته وزوجها وعذبهما، حتى قال سعيد بن زيد: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام)(٢).

استمر الطغاة في التنكيل بالموحدين دون رحمة، حتى ضاق الدعاة، فجاء خباب يشكو لنبيه ما آلت إليه الأمور، فقال: (يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا)؟

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طرق عن حماد، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، ورجال هذا الإسناد أئمة كبار، وحماد بن سلمة أوثق الناس في شيخه ثابت.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٤٠٢.

أنصت ﷺ للسؤال ثم (قعد ﷺ محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه)(١).

أدرك الدعاة أنها سبيل الأنبياء، الذين أرسلهم الله بالتوحيد، وأرسلهم بالبينات والكتب والميزان، ليحكموا الناس بالعدل، ويحررونهم من الظلم، فلا يأس في حياة المسلم مهما كان الطريق معتمًا. فالنهار ينبلج بعد أن تشتد الظلمة. رفع ﷺ دعاءً فقال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل ابن هشام، أو عمر بن الخطاب)(٢)، كان هناك فارق بين الرجلين، فابن الخطاب شاب حارب الإسلام تقليدًا لكبار قومه، أما أبو جهل فحاربه حسدًا وعصبية لأسرته، كان الرجلان يتنافسان في إيذاء المؤمنين، فأبو جهل يهدد: (لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه)(٣). ويتمادى فيحلف بأخشابه وحجارته التي يعبدها، فيقول: (واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك، لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب)(٤).

ضاقت مكة.. ضاق الحرم الذي يأمن فيه حتى القتلة، فبين ﷺ أن الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن، ولا يرتبط بشخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.. إنه من السعة بحيث تستطيع أن تضع هذا الكون كله في زاوية من زواياه،

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٣٩٨.

(٢) إسناده حسن، رواه البيهقي ٢-٢١٥ وابن سعد ٣-٢٦٧ وغيرهم من طرق عن أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة. التقريب ٣٦٤ أخبرنا خارجة بن عبد الله بن ثابت، وهو حسن الحديث (التهذيب ٣/٧٦) عن نافع عن ابن عمر قال. قال: رسول الله ﷺ.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٤ - ١٨٩٦.

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم ٤- ٢١٥٤.



ومكة جزء من هذا الكون، فلا حرج على هؤلاء الضعفاء من المغادرة والهجرة من أكرم بقاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها. لكن إلى أين؟

إلى الحبشة

قال ﷺ لأحبته المؤمنين والمؤمنات: (إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلَم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه) أرشد من لا يستطيع التحمل أن يغادر خير بقاع الأرض إلى بلاد يحكمها رجل نصراني يعلق الصليب على صدره، لكن فيه صفة لم تتوفر بين الأهل والأقارب في مكة (العدل)، العدل الذي يقول عنه سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]. (فخرجنا أرسالًا حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلمًا)[2].

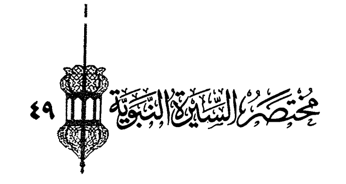
أرض بلال تجود، وشلالاتها تغسل دموع المؤمنين وأحزانهم، لكن لماذا الحبشة؟ هل لأنها أرض النصارى، والنصارى أهل دين سماوي..؟ ربما.. ربما كان في هذا بعض الإجابة، لكن الإجابة المؤكدة هي في قول رسول الله ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده) إذًا فهو العدل، فمن دونه تتحول البلاد إلى غابة يرتع فيها المجرمون واللصوص والمتنفذون، وتضيع فيها الحقوق.. حتى لو كان الحاكم وشعبه من أكثر الناس صلاة وصيامًا وعبادة. هاهو القرآن يقول للدنيا.. للعالم.. إن العدل أحد مهمات الأنبياء. يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3].

---

(١) سورة الحديد ٢٥.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٩٤: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث، عن أم سلمة. ابن إسحاق سمع من الزهري، وشيخه تابعي ثقة. التقريب ٦٢٣.

(٣) سورة الحديد ٢٥.



ابتهج أبو جهل وغيره من الطواغيت، وهم يرون هؤلاء المساكين يحملون أطفالهم ويودعون مكة الحبيبة، وتحترق أكبادهم وهم يغادرون بيوتهم ووطنهم ومراتع صباهم، فرح الطغاة والمتسلطون إلا واحدًا كان يرقب المشهد بعمق.. يقف ملجمًا بالحزن.. مثقلًا بالندم.. ينظر إلى ضحاياه، ويتأمل مطاياهم وهي تتمايل مغادرة مكة نحو البحر، خفق قلب عمر وهو يشاهد المؤمنة ليلى بنت أبي خيثمة زوجة أخيه بالتبني عامر بن ربيعة على بعيرها وطفلها الصغير في حضنها بانتظار زوجها.. تهادى عمر ثقيلًا نحوها. وكأنها لا تطيق النظر إليه، فتتشاغل عنه بطفلها وبعيرها. اقترب فقال لها: (أين يا أم عبد الله؟) فقالت له: (آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله، حيث لا نؤذى في عبادة الله، «والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا») تقول الشابة أم عبدالله: («ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه خروجنا». ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر بن الخطاب فقال: ترجين يسلم؟ فقلت: نعم. قال: فوالله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب -وهذا من شدته على المسلمين-)[1][2].

غادر من غادر من الرجال والنساء، ومن بينهم رقية ابنة النبي ﷺ وزوجها عثمان بن عفان، وبقي من بقي، وعلى رأسهم النبي ﷺ يواجهون صلف طواغيت قريش وشراستهم وسحلهم وتشريدهم، برغم أن النبي ﷺ لم يواجههم سوى بالكلمة. ذات يوم حاصرت النبي ﷺ وصاحبه الصديق مجموعة من الوثنيين فتمكنوا من أذيتهما، وبعد مطاردة التفافات وركض أصبحا في مرعى خارج مكة يقتلهما العطش والرمضاء.

---

(١) الألفاظ ما بين المعقوفين من رواية أخرى.

(٢) هو خبر وليس بحديث، رواه ابن إسحاق ١٨١، حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلى. وفيه ضعف يسير من أجل التابعي عبد العزيز، فقد وثقه ابن حبان فقط ٧-١١٥ وسكت عنه ابن أبي حاتم ٥-٣٨٥، لكنني أوردتها لأنه تابعي كبير، ولأنه يروي هذه القصة عن أمه – جدته، ولأنه ليس بحديث.

شاهدا قطيعًا من الأغنام، فتوجها نحو الراعي، كان فتى قصير القامة، نحيل الجسد جدًّا، دقيق الساقين لدرجة لافتة، فتى كله أمانة يدعى عبدالله بن مسعود الهذلي. اقتربا منه عله يسقيهما، فقالا: (يا غلام عندك لبن تسقينا؟ فأجاب: إني مؤتمن، ولست بساقيكما)[1]، لم تُغْرِهما كثرة الغنم وضعف الراعي باغتصاب شربة لبن، ولم يأبه لهما الراعي، فالقطيع لمجرم تهابه قريش يدعى: عقبة بن أبي معيط، لكن شيئًا حدث جعل الراعي يذهل عن نفسه وغنمه، وعن عقبة ومرتبه. طلب ﷺ من الفتى جذعة ليس في ضرعها لبن، فتحرك الفتى والاستغراب يسأله: وماذا عسى هذا الرجل يجد في شاة لا لبن فيها. تسلل بين غنماته وأحضر ما طلب منه متعجبًا! لكن ما إن وضعها بين يدي نبي الله حتى اتسعت عيناه وهاله ما يرى: أمسك أبو بكر رضي الله عنه بالجذعة، وأمسك ﷺ الضرع فدعا. فعلم أبو بكر بما سيحدث، فنهض وبحث حوله حتى وجد صخرة منقعرة فنظفها، ووضعها تحت الضرع فحلب ﷺ فيها والفتى مشدوه من هول ما يرى. ثم شرب الثلاثة لبنًا لا يحلبه سوى الأنبياء، ثم (قال ﷺ للضرع اقلص. فقلص)[2] وعاد كما كان ناشفًا. ثم غادرا المكان، وأخذا معهما قلب الفتى وعقله. تأمل المرعى بعدهما فرآه أضيق من الآفاق التي فتحاها له.. آفاق لا تعرفها ثقافة الأصنام، فغادره وأطلق ساقيه النحيلتين بحثًا عن النبي ﷺ حتى وجده فأعلن إسلامه، ثم رجاه، قائلًا: (علمني من هذا القول الطيب القرآن. فقال ﷺ: إنك غلام معلم) أذكت كلمات التشجيع عقل الفتى وذاكرته، حتى قال: (فأخذت من فيه ﷺ سبعين سورة، ما ينازعني فيها أحد)[3].

---

(١) سنده حسن، رواه البيهقي ٢-١٧١ وأحمد ١-٤٦٢ وغيرهما من طرق عن حماد بن سلمة وهو ثقة، عن عاصم ابن أبي النجود، وهو حسن الحديث. التهذيب ٥-٣٨ عن الثقة المخضرم زر بن حبيش.

(٢) سنده حسن، رواه البيهقي ٢-١٧١ وأحمد ١-٤٦٢ وغيرهما، وهو جزء من الحديث التالي.

(٣) سنده حسن، رواه البيهقي ٢-١٧١ وأحمد ١-٤٦٢ وغيرهما من طرق عن حماد بن سلمة وهو ثقة، عن عاصم ابن أبي النجود، وهو حسن الحديث. التهذيب ٥-٣٨ عن الثقة المخضرم زر بن حبيش.

وكما يفجر الإسلام طاقات رعاة الغنم ويرتقي بها، فإنه يأخذ بعقول العظماء متى ما تحرروا من ثقل العادات وأكداس التقاليد والموروث. فجأة صعقت قريش بإسلام أحد أبرز شجعانها.

إسلام حمزة والمفاوضات بعده

هز إسلامه مكة من أقصاها إلى أقصاها، أصبح الأمر خطيرًا والأقوياء الذين كانوا يخشون زوال سمعتهم وما تجنيه لهم تلك القوة من أضواء، بدأوا يدركون ضعفهم أمام قوة حجج الإسلام، أمام قوة القوي الذي لا يقهر سبحانه.

لم يصدق أحد سادات مكة وشيوخها ويدعى عتبة بن ربيعة.. لم يصدق فقدان حمزة، وفي أحد الأيام كان النبي ﷺ وحده جالسًا عند الكعبة، وعلى مسافة منه مجموعة من شيوخ قريش وكبارها، فنظر إليهم عتبة ونظر إلى محمد، وقال: (يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه). نهض عتبة من مجلسه وتهادى بوقار نحو النبي ﷺ، ثم جلس عنده وخاطبه بأدب، وقال: (يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟ فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه

لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه؟) سكت عتبة والنبي ﷺ ينصت، فقال: (لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال عتبة: افعل. فقال رسول الله ﷺ:

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾[١].

بدأت الآيات تسافر بعتبة، فجعل راحتيه على الأرض خلف ظهره، وأمال ظهره للوراء معتمدًا عليهما، مشدوهًا بما يسمع، (ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك) تغير وجه عتبة وهدأت ثائرته، ولم يجب، بل نهض ثقيلًا وعاد واجمًا نحو مجلس أصحابه، فحدق به بعضهم، وقال: (نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم)[٢].

---

(١) سورة فصلت: الآيات ١-٣٨ والآيات التي ذكرت هي التي جاء في الحديث أنه قرأها.

(٢) حديث حسن، رواه ابن إسحاق/ ابن هشام ١-٢٦٢ بسند صحيح لولا خشية الإرسال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي: حدثت أن عتبة بن ربيعة.. يزيد ثقة. التهذيب ١١-٣٢٨ وابن كعب تابعي ثقة، وروايته عن الصحابة، وروى عن تابعي أو اثنين، وله شاهدان عند: عبد بن حميد ٣٣٧ وفيه ضعف يسير من أجل الذيال بن حرملة، فلم يوثقه إلا ابن حبان. وشاهد قصير عند ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر. وفيه عنعنة ابن إسحاق.

أدرك عقل عتبة إعجاز هذا القرآن، وبهرته آياته، لكنه أضعف من أن يتخلص من ثقل العادات والتقاليد.

سكت عتبة، لكن أصحابه لم يسكتوا، أدركوا أن محمدًا مقنع، وأنهم إن لم يقوموا بعمل حاسم فسيجدون أنفسهم أقلية يومًا من الأيام، فعادوا لبطشهم واشتد أذاهم، فأوحى الله إلى نبيه بخبر زلزلهم. خبر نقله أحد الشباب الذين يخفون إيمانهم عن أهلهم: اسمه عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان جالسًا في المسجد، فرأى أفظع مشهد آلمه، وقال: (لقد رأيتهم -وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر-، فذكروا رسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط.. سفه أحلامنا[١]، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم.. فبينا هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فلما مر بهم طائفًا بالبيت، غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى ثم الثالثة، فغمزوه. فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر[٢] واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه[٣] أحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فما أنت بجهول.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينا هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل

---

(١) سخر من عقولنا.

(٢) أي أنهم قد سكتوا، وخيم السكون عليهم.

(٣) يداريه.

واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا -لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم- فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجامع ردائه، وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبكي دونه)(١).

وقد ذكر عبد الله اسم ذلك الطاغوت، فقال: (أقبل عقبة بن أبي معيط -ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة- فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبيه، فدفعه عن رسول الله ﷺ، ثم قال: أتقتلون رجلًا أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)(٢). بينات أخذت بعقل الشاب ابن الخطاب، فتخلص من موروثه الجاهلي وزلزل مكة بإسلامه.

إسلام عمر بن الخطاب

لم ينتظر الشاب عمر أن يتسرب خبر إسلامه تسرباً، أراده أن يكون صادماً مزلزلا كما كان بطشه مزلزلاً، أخذ ابنه الذي لم يبلغ العاشرة عبد الله وخرج يبحث عن رجل يحب النميمة ونشر الإشاعات، سأل من صادفه في الطريق: (أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي) فانطلق نحو بيته، ولما وصل باب معمر ناداه، فلما خرج قال مباشرة: (أعلمت يا جميل أني أسلمت، ودخلت في دين محمد ﷺ؟) لم يستفسر معمر ولم يعد لبيته، طار بالخبر الحصري كوكالة أنباء، وانطلق نحو ميادين قريش يجر رداءه، وانطلق عمر خلفه، ومن ورائهما الطفل عبد الله. صار معمر يصرخ بأعلى صوته في طرقات مكة، تردد الجبال صياحه: (يا معشر قريش، ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله).

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ٢١٢ حدثني يحيى بن عروة، عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عمرو ابن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته، وابن إسحاق لم يدلس، ويحيى تابعي ثقة. التقريب ٥٩٤.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٨١٤.

ثارت قطعان الشرك من مجالسها فزعًا وهم لا يصدقون، لكن عمر يؤكد ذلك. صاروا يصرخون بوجه عمر، ويشتمونه ويلوحون بأيديهم، ويرد عليهم حتى اشتبكوا بالأيدي فضربهم وضربوه وأسقطوه (فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح[١] فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا) كان ابن عمر خائفًا أن يفقد أباه، وهو يرى أن أحدًا لم يتدخل لمساعدته، فالتعليمات للمسلمين الجدد من قائدهم ونبيهم ﷺ هي عدم التصادم مع الوثنيين، وعدم استخدام العنف أو السلاح حتى في الدفاع عن النفس، والسلاح الوحيد المسموح به هو سلاح الكلمة، لذا فعلى عمر أن يتحمل مسؤولية تصرفه ذاك، وحتى تهديده بإخراج المشركين كان اجتهادًا وحماسًا منه لم يقله ﷺ.

وفجأة وفي أثناء العراك (أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة[٢] وقميص موشى، حتى وقف عليهم) نظر الجميع إلى الشيخ الأنيق فإذا هو والد عمرو بن العاص، الذي اغتصب مال خباب. نظر العاص لقومه وعمر ينزف على الأرض وسطهم، فقال: (ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر. فقال: فمه؟ رجل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل).

تنفس الطفل الحياة وهو يرى انقشاعهم عن أبيه، ويقول: (فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه)[٣]. وتنفس عمر طعم العدل والحرية، التي طالما حرمها أخوته، فأدرك أنها حق لكل إنسان، بينما يراها العاص الوثني حق لأناس دون أناس، هي حق لعمر، لكنها ليست حقًّا لخباب. نهض عمر، وصمتت قريش وانسحبت، فهي لا تريد أن تفقد شخصية بارزة كالعاص، وهي تدرك أن من السهولة أن يتخلى الوثني

---

(١) تعب.

(٢) ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٦٠: حدثني نافع عن ابن عمر، وهو سند كالذهب نافع تابعي معروف ثقة ثبت مشهور، وابن إسحاق صرح بالسماع منه.

عن أصنامه في حالة غضب أو حمية، لأنه يتمسك بأصنامه حمية وتقليدًا لا اقتناعًا.
بدأ الطواغيت يفقدون أعصابهم، فقريش تفقد اليوم، تفقد أقوياءها: حمزة وعمر ابن الخطاب، وها هم الضعفاء يتجرأون على الاقتراب من الكعبة، ويطوفون بها، بل ويصلون عندها، وها هو راعي الغنم الفقير عبد الله بن مسعود يقول: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[١]. كان إسلام عمر فضاءً جديدًا وفسحة، وجد فيها المستضعفون ساحة آمنة يركعون فيها ويسجدون لله قرب الكعبة، حتى قال ابن مسعود: (والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر)[٢].

انتشرت تلك الأخبار المفرحة وعبرت القارات، حتى وصلت الحبشة فركب بعض المهاجرين الأمواج والبهجة عائدًا إلى رسول الله ﷺ. وفي يوم من تلك الأيام الآمنة التي يلتف بها الصحابة حول نبيهم ﷺ، وقد زاحمهم المشركون أيضًا تنغيصًا ومضايقةً.. في مجلس الأخلاط هذا كان ﷺ يتغنى بآيات من سورة النجم حتى وصل قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾[٣]. وبعد أن قرأ هذه الآيات سجد ﷺ (وسجد معه المسلمون والمشركون)[٤] (غير شيخ أخذ كفًّا من حصىً أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا)[٥].

سجد الوثنيون، ساحت بهم الآيات في رحلة بدأت من الآخرة، حيث القبور الثائرة المبعثرة، وحيث الأموات يشقون أكوام التراب والغبار.. ينتفضون.. يخرجون يبحثون عن الداعي والمنادي نحو أرض المحشر، ومرت بهم هناك حيث الخرائب الصامتة، خرائب عاد وثمود وقوم لوط حيث الجثث منثورة متورمة من

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٣.

(٢) حديث حسن رواه الحاكم ٣-٩٠ وغيره من طرق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله. والصواب: دون كلمة أبيه عند ابن سعد ٣-٢٧٠ وله عنده شاهد يقويه.

(٣) سورة النجم.

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم ١-٤٠٥.

(٥) متفق عليه.

الماء، جثث قوم نوح المتعفنة التي طفت على الماء وطوح بها الطوفان في كل مكان، وفي أثناء هذه الرحلة المخيفة يدخل المسافرون عالمًا مدهشًا وعجيبًا يقال له الإنسان.. بدايته حقيرة، لكنه يتمدد حتى يصبح عوالم تثير الدهشة والحيرة.

رحلة تفتح القلب والعقل والعلم على أسئلة مصيرية لا مهرب منها، وعجز الفلاسفة عن الإجابة عليها. رحلة جوابها في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[١].

تأثر السامعون المسلمون والمشركون أيضًا، فسجدوا لله وحده لا لشيء آخر[٢]، لحظات من الخضوع والخشوع كانت تطوف بالكعبة، وبالملتفين حول نبي الرحمة ﷺ، لكن تلك اللحظات لم تلبث طويلًا، لقد مرت بالمشركين يطاردها الشيطان، يحرضهم على سفك الدماء.

محاولة قتل عمر

اجتمع طواغيت قريش يومًا فقرروا التخلص من هذا الشجاع الذي جرأ المستضعفين على الصلاة في بيت ربهم.. سالت الجموع نحو بيت عمر الذي علم بمؤامرتهم، فلم يهرب.. ظل متحصنًا ببيته ينتظر ساعة الجلاد، وطفله

(١) هذه الآيات العظيمات قرأها أحد كبار علماء الأجنة في كندا والعالم البروفيسور (كيث. إل. مور) فأذهلته، وأذهله إعجازها، فدرس القرآن وأعلن إسلامه، وقال: إن مراحل الخلق في القرآن أدق من تلك المراحل التي وضعها في كتابه، فغيرها بمراحل القرآن: نطفة فعلقة فمضغة، وهي آيات تثبت البعث يوم القيامة، فسبحان من حفظ هذا القرآن.

(٢) أقصد بالشيء الآخر (قصة الغرانيق) المخالفة لصريح القرآن الضعيفة سنداً. انظر: رسالة (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) للعلامة الألباني رحمه الله، ولأستاذي الشيخ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي نقد علمي لها في (مغازي عروة).

عبدالله زائغ العينين يرجف قلبه خوفًا على حبيبه، وهو يرى اليتم يتلصص عليه من شقوق الباب، ومرة أخرى يعلم الوجيه القرشي العاص بن وائل، فيلبس حلة حبرة، وقميصًا مكفوفًا بحرير، يتوجه نحو بيت عمر فيجد الموت في كلماته حين سأله فقال: (ما بك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلونني لأنني أسلمت. قال: لا سبيل إليك أمنت. فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه. فكر الناس وتصدعوا[١] عنه)[٢] رجعوا والغيظ يملؤهم. رجعوا.. لا لعقولهم، ولكن للمزيد من الكيد. اجتمعوا مرة أخرى فقرروا:

مفاوضات مع أبي طالب

فكما أن العاص قد أجار عمر، فإن أبا طالب يحمي ابن أخيه ﷺ، ولا بد من كسر تلك الحماية، أو تكون بشروط، لذا (جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا. فقال لابنه: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد) انطلق عقيل فوجده جالسًا في بيت صغير يقال له (خيس) كان الوقت ظهرًا، علت الشمس فوق الرؤوس والتهبت الرمضاء، ناداه عقيل فأقبل ﷺ معه وصار يمشي ويتتبع ظل الجدران من شدة الحر، حتى دخل والعرق يتصبب منه كحبات اللؤلؤ، وما إن دخل مكانًا يشبه العريش حتى عاجله عمه أبو طالب بقوله: (إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم) رفع ﷺ رأسه عاليًا فحلق[٣] ببصره إلى السماء، وقال لطواغيت قريش: (أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة) أُفحم الوثنيون ونطق الشيخ

---

(١) تفرقوا عنه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أي رفع وأجال.

أبوطالب فقال لقومه: (والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا)[١]. فرجعوا، ولكن إلى الاضطهاد.

الاضطهاد من جديد

خرج صناديد قريش من بيت أبي طالب غاضبين، قرروا العودة للتعذيب من جديد، وسيكون هذه المرة أقسى وأشد، ذات يوم حاصر النبي ﷺ مجموعة من مجرميهم حتى تمكنوا من الإمساك به، فانهالوا على جسده ورأسه يضربونه حتى سال دمه وهو لا يقاوم.. كل الذي كان يفعله هو محاولة الانفلات منهم، وقد تمكن دون أن يلحق أذى بأحد. أطلق قدميه هاربًا، وظل هائمًا على وجهه حتى وجد نفسه خارج مكة، ولما أعياه التعب جلس على صخرة وقد تلونت ثيابه، وما هي إلا دقائق وإذ بطيف حبيب حوله، تأمله فإذا هو جبريل عليه السلام.. نظر إليه الملك، وقال: (ما لك؟ فقال ﷺ : فعل بي هؤلاء.. وفعلوا) فأراد تعزيته وإزالة ما به من إحباط، فقال: (أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة.

فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل: مرها فلترجع. فأمرها، فرجعت إلى مكانها. فقال ﷺ: حسبي)[٢].

---

(١) سنده جيد، رواه البخاري في تاريخه ٧-٥١ والبيهقي ٢-١٨٦ من طرق عن يونس بن بكير عن طلحة بن يحيى ابن عبدالله عن موسى بن طلحة: أخبرني عقيل بن أبي طالب. ويونس حديثه حسن. التقريب ٦١٣ وطلحة حسن الحديث من رجال مسلم، وموسى تابعي ثقة. التقريب ٥٥١، وقد وردت هذه القصة بسند ضعيف، ولفظ مختلف عند ابن إسحاق والبيهقي ٢-١٨٧ بلفظ: يا عم لوضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر. وسنده ضعيف، فيعقوب بن عتبة بن المغيرة تابع تابعي أسقط شيخه، وهناك شخص مجهول آخر، لأنه يقول: حدثت أن قريشًا قالت. انظر: التهذيب ١٣-١٩٢، انظر: تعليق الألباني على فقه السيرة الغزالي ١٠١.

(٢) إسناده صحيح: رواه الإمام أحمد ٣-١١٣، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك، والأعمش مدلس وقد عنعن، لكن قد يذهب شبهة تدليس كونه راويه شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان، طلحة ابن نافع القرشي، فقد جاء في التهذيب ٥-٢٦: روى عنه الأعمش وهو راويه، بالإضافة إلى أن وكيعًا قال عن أبي معاوية: ما أدركنا أحدًا كان أعلم بحديث الأعمش من أبي معاوية.

لكن الأذى اشتد، وعجز الكثير من المسلمين عن التحمل، فاضطروا لمغادرة مكة في موجة ثانية من الهجرة والفرار للحبشة.

الهجرة الثانية للحبشة

لكن قريشًا لن تتركهم هذه المرة.. اجتمع طواغيتها وقرروا إرسال وفد للملك العادل، كي يعيد اللاجئين المهاجرين إليهم، في مصادرة حتى لحق الحياة، وبعد مشاورات علموا أن النجاشي يحب الجلود، فانتقوا له أفخر ما في السوق وشحنوها على الإبل، وانتقوا هدايا أخرى له ولرجال الدين من القساوسة الذين يسمون البطارقة، ثم رشحوا اثنين منهم لهذه المهمة، هما: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وأوصوهما قائلين: (ادفعوا إلى كل بَطْرِيق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه، وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا).

سافر الرجلان محملين بقافلة من الهدايا حتى وصلا البحر، ومن هناك ركبا السفينة مع هداياهم حتى حطت بهما الأمواج على ساحل إفريقية، رست سفينتهما وحملا هدايا الملك من جديد وانطلقوا، ولما أقبلوا على قصر الملك بدأا توزيع الهدايا -الرشاوى على القساوسة، ثم خلوا بالقساوسة، فقالوا لهم: (إنا قدمنا إلى هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل. فقالوا: نفعل).

أخذ عمرو وعبد الله مكانهما في قاعة الانتظار، ثم هتف المنادي آذنا لهما بالدخول، فدخلا وحيوه، وقدموا هداياهم، ثم أذن لهم بكلام، فقالوا له: (أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين

مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم، فهم أعلاهم عينًا. فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا أعلاهم عينًا، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك) نظر الملك العادل لقساوسته ولسفيري الوثنيين وهداياهما، فقرأ الظلم في الكلمات والهدايا، وقال والغضب يغير ملامحه: (لا، لعمر الله لا أردهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم، وأنظر ما أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أخل ما بينهم وبينهم، ولم أنعمهم[1] عينًا). أرسل النجاشي رسوله يستدعي المهاجرين، فكره عمرو الفكرة، (ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم)، وصل رسول النجاشي للمهاجرين، فعقدوا اجتماعًا خائفًا، وقالوا لبعضهم: (ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول!.. نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان)، ثم نهضوا، وقد رشحوا جعفر بن أبي طالب للحديث، ولما وصلوا أذن لهم النجاشي بالدخول، فلما دخلوا نظر إليهم النجاشي، فقال لهم: (ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

فقال جعفر: أيها الملك، كنا قومًا على الشرك، نعبد الأوثان، نأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئًا ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيًّا من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره. فقال النجاشي: فهل معك شيء مما جاء به، وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله: هلم فاتل عليَّ ما جاء به.

---

(١) نعمة العين: أي قرتها، أي أقر أعينكم برجوعهم إليكم.

فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[1].

توقف جعفر عن القراءة وسط وجوم وفد قريش، وخيم الصمت على المكان، وفاضت العيون، (فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته[2]، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة[3] التي جاء بها عيسى. انطلقوا راشدين، ولا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عينًا). انفرجت أسارير المهاجرين وانصرفوا آمنين، ورق ابن أبي ربيعة قليلًا لحالهم، لكن عمرًا التفت إليه غاضبًا وحلف، فقال: (والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم[4]، إنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى ابن مريم: عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحمًا، ولهم حقًّا. فقال عمرو ابن العاص: والله لأفعلن) مضى اليوم ثقيلًا على عمرو، وجاء الغد فانطلق عمرو ممتلئًا حماسًا وطلب الإذن بالدخول على الملك العادل فأذن له، فلما دخل قال: (أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم رسولًا فاسألهم عنه) قلق النجاشي فبعث إليهم، وعلم المهاجرون بما جرى فاضطربوا وحزنوا حتى قالت أم سلمة: (ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في

---

(١) ما بين الأقواس ليس في نص الحديث، لكن جعفرًا قرأه بالتأكيد، ولم يقرأ ما بعده، لأنه يتحدث عن وحدانية الله وبشرية عيسى، ولو قرأها لما تكلم عمرو بن العاص فيما بعد.

(٢) تبللت بالدموع.

(٣) الكوة التي في الجدار يوضع فيها المصباح. أي أنه من المصدر نفسه.

(٤) أصلهم.

عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقال: نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه) انطلق المؤمنون ثقة بربهم فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال: (ماذا تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول عبد الله ورسوله، وكلمته[1]، وروحه[2]، ألقاها إلى مريم العذراء البتول[3]) فانحنى النجاشي على الأرض، ومد يده فالتقط عودًا صغيرًا، وجعله بين إصبعيه، وقال: (ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العويد[4]، فتناخرت[5] بطارقته. فقال: وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم في أرضي -والسيوم الآمنون- من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا وأني آذيت رجلاً منكم -والدبر بلسانهم: الذهب- والله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه)، ثم التفت إلى وزرائه، فقال: (ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها)، ثم نظر إلى عمرو وصاحبه، فقال: (اخرجا من بلادي).

تقول أم سلمة: (فرجعا مقبوحين، مردودًا عليهما ما جاءا به، فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار)[6]

ذلك هو النجاشي الذي نال شهادته من السماء، بعد أن عدل بين شعبه.. نال شهادته قبل أن يحتفي بالموحدين، فقال ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده).

---

(١) كلمة الله: أي قول الله كن فيكون، كما قال لآدم كن فكان بلا أب ولا أم.

(٢) روح الله، مثل قولك للكعبة: إنها بيت الله.

(٣) العذراء المنقطعة عن الزواج.

(٤) تصغير كلمة عود. أي أن عيسى هو كما وصفه القرآن الكريم.

(٥) أي أخرجوا أصواتًا من أنوفهم، أو تنحنحوا استنكارًا لقوله واحتجاجًا.

(٦) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي (٢/٣٠١) وأحمد (١/٢٠١) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي ﷺ. الزهري إمام ثقة ثبت معروف، وأبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد. التقريب ٦٢٣.

أمّا في مكة

بعيدًا عن الحبشة، خلف آلاف الأميال فكان النبي ﷺ صامدًا، قد أدرك أن قريشًا تعاند، فلا بد من البحث عن تربة تكون خيرًا من هذه التربة، بدأ منذ العام الثالث من بعثته البحث عمن يؤويه ويتبنى دعوته، صار منذ العام الثالث يستغل المناسبات الدينية والثقافية والتجارية لإيصال صوته وتبليغ رسالته.. في مواسم الحج وعكاظ وذي المجاز ومجنة وغيرها، كان يتخلل الجموع، يبشر ويدعو ويعرض على القبائل أن يتبنوا دعوته. لم يسعد طواغيت قريش بمحاولاته، ولم يسعدهم أن يغادر أرضهم، لأنهم يعرفون قوة حججه وتأثير كلام ربه، وإذا كان أنجز ما أنجز وهو مطارد في مكة، فكم حجم إنجازه لو تبنته قبيلة وأصبح قائدًا لها. أمر لا تريد قريش تصوره، وستسعى لإجهاضه، لذا بدأ طواغيتها بملاحقته في تلك المناسبات، وكان أبرز من يلاحقه عمه أبو لهب، الذي كان يلاحقه ويحثو عليه التراب، ويرميه بالحجارة حتى سالت الدماء من عقبيه، وكان يبادله المهمة أبو جهل حيث كان يصرخ خلفه يشتمه ويحذر منه. شاهد ذلك:

طفل اسمه (ربيعة الديلي)

يروي مأساة النبي ﷺ في أسواق الجاهلية ومنتدياتها، فيقول: (رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز، يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا. ويدخل في فجاجها[1] والناس متقصفون[2] عليه، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا، وهو لا يسكت.. يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا) ويقول ربيعة: (رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا أيها الناس

---

(١) الفجاج: الطريق الواسع.

(٢) مجتمعون عليه.

إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على إثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان)[1]

كانت أخباره ﷺ تنتشر في كل اتجاه من جزيرة العرب، وذات يوم وصلت رجلًا يقال له عمرو بن عبسة، فامتطى راحلته وتوجه نحو مكة، فلما احتضنته شعابها وجبالها، وصل فشعر بغرابة الوضع، ووصف حالة النبي ﷺ بأنه كان (مستخفيًا جرءاء عليه قومه).

تلطف عمرو في السؤال حتى عثر عليه، ولما قابله قال له: (ما أنت؟ قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد. قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به)[2] (فقلت: إني متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني. قال: فذهبت إلى أهلي)[3].

رجل غريب لا يضمر إلا خيرًا.. جاء يبحث عن الحق، فلا يرجع إلى ديار قومه إلا بما جاء يبحث عنه، ويريد أن يستزيد.. أن يعرف أسماء أخوته الجدد، فلا يعطي أي اسم برغم أنه مؤمن.

عاد عمرو فأخبر أخاه لأمه المدعو (أبو ذر) كان رجلًا حرًّا، لا يدع أحدًا يفكر عنه، ولا تكبله العادات والتقاليد، كان موحدًا يصلي صلاة خاصة به لله وحده،

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد ٣-٤٩٢، حدثنا مصعب الزبير، وهو عالم صدوق، حدثني عبد العزيز بن محمد الدراوردي وحديثه هنا حسن، لأنه عن غير عبيد الله العمري، عن ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وهو ثقة فاضل فقيه، عن سعيد بن خالد القرظي، وهو تابعي صدوق. التهذيب ٤-٢٠. وهو شاهد لما قبله.

(٢) القائل عمرو بن عبسة، وليس رسول الله ﷺ.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم ١- ٥٦٩.

سمع بالنبي ﷺ من أخيه الآخر أنيس الذي عاد من مكة ليؤجج شوقه للقاء محمد، حين قال: (لقيت رجلًا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)[1].

اهتز قلب أبي ذر لهذا الوصف، وتحرق شوقًا لملاقاة محمد ﷺ، وقال: (أخذت جرابًا وعصًا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم. قال: فانطلق إلى المنزل. فانطلقت معه لا يسألني عن شيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي علي. فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قلت: لا. قال: انطلق معي. فقال علي: ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت له: إن كتمت علي أخبرتك. قال: فإني أفعل. قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه. فقال علي بن أبي طالب: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحدًا أخافه عليك. قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامضِ أنت. فمضى ومضيت معه، حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض عليَّ الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني. فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد، وقريش فيه. فقال أبو ذر: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت

---

(١) رواه مسلم ٤- ١٩١٩.

لأموت، فأدركني العباس، فأكب عليَّ، ثم أقبل عليهم، فقال: ويلكم، تقتلون رجلًا من غفار، ومتجركم وممركم على غفار. فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فصنع مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس، فأكب عليَّ، وقال مثل مقالته بالأمس)[١].

هكذا حول الطواغيت شوارع أم القرى الآمنة إلى شوارع من رعب، فعليٌّ رضي الله عنه لا يستطيع التحدث بالأمر خوفًا على رسول الله ﷺ، وأبو ذر لا يستطيع المشي بجوار علي خوفًا على علي، ولما سأل عليٌّ ضيفه سؤالًا عاديًا، كان الجواب غير عادي. لقد سأله علي فقال: (ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال أبو ذر: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدنني فعلت. ففعل، فأخبره)[٢].

أصبحت مكة ثكنة عسكرية.. مدينة أمنية ترصد الحركات وتسجل الكلمات، ومالم تثق بمحدثك فالسكوت أسلم، وحتى بعد أن أسلم أبو ذر.. لم يعطه ﷺ شيئًا غير الشهادتين، ولم يخبره عمن أسلم حتى إنه كان يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع).

عاد أبو ذر لدياره، وترك مكة معتقلًا لا يطاق، فهاهو الصديق أبو بكر يؤذى ويشتم، وتضيق به الطرقات، وليس له عزاء سوى زيارة النبي اليومية له، فيقرر الهجرة إلى أرض يجد فيها حريته.

أبو بكر يهاجر

ها هو الصديق يحزم متاعه، وها هي زوجته الرائعة أم رومان تتفقد ما يحتاجانه من زاد وثياب للرحلة، وابنتهما الصغيرة عائشة تتحرك بفضول الطفولة وبراءتها حولهما، بينما كانت أختها من أبيها أسماء بالغة تشارك شقيقها

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٢٩٤.

(٢) جزء من حديث البخاري السابق.

عبدالله حزم الأمتعة، يبكي من حضر من الموحدين لحظات الوداع، ويبكي بلال بحرقة وهو يرى حبيبه أبابكر يسافر بقلبه بعد أن أعتقه وحرره. ركب المهاجرون، فتحركت بهم مطاياهم حتى وارتهم الجبال بعيدًا عن أنظار الأحبة. ساروا جنوبًا لأيام وأسابيع حتى اقتربوا من اليمن، ولما حطت رواحلهم بمكان يقال له (برك الغماد) صادف وصولهم وجود أحد سادات العرب، ويدعى ابن الدغنة، وهو سيد عشيرة يقال لها القارة.

تهلل وجهه لما رأى أبا بكر، فهو يحترمه ويعرف قدره. حيا الرجلان بعضهما، وبعد حوار قصير تحسس ابن الدغنة نزفًا في كلمات الصديق، وحزنًا في ملامحه وعينيه. كانت عائشة الصغيرة تتأمل المشهد بفضول، فتقول: (لقيه ابن الدغنة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي).

انتفض ابن الدغنة مستاءً.. كيف تضيق مكة بابنها الكريم السخي، وهي التي اتسعت لغل وحقد في صورة رجال كأبي جهل وأبي لهب. عجب ابن الدغنة لهذا الفكر الإقصائي، الذي اتسع لكل الهراء الممثل بأكثر من ثلاثمئة صنم، وضاق بكلمة التوحيد، لكن رحلة أبي بكر توقفت بعد هذا الحوار وعادت مطاياه أدراجها، فقد قال ابن الدغنة كلمات من مجد: (يا أبا بكر إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك).

كان الصديق يدرك وزن الرجل، فعادا معًا يقطعان المسافات الشاقة حتى لاحت جبال مكة الحبيبة، ولما وصلا حل ابن الدغنة ضيفًا على الصديق، وبعد أن استراح وألقى عنه عناء السفر خرج ومر على مجالس كبار المتآمرين، وقال: (إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج. أتخرجون رجلًا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل،

ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟) خجل الطواغيت من شهامة الغريب وهو يعدد صفات ابنهم الموحد، فانفضحت قلة مروءتهم. فاشترطوا شرطًا يدل على هشاشة فكرهم ودينهم، فقالوا: (مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا)[1]. وبعد أيام أو أسابيع عادوا لابن الدغنة وقالوا: (يا ابن الدغنة إن هذا الرجل الذي أجرت رجل له حال ما هو لغيره.. إذا تلا ما جاء به محمد بكى بكاء لا يبكيه أحد، فيرق لذلك منه ضعفاؤنا ونساؤنا وخدمنا، فمره فليكف عنا. إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. فأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان).

طغاة قريش في ظاهر الأمر يلتزمون العهد، لكنهم في الحقيقة يقننون الظلم. لم يرد عليهم ابن الدغنة.. كان قلبه مع الصديق، وكانت سمعته مرهونة عند الوثنيين.

تركهم وتوجه نحو بيت أبي بكر ليتأكد بنفسه. ولما وصل شاهد الفناء والمسجد فطرق الباب، ولما فتح له رحب به أبو بكر. جلس ابن الدغنة وهو عالم من الإحراج، وكأنه يقول لأبي بكر: إن قومك لا يتورعون عن إلصاق التهم. وكأنه يقول ألا تراهم يسمون ابنهم محمدًا مذممًا.. يصفونه بالكاذب والساحر، وهم الذين لقبوه طوال أربعين عامًا بالأمين، وشهدوا كلهم أنهم ما جربوا عليه كذبًا.

هواجس أرغمت ابن الدغنة على أن يقول: (قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له). قال أبو بكر: (إني أرد لك جوارك، وأرضى جوار

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٤١٧.

الله)[١]. نهض ابن الدغنة ثقيلًا، وتوجه نحو الأشرار، وصاح فيهم: (يا معشر قريش إن أبا بكر قد رد عليَّ جواري، فشأنكم بصاحبكم)[٢]

كانت قريش وسفهاؤها بالانتظار، ولن يشك أحد بهجوم أحد هؤلاء المجرمين فيضربه رضي الله عنه، أو يدميه، أو يحثو في وجهه التراب، فليس له من نصير سوى الله، أما نبيه ﷺ فقد نزف دمه وتفاقم جرحه وألمه.

دماء رسول الله

في أحد أيام المعاناة تلك.. أيام مكة الملتهبة.. (اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة، فقالت: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا)[٣]. لم تكن هذه المرأة الوثنية ترمي إلى أكثر من التشفي، أما ما حدث فهو أنه قد رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه إصابة بالغة، أقعدته عن المشي، فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت

فمكث ﷺ ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت[٤]: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۞ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۞ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۞ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۞ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۞ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

---

(١) ما مضى من قصة أبي بكر صحيح، رواه البخاري ٣-١٤١٧.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (ابن هشام ٢-١٦): حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عروة عن عائشة، وعروة والزهري تابعيان إمامان ثقتان.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن أبي حاتم ١٢-٤٢٢ من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، سمع جندب يقول: رُمِيَ رسول الله ﷺ.. الأسود تابعي ثقة التقريب ١١١ وسفيان الثوري إمام ثقة حافظ، وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت صرح بالسماع.

(٤) إسناده صحيح، وهو من طريق الحديث السابق.

كم هي ثقيلة أمانة النبوة.. نبي كسير حسير.. يحتاج إلى مواساة، فيؤمر أن يواسي الأيتام والكادحين والفقراء وإلا عوتب، وإن كان نبيًا، ولقد عوتب ذات يوم بسبب غفلة بسيطة عن أحد المساكين.

عتاب بسبب أحد الضعفاء

كان ﷺ في حالة ترقب، فأحد الطغاة من عظماء مكة ينصت له، لعله أن يسلم فيكون سندًا للدعوة، وفي أثناء ذلك الحوار تهادى أعمى مسكين لا حول له ولا قوة اسمه: عبدالله بن أم مكتوم، ولما توقف أمام النبي ﷺ قال له (أرشدني، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر)[1] فأنزل الله سورة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ تصحح خطأ النبي القائد، وتجبر كسر الأعمى المسكين، عتاب شديد لنبي الله ﷺ، ولو لم يكن نبيًا لأخفاه ومحاه من القرآن، ولم يُطلع عليه أحدًا. لكنها النبوة.. لكنه الأمين. عتاب يكشف احتفاء الإسلام بالضعفاء وأصحاب الاحتياجات الخاصة، ورفضه لتهميشهم. فلهم قيمتهم ووزنهم، وللسادة والوجهاء وزن مثله، لكن لهم ميل إلى الاحتفاظ بما حولهم، فالجديد وإن كان صوابًا يزعج بعضهم.. يخشون أن يطمسهم، ويغير مواقعهم على الأرض، لذا يتردد الكثير منهم ويحجم.. أحد هؤلاء هو:

الوليد بن المغيرة مؤمن فكافر

شيخ كبير أقبل يومًا نحو النبي، فلم يطل ﷺ معه الحديث، ترك للقرآن المهمة. تأثر الوليد بالآيات، وأقبل على أهله وجلسائه بقلب آخر، وتأثر ظاهر،

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن جرير ٣٠-٣٢، والواحدي ٢٩٧ وغيرهما من طرق عن سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، عن أبيه، عن هشام عن أبيه عروة عن عائشة، وسعيد ووالده ثقتان. التهذيب ١١-٢١٣ و ٤-٩٨ وهشام ووالده ثقتان معروفان.



فوصل الخبر إلى طاغوت مكة أبي جهل فجن جنونه، ففكر، فلم يجد وسيلة عن ثنيه عن الدخول في الإسلام سوى استفزازه في كرامته. توجه نحوه ولما أصبح أمام الشيخ قال له بخبث: (يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً. قال الوليد: لِمَ؟ قال أبو جهل: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قبله) انتفض الوليد ونفى التهمة قائلًا: (قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا) حينها قال أبو جهل: (فقل فيه قولًا، يبلِّغ قومك أنك منكر له. قال الوليد: وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر فيه) تركه أبو جهل يبحث ويفكر في اختلاق عذر ينطلي على السذج، فلما فكر الوليد قال: (هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً﴾[1]. كان الوليد مقتنعًا بصدق النبي ﷺ وإعجاز القرآن، لكنه كان ضعيفًا أمام العادات والتقاليد، وهذا الضعف جعل منه شخصية لا تملك حجة سوى العناد والمكابرة، لذا بدأوا بأسلوب الإملاءات وطلب المعجزات:

طلب المعجزات

ذات يوم (سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين)[2] (فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار، فإن

---

(١) سنده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٢-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات. التقريب ١١٧ و٥٤١. وقد مر معنا.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٤.

كانوا رأوا ما رأيتم، فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. فسُئل السفار - وقدموا من كل جهة. فقالوا: رأينا)[١]. وكانوا قد اعترفوا من قبل، فقالوا: (محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)[٢]. ومع ذلك تعسف هؤلاء وتطرفوا في مطالبهم، فهاهم في تخبطهم مرة أخرى يطلبون:

معجزة الذهب

فقد (قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبة، فإن أصبحت ذهبة اتبعناك، وعرفنا أن ما قلت كما قلت. فسأل ربه عز وجل، فأتاه جبريل فقال: إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبة، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة. قال: يا رب لا، بل افتح لهم أبواب التوبة)[٣]. وقد أنزل الله سبحانه عليه آيات تفضح نفسيات الوثنيين المهووسة بالتعجيز والعناد، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود الطيالسي ٢-١٢٣ حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله:.. ورواه البيهقي من طريق أبي داود وهشيم. وهذا لفظ هشيم ورجاله ثقات، أبو الضحى مسلم ابن صبيح تابعي ثقة. التهذيب٢٠-١٢٣ والمغيرة بن مقسم ثقة متقن، لكنه ربما دلس وتابعه الأعمش عند أبي نعيم. سيرة ابن كثير٢-١١٩.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) إسناده صحيح، رواه أحمد ١-٣٤٥ حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان،عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس، عبد الرحمن هو ابن مهدي ثقة ثبت. التهذيب ٦-٢٧٩ وسلمة ثقة. التقريب ٢٤٨ وشيخه ثقة من رجال مسلم اسمه: عمران بن الحارث. التهذيب ٨-١٢٤.

(٤) سورة الأنعام: الآيات ١١.٧.



وأنـزل آيـات تخفف من حزنه من عنادهم، فهم يملكون إرادة وحرية في الاختيار، وعليهم أن يتحملوا نتائج اختيارهم، فقال: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]. لأنه لو جمعهم سبحانه وأرغمهم على الهدى، لسلب منهم الحرية والإرادة، كما سلبها من البهائم وسائر المخلوقات، والحرية هي ما يميز الإنسان وهي أغلى ما يملكه. لكن هؤلاء يعاندون أمام أتباعهم، ويعترفون به سرًّا لمن يكتمه، فهاهو أبو جهل يكرر مقولة الوليد بن المغيرة في أن محمدًا ﷺ نبي، ولكن بأسلوب مختلف:

اعتراف أبي جهل بالحقيقة

ذات يوم انحدر من مدينة الطائف أحد دهاة العرب، واسمه(المغيرة بن شعبة) فاكتشف وهو الغريب صدق محمد ﷺ، لكن على لسان من؟

الإجابة مذهلة، لأنها تومض كالجمر على لسان طاغوت قريش أبي جهل. حيث يقول المغيرة: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ، أني كنت أمشي أنا وأبو جهل ابن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، أدعوك إلى الله. قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًّا ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبو جهل عليَّ فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول

(١) سورة الأنعام: الآيات ٣٣-٣٥.

حق، لكن بني قصي. قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا: فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم. قالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي... والله لا أفعل)[1]. ففرعون مكة يعرف أنها النبوة، لكنه يرفضها لأنها لم تكن في أهل بيته، لذا يختلقون التهم اختلاقًا، وهذه المرة لم تقتصر على تهمتي الكذب والسحر، فـ:

الجنون تهمة جديدة

فليكن محمد مجنونًا.. قالتها قريش دون حياء.. الأمين صيروه مجنونًا. فرية صدَّقها الأغبياء، وصدَّقها العقلاء الذي حال بينهم وبين محمد ﷺ ضجيج وضباب كثيف من التهم، والتحذير. أحد هؤلاء العقلاء رجل من أزدشنوءة اسمه (ضماد) ركب راحلته كبقية العرب نحو مكة، وحينما حطت به بين جبالها حاصره سفهاء ومراهقو قريش يحذرونه من لقاء محمد ﷺ، والإنصات له ويقولون: إن محمدًا مجنون. لكن ضمادًا قد مرت به حالات كثيرة من حالات الجنون، ولا يمكن أن تستغفله كلمات مراهق هنا وأهوج هناك. قرر اكتشاف الأمر، وقال لنفسه: (لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي)، بحث عنه بثقة حتى وجده، فلما قابله قال له بكل شفقة: (يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟) نظر ﷺ إلى هذا المشفق العاقل، فقال: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد).

---

(١) أثر قوي. رواه البيهقي ٢-٢٠٧ من طريق الحاكم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن المغيرة، أحمد سماعه للسيرة صحيح، وهشام حسن الحديث. التهذيب ١١-٣٩. قال أبو داود: إنه أثبت الناس في زيد بن أسلم، وزيد بن أسلم كان يرسل، لكن مع هذا الاحتمال له شواهد ما يقويه عند البيهقي، طريقان مرسلان، عن الزهري وأبي إسحاق.

ذهل ضماد، وشخصت عيناه، وهو ينصت لكلمات، حلقت به في آفاق السماء، وغاصت به في أعماق البحر، فقال: (أعد عليَّ كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، ولقد بلغن ناعوس البحر[١]. فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي)[٢]. كلمات كشفت لهذا الطبيب كم هو مريض، ليعود إلى دياره محملًا بالتوحيد، أعاده النبي ﷺ لدياره، لأنه ليس له موطئ قدم بمكة، ولأن الإسلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء، ليشرقوا شموسًا على ديارهم الغارقة في الظلام، لكن فضماد كان وجيهًا تحتاجه دياره، لكن هناك من أنصت للنبي ﷺ، فلما أراد أن يبوح بما باح به ضماد منعه الخوف، فاكتفى بنظرات كلها حسرة، وعاد كالصمت إلى موطنه، وهناك من نفث ببعض ما في صدره، فعاجلته يد التسلط تلجمه، فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.

وحيد في حرة يثرب

من تلك المدينة المتوترة شمال مكة.. من يثرب وفي موسم الحج أقبل أحد كبار قبيلة الأوس ويدعى (أبو الحيسر)، ومعه بعض رجال قومه، في محاولة منهم لعقد حلف عسكري مع قريش ضد أبناء عمهم الخزرج. كانت مدينتهم يثرب محتقنة بالكراهية طافحة بالدماء. وفي أثناء الحج كان رسول الله ﷺ، كعادته يتهادى بين خيام القبائل، ولما وصل خيمة الأوس جلس إليهم، فقال ﷺ لهم: (هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذا؟ قال ﷺ: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأُنْزِلَ عليَّ كتاب. ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ -وكان غلامًا حدثًا-: أي

---

(١) عمق البحر.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ٢-٥٣٩.

قوم: هذا والله خير مما جئتم به. فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهم).

انقضى الحج وعاد الأوس للمدينة، وأخبروا قومهم بفشل الحلف، وتأزم الموقف وثارت الحرب مع الخزرج في معركة تدعى (بعاث) سقط فيها العديد من الضحايا، وكان من بين من مات ذلك العام ذلك الفتى الذي دخلت كلمات النبي ﷺ شغاف قلبه، وفي أثناء احتضاره كان أحبته حوله، ففوجئوا به يهلل ويكبر ويحمد الله ويسبحه، (فما كانوا يشكون أن قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ)[1]. لكنه عاش غربة لم يجرؤ معها على الجهر بإيمانه وسط قوم قد احتقنوا بالثأر والوثنية.

المؤمنون غرباء في ديارهم

كان إياس يعيش غربة مريرة في يثرب، لكن الغربة الأشد كانت في مكة، غربة يعانيها سعد بن أبي وقاص، فيقول: إنه وابن مسعود وثلاثة مؤمنين مع رسول الله: (فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك، فلا يجترئون علينا.... فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله، وحدث به نفسه[2]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[3].

---

(١) إسناده جيد، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٢-٥٣)، حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو، عن محمود ابن لبيد. ابن إسحاق سمع من شيخه الحصين، وهو حسن الحديث، قاله أبو داود، فقول الحافظ في التقريب (١٨٢/١): مقبول، غير مقبول، لأنه لم يجرح. التهذيب ٢-٣٨١، بل قال الذهبي ثقة. الكاشف ١-٢٣٧. ومحمود صحابي صغير.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم، والنسائي في فضائل الصحابة، والبيهقي واللفظ له (١-٣٥٣).

(٣) سورة الأنعام: الآيتان ٥٢، ٥٣.

كان القرآن يرسم للنبي ﷺ خطواته، ويصحح مساراته، ويشد من عزمه، فظل صامدًا، و(مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر... فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع)[١]. والإشارات تختلف باختلاف المشيرين.. هناك المعجب، وهناك الساخر، وهناك المشفق، وهناك من قيده الخوف، فهو يشير بقلبه، وتتلاشى تلك الإشارات ربما عند المساء.. دلالة على خلو الساحة من محمد ﷺ، فقد عاد قاطعًا الأميال إلى بيته وزوجته.. يناجي ربه وينام، ومع كل صباح ينهض.. يشرق شمسًا من جديد.. ينهض للتبشير بدعوته، لينتشل من أمته ما يستطيع انتشاله، ومن يستطيع انتشاله، وطرقات مكة المؤدية لبيته الصغير لا تخلو من المتربصين له.. يحملون الأذى بأيديهم وألسنتهم.. يُسْمِعونه ما يكره، ويرونه ما يؤذيه.. حتى اسمه ﷺ قلبوه، فأصبحوا يقولون: (مذممًا) لا (محمدًا) لكن ذلك لا يضره، فالله يصرف عنه الأذى واللعن. يقول ﷺ: (انظروا قريشًا كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون «مذممًا» ويلعنون «مذممًا»، وأنا محمد)[٢].

لم تكتف قريش بالشتم والتنكيل، قررت التصعيد، فاجتمعت في مؤتمر محموم، واتفقوا على أن السبيل الوحيد لدرء الخطر عن أصنامهم هو إزالة هذا المد الإسلامي، لا بإيقافه.

---

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حدث صحيح، رواه البخاري، كتاب المناقب.

الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ

في اليوم الموعود لتنفيذ الجريمة وقتل آخر رسل الله، (اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأينا محمدًا قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله).

كانت فاطمة هناك، ربما كانت تطوف بالكعبة، أو كانت تعبر المسجد الحرام، لكن الكلمات جعلت دقات قلبها تتسارع، وخطواتها تتسارع، ودموعها تسابقها على خديها.. تدخل الباب وأنفاسها تقاطع كلماتها، وهي تقول لوالدها الحنون ﷺ، تقول وهي لا تريد أن يؤخذ عنها: (يا أبت هؤلاء الملأ من قومك في الحجر، قد تعاهدوا باللات والعزى ومناة أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك). كانت كلمات الزهراء تحرض أبيها ﷺ على الهرب.. على الاختفاء.. على فعل أي شيء مقابل أن لا تخسره وتبكي فراقه، فأمها قد شاخت وهي بأمس الحاجة إليه بجانبها، وهي وأم كلثوم بنات وسط وحوش تئد البنات.

بدأ ﷺ بانتشالها من حالتها النفسية إلى حالة أخرى تنسيها ما تعرضت له، بدأ بتشتيت ما مرت به من رعب، فطلب منها طلبًا غريبًا جعلها تذهل عن الصدمة، حين قال: (يا بنية أدني وضوءًا) تحركت متسائلة لتحضر الماء، ولما أحضرته صبت له، فتوضأ وهي تنتظر ما بعد الوضوء. لم يصلِّ بذلك الوضوء، بل نهض وخرج من البيت، توجه ثقة ووحيًا نحو المسجد.. نحو مكان الاجتماع وموقع التهديد، أقبل عليهم، فلما رأوه رفعوا أبصارهم، فقالوا وكلهم عزم على تنفيذ الجريمة: (هو هذا)، لكن بدلًا من أن يقوموا ليغمدوا سيوفهم في جسده حدث شيء أخافهم.. حولهم إلى خراف ترتجف ذلة.. خفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، وأطبق الصمت والخوف على المكان، وترقب الناس مآلات المشهد، فانحنى ﷺ نحو الأرض بهدوء، ومد يده وأخذ بقبضته بعض التراب، ثم (قام



على رؤوسهم فحصبهم حصبًا، وقال: شاهت الوجوه)[١]. ثم غادر ﷺ المسجد، فأفاقوا.. تحسسوا، فإذا التراب يكسو وجوههم عارًا، لا يغسل إلا بالدماء، وقد ملأ خبره أرجاء مكة، فثارت الحمية في نفوس بني عبد المطلب، فقرروا حماية رسول الله ﷺ من قريش والدفاع عنه، فهو لم يفعل ما يستحق كل هذا الأذى، فتراجع طواغيت قريش، وقرروا القيام بإجراء بديل.

حصار جماعي في الشعب

قرر صناديد قريش ضرب حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي على المؤمنين، ومن يقف معهم من أقاربهم، فلا مصاهرة ولا بيع ولا شراء معهم بعد اليوم، حتى يتم تسليم محمد ﷺ إليهم لقتله، لذا لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته، إلى مكان يقال له (شعب أبي طالب) أو (المحصب)، حتى تسهل عملية الدفاع عنه ﷺ، وفي مثل هذه الظروف يقول ﷺ: (لقد أوذيت في الله عز وجل وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثة من بين يوم وليلة وما لي ولعيالي (ولا لبلال) طعام يأكله ذو كبد، إلا ما يواري إبط بلال)[٢].

وقلت الثياب، لدرجة أن ترى منهم من هو عاري البطن والكتفين، فليس له سوى إزار يلفه على خصره النحيل من الجوع. ها هو أحدهم عتبة بن غزوان أحد السابقين يقول: (لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى تقرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها)[٣].

---

(١) إسناده حسن، رواه أحمد ١-٣٦٨ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر، عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. رجاله أثبات، وعبد الله بن عثمان بن خثيم صدوق. التقريب٣١٣.

(٢) سنده صحيح على شرط مسلم، رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعًا. حماد إمام ثقة من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع من أنس.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٢٧٨.

هذه حال الرجال، فيا ترى ما حال النساء.. خديجة وفاطمة وزينب وأم كلثوم وأسماء؟ كيف كانت حالة الأطفال كابن عمر؟ أي قلب يحتمل هذه العذابات؟ وأي قلب يحتمل هذا الحزن؟ كان عامًا ولكنه من حزن.

عام الحزن

في ذلك الحصار عريت الأجساد، وجاعت البطون ، وفاضت الدموع، وبدأ الشيوخ بالرحيل، فأجسادهم لم تعد تطيق هذا اللؤم، وها هو ﷺ والحزن يملؤه جالس عند رأس حبيبته خديجة التي هدتها قريش.. يلقي نظرات الوداع عليها، ويدعو لها، وعيناه تفيضان، فخديجة الحبيبة، ورفيقة النضال تضعف شيئًا فشيئًا، وهي تتمنى لو كانت رقية عندها، رقية التي هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان إلى بلاد الغربة، لا تعلم بموت أمها. يا لها من عائلة مبتلاة!!

تذبل خديجة وتضعف نظراتها وتموت، فيبكي ﷺ ، وتبكي بناتها زينب وأم كلثوم وفاطمة، يبكين أمًّا طالما تراكضن نحو حضنها، ويقبلن أيد طالما اعتنت بهن، ويغسلن تجاعيدها الحبيبة بدموعهن الحرى. غادرت هذه الدنيا حزينة على زوجها ﷺ.. مشفقة عليه.. غادرت وهي تناضل دونه، وتشده وتحنو عليه، فعاشت في قلبه متزينة بالحب، فكان ينتقي لها أجمل الغرف في قلبه، فلم تحتل امرأة من مساحات قلبه كما احتلته خديجة.

قال ﷺ وحيًا.. قال حبًّا.. قال وفاءً: (ما أبدلني الله عز وجل خيرًا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء)[1].

---

(١) حديث ضعيف الإسناد عند أحمد ٦-١١٧، لكنه صحيح دون لفظ: ما أبدلني الله خيرًا منها، شواهده عند البخاري ورواية ذكرها الذهبي في سيرته (٢٣٨).

ويقول: (خير نسـائها مريم، وخير نسائها خديجة)[١]. سافرت خديجة إلى حيث سـافرت مـريم بنت عمران، وسـمية بنت خياط، فيالها مـن رفقة في جنان تحفل بالقصـور والميادين والجمال والعطور والأزيـاء، حيث لا قهـر ولا تعذيب.. حيث لامكان سوى للحب والاحتفالات. ترحل خديجة فتسأله بعد سنوات إحدى النساء القريبات إلى قلبه ﷺ، وهي تراه (إذا ذبح الشـاة فيقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة. قالت: فأغضبته يومًا، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبهـا)[٢]. وكيف لا يحب خديجة ويهيم بذكراها، وهـو يقول عنها: (آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصـدقتني إذ كذبني الناس، وواسـتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقنـي الله عز وجـل ولدها)[٣]. ترى كم بكاها من المسـلمين والكافرين؟ امرأة تحمـل هذا القدر من الإخلاص والوفـاء جديرة بالرثاء.. جديرة بالبكاء.. حمالة الحب لا حمالة الحطب، فرحمها الله ورضي عنها وأرضاها، وهنيئًا لها (ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب)[٤].

لم تلن قلوب قريش.. استمروا بـالأذى، وتحولت جبال مكة مخازن أحزان لرسول الله ﷺ، وآله الطاهرين، وصحبه الكرام.. يتدفق الكرب موجة إثر موجة.. موجة أخفت خديجة، وتلتها للحزن موجة أغرقت شيخًا كبيرًا.

ويرحل أبو طالب

بطل من أبطال قريش، وسيد من سادتها.. هدَّته قريش كما هدته السنون والأحزان. كان خلف رسول الله ﷺ يحميه.. يدافع عنه.. رضي بالعيش في السجن

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٣) حسن مر معنا قبل قليل.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٢٨٠). والقصب نوع من اللؤلؤ.

معه، وقاسمه معاناته، لكنها الأيام لا ترحم، والأقدار إذا أقبلت فلا راد لها. هوى أبو طالب مريضًا على فراشه، واشتد عليه المرض، ودنا الأجل، (ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية. فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: «لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة)[١]. (قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة. قال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع. لأقررت بها عينك)[٢].

كان ﷺ يعيدها، يكررها: (أي عم قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)[٣]. (فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب». وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[٤]. وأنزل الله تعالى في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٥].

أبو طالب بطل إلى النار

إنــه كذلك.. بطلاً كان أبو طالب، لكنه رفض الحــق. جاء العباس أخوه، وعم رســول الله ﷺ يومًا إلى رســول الله.. يســأل عن مصــير أخيه أبي طالب، ويقول:

(١) حديث صحيح، متفق عليه، وآخره يأتي بعد الحديثين التاليين.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (١-٥٥.

(٣) صحيح، رواه البخاري ٣-١٤٠٩.

(٤) سورة التوبة: ١١٣.

(٥) متفق عليه، وهو بقية الحديث الأول الذي مر معنا.

(يا رسـول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: نعم. هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[١]. هذه هي حدود رسول الله ﷺ، وهذا كل ما يستطيع فعله له. قال ﷺ لمن حوله والحسرة في صدره: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[٢]. لكن أين تذهب أعماله؟ أين جزاء هذا البطل؟ كيف تكون النار مصيره؟ لقد خدم الإسلام برغم كفره أكثر مما خدمه بعض المسلمين؟

العواطف الجياشة تفجر أسئلة ذاهلة.. تفجر مذاهب.. تبعثر الصفوف.. تبحث عن إجابة.. إجابة عاطفية محمومة، لكنها ما سألت يومًا عن أبي طالب نفسه: هل كان إدراكه في مستوى حميته وشهامته؟ هل خدم نفسه كما خدم الإسلام؟ هل ارتقى بروحه كما ارتقى المؤمنون؟ ألم يكن مع رسول الله ﷺ.. يشرح له.. يوضح الحق له، ويؤكد له أن وعد الله صادق، ودين الله ماض، سواء دافع عن أتباعه أبو طالب أم لم يدافع.. انضم أو غادر؟

كان أبو طالب يستمع إلى كلام الله، وكان كلام الله يسيل في أذنيه منذ عشر سنوات.. منذ أشرق الوحي.. في أندية مكة وفي بيت ابن أخيه، بل وفي بيته هو، وحتى وهو على فراش الموت. لقد منحه الله فرصة، ومنحه حرية الاختيار، وفضله على سائر المخلوقات بالإرادة، لكنه خاف تعيير قريش وسبها له بعد موته. ذلك هو مستوى طموحه (رضى قريش). هو لم يكن واثقًا من وعد الله، وإلا لما وقفت كلمات قريش الباهتة المحتملة عائقًا له عن الدخول في دين الله، وما كانت تلك الكلمات لتبقيه في وحل الشرك، لولا أنها وجدت إرادة ضعيفة، وثقة مزعزعة بوعد الله. إن من يدَّعون أن الإسلام جعل أبا طالب كبش فداء.. لم يدركوا أن الإسلام لله، والتوحيد لله، وما محمد إلا رسول لله، وما محمد ﷺ إلا رجل تلقى

---

(١) حديث صحيح متفق عليه، واللفظ لمسلم (١/١٩٤-١٩٥).

(٢) رواه البخاري ٣-٩-١٤٠٩.

رسالة الله، فأداها كما طلب منه، أما أبو طالب فناضل من أجل محمد ابن أخيه.. فقط من أجل ابن أخيه. أما الله.. خالقه وخالق محمد ﷺ، فأين مكانه في قلب أبي طالب؟ لا شيء..!!

لا مكان لله في قلب أبي طالب، وأول شرط في قبول أي عمل هو الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وتفرده والإخلاص له، وأبو طالب رفض هذا الشرط.. رفض وحدانية الله، ورفض الإخلاص له... رفض: لا إله إلا الله.

أبو طالب بطل. نعم بطل. هو شهم، وشجاع، وكريم، كعنترة.. كحاتم. والإسلام يشطره مثلهم، يؤيده في مواقف، ويشجبه في مواقف. كم تمنى المسلمون لو كان مسلمًا، لكن ماذا بأيديهم، فالحزن لا يغير الحقائق، والحب لا يزيف الوقائع؟ وحب المؤمنين لعلي لا يفترض أن يطغى على حبهم لله، فإن طغى فهم يعبدون عليًّا من دون الله. أبو طالب مات بطلاً، لكن إلى النار. ونهايته مأساة حزينة، لكنه هو الذي اختارها. أما ابنه:

الفتى الحزين علي

لا شك أنه قد دعا يومًا أباه إلى الإسلام، لا شك أنه يشعر بالأسى عليه.. يشعر بالمرارة لهذه الخاتمة السيئة، فذهب نحو نبيه ﷺ.. قد تشبع بالحزن حتى أثقله، فيقول له وقلبه يعتصره الكمد: (إن عمك الشيخ الضال قد مات، فمن يواريه؟)[1]. سؤال غاضب وحزين.. سؤال يبكي: هذا الشيخ الضال.. سؤال تنضح حروفه بالمرارة في حلقه، وهو يقول: الضال. كمن يقولها بعد أن استنفد كل محاولات الإقناع لشخص متهور يريد الانتحار، فأبى إلا الانتحار. الكلمات

---

(١) سنده صحيح، رواه الطيالسي ٢-٩٠ وغيره حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت عليًّا. أبو إسحاق هو عمرو بن عبد الله تابعي ثقة مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية بن كعب الأسدي. انظر: التقريب ٥٥٧.



بعد ذلك تخرج مزيجًا من الغضب والحزن والأسى. لكن رسول الله ﷺ كان طبيبًا للقلوب.. طبيبًا للنفوس. قال لعلي: (اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتيني) فلما انتهى أمره أن يغتسل ثم دعا له بدعوات فرجت كربته حتى قال علي عنها: (ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء)[١].

غاب الأحبة، فما الذي سيحل برسول الله ﷺ؟ وماذا ستفعل قريش المتوثبة؟ تقول إحدى بنات أبي بكر: (ما زالت قريش كاعة[٢] حتى توفي أبو طالب)[٣]. فلما توفي ازداد توحشها، فخرج ﷺ من مكة، يبحث عمن يؤويه وينصره.

إلى الطائف

يشق الأودية والجبال على قدميه الداميتين المتعبتين، بلا راحلة.. يحمله حزنه.. يصعد به جبال الطائف يفتش عن أمل، يقول أحد الصحابة: (لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشيًا على قدميه يدعوهم إلى الإسلام)[٤]. لكنه قوبل بقمع يفوق ما تعرض له في مكة، قمع وصفه فقال: (وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال. فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي)[٥]. عاد ﷺ مهمومًا قد ضاقت به الأرض، وفقد حبيبته خديجة

(١) سنده صحيح، رواه أبو داود الطيالسي، وهو الحديث السابق.

(٢) متراجعة جبانة.

(٣) سنده صحيح، رواه البيهقي ٢-٣٤٩: حدثنا الحاكم، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عقبة المجدر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: العباس حافظ ثقة. التقريب ٢٩٤ وعقبة صدوق صاحب حديث. التقريب ٣٩٤والبقية أئمة.

(٤) هذا الجزء فقط من قصة الطائف هو الصحيح، رواه الطبراني في الدعاء ٣١٥، وابن عدي في الكامل ٦-١١١ عن ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر.. وهذا السند ضعيف لأن ابن إسحاق مدلس وقد عنعن وإن كان هشام من أقرانه وشيوخه وقد ثبت لقاؤهما.. ويقويه ما رواه ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. ويزيد ثقة والقرظي تابعي ثقة، لكن تفاصيل القصة والدعاء غير صحيح وهو الذي قال فيه النبي ﷺ اللهم إليك أشكو ضعف قوتي... لأن ابن إسحاق مدلس وقد عنعن. ولا تقويه رواية القرظي، لأن ابن إسحاق كان دقيقًا، فعندما وصل للدعاء قال: فيما ذكر لي. أي دون سند.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١١٨٠ ومسلم ٣- ١٤٢٠.

وعمه أبا طالب.. سار حزينًا حتى لا مست أقدامه مكانًا يقال له قرن الثعالب، وفجأة غطت المكان سحابة، فرفع ﷺ رأسه وحدق بها، فإذا فيها جبريل عليه السلام. نظر جبريل إلى النبي الحزين وهتف: (إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم) شخص ﷺ باهتمام إلى الملك الآخر ملك الجبال وسكت. فهتف به ملك الجبال وسلم عليه، فرد ﷺ السلام فهتف ملك الجبال ثانية: (إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[١]. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)[٢].

عاد الملكان بعد هذا الجواب الذي يفيض رحمة، ويستشرف مستقبلًا أبيض لا يعرف اليأس، لم يكن ﷺ ممن ينتقم لنفسه، و(ما انتقم لنفسه في شيء)[٣] يومًا، ولو كان ينتقم لنفسه لكان دك الجبال يطحن تلك الجماجم، ولسالت من بين الأخشبين دماء الوثنيين.

رفض الانتقام، لأنه أتى بالحياة لا الموت، فانسل ﷺ لبيته، حيث أم كلثوم وفاطمة.. لا بد أنهما بكتا أمام هذا الشحوب على وجهه الكريم، وربما دمعت عيناه ﷺ عندما رأى ابنتيه، فتذكر حبيبته خديجة، وذكره بيته بها، فجدرانه وغرفه تتضوع بذكرياتها العطرة.. وهو اليوم في أقصى حالات الحزن والوجد والضعف. ولن يمسح همومه سوى معجزة تذهله عما جرى له.

عزاء مذهل

لم تنته الأحزان، لكن أمرًا عظيمًا حدث، وتسلية مذهلة نقلته مما هو فيه، فرأى في ليلة واحدة ما خلف الكواكب والنجوم، وما خلف السموات.. أُدخل في

(١) جبلا مكة.

(٢) بقية حديث البخاري.

(٣) صحيح البخاري ٨-١٦٠.

عالم لا علاقة له بمقاييس البشر، وتنقل بين عوالم لا تخضع لقوانين الأرض وحساباتها. متى كان ذلك؟ في أي سنة؟ في أي شهر؟ في أي يوم؟ كل ذلك غير معروف بالتحديد[١].

الإسراء والمعراج

في ليلة لا كالليالي.. كان ﷺ نائمًا، وفجأة أيقظه جبريل، وأحضر له مخلوقًا لا ينتمي لعالم الأرض، ولا يخضع لقوانينه. مخلوق غريب سيركبه، يدعى البراق، وصفه ﷺ فقال: (أُتيتُ بدابة أبيض، دون البغل، وفوق الحمار «البراق»)[٢]، ركب ﷺ البراق، فإذا هو ببيت المقدس بسرعة مذهلة، فأحد الصحابة يصف سرعته بأنه: (يضع خطوه عند أقصى طرفه)[٣]. هذا باختصار ما جاء عن البراق، الذي نسج حوله الكذابون الأساطير. فقالوا: إن له رأس آدمي، وعرفاً من اللؤلؤ، وأذنين من الزمرد، وغير ذلك من الأكاذيب.

وبعد الوصول قال ﷺ: (ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير.

---

(١) ليس هناك حديث صحيح يبين أي يوم أو أي شهر أو أي عام من أيام مكة حدث الإسراء، لذا فتحديد ليلة معينة للإسراء رجم بالغيب، يحتاج إلى سند علمي.

(٢) صحيح البخاري ٤- ١٠٩.

(٣) صحيح البخاري ٥- ٥٣.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكرياء، صلوات الله عليهما، فرحبا ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: (ورفعناه مكانًا عليًّا).

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحب، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها

كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف على أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى، وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف»، فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)[١]. وفي تلك الدرجات العلى من السمو التفت ﷺ إلى رفيق المعراج، فرآه قد تغير من خشية الجبار، وقال: (مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله)[٢] كالثوب الرقيق.. قد ذاب خشوعًا.

وفي تلك الرحلة رأى ﷺ غاية كل مؤمن، ومنتهى محطاته، وأقصى أمانيه وما يفوق أمانيه.. رأى الجنة، فقال ﷺ: (أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ[٣] اللؤلؤ،

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (الإيمان/ الإسراء) عن أنس.

(٢) حديث حسن، رواه الطبراني في الأوسط. انظر: صحيح الجامع (٢٠٦/٥).

(٣) قباب اللؤلؤ.

وإذا ترابها المسك)[١] الجنة.. الحلم الذي من أجله هانت المعاناة، ومن أجله نزفت القلوب شوقًا.. الجنة التي اختصرت مسافات الوجع.. في طرقاتها المطرزة بالجواهر، المرصوفة بالأحجار الكريمة تهادى ﷺ فسمع وجس شخص يسير فقال: (يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال)[٢]. بلال في الأرض.. في مكة سلعة تباع وتشترى، وتعرض في الأسواق، لكنه فوق السماوات يتبختر في طرقات الجنة، وبين قصورها وميادينها. هو أحد ساداتها الجرد المرد المكحلون، الذين فاقوا يوسف ﷺ جمالًا، فأجسادهم لا تعرف الأمراض أو الموت أو الإفرازات الجسدية من عرق أو بول أو غيرها. أجساد في منتهى النعومة والقوة والجمال والأناقة، وقبل ذلك وبعده هم في سلام آمنون، لا يخشون مستقبلًا ولا مجهولًا، ولا سلطة أو عدوًّا أو تغيرًا، إلا إلى الأجمل والأبهى.

وبعد هذه الرحلة الممتعة في عوالم لا يمكن وصفها.. عاد ﷺ إلى المسجد الأقصى، (فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)[٣]. ثم سلم وقابل من قابل، ثم خرج وركب البراق، فإذا هو في مكة في زمن يخرس الأرقام.. محمد يعود والناس نيام، فماذا سيقول لهم غدًا، وأي كفر ذلك الذي ستشهده بطحاء مكة؟

رسول الله حزين بعد الإسراء

بعد هذه الرحلة المعجزة التي خففت كل مصائبه، أصيب ﷺ بالقلق، حتى قال: («لما كانت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعد معتزلًا حزينًا»، فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال: كالمستهزئ:

---

(١) زيادة عند البخاري ١-١٣٥. ومسلم (الإسراء من كتاب الإيمان). واللفظ له.

(٢) حديث صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير.

(٣) سنده حسن، وقد مر معنا، ويشهد له ما بعده. وهو حديث مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

هل من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو جهل: ما هو؟ قال ﷺ: «إنه أسري بي الليلة». قال أبو جهل: إلى أين؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إلى بيت المقدس». قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال ﷺ: «نعم».) طرب قلب أبي جهل، فهذه في نظره ضربة قاضية سيوجهها لمحمد، لذا تظاهر بتصديقه، وقال: (أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم») انطلق أبو جهل يصيح بمجالس قريش يهتف بها: (هيا يا معشر بني كعب بن لؤي. فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما) نظر أبو جهل للنبي ﷺ فقال: (حدِّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». قالوا: إلى أين؟ قال ﷺ: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال ﷺ: «نعم». فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا)[١] (فقال ناس: نحن نصدق محمدًا بما يقول؟ فارتدوا كفارًا، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل)[٢]، لكن هناك من طلب دليلًا.

قريش تطلب الدليل

للتعجيز.. لتسجيل كذبة واحدة على رسول الله ﷺ يلوثون بها تاريخه النقي. طلبت قريش دليلًا على ما يقوله ﷺ.. طالبوه أن يصف بيت المقدس فبعضهم قد رآه، بدأ ﷺ يصف ما علق بذاكرته منه، وفجأة حدث شيء أقلقه حتى قال: (سألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به)[٣] يقول ﷺ: (ما زلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعت، فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقيل، فنعته، وأنا أنظر إليه) نظر بعضهم إلى بعض من الدهشة، فقالوا:

---

(١) سنده صحيح، وسيأتي تخريجه.

(٢) سنده صحيح، وسيأتي تخريجه.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم (الإيمان - ذكر المسيح).

(أمـا النعت فوالله لقد أصـاب)[١]. ويقـول ﷺ: (لقد رأيتنـي في الحجر وقريش تسـألني عن مسـراي، ويقول ﷺ: (لما كذبتني قريش قمـت في الحجر، فجلا الله لي بيـت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياتـه، وأنا أنظر إليه)[٢]، فابتهجت قلوب المؤمنين، وتهللت وجوههم، وانصـرف الشـامتون يجرون خيبتهـم، أما النبي ﷺ فاتجه يبشر أصحابه بـ:

تطبيق الصلاة المفروضة

كان ذلك بعد الإسراء مباشرة.. حيث نزل جبريل فعلم رسول الله ﷺ أوقات الصلاة عند الكعبة مرتين، فيقول ﷺ: («أمني جبريل عند البيت مرتين) حيث أمه ليبين له أمرين، الأمر الأول بداية وقت كل صلاة ونهايته، والأمر الآخر هو كيفية الصلاة، وبذا أصبحت الصلاة واجبة، مما جعل النبي ﷺ وبعض صحابته يترددون على المسجد، لكن الأمر أفزع أبا جهل، فجن جنونه.

أبو جهل يمنع الصلاة

كان بين أصحابه يرعد ويزبد، ويشعرهم بقدرته على القمع، فقال: (لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة، لأطأنَّ على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعل، لأخذته الملائكة)[٣]. وبعد هذا التهديد بمدة كان النبي ﷺ يمشى نحو الكعبة، وعندما أصبح أمامها توجه نحو بيت المقدس جاعلًا الكعبة بينها وبين بيت المقدس، ثم

---

(١) إسناده صحيح، رواه أحمد ١-٣٠٩ وغيره عن عوف عن زرارة بن أبي أوفى عن ابن عباس، وعوف ثقة كان يقال له: عوف الصدوق. التهذيب ٨-١٦ وشيخه زرارة بن أبي أوفى العامري الحرشي، تابعي ثقة عابد، مات فجأة وهو يصلي. التقريب ٢١٥.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٨٩٦.

كبر وشرع في الصلاة.. ركع لله وسجد ودعا وابتهل غير مبال بأبي جهل، فصاح الطاغوت، كالمعتوه نحوه ﷺ فقال: (ألم أنهك عن أن تصلي يا محمد؟! لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديًا مني)[1] نظر إليه النبي ﷺ فانتهره حتى أخرسه. لكن أبا جهل كان مسكونًا بحقد لا يطاق. أراد التباهي فـ(أتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته) أقبل والطغاة يحدقون، لكنهم فوجئوا بأبي جهل يقف، ثم يرجع للوراء ينكص على عقبيه، ووجهه للنبي ﷺ، ويقوم بحركة مخيفة.. إنه يحاول وقاية وجهه بيديه من شيء لا يرونه.. ظل الطاغوت يتراجع حتى أصبح بين أصحابه، فقالوا مندهشين: ما لك؟ فقال وأنفاسه تتقطع، وقلبه يرجف هلعًا: (إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا». وأنزل الله عز وجل[2] آيات من بينها: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[3] فامتثل ﷺ وسجد رغم أنف أبي جهل ومن معه، ومرت أيام، فازداد انحطاط الطواغيت في إيذائهم لدرجة متدنية، وصلت إلى تفتيش المزابل.

الانحطاط في الخصومة

ذات يوم كان الفتى النحيل عبد الله بن مسعود في المسجد قرب نبيه ﷺ وهو يصلي، فإذ بمجموعة من الوثنيين من بينهم أبو جهل الذي كان يراقب النبي بحقد

---

(١) سنده صحيح، رواه البيهقي ٢-١٩٢ وغيره من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. داود ثقة متقن. التقريب ٢٠٠ وشيخه مولى ابن عباس تابعي ثقة معروف.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (كتاب المنافقين).

(٣) سورة العلق.

أسود، ثم يلتفت إلى عصابته، ويقول: (أيكم يقوم إلى سلا جزور[1] «بني فلان» فيأخذه، فيضعه على كتفي محمد إذا سجد؟) نهض عقبة ابن أبي معيط واتجه نحو زبالة الحي يفتشها ويقلبها، ثم يمد يده القذرة ويقبض على مشيمة الناقة التي تلمع، ثم يقبل مبتهجًا بها، وهي تتدلى بين يديه قد لونتها الدماء والأوساخ والتراب، ثم دخل بها المسجد الحرام وتوجه جنوب الكعبة، حيث يصلي النبي، ثم وقف خلفه وابن مسعود تفيض عيناه لا يستطيع عمل شيء، (فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض... والنبي ساجد ما يرفع رأسه)، كان هناك إنسان مجهول يرقب المشهد بحزن، لكنه لا يستطيع عمل شيء، فأطلق قدميه نحو بيت النبي ﷺ، ولما وصل أخبر فاطمة بما حدث، فأقبلت تركض نحو أبيها الساجد، ولما وصلت طرحت عن ظهره القذارة، ثم التفتت إليهم ونظرت إليهم والدموع تغرق عينيها البريئتين، فلم تطق سفالتهم وانفجرت تسبهم، ولما أتم ﷺ صلاته دعا ربه بصوت مرتفع سمعوه، فارتعدت فرائصهم له. دعا عليهم ثلاث مرات، فقال: (اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال ﷺ: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط)[2].

ثم أخذ بيد ابنته وانصرف لبيته غير آيس من نصر الله، فهو يدعو جبار السماوات والأرض، لكنه لم يكتف بالدعاء، واصل البحث عمن يتبنى دعوته من القبائل، بعد أن أصبحت قريش جدارًا من العناد والحصار.. جد ﷺ في البحث عن أنصار يحملون دين الله بقلوبهم.. يفتش عن أرض وصدور أرحب، حتى قال أحد الصحابة: (إن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الحاج في منازلهم، في المواسم:

---

(١) الجزور من الإبل يطلق على الذكر والأنثى، والمراد به هنا سلا الأنثى من الإبل.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم الجهاد والسير، والبيهقي ٢-٢٨ واللفظ له.



مجنة، وعكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة. فلا يجد أحدًا يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مصر، أو من اليمن، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه، فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك. يمشي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله عز وجل، يشيرون إليه بأصابعهم)[١] ومرت السنوات العشر، فالتقى ﷺ بوافد من همدان، وقد وافق الهمداني على استقباله.

هل يهاجر النبي إلى همدان

(كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟ فأتاه رجل من همدان، فقال الرسول ﷺ: ممن أنت؟ فقال الرجل: من همدان. قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟ قال الرجل: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل، قال ﷺ: نعم. فانطلق)[٢] انطلق الهمداني الطيب إلى دياره، وعاد النبي ﷺ إلى بيته في ليالي الحج تلك.. عاد حيث لا خديجة تمسح الجراح وتحنو عليه، ما ذكر امرأة غيرها، ولا طرق بابًا للزواج بعدها! كأنها لم تمت، لكن إرادة الله كانت وحيًا في المنام.

فتاة وحرير ليالي الحج

في ليلة من ليالي الحج، وبالتحديد قبل عامين من الهجرة كان ﷺ في بيته نائمًا، فجاءه في المنام رجل يحمل هدية.. يحمل ابنة صاحبه الصديق أبي بكر

(١) هو قطعة من حديث صحيح، سيمر معنا عند لقاء الأنصار.

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٣٩٠ وغيره من طرق عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر. وسالم ثقة سمع من جابر. جامع التحصيل ٢١٧ وعثمان ثقة. التهذيب ٧-١٥٥ وإسرائيل ابن يونس ثقة معروف. التهذيب ١-٢٦١.

(عائشة) رضي الله عنها هدية من السماء محمولة وموشحة بمنديل من حرير، فيكشفها ﷺ فإذا هي عائشة، فيقول الملك: هذه امرأتك، فيقول ﷺ: (إن كان هذا من عند الله يمضه)[1] أي يتمه. لكن عائشة وهي التي تجاوزت السابعة كانت مخطوبة لشاب يدعى (جبير بن مطعم) وهو ما زال وثنيًّا، وكان من عادة العرب الزواج بهذا السن، فما هو تفسير هذه الرؤيا.

الزواج بعائشة وسودة

بعد وفاة خديجة أقبلت امرأة صالحة وكريمة، يقال لها خولة بنت حكيم، وهي زوجة صحابي زاهد، يقال له عثمان بن مظعون، وهو خال عبد الله بن عمر. أقبلت خولة نحو بيت النبي ﷺ فاستأذنت فأذن لها، فلما دخلت وجلست قالت له: (يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال ﷺ: من؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال ﷺ : فمن البكر؟ قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك، عائشة بنت أبي بكر. قال رسول الله ﷺ: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول. قال ﷺ: فاذهبي فاذكريها عليَّ).

انطلقت خولة يحملها حلم بإسعاد نبيها وإدخال البهجة إلى نفسه.. وصلت بيت أبي بكر واستأذنت، فرحبت بها زوجة الصديق (أم رومان)، فقالت لها: (يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت أم رومان: انتظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر. فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل عليكم من الخير والبركة. قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال أبو بكر: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه؟) لم تيأس خولة عادت لنبيها ﷺ (فذكرت له

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٥-١٩٥٣. ومعنى يمضه: أي يتمه.

ذلك. قال ﷺ: ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي. فرجعت فذكرت ذلك)

بقيت مشكلة أن عائشة مخطوبة، لذا نظر أبو بكر إلى خولة، وقال لها: (انتظري. وخرج)، وانطلق نحو بيت المطعم بن عدي الرجل الشهم الذي تصفه أم رومان، فتقول: (والله ما وعد وعدًا قط فأخلفه) دخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده أم جبير خطيب عائشة، فبادرته المرأة خائفة على ابنها من اعتناق الإسلام، فقالت لأبي بكر: (يا ابن أبي قحافة، لعلك مصب صاحبنا-مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟) فنظر أبو بكر للمطعم، وقال: (أقول هذه تقول؟ قال المطعم: إنها تقول ذلك) فخرج أبو بكر وقد أذهب الله عز وجل ما كان في نفسه من وعده للمطعم وابنه، وعاد لبيته مبتهجًا بمصاهرة نبيه ﷺ، ولما دخل بيته نظر إلى خولة وكله سعادة، فقال لها: (ادعي لي رسول الله ﷺ).

خرجت خولة ودعت نبيها، فجاء ﷺ وتم الزواج، لكن عائشة لم تزف إليه طوال بقائه في مكة، وبعد أن تم عقد القرآن وتلقى أهل البيت التهاني خرجت خولة نحو بيت سودة بنت زمعة، وكان أخوها عبد بن زمعة يكره رسول الله ﷺ، لكنه لم يكن في مكة كان يؤدي مناسك الحج.

دخلت خولة على سودة فقالت: (ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة؟ قالت سودة: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه. فقالت والسعادة تغمر قلبها: (ادخلي إلى أبي فاذكري ذاك له، وكان شيخًا كبيرًا قد أدركه السن، قد تخلف عن الحج) قامت خولة فدخلت عليه، فحيته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قلت: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبدالله ﷺ أخطب عليه سودة. قال: كفء كريم. ماذا تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذاك. قال: ادعيها) فدعتها فقال الشيخ وكله حدب على ابنته: (أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو

كفء كريم. أتحبين أن أزوجك به؟ قالت سودة: نعم. قال: ادعيه لي)، انطلقت خولة مرة أخرى للنبي ﷺ وأخبرته، فجاء فزوجه الشيخ ابنته، وتم الزفاف، وانتقلت إلى بيته بعكس عائشة الصغيرة التي ظلت في بيت أبيها. ولما انتهى الحج وعاد حجاج مكة لبيوتهم عاد عبد بن زمعة، فافتقد أخته وسأل أهل البيت عنها، فأخبروه أنها تزوجت محمدًا وانتقلت لبيته، فهوى على الأرض حزنًا وغضبًا، وصار يمد يديه على الأرض، ويملأ كفيه بالتراب (فجعل يحثي في رأسه التراب)[1].

أصبحت سودة أول امرأة تدخل بيته ﷺ بعد خديجة، وقد سبق لها الزواج كخديجة، فالتحقت ببيته ﷺ تصلح من شأنه، وترعاه وتزيح عنه الكدر والأذى.

لم ينشغل ﷺ بعروسه عن رسالته، ظل يتردد على القبائل في ذلك الحج يرافقه أبو بكر الصديق وابن أخيه العشريني علي بن أبي طالب، دخلوا على خيام ربيعة، فجرت بين أبي بكر وفتيانها قصة جميلة منسوجة بالأشعار والأنساب، ثم:

توجه النبي لمخيم مفروق وقومه

أشرق النبي ﷺ وأبو بكر وعلي عليهما السلام بين خيام منى، حتى توقفوا أمام مخيمات بني شيبان بن ثعلبة، وكان قائدهم يدعى مفروق بن عمرو.. رجل وسيم قد أرخى جديلتيه على صدره، ومعه رجل الدين هانىء بن قبيصة، ورجل الحرب المثنى ابن حارثة وغيرهم. فسأله أبو بكر عن عددهم فقال: (نزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة، وإنا لأشد ما نكون حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله) تأمل مفروق تلك الوجوه المشرقة، فأدرك أنه أمام من ملأت أخباره الدنيا، فقال: لعلك أخا قريش؟ فتقدم ﷺ فجلس، أما أبو بكر

---

(١) سنده حسن، رواه أحمد ٦-٢١٠ وغيره عن محمد بن عمرو بن علقمة حدثنا أبو سلمة ويحيى قالا: وظاهره الإرسال، لكنه جاء متصلًا، كما في سيرة الذهبي، حيث قال يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: قالت عائشة. وهو ممن روى عنها، وهو حسن من أجل ابن علقمة، فهو حسن الحديث. وقد جاء الحديث متصلًا عند الطبراني ٢٣-٢٤.

فلم يجلس، بل قام ونشر يديه بثوب يظلل نبيه من حرارة الشمس، فقال ﷺ بعد أن دعاهم إلى الشهادتين: (أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشًا قد ظاهرت على أمر الله وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق والله الغني الحميد). تعجبوا من إجلال أصحابه له، وصدعت قلوبهم كلمات المولى حين تلا: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾، فاعترف مفروق قائلا: (دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك)، ثم تكلم رفاقه فأخبروه أن بينهم وبين كسرى معاهدة، أن لا يحدثوا حدثًا، ولا يؤوا محدثًا، وأن دعوته هذه يكرهها الملوك، لذا قدموا اقتراحًا بأن ينصروه إن تعرض لاعتداء من قبائل العرب لا من جهة الفرس؟ فقال ﷺ: (ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، ثم قال كلمات تمطر معتنقيها بمستقبل أبيض، فقال: (أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال أحدهم: اللهم فلك ذلك. فتلا ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ ثم ودعهم ومد يده نحو أبي بكر، ونهض قابضًا على يد الصديق، وهو معجب بمعرفة الصديق بأنسابهم، فقال ﷺ مثنيًا عليهم: (يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية، ما أشرفها بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم)[1]، ثم تحرك وصاحباه قليلًا، فاستقبلتهم خيام كالعطور.. استقبلتهم أكرم وأجمل خيام في الدنيا:

---

(١) سنده قوي، رواه البيهقي. الدلائل ٢-٤٢٢ واللفظ له، وأبو نعيم ٢٨٢ من طرق عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن ابن عباس عن علي. وأبان ثقة، وقال النسائي: ثقة، لكنه قد عرف بالتشيع. قال الحافظ: (التشيع في عرف المتقدمين: اعتقاد تفضيل علي على عثمان.. وأما التشيع في عرف المتأخرين فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافض الغالي ولا كرامة)، وهذا الرجل ليس من الرافضة، ولذلك قال الحافظ في التقريب: ثقة تكلم فيه للتشيع. وعكرمة: ثقة مر معنا كثيرًا. وقد تكلمت عن الحديث وطرقه بأطول من هذا في كتاب (الصحيح من أحاديث السيرة). وقد قال الحافظ في الفتح: وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن. انظر: فتح الباري (٧١/١٥) وقول القسطلاني في المواهب: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بإسناد حسن.

خيام الأوس والخزرج التي غيرت التاريخ

بعد ذلك الحوار الممتع، الذي لم يكدره أبو لهب ولا أبو جهل.. تهادى النبي ﷺ وأبو بكر وعلي إلى خيام الأوس والخزرج القادمين من حرة يثرب، فكان لقاء الغرباء بالغرباء.. جدد الدنيا وحول التاريخ، وأعاد للإنسانية المطحونة مكانتها. لم يعرفهم في البداية، فهو لم يلتق بتلك الوجوه، فقال: (ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال ﷺ: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهودًا كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك، وأصحاب أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالت اليهود: إن نبيًّا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[1]. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله عز وجل). بكلمات رفعت وعيهم.

كلمات جعلت بعضهم ينظر إلى بعض، فتشاوروا، وقال بعضهم لبعض: (يا قوم اعلموا والله أن هذا الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه)، ولما تشاوروا (أجابوه لمَّا دعاهم إلى الله عز وجل، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجل أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا)[2]. ولما وصلوا إلى يثرب.. تسللوا إلى قلوب بعض قومهم، فاستجاب لهم

---

(١) إرم: قوم منهم عاد، وقيل: مدينة لهم. وهذه العبارة لموجودة في توراة اليهود حتى اليوم.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه البيهقي ٢-٤٣٣ وأبو نعيم ٢٩٨ والطبراني. حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه: لما لقيهم، فالأشياخ هم الذين قابلوا رسول الله ﷺ، وعاصم بن عمر روى عن بعض الصحابة، وهو تابعي ثقة.

من اسـتجاب وأسلموا، فصار في تلك الديار من يعبد الله وحده لا شريك له، فلما كان موسـم الحج التالي قدمت قوافل يثرب نحو مكة، وأتمت مناسـك الحج، ومن بينهم رجال مؤمنون ينتظرون بشوق أواخر أيام الحج.. أيام منى.

العقبة الأولى

خيم الليل وانتثرت نجومه، وظهر القمر شبه مكتمل، ولما هجع الحجاج وسكنت خيامهم، وانطفأت نيران منى. إذ بطيف النبي ﷺ يتهادى نحو مكان محدد في منى يسمى (العقبة)، وهناك كان بانتظاره مجموعة من مؤمني الأوس والخزرج. سلم النبي ﷺ عليهم وجلس معهم، وبعد حديث هامس وقصير طلب منهم البيعة فبايعوه. أما عددهم، فيقول عنه أحدهم وهو عبادة بن الصامت: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجـلاً)(١) ويقول آخر وهو الشاعر كعب بن مالك: (لقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام)(٢). وممن شهد العقبة: الفتى جابر بن عبد الله الأنصاري القائل: (أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة)(٣).

انتهى اللقاء وسافر الاثنا عشر أنصاريًّا وتحولوا إلى نقباء لنشر التوحيد، فإن اشتاق أحد لمزيد من العلم ركب مطيته وتوجه بسرية إلى مكة.. إلى رسول الله ﷺ (يأتيه الرجل، فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام)(٤).

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق/ ابن هشام ٢-٥٧ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابجي، عن عبادة بن الصامت، ابن إسحاق سمع من شيخه الثقة يزيد. تهذيب ١١-٣١٨ ومرثد تابعي ثقة. التهذيب ١٠-٨٢ وابن عسيلة رحمه الله رحل إلى النبي ﷺ فوجده قد مات، ووثقه العجلي. التهذيب ٦-٢٢٩.

(٢) حديث صحيح، (البخاري -مناقب الأنصار).

(٣) حديث صحيح، (البخاري -مناقب الأنصار).

(٤) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٢٢ وغيره من طريق: ابن خثيم عن أبي الزبير أن جابرًا حدثه: أبو الزبير محمد ابن مسلم بن تدرس ثقة وهو مدلس، لكنه سمع من جابر هنا. وعبد الله بن عثمان بن خثيم ثقة. قاله النسائي وابن سعد والعجلي، وزاد ابن معين: حجة.

بدأ انتشار الإسلام في بيوت المدينة.. وسط قلق رجل وثني يقال له عبدالله ابن أبي ابن سلول، فقد كان يحلم بزعامة يثرب بعد حرب بعاث، لكن يبدو أن يثرب أصبحت أكبر منه ومن أحلامه، وهي تكتشف في الإسلام ما ينتشلها من حالة التمزق والثارات والأحقاد. وتمر الأيام ويأتي الحج، ويستعد وفد أكبر من الوفد السابق للقاء النبي ﷺ. ويتدفق الحجاج، ويصل حجاج يثرب، ويلتقي أفراد منهم سرًّا بالنبي ﷺ، ويحددون لقاء سريًّا ليلة الثاني عشر من ذي الحجة أوسط أيام التشريق، في العقبة من منطقة منى.

العقبة الثانية

بدأت مناسك الحج فقط، فلا وقت عند الوثنيين للعمرة تلك الأيام، بل (كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض)[1]، وطاف الناس وسعوا ووقفوا بعرفة إلا قريشًا كانت تقف بمزدلفة، وفي مساء الليلة الموعودة كانت قلوب تسعة وستون أنصاريًّا تخفق بانتظار الموعد، ودون أن يشعر وثنيو يثرب بالأمر تشاور مجموعة من الأنصار، ثم اتجهوا نحو شيخ طيب من شيوخهم، يدعى عبدالله بن عمرو بن حرام، فانفردوا به، ومن بينهم الشاعر كعب بن مالك، الذي يقول: (أخذناه فقلنا: يا أبا جابر، والله إنا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه، فتكون لهذه النار غدًا حطبًا، وإن الله قد بعث رسولًا يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد واعدنا رسول الله ﷺ للبيعة. فأسلم وطهر ثيابه، وحضرها معنا، فكان نقيبًا).

خيم الليل واشتعلت نيران منى، ومع مرور الليل بدأت الرؤوس تثقل والنيران تخبو، لتغرق منى في ظلام دامس ونوم عميق، وشيئًا فشيئًا ودون ضجيج بدأ

---

(١) البخاري ٢- ١٤٢.

سبعون أنصاريًّا ينسلون من فرشهم، ثم يتسللون تسلل القطا[1]، ويتجهون نحو العقبة، تحلق السبعون في هدوء.. يتلفتون خوفًا من طواغيت، وفجأة أشرق عليهم بدر الأرض. أشرق عليهم النبي ﷺ، ومعه عمه العباس فقط. سلم النبي على صحابته الجدد، فردوا التحية وجلس بهدوء، فلم يتكلم، بل تكلم عمه العباس الذي كان يخفي إيمانه. نظر العباس إلى تلك الوجوه المتلهفة، فقال: (إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وهو في منعة من قومه وبلاده، وقد منعناه، ممن هو على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلانًا فاتركوه في قومه، فإنه في منعة من عشيرته وقومه)، سكت العباس، فقال متكلم الأنصار: (قد سمعنا ما قلت. تكلم يا رسول الله. فتكلم رسول الله ﷺ، ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغب في الإسلام).

انسابت كلماته كالماء البارد كالنسيم المنعش، فأعلن السبعون إيمانهم وتصديقهم، ثم قالوا: (يا رسول الله خذ لربك ولنفسك. فقال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم). فقال أحد رؤوسهم، وهو البراء ابن معرور: (نعم، والذي بعثك بالحق ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر).

هنا تدخل أنصاري حكيم، يقال له أبو الهيثم بن التيهان، وكأنه يحرض عزيمتهم على المضي في توثيق المعاهدة، فاشترط على قائده ونبيه شروطًا، فقال: (يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟) خفق قلب القائد ﷺ لذلك الشرط، برغم أنه نبي، وبرغم أنه سيصبح حاكم دولة، فأكد التزامه للأنصار بكلمات تنضح بالتضحية والفداء، فقال ﷺ: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم

---

(١) نوع من اليمام، يؤثر الحياة في الصحراء.

وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم. فقال البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك. فقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا». فأخرجوهم له.. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا)[1]. فتماهت القلوب وتصافحت الأيدي في مهرجان حب وولاء، ثم قال ﷺ: (ارفضوا[2] إلى رحالكم)، فاجتاح الحماس أنصاري يقال له العباس بن عبادة بن نضلة، فقال: (يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم)، يقول أحدهم: (فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا)، وغفا الجميع سعداء، ثم أشرقت الشمس على منى والحجيج، وفجأة ثار غبار خيل مقبلة من بعيد نحو مخيمات الأوس والخزرج. اقتربت الخيل فإذا هم فرسان من وثنيي قريش، في مقدمتهم شاب عليه نعلان جديدان هو أخو أبي جهل واسمه الحارث بن هشام، توقفت الخيل ونهض رجال الأوس يستطلعون الخبر، فقال الفرسان: (يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا، لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن ينشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم؟) نظر الوثنيون إلى بعضهم مستغربين، وحلفوا فقالوا: والله (ما كان من هذا شيء، وما فعلناه).

كان الشيخ أبو جابر ساكتًا هو وبقية المؤمنين، لكن الشاعر كعب بن مالك أحب تشتيت الموضوع، فنظر إلى نعال الحارث بن هشام، ثم التفت إلى والد جابر ابن عبدالله، وهتف به: (يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا، وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟)، سمع الفتى تلك الكلمات، فانحنى نحو نعليه وانتزعهما من قدميه، ثم رمى بهما إلى كعب، وقال: (والله

---

(١) انظر تخريجه في نهاية هذا الخبر، وهو حديث صحيح.

(٢) ارفضوا، أي تفرقوا إلى رحالكم.

لتلبسنهما. فقال أبو جابر: مهلًا أحفظت لعمر الله الرجل -يقول أخجلته، أردد عليه نعليه. فقال كعب: والله لا أردهما)، ثم همس بأبي جابر، وقال: (فَأْلٌ صالح، والله إني لأرجو أن أسلبنه)[١].

انقضى الحج وعادت قوافل الأنصار نحو يثرب، لتتهيأ لاستقبال قائدها وباني دولتها، أما قريش فالأيام تزيدها جنونًا، وطغاتها حائرون كلما أغاروا على مسلم ضعيف لم يجدوه، لم يجدوا في بيته سوى الجدران.. سوى الرياح تنوح باكية تبحث عن أحبتها، تصطفق أبوابها.. تضطرب كقلب عاشق مهجور، فما الذي حدث يا مكة؟ ماذا فعلت بك تلك الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ:

رؤيا

رآها ﷺ، فأسر بها إلى أصحابه المثقلين بقيود قريش. قال لهم: (إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان[٢]. فهاجر من هاجر قِبَلَ[٣] المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة)[٤]، وأرسل النبي للمدينة رجلين يثقفان يثرب بالقرآن.

مصعب والأعمى في يثرب

مصعب بن عمير الذي يلبس الثياب المرقعة، وابن أم مكتوم الأعمى المهمش في مكة في الطريق إلى يثرب، فالقرآن يمدهما بطاقة لاحدود لها. يصلان يثرب..

---

(١) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٢-٤٤٤: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن القين، أخو بني سلمة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه كعب بن مالك. شيخ ابن إسحاق، ثقة من رجال الشيخين، وأخوه ثقة له رؤية. التقريب ٣١٩.

(٢) الحرة أرض ذات حجارة سوداء، كأنها أحرقت بالنار.

(٣) نحو..

(٤) صحيح البخاري ٢- ٣٠٨.

يحطان بين نخيلها، حتى قال أحدهم: (أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله عنهما)[١].

أبو بكر يريد الهجرة

تجهز أبو بكر الصديق للرحيل إلى يثرب، فعلم النبي ﷺ بذلك فأمره بالبقاء، وقال له: (على رسلك[٢]، فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال ﷺ: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده: ورق السمر، وهو الخبط، أربعة أشهر)[٣].

رسول الله يؤمر بالهجرة

هاجر معظم الصحابة، وكان لكل مهاجر قصة دامية، ولم يبق سوى النبي ﷺ وصاحبه وعائلتيهما. وفي يوم من أيام الصيف الحارة، وفي حموة الظهيرة والتهاب الرمضاء كانت الطرقات قد خلت من المارة، لكن طيفًا جميلًا متلثمًا يمشي متنكرًا نحو بيت أبي بكر: في ساعة لم يأت فيها بيت أبي بكر من قبل، ولما وصله استأذن ففتح الباب، فقال الفاتح: (هذا رسول الله ﷺ متقنعًا[٤]. فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: اخرج من عندك فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال ﷺ: فإني قد أذن لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصحابة[٥] بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: نعم. قال أبو بكر: فخذ

---

(١) صحيح، رواه البخاري ٣- ١٤٢٨.

(٢) تمهل أو انتظر.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٤) متغطيًا بثوب، متخفيًا عن أعين قريش.

(٥) أي أريد صحبتك في هذه الهجرة.

بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: بالثمن)[١]. أي سأدفع قيمتها.

هذا ما كان يفعله النبي القائد ﷺ، أما أعداء الإسلام والحياة وسدنة الأصنام، فقد عقدوا في تلك الأيام اجتماعًا حاسمًا في مكان يقال له:

دار الندوة

تحولت قريش في اجتماعها المتطرف إلى حمم من الغضب والنقاش المحموم، فكان ملخص اجتماعهم يدور حول ثلاث خيارات: حبس محمد أو قتله أو نفيه. خيارات أخبر الله سبحانه نبيه عنها، فقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٢]، بينما كان بيت أبي بكر خلية للنشاط والتخطيط والعمل المنظم بصمت وسرية بالغة، فأم رومان وابنتها عائشة، واختها غير الشقيقة أسماء فكن يصنعن سفرة، وهاهي عائشة أصغر أعضاء فريق العمل، تقول: (فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين)[٣].

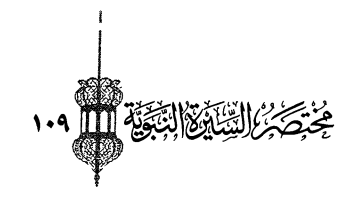
أما أسماء العائدة من الحبشة والحامل بأشهرها الأخيرة من زوجها المسافر الشاب الزبير بن العوام، فتقول: (صُنعت سفرة رسول الله ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به)، هنا التفتت إلى والدها، وقالت: (والله ما أجد شيئًا أربط به إلا نطاقي. قال:

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٢) سورة الأنفال.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري، وقد مر معنا أوله.



فشقيه باثنين، فاربطيه بواحد السقاء، وبالآخر السفرة)[١]، مدت أسماء يديها إلى ذلك النطاق الذي يلتف حول ذلك البطن الذي يعد بمولود جميل، ثم حلته وشقته نصفين، ونفذت ما طلبه منها والدها العظيم، فسميت منذ تلك اللحظة ذات النطاقين. بينما أمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يبيت على فراشه ليلة الرحيل للتمويه.

كان الجو مشحونًا ومخيفًا في مكة، لدرجة أن انطلق ﷺ إلى مكان يقال له بئر ميمون، فلما جاء أبو بكر وجد عليًّا (فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه)[٢]. فانطلق نحو البئر، ثم سلكا طريقًا معاكسًا لطريق يثرب، وبالتأكيد لم يكونا في نزهة خارج مكة.. كانا مسرعين يقصدان جبلًا عيَّناه وحدداه، ورسماه ضمن خارطة الهجرة وخطة الهروب، وهما الآن يعجان إليه، وفي الطريق لم يكن سير أبي بكر طبيعيًّا.. كان مرتبكًا.. طريقة سيره توحي بذلك، فهو يحمل روحه في إحدى يديه، ويحمل باليد الأخرى خمسة آلاف درهم هي كل ما يملكه من نقد، لكن حركته واضطرابه لا توحي بأنه خائف على روحه، ولا على ثروته؟ كان خائفًا على نبيه، فخلال الطريق كان نبي الله (لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات)[٣] ظل كذلك حتى صعدوا الجبل.. حتى دخلوا الغار، وفي أثناء الدخول وتهيئة الغار جرح أبو بكر ونزف جرحه، فقال: لجرحه:

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

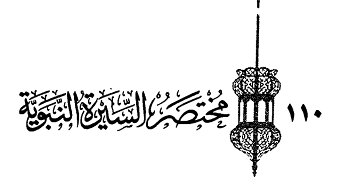
توجه القتلة إلى بيت النبي ﷺ ليجهزوا عليه، فلم يجدوه ووجدوا عليًّا، فهاجوا وماجوا، وملأوا مكة ضجيجًا وتهييجًا، وبدأ البحث في البيوت والطرقات والشعاب والأودية، وانتشر خبر الهروب من مكة حتى وصل شيخًا أعمى يقال له

---

(١) رواه البخاري ٥-٦١.

(٢) سنده جيد، رواه أحمد ١٣٣٠ من طريقين، عن أبي عوانة، حدثنا أبو بلج، حدثنا عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانة اسمه: وضاح بن عبد الله اليشكري، ثقة ثبت. التقريب ٥٨٠ وشيخه يحيى بن سليم حديثه حسن إذا لم يخالف، أما عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأودي، فهو مخضرم مشهور وثقة عابد. التقريب ٤٢٧.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٦).



أبو قحافة، هو والد أبي بكر، فأدركته الرحمة بحفيداته، فأخذ عصاه ودب دبيب القلب الولهان نحو بيت ابنه الصديق.. سار الشيخ يتوكأ حتى وصل البيت.

نادى الشيخ أهل البيت فطربت لصوته قلوب حفيداته ورحبن به وأجلسنه، لكن الشيخ ما جاء ليرفه عن نفسه أو يسرد قصص السابقين.. جاء ليتفقد حبيباته، لذا سألهن سؤال من حمل أبا بكر بيديه رضيعًا، ولاعبه صغيرًا، وأقر الله عينه به شابًا، وعرفه مجاهدًا سخيًا، فقال:

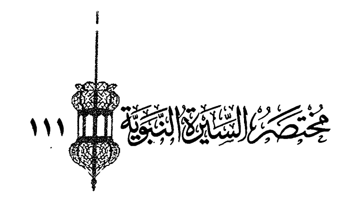
(والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه) فقالت أسماء: (كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا) تقول أسماء: (فأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة[1] في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان يترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا إبلاغ لكم، قالت أسماء رضي الله عنها: ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكن أردت أن أسكت هذا الشيخ بذلك)[2]. سكت الشيخ وانصرف لبيته، لكن قريشًا لم تسكت:

قريش غاضبة

تفجرت كالشظايا في كل مكان.. بين الأودية والشعاب.. بين الجبال والدروب.. تقلب الصخور، وتفتح الأبواب وتهز أغصان الأشجار، وتسأل المسافرين وتستجوب الرعاة، وربما استعانت بالعرافين والسحرة.. تتمنى لو تسأل الريح وحبات الرمال. وفي إحدى الأيام شعر النبي ﷺ وصاحبه بحركة وأصوات أسفل الجبل.. حدقا فإذا طواغيت قريش يحومون حول الجبل، ثم يبدأون التسلق كعناكب سامة، فعادا إلى

(١) الكوة: الخرق في الجدار.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عن جدته أسماء. يحيى وعباد ثقتان. التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس.



غارهما.. حامت الأقدام حول فم الغار في لحظات تحبس الأنفاس، وتتقلب فيها القلوب والأبصار، ويهجم الخوف والرعب من شقوق الغار.. من سيوف الطغاة، ومن العيون التي تتطاير إجرامًا وشررًا، لكن:

الله ثالثهما

يصف الصديق تلك اللحظات الحاسمة.. تلك اللحظات التي تنهض فيها الأمور من قاع الانكسار نحو قمة الانتصار، فيقول: (نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»)[1].

إذا كان الأمر كذلك، فوالله لو سار مع قريش كل الأحياء، وتشققت المقابر فخرج الأموات.. يسحبون أكفانهم خلف أبي جهل.. يقلبون معه حجارة الأرض، ويجتشون أشجارها، ويزحزحون جبالها ما قدروا على اثنين الله ثالثهما.

انحدرت قريش من ذلك الجبل تلهث وتلهث، وتتصبب عرقًا وهزيمة.. تدحرجت أمامها كبرياؤها وغطرستها، لكن شرها لم ييأس.. عاد زعماء المشركين لمكة، واجتمعوا مرة أخرى، وبعد حوار ولغط قرروا تحريك الجزيرة العربية كلها للبحث عن النبي ﷺ وصاحبه، فانفض الاجتماع عن رصد مئة من الإبل، مكافأة لمن يقتل أحدهما أو يأسره.

مطلوب حيًا أو ميتًا

شعرت قريش بالإحباط، فأوكلت أمر إكمال مهمة البحث لصائدي الجوائز من الوثنيين العرب، أما النبي ﷺ فلم ينحدر من الجبل مباشرة، لقد قرر أن

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم ٤-١٨٥٤ واللفظ له.

يمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام، وهي كفيلة بالفتِّ من عزيمة الباحثين، لكن كيف سيعلم رسول الله ﷺ وصاحبه بما يجري؟

كان الجواب شابًّا من أبناء أبي بكر الصديق أيضًا.. ملأه الإيمان حبًّا وحماسًا وبذلًا.. اسمه: عبد الله بن أبي بكر.. يعيش مع قريش في وضح النهار.. يخالطهم يكلمهم.. يسمع منهم.. يلتقط أخبارهم ومشاريعهم، ثم يحملها إذا جن المساء، فيصعد بها الجبل. وفي الغار تكون أخبار قريش ومخططاتها بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبه، أما الطعام، فقد كلف به شاب تربى في بيت أبي بكر أيضًا، وهو أحد رعاة الغنم، واسمه: عامر بن فهيرة، فمهنته تقتضي أن يكون خارج المدينة، فكان يحمل الزاد إليهما بعد العشاء، ثم ينصرف عنهما قبل طلوع الشمس أيضًا، أما الراحلتان التي اشتراهما أبو بكر، فليستا عند عبد الله، ولا عند عامر، بل عند رجل مشرك أمين من بني الديل، وهو من أعلم الناس بطبيعة الطريق ومسالكه، وقد واعده ﷺ الليلة الثالثة ليحضر الراحلتين بعيدًا عن عيون قريش. وفي الوقت المحدد التقى الثلاثة يصحبهم عامر بن فهيرة فهل هو الوداع يامكة؟

أجل هو الوداع برغم أنها تسكن قلبه.. برغم أنها مسقط رأسه ومرتع الصبا والشباب والكهولة وأرض النبوة.. هو الوداع فهو يقول وقلبه يعتصر ألمًا: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليَّ، ولولا أني أُخْرِجتُ منك ما خرجت)[1]. (ما أطيبك من بلدٍ وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[2]. سار ﷺ وصاحبه مع الدليل الذي سلك بهم طريقًا طويلًا لا تسلكه القوافل، سلك بهم طريق الساحل الذي كان شبه خال من المسافرين، فظلوا يسيرون طوال الليل.

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد ٣-٣٠٥ وغيره من طرق عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله ابن عدي رضي الله عنه. أبو سلمة والزهري تابعيان ثقتان.

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي وغيره. صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٢/٩٧١).

أشرقت الشمس فتوقفوا للصلاة، ثم واصلوا سيرهم حتى ارتفعت الشمس فوق الرؤوس وتصبب العرق.. عندها تلفت الصديق وكان كثير التلفت، فأبصر صخرة كبيرة فانطلق نحوها، ولما وصلها وجد لها ظلًّا، فسوى الأرض وفرش عليها فروة كانت معه، ثم دعا نبيه للراحة والاضطجاع عليها، ولما غفا قائده ﷺ انطلق مجددًا يبحث هنا وهناك، حتى صادف بعد مسافة راعي غنم فسأله: لمن أنت يا غلام؟ فأخبره أنه لرجل من قريش يعرفه أبو بكر. فسأله: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم. يقول أبوبكر: (فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فضرب إحدى كفيه على الأخرى، فحلب لي). أخذ أبو بكر اللبن الدافىء، وكان معه قربة صغيرة فصب قليلًا من الماء البارد على اللبن، ثم عاد فوجد النبي ﷺ قد استيقظ فاستأذنه بلطف: (اشرب يا رسول الله. فشرب ﷺ) وشربوا. ولما مالت الشمس قال أبو بكر: (قد آن الرحيل يا رسول الله)[1] فنهضوا وواصلوا رحلتهم، فكان ﷺ يقرأ القرآن، ولا يلتفت، أما الصديق فيكثر التلفت والمراقبة.

وفجأة رآهم رجل من بني مدلج، لم يأبه لهم فقد كان في طريقه إلى مضارب قومه، وعندما أقبل على خيامهم رأى كبار قومه قد اجتمعوا في مجلس من مجالسهم، فقصدهم وجلس معهم، وبينما كانوا يتبادلون الحديث أقبل فارس قرشي وحياهم ثم أخبرهم أن: (كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، كل واحد منهما، من قتله أو أسره)[2]، وكان أبرز فرسان القبيلة شجاع يقال له سراقة بن مالك. نظر الرجل المسافر لسراقة، فقال: (يا سراقة إني قد رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه)[3]. وحالما سمع سراقة حديث

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي ٢-٤٨٣ واللفظ له.

(٢) جزء من حديث صحيح طويل سيمر معنا، رواه البخاري.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أي رأيت أشخاصًا قرب الساحل.

الرجل تمايلت في مخيلته (مئة من الإبل)[١] تدفعها قريش لمن ينثر على الساحل دم رسول الله ﷺ وصاحبه.. تخيل سراقة تلك الإبل وهي تسيل بين الأودية نحوه ليلحقها بما يملكه من الأغنام والإبل المنتشرة على طريق المدينة، لذا حاول إخراس ذلك المتكلم وتثبيط عزيمة السامعين، فقال سراقة لذلك الرجل: (إنهم ليسوا بهم، ولكن رأيت فلانًا وفلانًا، انطلقوا بأعيننا، يبتغون ضالة لهم)[٢].

أُحبط الرجل واستأنف الجالسون حديثهم، بينما كان سراقة يغلي من الداخل، وظل يشتت انتباههم مدة ثم استأذن ونهض بهدوء نحو خيمته، فدخلها وأخذ كنانته فملأها بالأسهم وتقلد قوسه، وأخذ رمحه ونادى خادمته فهمس بها وأمرها أن تخرج فرسه دون ضجيج خلف مكان مرتفع، بحيث لا يراها قومه، ثم تسلل من وراء الخيمة يخط رمحه بالأرض، ثم تناول زمام الفرس من الخادمة، واقتادها بهدوء حتى توارى عن القوم، فامتطاها تنهب الأرض.. تحرث رمال الشاطىء حتى أبصرهم من بعيد، وما إن رآهم حتى عثرت فرسه به، فسقط وتدحرج على الأرض، فنهض وعاد إليها، ثم مد يده للخرج فأخرج الأزلام التي تشبه القرعة، والتي يحملها الوثنيون ويستخيرونها، فرماها في الأرض فخرج له أنه لن يضرهم، لكن طمعه عصى أزلامه، فركب فرسه نحوهم واقترب منهم.

التفت أبو بكر ففوجىء بسراقة. لم يخش أن يتغلب عليهم فهم أربعة، لكنه خشي أن يُمس نبي الأمة وأملها بأذى، فارتجف قلبه وفاضت عيناه، وقال لنبيه الذي كان يقرأ القرآن: (هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله) فهون ﷺ من الأمر، وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ دنا سراقة حتى أصبح على بعد أمتار فبكى أبو بكر نبيه، وقال: (هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله) فقال ﷺ: (ما يبكيك؟) فقال: (أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك. فدعا عليه رسول الله ﷺ)

---

(١) جاء ذلك في حديث صحيح الإسناد عند البيهقي ٢- ٤٨٧.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أي ذهبوا يبحثون عن شيء ضاع لنا.

بدعاء يقصم الجبارين: (اللهم اكفناه بما شئت، اللهم اصرعه) وإذ بالمكان تملؤه حمحمة الفرس. التفتوا فإذا الفرس قد ساخت في الأرض إلى بطنها، وفارسها قد وثب عنها رعباً وخوفاً وهو يصيح: (يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجني مما أنا فيه: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا.. وكذا...، فخذ منها حاجتك) نظر ﷺ إلى الفارس الخائف الذي أصبح يبحث عن الأمان. فقال له: (لا حاجة لنا في إبلك وغنمك، ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق)[١].

يقول سراقة: (ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية.. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[٢]، ولم يسألاني، إلا أن قال: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن. فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ)[٣].

إذاً فرسول الله ﷺ في حصن حصين، ولن تصل إليه أيدي المشركين، فلماذا يقول ﷺ لسراقة: أخف عنا؟ لماذا يقولها وهو محاط بهذا الحشد من الخوارق؟

إنه يقولها لأنه رسول جاء بمنهج من عند الله ملائم للبشر، وهو ﷺ في هجرته يرسم خطاً لا يمكن أن ينتشر الإسلام إلا بالسير عليه.

واصل الرسول ﷺ وصاحبه المسير، وفي طريقهما شاهدا بعض الأغنام، وشاهدا بينها راع يقال له أبو معبد فسألاه لبناً (فقال: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رسول الله ﷺ: فما تلك الشاة؟» فأتى بها.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي ٢-٤٨٣ واللفظ له.

(٢) أي لم يأخذا منه شيئاً.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٦).

فدعى رسـول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عسًّا[١] فسقاه، ثم شربوا. فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: إنهم ليقولون ذلك. قال: أشهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك؟ قال رسول الله ﷺ: لا، حتى تسمع أنا قد ظهرنا)[٢]، ثم مروا بخيام زوجته أم معبد فأعجبت بسمت النبي ﷺ وتفننت في وصفه، ثم واصلوا، وخلال الطريق كان الحذر هو الرفيق، حيث كان (أبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير)[٣] ومن بين من لقيهم النبي ﷺ تلميذه وابن عمته الزبير بن العوام، زوج (ذات النطاقين) وقد كان قادمًا من الشام في قافلة من قوافل الصيف، فحيا الزبير نبيه وصهره، ومد يده إلى بضاعته فأخرج منها ثيابًا بيضًا (فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضًا)[٤]، ثم واصل سيره ليأخذ زوجته الحامل ليثرب... يثرب؟ مهلا. انتهت يثرب، فرسول الله ﷺ في طريقه إليها، ليمنحها دولة واسمًا جديدًا:

اسم جديد ليثرب

يقول ﷺ: (أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب! وهي «المدينة» تنفي الناس[٥] كما ينفي الكير خبث الحديد)[٦]. إذًا فهي منذ الآن ستدعى: (المدينة)، المدينة المنورة بالحب والأشواق والعناق، أما أهلها، فعلى طريق مكة يترددون،

---

(١) العس: هو القدح الكبير.

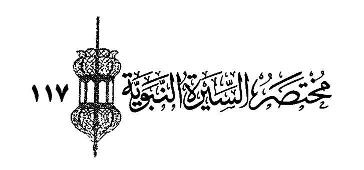
(٢) سنده صحيح، رواه البزار كشف الأستار ٢- ٣٠١ وغيره عن عبيد الله بن إياد، حدثنا إياد، عن قيس. عبيد الله صدوق ووالده ثقة. التقريب ٣٦٩ و١١٦ وقيس صحابي.

(٣) حديث صحيح، وهو جزء من حديث طويل، رواه البخاري (٣٩١١).

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٥) أي تنفي الخبيث من الناس.

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري (١٨٧١) ومسلم والبيهقي (٢/٥١٩).



ينهضون من بعد صلاة الفجر، و(يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة)[1]، وذات يوم، وحين حميت الظهيرة أقبل ﷺ ورفاقه تماهى بياض ثيابهم ببياض السراب، لكن الأنصار كانوا قد عادوا، فلم يرهما أحد من الأنصار.. لم يرهما أحد من المهاجرين.. رآهما يهودي كان فوق حصن قومه، واليهود أناس لا يعيشون إلا في حصون أو حاراتٍ مغلقةٍ عليهم، لاعتقادهم بتميزهم عن بقية البشر. سندع اليهود وما يعتقدون لنتابع موقف ذلك اليهودي مما رأى؟

ماذا حدث.. ماذا حدث

لم يتجه ﷺ إلى المدينة مباشرة، بل مال بخط سيره نحو مكان قريب من المدينة يسمى (قباء)، ونزل على أناسٍ من الأنصار، يقال لهم (بنو عمرو بن عوف).. صرخ اليهودي بالأوس والخزرج والمهاجرين بعدما عادوا لبيوتهم: (يا معشر العرب.. هذا جدكم[2] الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في «بني عمرو بن عوف» وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[3]. أما الأنصار، فقد تحولوا إلى مشاعر تحمل رسول الله ﷺ.. تقله تظله، وتتوهج من حوله، أما قباء فكانت تنعم بمحمد ﷺ.. تحتضنه كأمه. انتشر الخبر وشاع فوصل إلى يهودي آخر، فأطلق قدميه للريح والفزع نحو مزرعة ابن عم له، وما إن أصبح بين نخيلها حتى رآه تحت نخلة قد تسلقها عبد

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) أي حظكم وصاحب دولتكم، الذي تتوقعونه (السيرة الشامية ٣/٣٨٤).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٠٦).

من عبيده. هتف اليهودي بابن عمه: فقال: (يا فلان، قاتل الله بني قيلة[١]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجلٍ قدم من مكة يزعمون أنه نبي)[٢]. ارتعد العبد ذو البشرة البيضاء وكاد يسقط، لكنه تماسك ونزل، وعندما لامست أقدامه الأرض توجه كالفرح نحو حامل الخبر، فقال له: (ماذا تقول.. ماذا تقول؟)[٣] صمت اليهودي الذي حمل الخبر، لكن صاحب المزرعة أجاب عن السؤال بلكمة نحو وجه العبد المسكين، وقال له: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك)[٤]. تجرع العبد المسكين الآلام، وأخرج من صدره اعتذار المساكين، وقال: (لا شيء، إنما أردت أن أستنبئه عما قال)[٥]، وتسلق نخلته وواصل اخترافه، وعندما مضى اليوم، وغابت الشمس أخذ العبد طبقًا وملأه بالطعام،ثم تسلل في الظلام عبر طرقات قباء المظلمة، كانت آثار العبودية والقيود والسفر والسنين تجلد وجهه وظهره، حتى ظفر بمجلس رسول الله ﷺ.

دخل هذا الكادح على رسول الله ﷺ ثم قدم طبقه المتواضع ووضعه بين يديه وقال: (إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا. وأمسك[٦] يده فلم يأكل) فقال العبد في نفسه: (هذه واحدة)[٧]. ثم انصرف، ومرت أيام (فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد)[٨] وسماه (قباء) وبشر كل من يأتي

---

(١) قيلة: هو اسم الجدة الكبرى للأنصار.

(٢) حديث صحيح طويل سيمر معنا، وهذه مقاطع منه.

(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا، وهذه مقاطع منه.

(٤) حديث صحيح طويل سيمر معنا، وهذه مقاطع منه.

(٥) حديث صحيح طويل سيمر معنا، وهذه مقاطع منه.

(٦) أي كف يده ولم يأكل ﷺ لأنه لا يأكل من الصدقة.

(٧) جزء من حديث طويل صحيح سيمر معنا.

(٨) حديث حسن عدا المحذوف، رواه البخاري (٣٩٠٦).

إلى هذا المسجد ببشرى قالها فيما بعد: (صلاة في مسجد قباء كعمرة)[١]. وبقي ﷺ في قباء بين قلوب أهلها الفسيحة، ولما تحرك قلبه نحو المدينة.. بعث رسولاً من أهل البادية إلى أخواله بني النجار يخبرهم بقدومه ليلًا (فجاءوا متقلدي سيوفهم وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله)[٢]. كانت أمسية صاخبة بالهتاف والترحيب والتكبير والمشاعل والدموع. وكان الصديق أسعد الصحابة بلحظات الفرح حيث يقول: (ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلًا، فتنازعه القوم: أيهم ينزل عليه) (وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: جاء رسول الله ﷺ.. جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد.. جاء رسول الله ﷺ، فلما أصبح انطلق حيث أمر)[٣] كانت أمسيةً صاخبةً بالمشاعل والسرج والهتاف للأضياف، المدينة تعانق هذا النور المنساب من قباء.. المدينة كلها.. السلاح والرجال والنساء والأطفال، وللأطفال طريقتهم الخاصة في التعبير عن حبهم لمحمد ﷺ.

لم تنم المدينة تلك الليلة حتى صلت الفجر، وبعد الصلاة أشرقت الشمس وأشرق الأطفال بوجه النبي ﷺ.. يركضون.. يقفزون.. يهتفون، وعيونهم البريئة تبحث خلف الزحام عن صاحب الناقة. أنس بن مالك أحد أولئك الأطفال يصف فرحته وشغفه وركضه معهم، فيقول: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد، وأسعى ولا أرى شيئًا، ثم يقولون: جاء محمد، فأسعى.. ولا أرى شيئًا. حتى جاء النبي ﷺ وصاحبه، فكمنا في بعض جدر المدينة، ثم بعثا رجلًا من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار. فاستقبلهما زهاء خمسمئة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالوا: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج

---

(١) حديث صحيح، رواه ابن ماجة ١-٤٥٣ من طريقين قويين عن أسيد وسهل بن حنيف.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم والبيهقي ٢-٥٠٦.



أهل المدينة، حتى إن العواتق[١] لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟.. أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيهًا به يومئذ)[٢] ويقول: (شهدت يوم دخل النبي ﷺ، فلم أرَ يومًا أحسن ولا أضوأ منه)[٣].

كانت مدينة منورة بلقاء الحبيب الذي طال الشوق إليه. أحقًّا رسول الله ﷺ في المدينة.. يمشي في شوارعها وتصافحه قلوبها وأرواحها.. لحظات يتمنى كل مسلم أن يعيشها، وأن يسكب في حضرتها شيئًا من الدموع.

كان الموكب يتحرك ببطء، فطريقه مزدحم بالقلوب والدموع.. أحد أطفال الأنصار المبتهجين يتحدث، واسمه البراء بن عازب يقول: (جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به، حتى رأيت الولائد[٤] والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله)[٥]، وعبر الصحابة القادمون من أرض النجاشي عن فرحهم بمحمد ﷺ بأسلوبهم المميز. أنس يقول: (لما قدم رسول الله ﷺ لعبت الحبشة بحرابهم فرحًا بقدومه)[٦] ولم يكن اللعب هو الأسلوب الوحيد في التعبير.. كان هناك الغناء بمحمد ﷺ، وبجوار محمد، بالدفوف والمشاعر، حين (مر رسول الله ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف، ويتغنين ويقلن:

نحن جوار من بني النجار   يا حبذا محمد من جار

---

(١) أي الفتيات المراهقات.

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٢٢٢ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. هاشم يلقب بـ قيصر، وهو ثقة. التهذيب ١١-١٨ وسليمان ثقة، وثابت البناني تابعي ثقة.

(٣) سنده صحيح، رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وأحمد ٣-٢٤٠ من طريق حماد عن ثابت عن أنس.

(٤) أي البنات.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٨٨٦.

(٦) صحح إسناده الإمام الألباني في صحيح أبي داود ٣-٩٣٠ ورواه أحمد ٣-١٦١ من طريق عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس. ورجاله ثقات لكن فيه ضعفًا، لأن رواية معمر عن ثابت ضعيفة كما قال ابن معين: إذا حدثك معمر عن العراقيين فخالفه إلا عن الزهري وابن طاوس. وقال مرة: حديث معمر عن ثابت وعاصم وهشام وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام. فإن لم يكن لدى الشيخ ناصر طريق أخرى فهو ضعيف.

فقال النبي ﷺ: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»)[١] يا لهذا النبي ما أبسطه وأرق مشاعره، التي يعلنها للصغير وللكبير.. يعلن حبه حتى لجبال طيبة القاسية، فيقول عن جبل أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[٢]، كان الفرح غامرًا، حتى اجتاح أحد الشباب الفقراء، فقال: (لما قدم ﷺ المدينة نحرتُ جزورًا)[٣].

ويشتد الزحام (فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرقات ينادون: يا محمد.. يا رسول الله، يا محمد.. يا رسول الله)[٤]. كانت الأيدي تمتد إلى الزمام، والعيون تحتضن النبي ﷺ تحاول الارتواء منه، فتزداد عطشًا ولهفةً، وتواصل الركض والنداء (فتنازعه القوم: أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: إني أنزل الليلة على بني النجار، أخوال بني عبد المطلب أكرمهم بذلك)[٥]، ثم قال ﷺ: (أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله: هذه داري وهذا بابي. فقال ﷺ: اذهب فهيئ لنا مقيلًا. فذهب فهيأ لهما مقيلًا، ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت لكم مقيلًا.. قوما على بركة الله فقيلا)[٦]. حل ﷺ وأبوبكر في دار أبي أيوب وقلب أبي أيوب.. الكل يغبطه.. المدينة كلها تغبطه.. تثمن الشرف الذي حل بين جدران منزله.. المدينة كلها إلا عيونًا تتأمل من بعيد، قد تكحلت بحقد أسود.. من بينها عينا رجل وثني اسمه: (عبد الله بن أُبي ابن سلول)، وسبب حقده هو سبب حقد أبي جهل، ففي المدة التي بين حرب بعاث وبيعة العقبة كان هناك هدنة بين الأوس والخزرج، وقد تصالح الطرفان بصورة غير

---

(١) سنده صحيح، رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وابن ماجة (الصحيح ١-٣٢٠) واللفظ للبيهقي عدا ما بين المعقوفتين فلابن ماجة، وسنده: عيسى بن يونس، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة عن أنس.. وعيسى ثقة. انظر التقريب ٤٤١ وعوف بن أبي جميلة ثقة. التقريب ٤٣٣ وثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك تابعي ثقة روى عن جده.

(٢) حديث رواه البخاري (٢٨٨٩).

(٣) سنده صحيح، رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠-٢٩١) حدثنا وكيع، حدثنا شعبة عن محارب بن دثار عن جابر... وهذا سند كالذهب كله أئمة ثقات لا يسأل عنهم وهو متصل.

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم (كتاب الزهد - حديث الهجرة).

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم والبيهقي ٢-٥٠٦.

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي، واللفظ للبيهقي (٥٢٨/٢).

نهائية على تتويجه، ليكون زعيمًا ليثرب، لكن أهل المدينة أدركوا أن وحدتهم لن تدوم بزعامته، فتنحوا عنه، وامتدت القلوب والأيدي إلى الله ورسوله. وقد كان بإمكانه أن يصبح زعيمًا وعظيمًا وخالدًا لو صافح رسول الله ﷺ، لكنه الحقد.

لم يقتصر الحقد على الوثنيين. شاركهم بل فاقهم فيه اليهود.

هل سيسلم اليهود بعد طول انتظار للنبي

حل اليهود القادمون من أرض الشام في المدينة وغيرها من مدن النخل، ينتظرونه نبيًّا يفنون به العرب والوثنيين، ويخلصهم من هذا الشتات المخيف، حتى إن أحد حاخامتهم لما حضرته الوفاة و(عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قالوا: الله أعلم. قال: فإني قدمت إلى هذا البلد لتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يسبقنكم إليه يا معاشر اليهود أحدٌ)[١]. وها هو النبي يشرق على المدينة فهل سيؤمن به اليهود الذين تقاطروا على المدينة لاستقباله.

لا يبدو ذلك فهذا شاب كان يهوديًّا اسمه (سلمة بن سلام بن وقش) يتحدث عن حاخام بشرهم بقدوم النبي ﷺ للمدينة، وحثهم على الإيمان به، لكن سلمة يقول: (فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا[٢]، فآمنا به وكفر به بغيًا وحسدًا. فقلنا: ويحك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به «وكان يقال له يوشع»)[٣].

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/٨١) واللفظ له عدا ما بين المعقوفين. حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة وعالم جليل.. التقريب ٢٨٦ وشيخه صحابي من بني قريظة.

(٢) أي أن هذا اليهودي حي يرزق عند دخول رسول الله ﷺ المدينة.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٧٨) حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن سلمة: صالح تابعي ثقة. التقريب ٢٧١ ويشهد له ما بعده.

شاب آخر اسمه (محمد بن سلمة) يروي حجم الكراهية عند اليهود للآخر، ورفضهم للنبوة عندما علموا أنها ظهرت في غير يهود، فيقول: (لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد، يقال له «يوشع» فسمعته، وإني لغلام في إزار يقول: قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيده إلى «بيت الله» فمن أدركه فليصدقه، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا، وهو بين أظهرنا لم يسلم حسدًا وبغيًا)[1] لم يقتصر اليهود على ذلك، بل أنكروا أن يكون هو النبي المنتظر. قاموا بطمس أسمائه المكتوبة في التوراة، لكن بقيت كلمات حتى اليوم لا تنطبق إلا على محمد ﷺ، مثل هذه العبارة الموجودة الآن في توراتهم تقول: (وحي يأتي من بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، قابلوا الهارب بخبزه، فهو قد هرب من السيوف والأقواس وشدة الاضطهاد. ويقول الرب أنه خلال سنة سوف يتحطم مجد عدنان جد العرب، وسوف يتلاشى بقية أبطال أبناء عدنان)[2] فهل سيعاملهم النبي ﷺ بالمثل.

كان ﷺ يتعامل بأخلاقه لا بأخلاقهم. كان خلقه القرآن، والقرآن يقول له: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ويقول له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، لذا أحب ﷺ أن يتقرب منهم والتودد إليهم، كان يحب موافقتهم ما لم ينزل عليه حكم، حتى في تسريح الشعر كان (موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رءوسهم، فسدل النبي صلى الله عليه وسلم ناصيته)، لكن في اليهود منصفين وعقلاء، ومن بينهم حاخام ابن حاخام، وعالم ابن عالم يدعى ابن سلام.

عبد الله بن سلام لا يقول: لا

اشتهى أهله بعض الرطب، فتوشح وعاء الاختراف، ثم تسلق نخلة من نخلات منزلهم وصعد، وإذ بصوت يملأ الطرقات: جاء نبي الله. شلت الكلمات

---

(١) ذكره ابن كثير في سيرته ١-٢٩٣ فقال: وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة.. وهذا السند صحيح، ويشهد له ما قبله.

(٢) ص ٨٧٥ وانظر (محمد في الكتاب المقدس - ٣٣).

ابـن سـلام. وتوقفت يداه عـن الاختراف. انحدر مـن جذع النخلة، وما إن لامسـت قدماه الأرض حتى أطلقهما للريح نحو هذا النبي. أحقًّا هو في زمن نبي؟ أحقًّا سيرى نبياً. إنه يتحدث عن دهشته حين رأى وسمع فيقول: (لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل[١] الناس قِبله فقالوا: قدم رسول الله ﷺ. فجئت في الناس لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال: يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[٢].

اقترب ابن سلام مذهولًا وأدوات الاختراف بيده وعلى عاتقه، (فقال: أشهد أنك نبي الله حقًّا، وأنك جئت بحق، ولقد علمت يهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم... فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيَّ ما ليس فيَّ. فأرسل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًّا، وأني جئت بحق أسلموا» فقالوا: (ما نعلمه)[٣] فأراد ﷺ التأكد من كلام ابن سلام واكتشاف حقيقة الحاخامات فسألهم: (أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا.. وتنقصوه[٤]. قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[٥].

---

(١) انطلق الناس نحو رسول الله ﷺ.

(٢) سنده صحيح، رواه البيهقي ٢-٥٣١ وغيره من طرق عن عوف بن أبي جميلة وهو ثقة عن زرارة بن أبي أوفى تابعي ثقة عابد. التقريب ٤٣٣ و٢١٥.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له ٢-٥٢٨.

(٤) عابوه.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٢-٥٢٩.

لم يغير ﷺ موقفه منهم، ظل يحب موافقتهم والتودد لهم، لكن همه الأول هو بدء الخطوة الأولى في تأسيس دولته، وهو:

الخطوة الأولى في تأسيس الدولة.

بدأ النبي ﷺ دولته، لم يؤسسها على الجثث ولم يبنها بالجماجم. دولة قامت دون إراقة قطرة دم.. قامت على إفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام، والصلاة بالليل والناس نيام. دولة لا يمثل السجن أو القصر أول اهتمامات قائدها، كما في فارس والروم.. دولة أول مبانيها المسجد- المدرسة حيث العلم أول شرط للعبادة.

شاهد ﷺ أرضًا خالية بين أملاك أخواله بني النجار، فقال لهم: (يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا؟ فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل)[1] نادى القائد ﷺ شعبه، وبدأ ﷺ توزيع العمل حسب المهارة والتخصص.

تم هدم الخرائب وتسوية الأرض، ونقل القبور الغابرة واقتلاع النخيل وتقطيع وتشذيب جذوعها، ثم حفروا حفرة طويلة غرزت فيها جذوع النخل، وصفت كالجدار في جهة الشمال باتجاه القبلة، وكانت القبلة تجاه المسجد الأقصى، وانطلق بعضهم خارج المدينة لتقطيع الصخور ووضعها أساسات للجدران، ثم صنعوا من بقيتها عمودين لباب وعمودين لباب آخر، ثم بدأوا بناء الجدران بالطين، وهنا تألق صحابي اسمه طلق بن علي قادم من نجد.. من اليمامة بالتحديد أظهر براعة نجدية في صنع اللبن، فقال ﷺ لأصحابه: (قربوا اليمامي من الطين، فإنه من أحسنكم له بناء)[2]

---

(١) حديث صحيح، وهو بقية الحديث السابق.

(٢) سنده صحيح، البيهقي ٢-٥٤٢ وغيره من طرق عن ملازم بن عمرو يمامي صدوق. التقريب ٥٥٥ حدثنا عبد الله بن بدر ثقة. التقريب ٢٩٦ وشيخه قيس ابن الصحابي طلق تابعي ثقة. التقريب ٤٥٧ وقصته عند الطبراني ٨-٣٩٩ وابن حبان ٣-٤٠٤ بالسند نفسه.

ظل اليمامي يمدهم بالطين واللبن حتى اكتملت الجدران والأبواب، وكان الكل يشارك في البناء. الكل يعرق.. يعطش يرتجز، والنبي ﷺ بينهم ومعهم حيث صفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضاديته حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر، وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ يقول:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

أما السقف، فتم صنعه بجعل جذوع النخل أعمدة داخل المسجد، يسمونها أسطوانات أو سواري، ثم تم نشر جريد النخل عليها كسقف.. كان سقفًا متواضعًا لا يقي من المطر، لكنه يخفف حرارة الشمس اللاهبة، فاكتمل البناء: (مبنيًّا باللبن، وسقفه الجريد، وعمده من خشب النخل)[١].

أصبح المسجد جاهزًا لاستقبال المصلين، فجعل ﷺ مقدمة المسجد للرجال وخلفيته للنساء.. يصلون جميعًا الصلوات الخمس. ثم أشار لأحد البابين، وقال: (لو تركنا هذا الباب للنساء)، وقال لأصحابه (لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل)[٢]. وأخيرًا قام بعض الصحابة بإحضار جذع شجرة عريض ووضعه في مقدمة المسجد كي يخطب ﷺ عليه. لكن (امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، ألا أجعل لك منبرًا تقعد عليه، فإن لي غلامًا نجارًا؟ فقال ﷺ: «إن شئت». فعملت له منبرًا)[٣].

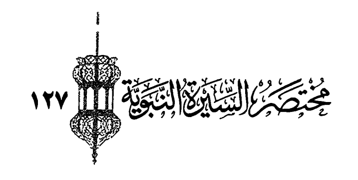
زاد مشهد النساء حسد اليهود وحسرة اليهوديات والنصرانيات، اللواتي حرمهن رجال الدين والحاخامات من السؤال داخل الكنيسة أو الكنس، بل طلب كتابهن المقدس منهن عدم الحديث في الكنيسة حتى مع بعضهن البعض، وإذا أرادت المرأة السؤال فلتطلب من زوجها أن ينقل السؤال للحاخام أو القس.. شعرن

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٤١.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ١- ٣٢٧.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٦٠.



بالحسرة حين علمن بأن نبي الله ﷺ يتخطى صفوف الرجال نحو الصحابيات فيحدثهن، فتطرح المسلمة أسئلة في شؤون دينها ودنياها، شعرت المرأة بإسلام يحررها.. إسلام يجعلها تنافس الرجل نحو بوابات الجنة.. منافسة جعلت صحابية شغوفة بالعلم تقول: (يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال: اجتمعن في يوم كذا وكذا، في مكان كذا وكذا)[١].

لم يعد المسجد للعبادة فقط، ولم تعد العبادة صلاة فقط.. تحول المسجد مبرة.. واحة للفقراء، فهاهم الأنصار يمدون حبالًا بين أعمدة المسجد وسواريه، ليتدلى منها كرم الأنصار مرة أخرى حيث (كانت الأنصَارُ تُخْرِجُ إِذَا كَانَ جِدَادُ النَّخْلِ مِنْ حِيطَانِهَا أَقْنَاءً مِنَ البُسْرِ وَالتَّمْرِ، فَيُعَلِّقُونَهُ عَلَى حَبْلٍ بَيْنَ أُسْطُوَانَتَيْنِ في مسجد رَسولِ الله ﷺ، فَيَأْكُلُ مِنهُ فُقَرَاءُ المهَاجِرِينَ)[٢]، لكن هذا الكرم الأنصاري لم يخلُ من منغصات، فهناك من الأوس والخزرج وثنيون، وبعضهم يشعر بالغيظ مما يجري.

حقد الوثني ابن سلول

سمع النبي ﷺ يومًا بخبر كدره، وهو مرض سيد الخزرج سعد بن عبادة فأراد زيارته والاطمئنان عليه، لكن شيئًا في طريق كدره. ركب قائد الدولة الجديدة بتواضع (حمارًا عليه إكاف[٣] على قطيفة فدكية[٤]، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي ٩-١٠١.

(٢) سنده قوي، رواه الروياني في مسنده ١- ٢٥٨ عن أَسْبَاط، عَنِ السُّدِّيِّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وفيه أسباط لكنه لم ينفرد توبع. تابعه إسرائيل عند الترمذي وغيره.

(٣) سرج الحمار.

(٤) نسبة إلى فدك، وهي بلدة قريبة من المدينة المنورة.

فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا بالمجلس أخلاط من المسلمين ومن المشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[١]، خمَّر[٢] ابن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًا، فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك. واستب المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون[٣]، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا. ثم ركب رسول الله ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له رسول الله ﷺ: «أيا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبي؟» قال: كذا.. وكذا. قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[٤] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة[٥]، فلما رد الله بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه ﷺ)[٦].

موقف النبي ﷺ من مكونات وطنه

عفا النبي القائد ﷺ عن هذا المواطن الحاقد، وأسس لدولة من التسامح، وظلت المجالس والميادين والأسـواق للجميع، بل نزل القرآن يطالب النبي القائد والمؤمنين

---

(١) غبارها.

(٢) غطى.

(٣) يتواثبون للقتال.

(٤) أي القرية أي المدينة المنورة.

(٥) أي يجعلوه زعيمًا للأوس والخزرج.

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري ٤٥٦٦.

بالتغاضي عن الإساءات التي تصدر من المشركين واليهود، والانشغال بالبناء والعلم والعمل، فكان النبي ﷺ (وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمره الله عز وجل، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله عز وجل به)[3].

كان القائد ﷺ ظلًا وارفًا للجميع.. للمؤمنين وللمشركين ولليهود، فقد عانى ثلاثة عشر عاماً من الإقصاء والقمع والسحل هو وأصحابه على يد الوثنيين، ولن يكون مثلهم وهو الرحمة المهداة.. كان يريد تأسيس دولة للجميع.. يتنفسون فيها هواء نقيًا، وحرية وعدلًا وتسامحًا.

دولة وصفها أحد الصحابة بقوله: (كان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاطًا: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج. فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك)[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٢) سورة البقرة.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٤٥٦٦.

(٤) سنده صحيح، أرسله البيهقي (٣-١٩٧) ووصله أبو داود (٣٠٠٠)، ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد ابن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠)، فالزهري وعبد الرحمن تابعيان ثقتان، وشعيب ثقة ثبت، من أثبت الناس في الزهري. التهذيب ٤-٣٥١: وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين. التقريب ١٧٦ وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور الذهلي.



كان يريد استصلاحهم ولولا ذلك لما تجرأ ابن سلول حتى على الهمس، وفي هذا الظل المتاح للجميع تحول (ابن سلول) إلى كهفٍ لليهود والمشركين.. لقد تحول إلى غراب لمشروعٍ يحاك في الظلام، لتقويض هذه الدولة الجديدة، لكن النبي القائد ﷺ لم يشغل دولته بملاحقتهم.. تركهم لحقدهم يأكلهم وانشغل بالبناء.. انشغل بتفعيل الطاقات الإيجابية في شعبه، فقد عقد في بيت امرأة عظيمة تدعى (أم سليم) أعظم اجتماع بعد اجتماع العقبة.

ماذا يحدث في دار أم سليم

المهاجرون والأنصار حول قائدهم ﷺ يتطلعون إليه.. ينتظرون كلماته والحماس يقفز في جوانحهم، فالحدث يجري كما يرويه ابنها الطفل: أنس بن مالك، فيقول: (حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا)[١]، ليخرج الصحابة من بيت أمه (أم سليم) وقد صاروا أخوة فوق أخوة الإسلام، فالمسلم أخو المسلم، لكن ميزة الأخوة في دار أنس أنها لم تحدث من قبل، ولن تحدث من بعد.. إنها غيمة وحي.. أمطرتهم حبًّا ثم ارتحلت، ولم تمطر أحدًا سواهم.. هاهي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة، وهو يحدثنا عنها فيقول: (كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم)[٢].

ماهت الأرواح بالأرواح.. حين (آخى ﷺ بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة)[٣]. وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال سعد لعبد الرحمن: (أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذه،

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري وأحمد، واللفظ لأحمد ٣-١١١.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٤٥٨٠.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم ٤-١٩٦٠ (مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه).

وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق. فدلوه، فذهب، فاشترى وباع فربح)[١].

إن أخوة النسب تعجز عن الارتقاء إلى هذا المستوى. مستوى اشتكى فيه المحبون من أحبابهم حتى جاء المهاجرون يشتكون هذا الحب الأنصاري لنبيهم، ويقولون: (يارسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير. لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله؟ قال ﷺ: لا.. ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم)[٢]. حب عبر عنه النبي نفسه حين: (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ.. ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال: والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ... والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ)[٣].

تحولت طيبة إلى عاشقة للأنبياء والمرسلين، وحاضنة الوحي والمهاجرين.. هاهو ﷺ ذات يوم جميل جالسًا على دروب أطفال الأنصار، فلم يصبر.. قام معلنًا حبه.. حبًّا رآه أنس ورواه، فقال: (رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين، حسبت أنه قال من عرس[٤]، فقام النبي ﷺ ممثلاً[٥] فقال: اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ.. اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ.. اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ)[٦]. فكانت بهجة النساء والأطفال والسامعين بما قاله ﷺ تفوق بهجتهم بذلك العرس وأفراحه، وإنهم ليستحقون هذا الحب، فالذي فعلوه لم يفعله أحد قبلهم، ولم

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٢٧١ حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وحميد عن أنس. عفان وحماد وحميد ثقات أثبات مروا معنا. وهو للبخاري دون آخر الحديث (٥٠٧٢).

(٢) سنده ثلاثي صحيح، رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس، يزيد بن هارون بن زاذان ثقة متقن عابد، وشيخه حميد بن أبي حميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٣٧٨٥.

(٤) الذي قال: حسبت ليس أنس، ولكنه أحد الرواة عنه.

(٥) أي مكلفًا نفسه... وجاء في رواية (ممتنًا).

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٣٧٩، لكن الذي في البخاري: ثلاث مرار.



يفعله أحد بعدهم. لقد تمادى حب الأنصار وكرمهم إلى حد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[١].

تألق الأنصار.. أوقفوا شمس التاريخ ونقشوا عليها كرمهم، ثم تركوها تنطلق للأجيال عندما توجهوا إلى القائد ﷺ بقلوب كالسحاب، فأمطروه بقولهم: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[٢]، لكن النبي ﷺ لم يكن بالانتهازي، ولا يحب لصحابته أن يكونوا كذلك.. كان ﷺ يربي الأمة ويلهم الأجيال.. كان يريد أمة حية، تنبض بالحركة والمسير إلى لا حدود. أدرك الأنصار ذلك، فـ (قالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في الثمر. قالوا: سمعنا وأطعنا)[٣].

وبدأ المهاجرون بالعمل، وهوت سواعدهم كالحديد تشق الأرض.. تحرثها وتقطف، وبدأ المهاجرون والأنصار صفًّا واحدًا.. صفًا يشكل ملامح الدولة الجديدة.. دولة تنهض نحو السماء والأرض، بعد أن تشعبت جذورها في القلوب وفي المدينة.. الجميع يبتهجون بذلك.. الجميع إلا قلوبًا يحرقها ما يحدث حولها فهي حانقة دائماً: قلوب اليهود والمشركين.

اليهود والمشركون

كان اليهود يحترقون بما يجري، وكان أبرز من يحترق منهم قادات مثل كعب ابن الأشرف وحاخامات مثل حيي بن أخطب، ومع ذلك ظل النبي ﷺ متسامحًا يعفو ويصفح، ثم تطورت الأوضاع إلى أن أصبح اليهود ملاذًا للوثنيين أمثال ابن سلول، ثم تفاقم الأمر بصورة خطيرة حين أدركت قريش أن محمدًا نجح في إقامة دولة تتهافت نحوها القلوب من كافة أنحاء الجزيرة، لذا قررت قريش إحراق المدينة، أو إغراقها في حرب أهلية.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٣٩٢٩ بلفظ: قرعت.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٧٧٤.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٧٧٤.

رسالة تهديد من قريش

وصلت للمدينة رسالةٌ ملتهبة تهديدًا ووعيدًا. رسالةٌ موجهة لطائفة من مواطني الدولة الإسلامية، أو ما يسمى بالمعارضة الوثنية.. من أخوتهم في الدين مشركي قريش تحرضهم على التمرد، والخروج على قائد الدولة ﷺ. فـ(كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان، من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم. فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي[1] ومن كان معه من عبدة الأوثان)[2] عقدوا الاجتماعات والمشاورات، وبعد المداولات تم الاتفاق على التسلح، و(اجتمعوا لقتال النبي ﷺ)[3] وخوض حرب مع دولته الإسلامية.

القائد ﷺ يجنب دولته حربًا أهلية

كيف سيتصرف قائد الدولة ﷺ وهو يرى حربًا أهلية في الطريق؟ هل سيخوض حربًا مع الوثنيين الإقصائيين ويتخلص منهم، أم سيواصل احتواءهم في دولته، مواطنين لهم ما للمسلمين، في وطن واحد متآلف.. لكل دينه ومعتقده؟

على الفور ذهب إليهم، واجتمع بهم، ونزع فتيل الأزمة بكلمات، لأنه خاطب عقولهم، ومصالحهم المستقبلية، ذكرهم بهوية المنتصر الحقيقي: إنه وثني قريش، وكشف لهم الخاسر الوحيد. وهم، هم وأخوتهم في الوطن: المسلمون من مهاجرين

(١) هو عبد الله بن أبي ابن سلول، وهو ما يزال على شركه مجاهرًا معاندًا...

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود ٢ - ١٧١ حدثنا محمد بن داود بن سفيان ثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: عن رجل من أصحاب النبي وقد رواه عبد الرزاق ٥-٣٥٨ وقد انقلب عنده اسم التابعي، والصواب ما في أبي داود، فعبد الله بن عبد الرحمن لم يرو عن الصحابة والزهري ليس من شيوخه، والصواب ما في أبي داود، رغم ضعف شيخه. صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) حديث صحيح، رواه أبو داود ٢ - ١٧١ وهو الحديث السابق.

وأنصـار. لا رابح على أرض الوطن سوى أعداء الوطن، ولا خيار للمواطنين سوى التعايش بسلام. وقف أمامهم والتقى بهم، وقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ. ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم! تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!! فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[1]، بهذه الكلمات أعاد ﷺ لمواطنيه المستفَزين عقولهم.. رشدهم، فتفرق الشر، وسكنت الأنفس المشحونة، وسلمت المدينة من حرب أهلية، وأدرك سكانها حب قائدهم للسلم الاجتماعي والحفاظ على المكتسبات.

مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية

خطاب النبي ﷺ لهؤلاء الوثنيين وعباد الأصنام كان خطابًا تصالحيًّا راقيًا مع الوثنيين واليهود، فقد احتواهم في دولته، ولم يفرح بفرصة تصفيتهم والقضاء عليهم وإقصائهم وهو قادر على ذلك، لكنه لم يفعل ذلك، بل جعلهم ضمن النسيج الوطني لدولته.. هدأ ثورتهم، وطيب خواطرهم، وفرش لهم المدينة ربيعًا من الأمن والسلام والمصالحة، برغم أنهم على الشرك وعبادة الحطب والحجارة، وبرغم أنه بعث لنشر التوحيد والدفاع عن نشره، وبرغم أن زعماءهم أعطوه بيعتهم على الحرب والسلم. قدم ﷺ لهم سنة في التفريق بين أخوة الإسلام ومفهوم المواطنة، وأنه مع الفارق الشاسع بينهما، إلا أن لكل مفهوم حقوقه وحدوده، وأنه يحرم إضرام النار بين المفهومين.

حال ﷺ بين أمن دولته وبين أعدائها، وقطع الطريق على من يريدون إثارة الفتنة، وإشعال الحرب الأهلية، فمن لم يرد الدين فلا إكراه في الدين، ولكن هناك إكراه في المواطنة، فمن لم يرد الوطن فالأوطان كثيرة، لكنه سيسل السيف في وجه كل من سيرفع سيفه في وجه الدين أو الوطن.

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود ٢ - ١٧١ وهو جزء من الحديث السابق.

أشـرقت الشـمس من جديد على هذه المدينـة الراقية، والدولة المتحضـرة.. تحمل وعيًا أكثر بالأخطار المحدقة بها، فالمدينة وأهلها في خطر، وتوقعات أبي بكر الصديق بحرب قادمة ورؤيته الثاقبة بدأت تتشكل على أرض الواقع، فـالخوف بدأ يجتاح المدينة، وقد أفلح وثنيو قريش في تحريض كل مشركي الجزيرة على معاداة النبي ﷺ والاستعداد لتحطيم دولة الإسلام.

مشركو الجزيرة يقررون تحطيم دولة النبي ﷺ

صحابي اسمه (أبي بن كعب) يصرح بأخطر معلومة.. معلومة تلجم كل من يلوك سيرته ﷺ، وكل من يدعي أنه نشر دينه بالسيف.. معلومة تختصر مسافات، وتلغي تكهنات وتنظيرات حول مفهوم الجهاد الذي قام به ﷺ.. يقول أبي بن كعب للعالم كله: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)[1].

امتـلأت المدينـة بالخـوف، وعـاد الرعـب مـن جديـد يلاحـق الدعـاة، حتـى القائد ﷺ شـعر به. ذات ليلة كانت زوجته عائشـة رضي الله عنها إلى جانبه ﷺ، وكان السـهر إلى جانبهما أيضًـا. قلقت عائشـة، فقالت: (ما شـأنك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ليت رجلًا صـالحًا من أصـحابي يحرسـني الليلة. فبينا أنا على ذلك، إذ سمعت صـوت السـلاح. فقال ﷺ: «من هـذا؟» فقال: أنا سـعد بن مالـك. فقال ﷺ: «ما جـاء بـك؟» قال: جئت لأحرسـك يا رسـول الله. قالت عائشـة: فسـمعت غطيط

---

(١) سنده حسن، رواه الطبراني (مجمع البحرين ٦-٥٨) والبيهقي ٣-٦ واللفظ له: أحمد بن سعيد الدارمي ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي: أبو العالية تابعي ثقة وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٢١٠ و٢٠٥ والحسين ثقة من رجال مسلم وابنه حسن الحديث. التقريب ١٦٩ وأحمد ثقة حافظ.

رسول الله ﷺ في نومه)[١]، تفاقم جنون مشركي قريش. فقد قرروا إدراج مواطني الدولة الإسلامية كلهم ضمن قوائم الممنوعين من دخول مكة.

يقوم الأمير الشاب الثلاثيني سعد بن معاذ، بالتوجه إلى مكة الطاهرة معتمرًا، لا يريد سوى العمرة، وكان شريكًا تجاريًّا لأمية بن خلف، لكنه فوجىء بأبي جهل يمنعه من أداء الطواف، لينفجر سعد في مكة غاضبًا ومهددًا حين قال له أبو جهل: (أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصبأة[٢]، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان[٣] ما رجعت إلى أهلك سالمًا. فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا، لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة. فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم - سيد أهل الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري. ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قاله لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟. قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة)[٤].

عاد سعد للمدينة وأخبر نبيه ﷺ عن قرار كفار قريش، فنهض ﷺ بمسؤولياته، فهو لم يعد مسؤولاً عن نفسه فقط كما كان في مكة.. أصبح قائد دولة مسؤولاً عن وطن وشعب، ولا بد أن يتحمل مسؤولية حمايتهم وبكفاءة مستنيرًا بالوحي، ومستعينًا بالله ثم بصحابته. قرر ﷺ أن يرصد الأخطار المحيطة بها، وأن يشعر وثنيي مكة بأنهم لن يصبحوا آمنين ما لم يكفوا عن دولته. بدأ ﷺ ببث العيون لرصد تحركات الوثنيين، فكانت تحركاته بناء على معلوماتها ونتج عنها الكثير من المناوشات:

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ لأحمد ٦-١٤١.

(٢) يقصد المهاجرين، الذين تركوا دين آبائهم وأجدادهم.

(٣) أبو صفوان هو أمية بن خلف.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٥٠) (ص٨١٢).

غزوة العُشَيرة

هي أول غزوة بدأها ﷺ وقادها[1]، وليس هناك تفاصيل صحيحة عن أحداثها، والعُشيرة قرب ينبع.. على طريق قوافل قريش، وهي أول رد عملي على قريش التي سلبت المهاجرين الذين وصفهم الله بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، بل منعتهم من الحج والعمرة لبيت الله.

غزوة الأبواء

ليس هناك تفاصيل موثقة عنها، ولكن وقوعها ثابت في مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة، ذلك المكان الذي وقفت فيه المطايا بمحمد ﷺ وهو طفل صغير، ليودع أمه وتدفن هناك.

سرية نخلة

قادها الأمير عبد الله بن جحش لمواجهة قافلة ستمر بمكان يقال له نخلة. ولما نزل بنخلة في آخر يوم من جمادى، مرت القافلة وفيها وثنيون من بينهم: عمرو ابن الحضرمي، فرماه الصحابي واقد بن عبد الله التميمي بسهم فقتله، وأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما

---

(١) ورد أن الأبواء هي أول غزوة لرسول الله ﷺ، لكن هذا غير صحيح، فالرواية في ذلك ضعيفة رواها كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده... وكثير هذا ضعيف. وهناك رواية أخرى عن عروة وقد وصلها ابن عائذ لكنها من طريق ابن لهيعة.. وليس فيها أن الأبواء أول غزوة، بل إن سعدًا أول من رمى سهمًا في سبيل الله، وهذا صحيح ولكنه ليس دليلًا على أن الأبواء أول الغزوات، لأن العشيرة -عند المؤرخين- لم يحدث فيها قتال، ولم يرم بها بالسهام. أما كون سعد أول من رمى بسهم، فقد جاء على لسانه هو، ولم يذكر رضي الله عنه متى كان ذلك، والرواية عند الشيخين، وستمر معنا.



أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا، وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام، ولم تؤمروا بقتال). وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى. وقالت يهود تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، واقد بن عبد الله وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك وبهم، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين)[1]، وكان عمار بن ياسر رضي الله عنهما الذي طعن أبو جهل أمه واغتال أباه ضمن تلك السرية.

تفاءل اليهود بما حدث، عل حربًا تثور بين الدولة الإسلامية وقريش، لكنهم تلقوا خبرًا هز حصونهم، وقلب فرحهم غمًّا.

---

(١) حديث صحيح عدا ما بين المعقوفين.. رواه الطبري في تفسيره (٢/٣٦٠) واللفظ له والبيهقي في الدلائل (٣/١٧-١٨) عن عروة مرسلًا وهو صحيح إلى عروة، لكن لم يذكر شيخه من الصحابة... والحديث له شاهد عند الطبراني (٢/١٧٤) وابن أبي حاتم (سيرة ابن كثير ٢/٣٧٠) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه: حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله: عن النبي ﷺ أنه بعث رهطًا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح... كما رواه الطبري في التفسير (٢/٣٦٢) وأبهم الحضرمي فقال: إنه حدثه رجل عن أبي السوار. وقال الهيثمي في المجمع (٦/١٩٨)/ رجاله ثقات... وله شواهد كثيرة عند الطبري (٢/٣٦٣) عن ابن عباس... وأبي مالك الغفاري.. وعن الزهري وعثمان الجزري ومقسم مولى ابن عباس أما ما بين معقوفين مثل تصرف ابن جحش في الغنائم وقول يهود فهو مرسل... والحديث يشهد له ما بعده.

تحول القبلة إلى مكة

كان النبي ﷺ (يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء، ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾[1]. حدث ذلك بعد منتصف شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، وبعد عودة سَرِيَّة عبد الله بن جحش، فقد: (صلى رسول الله ﷺ ستة عشر شهرًا، ثم حول بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين)[2]، أصيب اليهود بإحباط، وهم يرون الإسلام والمسلمين يتحولون عن بيت المقدس، وكأن ذلك التحول يعني لدى اليهود بداية تبرم المسلمين من سلوكياتهم وعنادهم، أما المسلمون فلم يعد الأمر عندهم سوى الامتثال لأمر الله سبحانه، لكنه بدى للمؤمنين أيضًا حلًّا لمشهد يحدث يوميًّا، حيث يتهادى إلى الدولة الإسلامية مهاجر أو مهاجرون.. بعضهم ضاق بقومه، والبعض ضاق به قومه وضيقوا عليه، وسلبوا كل شيء لديه، أو دفع كل شيء ثمنًا لهروب جميل أو هجرة أجمل. دون مال يأتون.. البعض حفاة، وبعضهم أشباه عراة، وهذه الدولة الصغيرة تستقبلهم وتحميهم، لكن بيوت الأنصار قد امتلأت، والهاربون قد كثروا.. تأملهم ﷺ وتأمل فقره وفقرهم، وتأمل مسجده، فجعله دار من ليس له دار، ومأوى من ليس له مأوى، فبنى في آخر المسجد (صفة) متواضعة، يأوي إليها رجال فضلوا جواره ﷺ على أن يعيشوا عيشةً أيسر بجوار صنم. يصفهم أحد الصحابة، فيقول: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال)[3].

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير، البقرة ١٤٣): حدثني إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء. وشيخ ابن إسحاق وشيخ شيخه تابعيان ثقتان ثبتان.

(٢) سنده صحيح، رواه البيهقي ٢-٥٧٣: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا ابن فضيل، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: سمعت سعدًا. سعيد إمام التابعين وتلميذه تابعي ثقة. التهذيب ١١-٢٢١ ومحمد بن فضيل بن غزوان ثقة ثبت ٥٠٢ وسماع تلميذه للسيرة صحيح، وأبو العباس الأصم ثقة ثبت.

(٣) متفق عليه.. انظر البخاري (٦٤٥٢)، وهو حديث طويل، وما ذكرته جزء منه.

أهل الصفة طعامهم ولباسهم

ويقول أحدهم واسمه (طلحة بن عمرو) رضي الله عنه: (كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة. وكنت فيمن نزل الصفة... وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين)[1] لأن رسول الله ﷺ لا يجد لهم أكثر من ذلك.. نصف مدٍ يملأ الكف الواحدة.. هو طعام الرجل.. من الليل إلى الليل، ويقول أحدهم: (والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع)[2] مثل هذا الجائع.. كيف سيصلي؟! يجيب فضالة وهو يتألم، فيقول: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم لما بهم من الخصاصة وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين. فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم، فيقول: لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة)[3]، (سلم ﷺ ذات يوم من الصلاة، فناداه رجلٌ منا، فقال: يا رسول الله، قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف. فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي هو وأبو بكر الصديق عليهما السلام من قومهما، فقال: مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم،

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٢٨٧ وأبو نعيم ١-٣٣٩ واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو. داود ثقة متقن وشيخه تابعي ثقة، قيل اسمه محجن أو عطاء. التقريب ٢٠٠ و٦٣٢، وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٣) سنده صحيح، رواه أبو نعيم في الحلية ٢-١٧ من طريق حيوة وابن وهب عن أبي هانئ أن أبا علي الجنبي حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد. أبو هانئ: حميد بن هانئ الخولاني ثقة. التهذيب ٣-٥١ وشيخه عمرو بن مالك تابعي ثقة. التهذيب ٨-٩٥. والخصاصة والفاقة هي الفقر والجوع.

ولكن تدركون زمانًا، أو من أدركهم منكم، تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى[١] عليكم ويراح[٢] بالجفان)[٣] وقال أحدهم: (لقد عمرنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان. ثم هل تدري ما الأسودان؟ ... التمر والماء)[٤].. إنه تمامًا كطعام وشراب قائد الدولة ﷺ ، فزوجة القائد تقول لابن أختها: (ابن أختى، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار)، فسألها: (يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا)[٥]. ذاك طعام أهل الصفة، أما لباسهم فأشياء ألقوها على أجسادهم.. يسمونها ملابس! أسمال مهلهلة بالية.. باكية يلفونها على خصورهم، ثم يشدونها كما تشد على الصبيان حتى لا تظهر عوراتهم. أحدهم يستغيث: (يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف)[٦] الكتانية الغليظة الرديئة.. من يصدق أنه (كان من أهل الصفة سبعون رجلاً، ليس لواحدٍ منهم رداء)[٧]، أي ليس لديهم ما يغطي الجزء العلوي من

---

(١) يقدم لكم في الصباح.

(٢) يقدم لكم في المساء.

(٣) سنده صحيح، رواه أبو نعيم ١-٣٧٤ من طريقين: عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو، ورواه أحمد من الطريق نفسه، وقد مر معنا.

(٤) سنده صحيح، رواه أبو نعيم في الحلية ٢-٢٢-٣٣ من طريق روح بن عبادة. ورواه جعفر بن سليمان، قالا: حدثنا بسطام بن مسلم عن معاوية بن مرة قال: قال أبي. وروح وجعفر ثقتان، وشيخهما ثقة من رجال التقريب، وشيخه تابعي ثقة. التقريب ٥٢٨.

(٥) البخاري ٢- ٩٠٧.

(٦) مر معنا، وهو صحيح.

(٧) سنده قوي، رواه أبو نعيم. الحلية ١-٣٣٩ حدثنا محمد بن محمد بن إسحاق حدثنا زكريا الساجي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عمي عبد الله بن وهب، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة. وشيخ أبي نعيم هو أبو أحمد الحاكم حافظ عصره (طبقات الحفاظ ٣٣٨) وشيخه ابن يحيى ثقة فقيه من رجال التقريب، وأحمد صدوق من رجال مسلم، وعمه ثقة معروف، وابن غزوان ثقة. التهذيب ٨-٢٩٧ وأبو حازم الأشجعي تابعي ثقة. التقريب ٢٤٦.



الجسد، حتى قال أحد الذين رأوهم: (رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته)[١]، لكن النبي ﷺ كان يرفع مستوى اهتماماتهم وهمومهم، فيخاطبهم: (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطيعة رحم؟. فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال ﷺ: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، و ثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»)[٢]. الإبل التي هي أنفس ما يملكه العربي.. حولها الإسلام إلى أشياء رخيصة أمام أحرف العلم، بل إن الجوع نفسه حوله الإسلام إلى عبادة، تهذب النفس، وتنفع الجسد، وتسعد الفقراء، حين أمر بـ:

صيام شهر رمضان

أنزل على نبيه ﷺ آيات تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[٣].

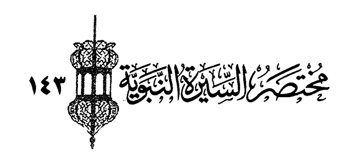
كثف الصيام الشعور بأهل الصفة وغيرهم من الفقراء، أي أنه زاد من روابطهم التي يفعلها المسجد يوميًّا، وفي ذلك الشهر تحولت المدينة إلى حالة من الروحانية والألفة والمواساة، لكن بيت النبي ﷺ يخيم عليه حزن مرير، فابنته الشابة رقية، زوجة عثمان مريضة جدا، ويبدو أنها ستغادر هذه الدنيا.

---

(١) رواه أبو نعيم ١-٣٤١ من طريق الإمام أحمد بسند قوي، وانظر ما بعده، فهو هو...

(٢) حديث صحيح، رواه الإمام مسلم، صلاة المسافرين.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.



رقية مريضة

هاجرت من مكة.. خاضت البحر فألقاها في الحبشة، وخاضته مرةً ثانية، فتهادى بها حتى وضعها بين يدي والدها العطوف الحنون. وما كادت تتنشق هواء الحرية والأمن، حتى أطاح بها المرض، ورسول الله ﷺ يزورها ويطمئن عليها، ويوصي زوجها الحزين بملازمتها.

رقية بضعة من القائد ﷺ، والقيادة والأمة أمانة، والمهاجرون قد سُلبوا أموالهم وبيوتهم، لينجوا بأنفسهم وإيمانهم من سياط الشرك وأهله، وقريش والوثنيون يطبقون الحصار على دولته الفتية، ولا بد من فك الحصار، وقد لاحت فرصة لذلك. فهل سيبقى ﷺ قرب ابنته؟ أم سيخرج لكسر الحصار، لأن أمته أولى.

المشورة قبل الخروج

أرسل القائد ﷺ عينا لرصد قافلة لقريش، انطلق الرجل ورصدها، وحدد طريق سيرها، ثم عاد لقائده وقدم تقريره، فجمع ﷺ شعبه وخاطبهم، قائلاً ودون تصريح بالمهمة: (إن لنا طلبة، فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في علو المدينة؟ قال: لا، إلا من كان ظهره حاضرًا)[1]. وبعد أن اجتمع حوله أكثر من ثلاثمئة من المهاجرين والأنصار، أحب أن يثبت التزامه واحترامه للمواثيق والعهود التي قطعها لأهل المدينة في العقبة، فطلب من الحاضرين رأيهم في الخروج: (فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد،

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

لفعلنا. فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا)[١]، ولكن بسرية حتى إنه (أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر)[٢] وبرغم ذلك، فقد علم بعض الوثنيين بالخبر، فصادف جواسيس قافلة قريش وأخبرهم، فوصل الخبر لقائد القافلة (أبي سفيان)، فأصيب بالهلع، وأرسل رجلاً يقال له: (ضمضم بن عمرو)، فانطلق ضمضم ولما وصل مكة وقف ببطن الوادي فشق قميصه، وقطع أنف بعيره، ورفع عقيرته، وصرخ بأعلى صوته حتى رددت الجبال صراخه.

فوجئت مكة بـ: (صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفًا على بعيره، قد جدع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث.. الغوث)[٣]، فتجمعت قريش حول هذا المشهد الفاجعة، وصرخت في وجه ضمضم بن عمرو تسأله عن تفاصيل أكثر، وتعالى الضجيج، وسلت السيوف، واحتقن طواغيت قريش كلهم إلا واحدًا أذهله الخبر، فأصيب بالهلع.. أمية بن خلف لا يدري ما يفعل، ولا كيف يتصرف؟ إنه فقط يرتجف ويرتجف.. يهرول مسرعًا لمنزله، وعندما يصل لا يبحث عن سلاح، ولا يفتش عن رمح أو درع.. إنه يكاد يموت من الخوف.. يخبر زوجته، فزادت خوفه، وقالت: (أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال أمية: فإني لا أخرج)[٤]. فعلم أبو جهل فأتاه كالمجنون، واستفزه قائلًا: (: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٤)، وروى مسلم نحوه.. وسند أحمد صحيح متصل رجاله أئمة ثقات هم... عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد (٦/١٥٠)، والنسائي وغيرهما (سيرة ابن كثير ٢/٣٨٩):... سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن بشر. والصواب: سعيد بن بشير عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة، وقد خالفهما هشام، فرواه عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة ومع احتمال التعدد إلا أن سعيدًا رغم كونه مدلسًا فإنه أثبت الناس في قتادة وشيوخه ثقات. التقريب (١/٢٥٩) و(١/٢٨٩).

(٣) حديث حسن، مر معنا عند الحديث عن رؤيا عاتكة، وهو جزء من حديث الرؤيا.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي (٣/٢٦).

تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة)[١]. اشترى أمية بعيرًا سريعًا ليس استعدادًا للمعركة، ولكن تأهبًا للفرار، ثم خرج معهم يرى الموت بين الجبال وخلف الشجر.

أما النبي القائد ﷺ فقد واصل سيره بسريته، ثم توقف وفي أثناء توقفه انتشر الصحابة، وأخذ ﷺ يصلي، ليفاجأ الصحابة بعبيد لقريش فيهم عبد لبني الحجاج لا علم له بالقافلة، فسألوه عنها فقال: (والله ما لي بشيء من أمره علم، ولكن هذه قريش قد جاءت فيهم: أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف. فإذا قال لهم ذلك ضربوه. فيقول: دعوني، دعوني أخبركم. فإذا تركوه قال: والله ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذه قريش قد أقبلت، فيهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف قد أقبلوا. والنبي ﷺ يصلي وهو يسمع ذلك، فلما انصرف قال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم، وتدعونه إذا كذبكم، هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان»[٢]. عندها أمر ﷺ بالمواصلة، وفي الطريق رأوا رجلين من قريش، وما إن رأوا المسلمين حتى فرا، فتم القبض على أحدهما، فسأله النبي ﷺ: (كم ينحرون من الجزور؟[٣] فقال: عشرًا كل يوم. فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف، كل جزور لمائة)[٤].

إذا كانت قريش ألفًا، فإن أحد الصحابة يقول: (كنا أصحاب محمدٍ - نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[٥] و(ما كان معنا إلا فرسان، فرس

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٩٥٠).

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم وأبو داود، واللفظ له، صحيح أبي داود ٢٣٣٢.

(٣) الإبل.

(٤) سنده صحيح، رواه البيهقي ٣-٤٢ وأحمد ١-١١٦: إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة عن علي: إسرائيل ثقة وسماعه من شيخه (جده) قبل الاختلاط، وجده تابعي ثقة. التقريب ٤٢٣ أما حارثة بن مضرب فتابعي كبير ثقة. التقريب ١٤٩.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي، واللفظ له ٣-٣٦.

للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود)[١]. معادلة صعبة، وقرار لا بد للرجوع للأمة فيه، لذا خاطب القائد ﷺ سريته في مشورة أخرى في مكان يقال له (ذفران).

المشورة الثانية

لم يكن القائد ﷺ يستشيرهم ليؤيدوه، ولا ليستأنس برأيهم، بل لأن لشعبه رأياً له وزنه، وسيأخذ به وإن خالف رأيه. فقال المقداد: يا رسول الله (لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك)[٢].

سر النبي بمقولة هذا المهاجر العظيم، لكنه يبحث عن قرار له في نفسه الوزن الأهم، لأنه بنى دولته عليه، وهو العهد والميثاق الذي بينه وبين الأنصار. كان ﷺ (يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك[٣] حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه[٤] بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا

---

(١) سنده حسن، رواه البيهقي ٣-٣٩: أخبرنا أبو عبد الله، أخبرنا عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إسماعيل ابن إسحاق القاضي، حدثنا ابن وهب، وأخبرني أبو صخر عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن علي: أبو معاوية صدوق من رجال مسلم واسمه: عمار بن معاوية الدهني، وأبو صخر: حميد بن زياد. التهذيب ٣-٣٦ من رجال مسلم حسن الحديث، وتلميذه إمام معروف، والبغوي مسند بغداد التذكرة ٨٨٩.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

(٣) الذمام: الحرمة، أي نحن غير مسئولين عنك، حتى تسكن في مدينتنا.

(٤) هاجم المدينة.

ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا. إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك)[1]. وأمر أن يعسكر الجيش بمكان يقال له بدر، وبنيت له قبة، وهي خيمة صغيرة أشبه بغرفة عمليات، وهناك قسم جيشه، ووزع الحراسات، وحدد مواقع رماة الأسهم، ولم تغب الشمس حتى كان كل شيء قد خطط له.. فعل ﷺ كل ما بوسعه، وترك الأمر لله من قبل ومن بعد، وإذ به يخرج على جنده يمشي أمامهم ويشير، ويمشي ويشير، ويقول: (هذا مصرع فلان إن شاء الله غدًا، هذا مصرع فلان إن شاء الله غدًا)[2] (ووضع يده على الأرض)[3] وكأنه يضع يده على مواضع الحماس في القلوب المؤمنة، ليفجرها نشاطًا، فأيقنوا بنصر يشرق عليهم مع صباح الغد.

خيم الليل بعد يوم شاق، وخلد الجميع للنوم، أما النبي ﷺ فغفا أول الليل، ورأى قريشًا قليلة في منامه. رؤيا تحدث عنها الجبار سبحانه وعن آثارها النفسية، فقال: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[4]، ثم نهض وأمضى ليله في الصلاة والدعاء، وفجأة صحا الجميع على زخات المطر. تنعش النفوس وتلبد

---

(١) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل، وله شاهد عند ابن مردويه (سيرة ابن كثير ٢-٣٩٥). من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده، وجده ولد في عهد رسول الله ﷺ وروايته عن الصحابة. أما عمرو فهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (الجنة) والبيهقي (٣/٤٨)، واللفظ له.

(٣) سنده صحيح، رواه أبو داود، ومن طريقه البيهقي ٣-٤٦: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن ثابت عن أنس. موسى ثقة ثبت من رجالهما، والبقية أئمة ثقات.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٤٣.

الأرض، وفي الصباح نهض الجميع في أجواء منعشة وسماء تزينها قطع السحاب، أما قريش، فكانت في حالة ثقة بالنفس من القضاء على أمر محمد وبسرعة.

مسح أحد فرسانهم المنطقة فلم ير مددًا للمسلمين، لكنه رأى موتًا فخاطب الوثنين قائلًا: (ما رأيت شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم)[1]. فسكت الجميع وهم يستمعون إلى هذا الوصف المرعب، وظهرت حكمة عتبة بن ربيعة، فحاول ثنيهم عن خوض المعركة، لكن أبا جهل استفزه، فأخذته العزة بالإثم، ونادى ابنه وأخاه، ف(برز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية)[2] يريدون المبارزة. و(نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مئة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، ماذًا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[3].

فعل ﷺ الأسباب كلها، ثم توجه لله يناشده. هذا هو التوكل الذي رسمه لأتباعه:

---

(١) أثرٌ رواه ابن إسحاق، ومن طريقه الطبري ٢-٤٢: حدثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار، وهذا السند صحيح، فوالده ثقة وقد سمع من بعض الصحابة، وهؤلاء الأشياخ ربما كانوا من الصحابة، فإن كانوا كذلك فالسند متصل وله شاهد يقويه أيضًا.

(٢) حديث صحيح، وهو جزء من حديث الإمام أحمد، وقد مر معنا.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٣٨٣ وغيره.

شاور المهاجرين والأنصار قبل الانطلاق.

ثم قطع الأجراس من أعناق الإبل إمعانًا في السرية.

رفض أن ينتظر أي شخص لم يكن جاهزًا.

أبقى هدف المسير سرًا عند انطلاقه.

سمح للقادرين على القتال فقط بمصاحبته.

استطاع أن يعرف عدد الخارجين للقتال من قريش.

استشار أصحابه في المضي أو العودة، فوافقوا على المضي.

سبق ﷺ المشركين إلى العدوة الدنيا، حيث الماء والآبار.

بنى المسلمون لهم حوضًا يشربون منه في أثناء المعركة.

وبعد ذلك وقبله توجه إلى الله يناشده ويدعوه.

وفي أمسّ الحاجة للجند يصل صحابي ووالده للمشاركة مع نبيهم ﷺ، فيبتهج الصحابة، لكن القائد ﷺ يرفض مشاركتهما.

وزن العهود في ميزان النبي والإسلام؟

يصل صحابي اسمه حذيفة بن اليمان ووالده حسيل، يطلبان المشاركة، لكن الإجابة كانت بحجم محمد ﷺ. ليس هناك أزمة ثقة بحذيفة، بل إن حذيفة فوق الشبهات. الأمر هنا لا يتعلق بالثقة.. الأمر يتعلق بالرسول ﷺ وبدولته. يقول حذيفة: (ما منعني أن أشهد بدرًا، إلا أنني خرجت أنا وأبي (حسيل) فأخذنا



كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمدًا. فقلنا: ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[١].

إنها إجابة بحجم محمد ﷺ: (نفي لهم بعهدهم)، وهم المشركون الذين يحاربون الله ورسوله، وما خرجوا إلا لطمس التوحيد ونحر الإسلام ونبيه، وتدمير دولته، ومع ذلك (نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم). ثم توجه ﷺ للصفوف، فقال للرماة محددًا زمن الرماية: (إذا أكثبوكم، يعني إذا غشوكم، فارموهم بالنبل، واستبقوا نبلكم)[٢]. وفجأة سمع الجميع عتبة يصرخ يريد المبارزة، فخرج ثلاثة شباب من الأنصار، فأبى عتبة مبارزة طالبًا رجالًا من قريش. فقال ﷺ: (قم يا حمزة، وقم يا علي، وقم يا عبيدة)[٣]

قم يا حمزة..

خرج الفرسان الثلاثة فإذا المشركون جثث هامدة بثوان.. جثث قال عنها علي: (أقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحدٍ منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[٤]. علا التكبير والحمد، وانهارت معنويات الوثنيين، فهتف ﷺ بجنده: (قوموا إلى جنة عرضها السموات الأرض)[٥]. سمع المجاهدون اسم الجنة فطارت قلوبهم، وانطلقوا كالسهام نحو بواباتها، وانقض شابان من الأنصار

---

(١) سنده حسن، رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦٣: حدثنا أبو أسامة، عن الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل، حدثنا حذيفة بن اليمان. الوليد تابعي حسن الحديث ومن رجال مسلم. التقريب ٥٨٢، وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت. التهذيب ٣-٢ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي (٣-٧٠) وغيرهما.

(٣) جزء من حديث أحمد الصحيح، وقد مر معنا (سيرة ابن كثير ٢-٤٢٢).

(٤) سنده صحيح، رواه أبو داود ٢-٥٩ وغيره بسند إسرائيل عن أبي إسحاق... السابق.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم ٣- ١٥٠٩.

يتسابقان نحو رأس أبي جهل، لكن كيف، والمشركون كالشجر الملتف حوله.. يحمونه؟ يقول عبدالرحمن بن عوف، وهو الذي أشار لهما بمكان أبي جهل: (نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه. فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه)[1].

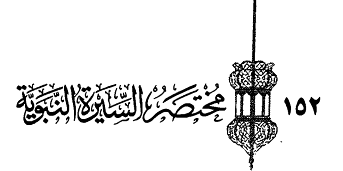
هوى الطاغية الشرس الذي قضى أكثر من عشر سنين في محاربة الله ورسوله ﷺ.. قضاها في اضطهاد الفقراء، وقتل العجائز والمسنين من المؤمنين.. خيمة من الموت ضربها الشابان الأنصاريان عليه، فلم يبق منه سوى عينين زائغتين.. تضعفان كلما سقط مشرك من قومه. تساقط قرابة السبعين من المشركين، وهوى أمية بن خلف، لكنه لم يمت. ظل يرتجف هو وابنه علي حتى مر به عبدالرحمن بن عوف، فناداه مستغيثًا مستسلمًا. فأسرهما ابن عوف، وخرج بهما إلى مكان آمن. فقال أمية: (من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: حمزة. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل)[2]. واصلوا المشي والمسير، وفجأة دوت صرخة مرعبة من بعيد.. اتسعت لها عيون أمية وابنه.. دوت صرخة حرى من أعماق الألم وجراح الماضي وشمس القيظ الحارقة حين كان أمية يسلخ جسد بلال العاري بالسياط والحجارة على الرمضاء، ثم يربطه بحبل ويعطيه للمراهقين، ليتسلوا بسحبه في الشوارع.. شل أمية وابنه، وبلال يقبل يهز الأرض يملأ السماء، وكأنه يطلق آخر آهات مكة. يقبل ابن رباح كالموت الأسود يصرخ: رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا.

يقول عبد الرحمن بن عوف: (فوالله إني لأقودهما، إذ رآه بلال معي -وكان هو الذي يعذب بلالًا بمكة على الإسلام- فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف،

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٣٧٣ وما بين المعقوفين عند البخاري.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البزار (٣-٢٢٧) وغيره: حدثني عبد الواحد ابن أبي عون عن سعد ابن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. إبراهيم له رؤية وابنه تابعي ثقة، وشيخ ابن إسحاق ثقة، وجرح ابن حبان لا يضره.



لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال، أسيري. قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا)[١]. (فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية ابن خلف. فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلًا ثقيلًا، فلما أدركونا قلت له: أبرك. فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي)[٢] (فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[٣]، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئًا، فهبروهما بأسيافهما حتى فرغوا منهما)[٤].. (قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه)[٥]. يتذكر عبدالرحمن رضي الله عنه ذلك مبتسمًا، ويقول: (يرحم الله بلالًا، فجعني بأدراعي وبأسيري)[٦]. وهكذا انتهت قصة أمية الطويلة، كما تنتهي قصص كثير من أمثاله. وبدأ المشركون الفرار وهم يرون قادتهم بين قتيل وأسير، بينما كان المجاهدون يطاردونهم خلف أشجع رجل على أرض بدر.

أشجع رجلٍ في بدر؟

إنه رسول الله ﷺ، وأحد الذين كانوا يلوذون بشجاعة رسول الله ﷺ.. يتحدث بنفسه فيقول: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، وهو الحديث السابق.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٣٠١).

(٣) التفوا حولنا وكأنهم داخل بئر صلبة لا تحتاج إلى طي.

(٤) حديث صحيح، جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٥) حديث صحيح، جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٦) حديث صحيح، جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا)[١]. ويقول: (لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسًا)[٢].

انتهت المعركة، فقال ﷺ: (من ينظر ما صنع أبو جهل).

أين أبو جهل

انطلق رجل نحيل الجسم.. دقيق الساقين.. كان يرعى الغنم في مكة، انطلق ابن مسعود يفتش ويفتش، وبعد قليل هدأت قدماه وتهادتا نحو جريح ينزف.. قد طارت ساقه، وطار صوابه. حدق به ابن مسعود، فإذا هو أبو جهل (فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قتله قومه)[٣]، يقول ابن مسعود: (ومعي سيف لي، فجعلت أضربه، ولا يحيك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ قلت: الله الذي لا إله إلا هو. فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ قلت: الله الذي لا إله إلا هو. فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ قلت: الله الذي لا إله إلا هو. قال: انطلق فاستثبت، فانطلقت فأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته فقال رسول الله ﷺ: فانطلق فأرني. فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: هذا فرعون هذه الأمة)[٤] رأسه هنا، ورجله

(١) حديث صحيح، رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٤ وانظر ما بعده.

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد ١-١٢٦ والبيهقي ٣-٦٩ واللفظ له. وسنده وسند ما قبله هو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي، وقد مر معنا كثيرًا.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).

(٤) سنده قوي، رواه الطبراني ٩-٨٣ حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا أبو المعافى محمد بن وهب بن أبي كريمة حدثنا محمد بن أبي تملة عن أبي عبد الرحيم عن زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو ابن ميمون عن ابن مسعود. ابن أبي تملة لم أجد له ترجمة، والصواب محمد بن سلمة الحراني ابن أخت عبدالرحيم الحراني من تلاميذ خاله وشيوخ ابن وهب. التهذيب ٩-٥٠٦ و٩-١٩٣٤ وهؤلاء ثقات كلهم، وابن ميمون مخضرم ثقة، التقريب ٤٢٧ وشيخ الطبراني حافظ جليل. سير أعلام النبلاء ١٤-٥٧ وللحديث شواهد: الطبراني ٩-٨١ وحديث سنده قوي عند البزار.

هناك، وباقيه في مكان آخر.. أبو جهل الذي جمع الشرك كله، ورفض الحكمة كلها، يسقط على أرض بدر دون أن يمس أحدًا من المؤمنين بأذى.. دون أن يشفي غليله ولو بضربة واحدة، أما سيفه الثمين، فلم تصدر منه سوى ضربة واحدة متجهة نحو رقبته هو، وبعد ذلك توجه ﷺ للشهداء ليدفنهم، وكان عددهم:

ثمانية عشر شهيدًا

دفنهم ﷺ، وتحدث عنهم الفتى النحيل ابن مسعود رضي الله عنه بحديث كالماء البارد، فقال: (إن الثمانية عشر الذين قتلوا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر، جعل الله أرواحهم في الجنة، في طير خضر تسرح في الجنة، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: يا عبادي، ماذا تشتهون؟ قالوا: يا ربنا ما فوق هذا شيء. فيقول: عبادي ماذا تشتهون؟ فيقولون في الرابعة: ترد أرواحنا في أجسادنا فنقتل كما قتلنا)[1]. الشهداء هناك يبحثون عن الموت من جديد.. يريدون فعل أي شيء يجعلهم يستحقون كل ما حولهم، ويستحقون ما يرونه من الرفاه والجمال والنعيم، الذي لا يمكن وصفه ولا تخيله، وماذا يساوي ألم الموت أمام عوالم الخلود؟ ماذا يساوي الموت أمام تلك القصور الفاتنة، والشوارع الفسيحة المرصوفة بالأحجار الكريمة الساحرة، والملابس الراقية الأنيقة، والأجساد الشابة الغضة الفاتنة التي لا تعرف المرض ولا الهرم، ولا الترهل ولا الشحوب ولا القبح؟

---

(١) سنده صحيح، رواه الطبراني ١٠-٢٤٩: حدثنا سليمان بن الحسن العطار أبو أيوب حدثنا محمد بن علي ابن الحسن بن شقيق، سمعت أبي: أخبرني الحسين بن واقد عن الأعمش عن شقيق أن ابن مسعود: شقيق ابن سلمة أدرك الجاهلية والإسلام. التهذيب ٤٣٦١. وسمع منه التابعي الثقة: قال لي أبو وائل: يا سليمان لو رأيتني ونحن هراب من خالد بن الوليد. وقال الأعمش عن إبراهيم: عليك بشقيق، فلا تضر عنعنة الأعمش، لا سيما وهما كوفيان، وتلميذه الحسن ثقة، وعلي بن الحسن وولده ثقتان، وشيخ الطبراني ثقة. سؤالات السهمي كما عزاه الشيخ عبد القدوس في مجمع البحرين ٦-١٤٧.

قضية الغنائم

مشى أحد الشباب نحو نبيه ﷺ يحمل بيديه سيفين.. سيفه وسيف رجل من المشركين، ولما وجده قال: (يا رسول الله نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه. ثم قام فقال: يا رسول الله: نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه. ثم قام فقال: يا رسول الله نفلنيه، أُجعل كمن لا غَنَاء له؟ فقال النبي ﷺ: ضعه من حيث أخذته)[١].

لم يحصل أحد على شيء من الغنائم، ثم نزل الوحي بأحكامها، حتى قال أحد الصحابة: (لما كان يوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم، فأصابوها، فقال رسول الله ﷺ: إن الغنيمة لا تحل لأحد سود الرؤوس غيركم، وكان النبي[٢] وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها، ونزلت نار فأكلتها، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾)[٣]. ولما نزلت هذه الآيات ترك المجاهدون اجتهاداتهم لوحي السماء، فليس مع الوحي الصريح اجتهاد، وسلموا الأمر لله ولرسوله ﷺ، وسلمت الغنائم لرسول الله ﷺ، فوزعها على المهاجرين والأنصار ففرحوا بها، كانت أول هدايا الله للنبي وأصحابه على أرض معركة، وكانوا أول أمة تباح لها الغنائم، لكنهم تعلموا أيضًا أن المال العام (مال الدولة) محرم على أي فرد من أفراد الشعب، حتى ولو كان مجاهدًا، إلا إذا كان بصورة نظامية مستحقة.

فرح سعد بن أبي وقاص بسيفه، وبشيء آخر مع سيفه. أما علي بن أبي طالب فكان نصيبه من الإبل، حيث يقول رضي الله عنه: (كانت لي شارف من نصيبي من

---

(١) سنده قوي، رواه جرير ١-١٧٣ من طرق عن: سماك بن حرب، سمعت مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. سماك صدوق روايته قوية إلا عن عكرمة، وهذه ليست منها، بل عن التابعي الثقة مصعب بن سعد وهو من رجال الشيخين.

(٢) أي من الأنبياء السابقين. وهذا من كلام أبي هريرة، وليس من كلام النبي عليه السلام.

(٣) سنده صحيح مشهور، رواه الطيالسي ٢-١٩ وغيره عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة.، والحديث وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣-٥٣.

المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ)[1].

إذاً فعلي رضي الله عنه حصل على بعيرين: بعير من نصيبه من الغنائم، وبعير من الخمس، فما هو الخمس الذي تحدث عنه علي بن أبي طالب هنا..؟ الإجابة بسيطة. فقد أمر الله سبحانه بتقسيم غنائم الحرب إلى خمسة أجزاء: أربعة أجزاء للمجاهدين المشاركين في المعركة. أما الجزء الخامس فيقسم أيضًا إلى خمسة أجزاء:

١. جزء لله وللرسول.

٢. جزء لقرابة الرسول ﷺ.

٣. جزء ليتامى المسلمين الذين فقدوا آباءهم.

٤. جزء للمساكين المحتاجين من المسلمين.

٥. جزء للمسافرين الذين فقدوا أموالهم، أو نفدت أموالهم، وليس لديهم ما يسد حاجتهم للمواصلة، أو الرجوع إلى ديارهم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[2]، ويوم الفرقان هو يوم بدر. انتهت قضية الغنائم، وبقيت قضية لا تقل عنها:

قضية الأسرى

نظر النبي ﷺ للأسرى نظرة أسف، ثم نطق بالوفاء كله لأحد رجالات قريش الكرام، الذين كانوا مثالًا في احترام النفس، واحترام الآخر.. رجل شهم كأبي

---

(١) رواه البخاري ٤-١٤٧٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

طالب. إنه المطعم بن عدي، ذلك الرجل الذي كان يحترم النبي ﷺ في مكة. تذكر ﷺ مواقف المطعم بن عدي فانطلقت مشاعر الوفاء منه لكل صاحب معروف ولو كان مشركًا، فباح بوفائه، وقال: (لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له)[١]، لكن المطعم بن عدي تحت الثرى، ولم ينزل على رسول الله ﷺ وحي في أمرهم حتى الآن، لذا توجه القائد ﷺ لشعبه كما هي سنته عند عدم وجود وحي، (فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم: فتمكن عليًّا من (عقيل) فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من (العباس) فيضرب عنقه، وتمكنني من (فلان) نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، قال عمر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد، جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت. فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عُرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (لشجرة قريبة من رسول الله) فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢][٣].

تم استدعاء أسير واحد من ضمن سبعين أسيرًا، وحكم عليه بالقتل. أسير واحد فقط، هو من أبرز من عذب المؤمنين في مكة وسحلهم، وفتش المزابل بحثًا عن القاذورات ليلقيها على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد، هو عقبة بن أبي معيط،

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٢٤).

(٢) سورة الأنفال الآيات: ٦٧-٦٩.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم وابن جرير في التفسير بالسند السابق.

الذي قام بمحاولة اغتيال النبي ﷺ بخنقه بثوب في أثناء انشغاله بالصلاة، أما بقية الأسرى فأخذوا إلى مستوى من الرقي في التعامل غير مسبوق.

بقية الأسرى في نعيم

كانت السجون جزءًا من ثقافة الحضارات السابقة كالفرس والروم والإغريق والصينيين، أما النبي ﷺ فلم يشيد سجنًا لأسرى بدر، وزعهم على بيوت صحابته، يأكلون من طعامهم ويشربون من شرابهم، بل يأكلون أفضل من طعامهم. حتى امتدح الله تلك البيوت وأهلها، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، وبعد أن تمت معاملتهم كالأيتام والمساكين عرض ﷺ عليهم دفع فدية، فقبلوا، وبدأ المشركون يرسلون الأموال لإطلاق أسراهم، حتى إن زينب كبرى بنات قائد الدولة ونبي الأمة ﷺ، أرسلت قلادتها لتفك أسر زوجها (أبي العاص بن الربيع)، وكان من ضمن الأسرى عم قائد الدولة العباس بن عبد المطلب، فناشد الأنصار نبيهم أن يطلق عمه دون مقابل، وقالوا: (إيذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه. فقال: لا والله، لا تذرون منه درهمًا)[١] بل طالب عمه بفداء أكثر من فداء غيره.

عاد الجيش مظفرًا يشق شوارع المدينة وسط التكبير والحمد لله، كان العناق والفرح سيد الموقف، أما النبي ﷺ فلم تصفو له الدنيا. ففي غمرة سعادة شعبه استقبل بخبر رحيل ابنته المجاهدة رقية زوجة عثمان بن عفان، فامتزجت دموع الحزن بدموع الفرح، وضرب لعثمان بسهمه.

شعر ﷺ بعد فقد رقية بشوق لكبرى بناته، شوق جعله يمشي نحو زوجها وابن خالتها الأسير أبي الربيع، فأطلق أسره بعد أن دفع الفدية و (أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه)[٢].

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠١٨).

(٢) حديث حسن، رواه أبو داود، وحسنه الإمام الألباني (٢/٥١٢).

انطلق أبو العاص لمكة، ففرحت به زينب وأمه هالة بنت خويلد، وسلم زينب قلادتها، وأخبرها بوصية والدها ﷺ، فتأهبت للرحيل برغم أنها كانت حاملًا، وعندما وصل زوجها أخبرها برغبة والده ﷺ، فجهزها وأرسلها مع أحد أقاربه، لكن أحد الوثنيين ممن أحرقتهم هزيمة بدر قرر الانتقام من تلك الفتاة، فلحق بها، وظل يطعن بعيرها حتى سقطت على الأرض وأسقطت جنينها، وتمت إعادتها لمكة، فتولت هند بنت عتبة مهمة تمريضها، حتى صحت، فأرسل النبي ﷺ ابنه زيد وأعطاه خاتمه ليسلمه إلى من يسلمه إياها. وصل الخاتم لزينب وسألت عن حامله، ثم تمكنت من الفرار بابنتها الصغيرة أمامة إلى المدينة، وفي المدينة كان كل الأسرى قد غادروا إلا الفقراء الذين لم يجدوا فداء.

ماذا عن بقية الأسرى

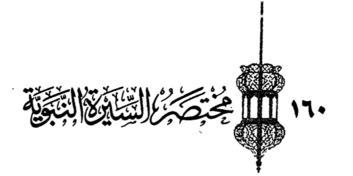
غادر الأسرى إلى مكة بعد أن دفعوا الفدية، ولكن بقي أناس منهم لا يملكون فداءً ولا مالًا.. فهل سيقتلهم، أم ستكون أعمال السخرة والتعذيب مصيرهم حتى تجمع لهم قريش مالًا؟ لا هذا ولا ذاك. إن رسول الله ﷺ أكبر من أن يكلفهم ما لا يطيقون، والإسلام ما جاء ليصادر الحريات، بل ليدعمها ويطلقها في طرقات البناء والإسلام.

الخدمة الاجتماعية بدلًا من الحبس

في خطوة حضارية تضيء المستقبل، وتفعل طاقة المجرمين والأسرى والخارجين عن القانون.. أمر ﷺ بالخدمة الاجتماعية بديلًا للأسر. فما هي الخدمة التي أداها هؤلاء مقابل حريتهم؟ يقول أحد الصحابة: (كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)[1].

---

(١) سنده قوي، رواه أحمد ١-٢٤٧ وغيره عن علي بن عاصم حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.. وهو صحيح، لولا أخطاء ابن عاصم، فهو صدوق يخطئ. التقريب ٤٠٣ وهو هنا لم يخطئ، فقد تابعه خالد بن عبد الله الطحان، ثقة ثبت من رجال الشيخين.



بدأ العلم ينتشر، وأصبحت المدينة مدينة الكتاب والقلم، فالناس محتاجون لقراءة القرآن وتلاوته، ولذا بدأوا الإقبال على الكتابة، فأصبح هناك من يحتفظ بنسخ من القرآن الذي ينزل، ولم يكن القرآن يتحدث عن موضوع واحد، بل كان يثقف الناس عقائديًّا ونفسيًّا وتربويًّا واجتماعيًّا وتاريخيًّا وعسكريًّا وروحيًّا وتشريعيًّا واقتصاديًّا.

انتهى رمضان وحل العيد ونزل تشريع اقتصادي ينشر الرفاه بين أفراد المجتمع، وهو (الزكاة)، وهو عكس الربا الذي يأخذ من جيوب الفقراء والمضطرين، ويصب في جيوب الأثرياء.. تأتي الزكاة مواساة للفقراء، وكسرًا لحدة الرأسمالية التي تطحن الطبقة الفقيرة.. نزلت زكاة الفطر وغيرها من الزكوات لتحل إشكالية الفقر إن نفذت كما أراد الله. تشريعات شعر بعدها الوثنيين في المدينة بالفشل، فقرروا تغيير جلودهم استغلالًا للوضع الجديد.

مولد النفاق

صدمت تلك الأحداث قسمين من مواطني دولة النبي ﷺ: القسم الأول هم الوثنيون، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فقد شعروا بالرعب مما حدث، وأيقنوا أن هذا النبي منتصر لا محالة، فلم يجدوا بُدًّا من التظاهر بالإسلام، وإعلان إسلامهم. مدشنين طبقة اجتماعية بغيضة، وحالة فكرية منحطة، تسمى النفاق، يتحدث عنها الطفل أسامة بن زيد، فيقول: (لما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه. فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا)[١] في الظاهر.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم.

القسم الآخر الذي صدمته نتائج بدر، هم يهود، فقد تأكدوا أن هذا النبي هو النبي المذكور عندهم في التوراة، فمحوا اسمه، لكن ظلت الأحداث، بل ظلت غزوة بدر مدونة حتى اليوم، فكتابهم المقدس اليوم، يقول: (وحي على بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدّدانيين، هاتوا ماءً للعطشان، يا سكان تيماء استقبلوا الهارب الجائع بالخبز[1]. هم هاربون من أمام السيوف، ومن أمام القوس المشدودة، وويلات الحرب، وهذا ما قاله لي الرب. بعد سنة يفنى كل مجد قيدار (عدنان)، ولا يبقى من أصحاب الأقواس من جبابرة بني (عدنان) قيدار غير القليل)[2]، هذه هي النبوءة التي غفل عنها الأحبار، وتعسف في تأويلها الشراح اليوم، هل تنطبق على نبي غير محمد ﷺ؟ من هو الذي جاء بالوحي من جهة بلاد العرب؟ من هو الذي هرب وأصحابه من شدة العذاب ولظى السيوف؟ من هو النبي الذي هرب من قومه (بني عدنان)، ثم حاربهم بعد عام؟ من هو الذي أفنى جبابرتهم ولم يبق من جبابرتهم سوى القليل، بعد سنة من هجرته وهروبه؟ ثم إن هناك حقيقة كالشمس تزداد سطوعًا، كلما حاول اليهود إخفاءها.

هذه الحقيقة هي أن التوراة تخاطب اليهود.. اليهود وحدهم، وتطلب منهم أن يستقبلوا حامل الوحي القادم من فاران بالتحديد، بالترحاب والخبز، وأن ينصروه، فهو هارب من السيوف المسلولة والأقواس المشدودة، فلماذا انتقل اليهود من أرض الشام إلى المدن المحيطة بفاران مكة، وإلى (يثرب) بالتحديد؟ لماذا تركوا الديار المقدسة الباردة إلى يثرب ذات المناخ الحار؟ لكن ماذا فعل اليهود بعد تأكدهم؟ لا شيء.. ظلوا على يهوديتهم المحرفة، ولم يسلم إلا القليل.. القليل منهم، أما الأكثرية فلم تكتف بالكفر بمحمد ﷺ.. لقد تفاقم حقدهم فحاولوا زعزعة الأمن والتآمر مع مشركي قريش والجزيرة العربية كلها، رغم أنهم لا يعترفون بالتوراة

---

(١) أي رسول الله ﷺ ومن معه... وتيماء واحة عربية والدّدانيين شعب عربي.

(٢) الكتاب المقدس، إصحاح إشعيا، ٢١، ص٨٧٥.

ولا بموسى ولا هارون، تآمر اليهود ضد محمد ﷺ الذي يؤمن بالتوراة التي أنزلها الله، ويؤمن بموسى وهارون، ونقضوا الثقافة الوطنية التي شيدها ﷺ بعد وصوله للمدينة بين أهلها جميعًا، مهما كانت ديانتهم، بل كان ﷺ يحب موافقة اليهود إلا فيما أنزل عليه. كل هذه القنوات من التواصل رفضها اليهود، واستبدلوها بالتآمر، وكان أبرز المتآمرين زعيم بني النضير.. اليهودي كعب بن الأشرف.

كعب بن الأشرف

قرر هذا الخائن تدمير اللحمة الوطنية التي بدأ النبي ﷺ تقويتها، فقرر تأليب الجزيرة العربية كلها ضد الدولة الإسلامية. يتحدث عن مؤامراته وعن شعره أعلم الناس بشعره.. شاعر الأنصار (كعب بن مالك) فيقول: (إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة، وأهلها أخلاط: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج. فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ المدينة يؤذونه أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر والعفو، فقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، لكن

---

(١) سنده صحيح، وقد مر معنا.

كعبًا لم يبال.. ظل في خياناته لدولة الإسلام حتى طاف بين القبائل يحرض، لذا قام ﷺ بمسؤوليته الأمنية تجاه شعبه ودولته، فقال: (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟)(١)، فتطوع محمد بن مسلمة للمهمة، وخلص الوطن من كارثة حقيقية كانت ستحل به. بعدها خافت يهود، (فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه)(٢)، لكنه خوف استثمره ﷺ لصالح الوطن بمن فيه اليهود، فعصر محمد ﷺ لم يعد عصر الجاهلية: عصر الكر والفر والثأر.. ارتقى به النبي القائد ﷺ ليكون عصرًا متحضرًا، تحكمه القوانين والعهود والعقود مع العدو والصديق، بل مع أطياف مجتمع الدولة الإسلامية أنفسهم.

وثيقة وطنية مكتوبة بين المسلمين واليهود

بعد مقتل الخائن ابن الأشرف (فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا، فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا فقتل. فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره، وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم، وبين المسلمين عامة صحيفة، كتابًا ينتهون إلى ما فيه. فكتب النبيّ ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة)(٣)، تم التوقيع على وثيقة وطنية مكتوبة تُلقي على جميع سكان المدينة ومواطني الدولة الإسلامية مسؤولية الأمن في هذه الدولة، مهما كانت ديانتهم، أقلية أو أكثرية، فدولة القبيلة انتهت، لتنهض دولة الإسلام بشريعتها المتحضرة، لكن دماء الحقد المتجمدة في عروق كعب بن الأشرف.. لا تزال حارةً متدفقة في

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣-١٩٥).

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير)، وروى البيهقي أوله (٣/٢٠٠) من طريق ابن إسحاق: حدثني ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه... وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب (١،١٢٠) وعكرمة تابعي وإمام معروف.

(٣) جزء من حديث أبي داود والبيهقي السابق، وهو صحيح.

شرايين بني النضير وقريظة.. خاصة خليفته حيي بن أخطب، فبعد مدة قصيرة من التوقيع على الوثيقة قام بالتمرد على دولته استجابة لطلب المشركين من قريش.

يهود النضيروقريظة يعلنون الحرب

يقول الشاب عبد الله بن عمر بن الخطاب: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[١]. وتتلخص خيانتهم بأن (كتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء، وهو الخلاخل، فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلت إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبرًا حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا)[٢]. فوافق النبي ﷺ فاصطحب ثلاثين رجلًا معه، لكن اليهود أدركوا أن قتله صعب ومعه هذا العدد فخفضوه إلى ثلاثة، فوافق، لكن معلومة من داخل حصن النضير تسربت له تفيد بأن الحاخامات الثلاثة يخبئون الخناجر في ثيابهم، فعاد النبي ﷺ للمدينة، ثم عاد بجيشه لحصار الخونة، ثم توجه لقريظة فوقعت معه معاهدة أخرى، ثم عاد للنضير الذين رفضوا كتابة معاهدة، وفضلوا مغادرة حصنهم، بشرط أن يأخذوا أموالهم عدا السلاح، فانطلقوا نحو خيبر إلا القليل.

أصبح النبي ﷺ ثريًا بعد خيانة النضير وإجلائهم، فهل سكن ديارهم وتمتع بمزارعهم وبساتينهم، وبنى على أطلالها قصرًا له ولزوجتيه؟ هل لبس الحرير

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم والبيهقي (١٨٣/٣).

(٢) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه: صحيح سنن أبي داود ٢-٥٨٢ حديث (٣٠٠٤)، فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع موسوعة السيرة.

وأكل أطايب الطعام وانعزل عن شعبه؟ إطلاقًا.. لقد عاد إلى غرفه المتواضعة الملاصقة للمسجد، وظل (فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدمًا[١]، حشوه ليف)[٢]. وقسم ذلك المال بين فقراء شعبه، وهاهو عمر يوضح سنة نبي الأمة ورأس الدولة في التعامل مع ذلك الفيء، فيقول: (إن الله سبحانه كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، فقال جل ذكره: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ، ثم والله ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم، لقد أعطاكموها وقسمها فيكم، حتى بقي هذا المال منها، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي، فيجعله مجعل مال الله)[٣].

وفي هذا العام تزوجت بقية بنات النبي ﷺ، فزفت ابنته فاطمة إلى علي بن أبي طالب، وكان مهر ابنة قائد الدولة ﷺ درعًا قيمته أربعة دراهم، بينما تتنعم بنات كسرى وقيصر بين الوصيفات والخادمات في مروج وقصور مبحرة عبر الأنغام والأوتار. زفت الزهراء إلى بيتها، فما الذي قدمه لها والدها قائد الدولة من أثاث وحلي وتحف. زوجها يقول: (جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدم حشوها إذخر)[٤]، كما تزوج ﷺ من حفصة بنت عمر بن الخطاب، بعد وفاة زوجها واسمه: (خنيس بن حذافة السهمي)، وكان خنيس أحد المهاجرين إلى الله ورسوله، وفي مثل هذه الأفراح كان ﷺ يقول: (أعلنوا النكاح)[٥]، فإعلان الزواج

(١) جلد.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٦٥٠.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-٧٩ ١٤.

(٤) سنده قوي، رواه ابن ماجة ٤١٥٢ بسند فيه عطاء بن السائب رحمه الله وقد اختلط، والراوي عنه محمد بن فضيل، قال أبو حاتم، وما روى عنه ابن فضيل ففيه غلط واضطراب. التهذيب ٧-٢٠٥ وقد توبع عند البيهقي ٣-١٦١ تابعة زائدة، وقد قال الطبراني رحمه الله: ما رواه عنه المتقدمون فهو صحيح، مثل: سفيان وشعبة وزهير وزائدة (التهذيب ٧-٢٠٧).

(٥) حديث حسن، (صحيح الجامع ١-٢٤٣).

ابتهاج بالجميل، والاجتماع والمصـاهرة والحلال، ولذلك يقول ﷺ لأمته: (فصل ما بين الحلال والحرام الدف، والصوت في النكاح)[١]، وذات يوم زفت عائشة: (امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو)[٢]، وذات يوم أقبل رجل إلى حفلة عرس، فسمع صوت الدف، فأنكر جلوس اثنين من أبطال بدر عنده، وقال: (دخلت على قريظة بن كعب وأبي مسـعود الأنصاري في عرس، وإذا جوار يغنين، فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن أهل بدر، يفعل هذا عندكم؟ فقال: اجلس إن شئت، فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس)[٣]، وتمر الأشهر وينزل الوحي بتشريعات تؤكد أن المدينة دولة نظام وقانون وعلم ونظافة. تشريعات تقتل المنافقين، خاصة تلك الإشارات حول الخمر.

النبي ﷺ يأمر بالانتفاع بالخمر

يأمر ببيعها بعد أحداث مريرة تسببت بها بين من يشربونها، وهو يتوجس أمرًا سيحدث في المستقبل. فيخطب قائلًا: (يا أيها الناس، إن الله تعالى يُعرِّضُ بالخمر، ولعل الله سينزل فيها أمرًا، فمن كان عنده منها شيء فليبعه، ولينتفع به)[٤]، أما في مكة فالنواح لم يتوقف، والثأر مطلوب، ولعل أبرز رأس مطلوب هو رأس أسد الإسلام: حمزة بن عبد المطلب، فمن هو الذي يريد رأسه.

جبير بن مطعم يريد الثأر من حمزة.

عـاد جبير خطيب عائشـة السـابق من بدر، وقـد ترك عمـه طعيمة مجندلا بسـيف حمزة، وكان لجبير عبد يقال له وحشـي، فناداه وطلـب منه طلبًا يتحدث

(١) حديث حسنه الإمام الألباني، (صحيح سنن النسائي ٢-٧٠٩).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٨٦٧).

(٣) حديث حسن، (سنن النسائي ٢/٧١٢).

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم (١٥٧٨) تحريم بيع الخمر.

عنه وحشـي، فيقول: (قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. فخرجت مع الناس، وكنت رجلًا «حبشـيًّا»، أقذف بالحربة قذف الحبشـة، قلَّ ما أخطئ بها شيئًا)[١]. لكن ما سبب هذا القول؟

السبب تحرك قريش للثأر.

قريش تريد الثأر

مر عام على غزوة بدر، فقرر بقية زعماء قريش القيام بمهاجمة المدينة ثأرًا لقتلاهم في بدر، فسلحوا ألف مقاتل، وساروا بآلاف الإبل نحو المدينة، لكن عيون الدولة الإسلامية رصدت تحركاتهم، وسلمت تقريرها لقائد الدولة ﷺ، الذي قام على الفور كما هي سنته بجمع شعبه واستشارتهم، حول الخطر الداهم على دولتهم. الغريب أن النبي ﷺ رأى رؤيا مخيفة، فلم تخفه، ولم تثنه عن المشورة التزامًا باتفاقية العقبة، التي أسست دولته.

الاستشارة قبل أحد.

قص ﷺ رؤياه المخيفة على شعبه، ولم يكتف بقصها، بل أولها، فقال: (إني رأيت أني في درع حصينة. فأوّلتها: المدينة، وأني مردف كبشًا. فأوّلته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فُلَّ. فأوّلته: فلا فيكم، ورأيت بقرًا تذبح. فبقرٌ والله خير، فبقرٌ والله خير)[٢].

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق/ ابن هشام٤-١٧: حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة. عن سليمان ابن يسار، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشي. عبد الله تابعي ثقة. التقريب ٣١٧ وشيخه وشيخ شيخه تابعيان ثقتان. التقريب ٢٥٥ و١٤٠.

(٢) سنده قوي، رواه أحمد ١-٢٧١ وغيره عن ابن وهب، أخبرنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبدالله ابن عتبة عن ابن عباس. ابن أبي الزناد صدوق، ووالده ثقة. التقريب ٤٣٣ و٣٠٢ وعبيد الله تابعي ثقة ثبت.

الرؤيا تشير إلى أن الحرب في المدينة أسلم وأحكم، والدماء تشير إلى خطورة الأحداث، ومع ذلك استشار شعبه جميعًا دون استثناء، وكان رأيه ﷺ ورأي كبار الصحابة أن يقاتلوا داخل المدينة في حرب شوارع تنهك العدو، وتقلل الخسائر، لكن الشباب وهم الأغلبية، خاصة من لم يحضروا غزوة بدر رأوا الخروج لصد الوثنيين، ومن بينهم عمّ أنس بن مالك واسمه (أنس بن النضر)، الذي شق عليه غيابه عن بدر، فخاطب قائده بحماس، وقال: (يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع)[1].

إن شبابًا بهذه المعنويات، لا يمكن أن يقنعوا بقتال الشوارع والمدن.. إنهم يريدون ساحات ومساحات يعانقون فيها الخلود، وينتشون فيها ببريق الشهادة والسيوف، لذا قال (ناسٌ لم يكونوا شهدوا بدرًا: يخرج بنا رسول الله ﷺ إليهم نقاتلهم، ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته[2]، وعندما خرج ﷺ من بيته بلباس الحرب ندم الشباب، فقالوا: يا رسول الله، أقم فالرأي رأيك. فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه)[3].

قدم ﷺ لأمته سنته في الإنصات للأغلبية حتى لو كانوا من الشباب، وقدم درسًا في أهمية الشورى، بل ودرسًا في التعامل مع الرؤى. لم يبحث ﷺ عن الآراء التي تؤيده، بل عن الآراء التي تقوي دولته وتجمع شعبه، أما الرؤى فلم يتعلق بها، ولم تخفه.. زادته حبًّا للفداء والشهادة. وقبل أن ينطلق ﷺ إلى أرض المعركة أحب أن يستعرض جيشه، الذي تداعى من كل مكان في المدينة متلهفًا، فأجاز من

التقريب ٣٧٢.

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٣- ١٠٣٢.

(٢) أي أداة الحرب.

(٣) سنده قوي، رواه الحاكم ٢ - ١٤١ وغيره بسند أحمد السابق عن ابن وهب عن ابن أبي الزناد عن أبيه، وقد مر تخريجه.

يستطيع القتال، وردّ صغار السن، ثم انطلق بهم، وفي الطريق قام مجموعة من المنافقين بالرجوع للمدينة في خطوة خيانية خطيرة، فلم يأبه ﷺ بهم وواصل لمكان بين جبلين.

بين عينين وأُحد

عينين جبل، وأُحد جبل آخر، وبينهما وادٍ[1]، حيث وصل الجيش المؤمن، فتوقف النبي ﷺ، وتوقف أصحابه، وعندما لامست أقدامهم تلك الأرض.. تأمّلها ﷺ جيدًا، وتأمل أصحابه، فوجدهم قلّة، فأدار المعركة في مخيلته قبل أن تدور على الأرض، تأمل ﷺ أُحدًا فوجده حبيبًا للمؤمنين، فوظفه توظيفًا يرجح به كفة جيش صغير، على جيش كبير كجيش قريش. لقد قرر ﷺ أن يستخدمه درعًا خلفيًّا للجيش، ليس هذا فحسب، بل جعل من الجبل قاعدة جوية.. تنتشر من أعلاه مظلّة من السهام تساند الجيش في أثناء المعركة، وتحميه من أي التفاف قد يقوم به المشركون من خلف الجبل.. لا سيما وأنّهم قد سبقوا المسلمين إلى موقع المعركة، وهذا ما أوجب دقّة التخطيط، وضرورة الدقّة في التنفيذ، وأهمية الانضباط في العمل.

أخرج ﷺ من الجيش مجموعة من الرماة، وحدّد قائدهم، وحدد لهم موقعًا على الجبل، وأمرهم بالبقاء فيه مهما كانت الظروف.. مهما كانت النتيجة.. و(جعل النبي ﷺ على الرماة يوم أُحد عبد الله بن جبير)[2]. لقد كان ﷺ يدرك خطورة الموقف وشدّته، فكان واضحًا وصارمًا في تعاليمه للرماة، لقد (أقامهم في موضع، ثم قال: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا

---

(١) هذا ما جاء في البخاري في حديث طويل (٤٠٧٢).

(٢) حديث صحيح، رواه الإمام البخاري (٣٩٨٦).

غنمنا فلا تشركونا)[١]. لا مكان للتوقعات والظنون، ولا للحماس الزائد، ولا للاجتهادات الفردية... وهل هناك أشدّ صرامة من قوله ﷺ للرماة: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم)[٢].

كان جيش قريش يفتقد إلى أشياء كثيرة.. أهمّها الهدف الموحد والبعيد للمعركة.. كانت المعركة بالنسبة لهم ذات أهداف شخصية بالدرجة الأولى، فعكرمة بن أبي جهل خرج للثأر لأبيه، وأبي بن خلف جاء ليقتل رسول الله ﷺ .. ثأرًا لمصرع أخيه أمية بن خلف، وجبير بن مطعم يحلم بالثأر لعمّه من حمزة وهكذا، ومن الأشياء التي يفتقدها الجيش الوثني: حب الموت، والاحتفاء بالشهادة، فهم يحرصون على الحياة كحرص المؤمنين على الشهادة، كما يفتقد جيش قريش إلى النظام، فمن الصعب أن تسيطر على جيش يبحث كل فرد فيه عن فرد ضمن جيش آخر. هناك تشتّت في الاتجاه والهدف، وهذا ما حرص ﷺ على إبعاده عن جنده، عندما قال للرماة: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[٣]. كانت معركة بين جيشين: جيش قوي، وجيش ذكي:

البداية دعاء

بدأ ﷺ كعادته بالدعاء، لقد (قال يوم أُحد: اللّهمّ إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض)[٤]، فمن أجل عبادة الله وحده لا شريك له خرج ﷺ وأصحابه لا يريدون

---

(١) ظاهر إسناده الضعف لكنه صحيح، رواه أحمد ١-٨٧ و٢-٢٨١٨ حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا عبدالرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه عن عبيدالله عن ابن عباس. عبيدالله تابعي ثقة ثبت، وأبو الزناد تابعي ثقة مر معنا، وابنه عبدالرحمن ثقة تغير حفظه عندما قدم بغداد، وسليمان بن داود ثقة فقيه سكن بغداد، لكن الناقد علي ابن المديني له رأي يقول: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة، وجعل علي يستحسنها، سمع ذلك من علي يعقوب بن شيبة، وذكره الإمام الترمذي في علله (٢-٦٠٦).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم (١٧٤٣).

مالًا، ولا جاهًا. شُردوا من ديارهم لأنهم اعتنقوا التوحيد، وهاهم يخرجون للقتال دفاعًا عنه وعن وطنه.

بشائر النصر

صف القائد ﷺ رجاله صفًّا خلف صف، وإذ بهم يتمايلون تمايلًا يقول عنه أحدهم، وهو (أبو طلق): (غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد)[١]، و(كنت فيمن تَغَشَّاه النعاس يوم أُحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه)[٢]، وفي ذروة الخوف والأمن، وخلال ذلك الصمت المخيم والنعاس الثقيل، يشقّ الساحة صوت ينطلق من معسكر الأصنام بالتحدي.. فارس جاهلي شجاع اسمه (سباع بن عبد العزى) يصرخ ويقول:

هل من مبارز؟؟

ها هو وحشي يتلفت.. تشخص عيناه بحثًا عن حمزة، وفجأة يراه، ويقول: (خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع، فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحادّ الله ورسوله ﷺ؟ ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب)[٣]. لفظ غاية في تصوير الحدث وسهولة حدوثه، يعبّر عن سهولة هلاك الشجعان على يد حمزة. سقط ذلك الفارس، وسقط سيفه، فانحنى حمزة والتقطه، وصاح وهو يلوح (بسيفين، ويقول: أنا أسد الله)[٤].

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٥٦٢).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٧٢).

(٤) سنده صحيح، رواه البيهقي، وسيمر تخريجه حين الحديث عن استشهاد حمزة.

ارتفعت معنويات المؤمنين، وزاد حماسهم، فأراد القائد ﷺ أن يؤجج ذلك الحماس، فصاح بجنده رافعًا سيفًا: (من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟ فمدوا أيديهم، كل إنسان فيهم يقول: أنا.. أنا. فقال ﷺ: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال له سماك «أبو دجانة»: أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين)[1]، الذين أذهلتهم هذه المعنويات. أفنى حمزة مبادرتهم، ومزّق أبو دجانة من أمامه منهم، والتحم الجيشان، وبدأ الرماة بنشر مظلتهم الجوية، ففوجئ المشركون بجيش يحصدهم على الأرض، ويمطرهم من السماء زخات من الموت فرّقت جموع الوثنيين، فصاروا يهربون في كل اتّجاه، وأنس بن النضر الذي أبهر من يراه بشجاعته يبرّ بقسمه.. كالأسد بين الصفوف لا تزيده الجراح الكثيرة إلاّ شراسة وإقدامًا، ولا يتفوّق عليه إلاّ حمزة الذي كان يقاتل بطريقة جديدة، ويصرخ بمعنويات شهيد: (كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله)[2]، أما وحشي فكان يختبىء، ويرصد حمزة من بعيد، ويقول: (أنظر حمزة وأتبصّره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء)[3].

شتت حمزة ورفاقه جمع قريش ومزّقوهم.. ها هم يهربون.. ينهزمون يتطايرون كالشظايا في الجبال. وها هو الزبير يلاحق فلولهم، الذين تركوا

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم، فضائل الصحابة (٢٤٧٠)، وابن أبي شيبة بسند صحيح.

(٢) سنده صحيح، رواه البيهقي، حدثنا أبو عبد الله، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا محمد بن شاذان الجوهري، حدثنا معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق، عن سعد. أبو عبد الله هو الحاكم، وشيخه ابن بالويه هو أبو علي كما جاء في ترجمته في تاريخ بغداد ١-٢٨٢ والصواب أبو بكر، وقال فيه البرقاني: ثقة، وشيخه ثقة. التقريب ٤٨٣ وشيخه ابن المهلب ثقة من شيوخ البخاري. التهذيب ١٠-٢١٥ وإبراهيم بن محمد الفزاري ثقة حافظ. التقريب ٩٢ وعمير بن إسحاق تابعي، قال الحافظ: مقبول.. والصواب: أنه ثقة. وقول ابن معين: ليس شيء يعني أنه قليل الحديث، وابن معين قال عنه: ثقة. (قواعد في علوم الجرح للتهانوي - ٢٦٣)، وقال النسائي: ليس به بأس، ولم يورده العقيلي إلا أنه لم يرو عنه إلا واحد.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق (ابن كثير - ٣-٣٥)، ومر معنا عند الكلام على وحشي.

نساءهم خلفهم، فكان بإمكانه أخذ ما شاء منهن.. الزبير يقول: (والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[١] هند بنت عتبة وصواحباتها مشمّرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير)[٢]. ورأى منظر الهزيمة شاب صغير هو البراء بن عازب، فقال: (فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهنّ وأسوقهن رافعات ثيابهن)[٣] ويقول أيضاً: (فهزموهم، فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الخيل، قد بدت خلاخيلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن)[٤].

الساحة الآن للرسول القائد ﷺ وأصحابه.. هرب الوثنيون تاركين نساءهم في متناول الزبير وأصحابه، أما نساء المسلمين فكنّ كرجالهن يمارسن التمريض والإسعاف بالماء والدواء. يقول أحد الصحابة: (لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمّرتان، أرى خدم سوقهما تُنْقِزان القرب على متونهما، فتفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[٥]. وعائشة رضي الله عنها وهي في أوج نشاطها وحماسها.. تصف نتيجة المعركة بعبارة مختصرة، فتقول: (هزم المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم)[٦]. وروى أحد الصحابة ما حدث لحملة الراية من المشركين شيئًا مذهلًا، لقد استبدلتهم سيوف حمزة ورفاقه سبع مرات، و(حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة)[٧] لتخلو الساحة من ثأر المشركين وأصنامهم..

---

(١) الخدم: هي الخلاخيل.

(٢) سنده صحيح، رواه إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه.. وشيخ ابن إسحاق. ثقة. التقريب (٢/٣٥١)، ووالده تابعي ثقة - التقريب (١/٣٩٢).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٤٣)، والبيهقي (٣/٢٢٩) واللفظ له.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٦٣).

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري (٦٦٦٨)، والبيهقي (٣/٢٣٠) واللفظ له.

(٧) ظاهر سنده الضعف لكنه صحيح، رواه أحمد ١-٨٧ و ٢-٢٨٨: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عبيد الله تابعي ثقة فقيه، أحد الفقهاء السبعة، وأبو الزناد تابعي ثقة مر معنا، وأما ابنه فمن أجله قلت ما قلت.. فهو ثقة لكنه تغير عندما قدم بغداد، فالنقاد يضعفون ما رواه في بغداد، وسليمان بن داود ثقة فقيه جليل ممن سكن بغداد،

ماذا فعل الرماة

كان بعض الرماة يشاهدون هذا الانتصار المذهل، ويتأملون تلك الغنائم الهائلة، فتيقنوا أن كل شيء قد حسم، لكنهم فوجئوا برجال مهمتهم جمع الغنائم، فظنوهم يجمعونها لأنفسهم، فقرّروا النزول والظفر بشيء منها.. أنساهم إغراء الغنائم قول نبيهم ﷺ: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم..)[1] فتنادى الرماة بصوت مرتفع: (الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة)[2].

انحدر معظمهم فانحدرت الكارثة معهم حين تصدى لهم أخوتهم المكلفين بجمع الغنائم ظنًا أنهم من الوثنيين، فشاهد المشركون المنهزمون ذلك الشجار، فلاح لهم بريق أمل، فاستجمعوا قواهم للانقضاض ما دام خطر الأسهم قد زال عن سماء المعركة. التفّت قوة من الوثنيين وصعدت الجبل، وعاد أبو سفيان والمشركون وهم يرون هذا الفراغ في السماء، والارتباك على الأرض.. الارتباك الذي أحدثه الرماة حول الغنائم، وكأن أمر الغنائم لم تنزل به الآيات. حدثت فوضى عارمة داخل الصف المؤمن، وانفلت الزمام، وضاع النظام. وتحوّل الجيش الإسلامي إلى شبكة لا يعرف لها أوّل ولا آخر. مشهد فوضوي وصفه أحد الصحابة فقال: (لما غنم النبي ﷺ وأناخوا عسكر المشركين، أكبّ الرماة جميعًا فدخلوا في العسكر ينهبون،

= لكن الناقد الكبير علي بن المديني رحمه الله قال مستثنيًا رواية هذا الثقة عن شيخه عبد الرحمن: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة، وجعل علي يستحسنها) ذكر ذلك الإمام الترمذي في علله: (٢/٦٠٦).

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

وقد التقت صفوف أصحاب النبي ﷺ، فهم: كذا، وشبك أصابع يديه، والتبسوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ، فضرب بعضهم بعضًا، والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير)[١]، هُزموا وهم الصحابة، وهم خير الناس، لأنهم خالفوا النظام، فسنن الله لا تجامل أحدًا.

أصبحت المعركة بيد قريش، واستشهد من الصحابة سبعون.. بعضهم بيد بعض، أحدهم حسيل والد حذيفة رضي الله عنه، وفي تلك الأثناء عاد وحشي مع من عاد من الفارين، لا هم له سوى رصد تحركات حمزة الذي صمد.. يجوب الساحة بحثًا عن مُنازل، ولما سقط آخر ضحاياه، نهض وحشي من مخبئه. وقال: (خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهدّ الناس بسيفه هدًّا، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ له، أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني)[٢] (وهززت حربتي حتى رضيت منها دفعتها إليه «رميته بحربتي»، فوقعت في ثنته، حتى خرجت من بين رجليه)[٣].

انفجرت دماء حمزة.. تساقطت على الأرض ولم يسقط.. حدق بطاعنه، ثم تحرك نحوه وهو يترنح والحربة تتمايل.. بعضها أمامه وبعضها خلفه، ووحشي خائف يقول: (وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق)[٤]. تقدم وحشي فانتزع حربته وحريته الحمراء من جسد سيد الشهداء، ثم توجه إلى معسكر الشر والشرك، وجلس ينتظر جبير بن مطعم، ليقدم له ثمن الحرية، وهو أغلى مبلغ في الدنيا يُدفع ثمنًا لعبد. جلس وحشي بعيدًا لا تهمه

---

(١) سنده قوي، وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد (١-٨٧ و ٢-٢٨٨).

(٢) حديث صحيح، مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.

(٣) حديث صحيح، مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.

(٤) حديث صحيح، مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.

نتيجة المعركة، فلا شأن له بها، وودّع حمزة الدنيا، بينما كان أخوته المسلمون في تراجع وانكسار.. كانوا في غفلة عن جسده الطاهر، الذي تقدم إليه شخص مجهول، فأخرج أداةً حادةً فجدع بها أنفه، وشقّ بطنه وشوّه جسده الطاهر، ومثّل به، وهكذا يفعل الجبناء، وماذا لديهم سوى ذلك؟

وسط هذا الغبار والفوضى..لم يبقَ من الرماة إلاّ قائدهم عبد الله بن جبير وقلّة معه من الصابرين، لكن المشركين باغتوهم بأعداد كثيرة، فاستشهدوا جميعًا على قمة الجبل، فسرق المشركون خطتهم، وشكلوا مظلة وثنية جوية تنشر الموت، لكن ما دهور وضع جيش المؤمنين صرخة دوت تملأ المكان تقول:

إن محمدًا قد قُتِلَ

سمعه الزبير وأذهله ما سمع، فقال: (مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قُتِلَ، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم)[١]. لكن أنس بن النضر عم أنس بن مالك لم ينكفئ.. كان يقاتل عن رجلين.. عن معركتين.. عن بدر، وعن أُحُد. وعندما (هُزم الناس قال: اللّهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ)[٢]، (فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهًا لريح الجنّة «إني» أجده دون أحد..)[٣]. (فقال سعد: أنا معك - قال سعد: فلم أستطع أصنع ما صنع)[٤]. لقد

(١) سنده صحيح، وقد مر معنا، وهو بقية حديث الزبير عند ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٤٨).

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٤) حديث صحيح، رواه أحمد بسند ثلاثي على شرط الشيخين، كما قال ابن كثير: حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس. يزيد بن هارون ثقة، وحميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس.

(قاتلهم حتى قتل، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية)[١].. كان وجه أنس بن النضر مشوّهاً لا يعرف.. كان جسده ميداناً لمعركة أخرى انتصر فيها الوفاء، وخرج منها أنس مزيناً بالطعنات والشهادة والوعد الصادق، أما بعض الصحابة فقد أذهلهم الخبر، وصدقوه فانهارت معنوياتهم، فولّوا عن أرض المعركة لا يلوون على شيء، أما البعض فتوقع أن رسول الله ﷺ قد رفع

رسول الله ﷺ في السماء

يقول علي رضي الله عنه: (لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد، نظرت في القتلى فلم أرَ رسول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرّ، ولا أراه في القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيّه ﷺ، فما لي خير من أن أقاتل حتى أُقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم)[٢] يقاتل.. كان القائد ﷺ غارقاً في أحزانه ودمائه، حيث (جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه)[٣].. هشمت البيضة التي كان يغطي بها رأسه فشجّ رأسه، (وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه)[٤].

رآه عليّ فتألم لما حدث له، لكن فرحته بمرآه حيًّا خففت حزنه، وكان أول من عرفه الشاعر المجاهد (كعب بن مالك) حيث: (كان كعب أوّل من عرف

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٢) سنده حسن، رواه أبو يعلى زوائد ٢-٤٣٠ حدثنا أبو موسى، ثقة ثبت حافظ. التهذيب ٩-٤٢٥ حدثنا محمد بن مروان العقيلي، حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ: صدوق له أوهام ٥٠٦، عن عمارة بن أبي حفصة ثقة من رجالهما. التقريب ٤٠٨.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٤) سنده صحيح، رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٧١: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير. عفان ثقة ثبت إذا شك في حرف من الحديث تركه، وشيخه ثقة معروف، وبقية السند لا يسأل عنها، وقد مر معنا كثيرًا.



رســول الله ﷺ بعــد الهزيمة، وقــول النـاس: قتل رســول الله ﷺ. قال كعب: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صــوتي: يا معشر المسلمين أبشروا، هــذا رســول الله ﷺ، فأشــار إليّ أن انصــت «اسـكت»)[١]. ربما لكــي لا يتداعى المشــركون عليه، لكن وثنيًّــا يدعى أبي بن خلف وهو أخو أميــة، علم بأنه على قيد الحياة فجن جنونه وصار يصرخ: أين هذا الذي يزعم أنه نبي.

الرسول يجتث الطاغية

يقول الزبير: (شجَّ النبي ﷺ يوم أُحُد في وجهه، وكسرت رباعيته، وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه، وتركه أصحابه. فجاء أبي بن خلف يطلبه بدم أخيه: أمية بن خلف، فقال: أين هذا الذي يزعم أنه نبيّ فليبرز لي، فإنه إن كان نبيًّا قتلني. فقال رسول الله ﷺ: أعطوني الحربة. فقالوا: يا رسول الله، وبك حراك؟ فقال: إني قد استسقيت الله دمه. فأخذ الحربة ثم مشى إليه، فطعنه، فصرعه عن دابّته، وحمله أصحابه فاستنقذوه، فقالوا له: ما نرى بك بأسًا؟ قال: إنه قد استسقى الله دمي، إني لأجد لها ما لو كانت على ربيعة ومضر لوسعتهم)[٢]، ثم هلك مع من هلك من الطواغيت قبله، ولحق بأخيه إلى الجحيم، وهرب أتباعه بعد أن رأوا تلك الضربة النبوية المميتة، وتراكضوا نحو أصحابهم يخبرونهم عن رمح رسول الله، وعن قوّة رسول الله ﷺ ليكدر عليهم بقية نصرهم، فاكتفوا بما جرى وولوا خلف أحد الجبال.

هدأت الساحة وانقشع الغبار، ودب نشاط المسعفات، حتى قال أنس: (لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمِّرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني في الأوسط، مجمع البحرين، ٥-١٠٥ والبيهقي في الدلائل ٢-٤٨٢: حدثني الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك. الزهري إمام معروف وشيخه له رؤية وتابعي ثقة له رؤية رواه عن والده.

(٢) سنده صحيح، مر معنا قبل قليل، رواه ابن أبي شيبة ٣-٣٧١: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[١]. أمّا عمر بن الخطاب فيحدّثنا عن امرأة عظيمة أخرى، هي «أم سَليط»، فيقول: (إنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحد)[٢].

كان ﷺ يمسح الدم عن وجهه، ويقول: (كيف تفلح أمة فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى الله؟! فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾)[٣] فامتثل ﷺ، فمسح قوله ودمه بدعاء كالمطر: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[٤]، وجاءت فاطمة رضي الله عنها لتغسل الدم عن وجه أبيها، وزوجها (عليّ بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم)[٥]، لكن ساعة الهدوء تلك لم تدم.. كدرها أبو سفيان بكلمات وثنية، وهو (يصيح في أسفل الجبل: أعل هبل، أعل هبل)[٦].

أطلق أبو سفيان هذه الكلمات المنحطّة، منتشيًا بنصر غير مؤكّد، فقد هزم هو وجيشه في أوّل المعركة، وكاد الزبير أن يسبي زوجته هند ورفيقاتها، وجُندل من جيشه سبعون، ومازال المسلمون يحتفظون بأسرى وثنيين، أما المسلمون، فقد استشهد منهم سبعون، ولم يؤسر منهم أحد. ولو كان نصر أبي سفيان وجيش الشرك من خلفه حقيقيًّا لخلصوا رفاقهم من الأسر، وطاردوا المؤمنين إلى المدينة، وهي قريبة من أُحد، أمّا المسلمون، فيعتبرونها خسارة إذا ما قارنوها ببدر، أو قارنوا أوّل النهار بآخره، لكن المعركة في الميزان العسكري نصر للمؤمنين، وهم

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٨١١).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٧١).

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم (١٧٩١)، والترمذي (٣٠٠٣)، واللفظ له وسنده صحيح.

(٤) سنده حسن، رواه ابن حبان ٣-٢٥٤ والضحاك ٤-١٢٣ من طريق محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن الزهري عن أنس. ومحمد حسن الحديث من رجال البخاري. التقريب ٥٠٢ وموسى والزهري إمامان ثقتان ثبتان.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٦) حديث صحيح، عند أحمد، وقد مر تخريجه من طريق سليمان بن داود أخبرنا ابن أبي الزناد.

الأعلون الآن فوق الجبل، وأبو سفيان في أسفل الجبل يزعج الجبال والفضاء، ويقول: (أعل هبل). ولما لم يجد إجابة لهذا الاستفزاز.. ألحق به استفزازًا آخر، فقال: (أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟)[1] فلم يجبه أحد، فأصبح أكثر تعقّلًا وتأدّبًا، فقال: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، (ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك)[2]. (هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دول، وإن الحرب سجال. فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنّة، وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذًا وخسرنا. ثم قال أبو سفيان: أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلا[3]، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا، ثم أدركته حمية الجاهلية، فقال: أما إنه قد كان ذلك فلم نكره) (ستجدون في القوم مثلة[4] لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أعل هبل.. أعل هبل. قال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ. قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزّى لكم. فقال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم)[5]. عندها خسئت ألفاظ الشرك، وتهاوى تمجيد الخرافة والأصنام أمام هذا التوحيد النقيّ، الذي لا تشوبه شائبة، فانسحب المشركون وعادوا إلى مكة ولما (انكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: استووا حتى أثني على ربّي، فصاروا خلفه صفوفًا. فقال:

اللّهمّ لك الحمد كلّه، اللّهمّ لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت،

(١) حديث صحيح، وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠٤١) دون تكرار إنما قال الراوي: ثلاث مرات.

(٣) أي ستجدون تشويهًا بجثث أصحابكم وتقطيعًا.

(٤) أي ستجدون تشويهًا بجثث أصحابكم وتقطيعًا.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠٤١).

ولا مقرّب لما باعدت، ولا مبعد لما قرّبت، اللّهمّ أبسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللّهمّ إنّي أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، «اللّهمّ إني أسألك النعيم المقيم يوم القيامة»، اللّهمّ إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللّهمّ إني عائذ بك من شرِّ ما أعطيتنا، وشرِّ ما منعت منّا، اللّهمّ حبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللّهمّ توفّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللّهمّ قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسلك، اللّهمّ اجعل عليهم رجزك وعذابك، اللّهمّ قاتل «كفرة أهل الكتاب» إله الحق)[1].

هدأت الأنفس مع الله، واطمأنت الأرواح بهذا الدعاء، فالأمر لله من قبل ومن بعد، ولا رادّ لقضائه.. لله خرجوا، وله قاتلوا، وله الحمد على كل حال. وفجأة انفجر جرح عميق.. جرح غائر حين تهدج صوته ﷺ حزنًا وهو يقول لأحبته: (من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، قال: فانطلق أرناه. فخرج ﷺ)[2] وتهادى وأصحابه خلف ذلك الرجل الأعزل، الذي مشى أمامهم ليدلّهم على مكان استشهاد حمزة.. مشى الرجل، لكنه استدار فجأة باتجاه نبيه متكدرًا. فحين (وقف على حمزة، فرآه قد بقر بطنه، وقد مُثّل به، فقال: يا رسول الله، مثّل به والله. فكره رسول الله ﷺ أن ينظر إليه)[3] (وقد جدع ومُثّل به، فقال: لولا أن تجد صفية في نفسها تركته حتى تأكله العافية، فيحشر من

---

(١) سنده قوي، رواه البزار/ زوائد ٢-١٣٠ والحاكم ١-٦٨٦ والبخاري في الأدب ٦٩٩ وغيرهم من طريق عبدالواحد بن أيمن المكي. حدثني عبيد بن رفاعة بن رافع عن أبيه. عبيد تابعي ثقة ولد على عهده عليه السلام وثقه العجلي، وعبد الواحد تابعي صغير من رجال مسلم قال في التقريب: لا بأس به، وقد روي عنه هذا الحديث ثقتان، هما خلاد بن يحيى وهو من كبار شيوخ البخاري ومروان بن معاوية وهو ثقة حافظ.

(٢) سنده حسن، رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٧٢: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز، حدثنا الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه - وهذا السند رجاله ثقات إلا أن في عبد الرحمن بن عبد العزيز كلامًا لا ينزل به عن رتبة الحسن، فهو ثقة كما قال يعقوب بن شيبة، وهو كثير الحديث عالم بالسيرة كما قال ابن سعد ووثقه ابن حبان وهو من رجال مسلم. أما جرحه فهو غير مفسر. قال الأزدي: ليس بالقوي عندهم.. وقال ابن أبي حاتم شيخ مضطرب الحديث. (التهذيب ٦/ ٢٢٠) وقال الحافظ ملخصًا أقوال العلماء في التقريب (١/ ٤٨٩): صدوق يخطئ. وليس هناك من لا يخطئ.

(٣) سنده جيد، رواه ابن أبي شيبة (٣٧٢/٧) لكن يشهد لأوله ما بعده.



بطونها)[١] أي من بطون الوحوش. وصفية هذه التي خاف عليها ﷺ هي عمّته.. صفية بنت عبد المطلب.. شقيقة حمزة، وأم الزبير بن العوام، وهي المقصودة بقوله ﷺ: (لولا جزع النساء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع)[٢]، (ثم دعا بنمرة، فكانت إذا مدت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدت على رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: مدوها على رأسه واجعلوا على رجليه الحرمل)[٣]، وهو نبات صحراوي يستعمل في الطب.. استعمله ﷺ لتكفين الراقد الذي كان قبل ساعات يزرع الرعب في قلوب المجرمين، وينثر الاطمئنان على صدور المؤمنين.. هذا الراقد الذي قال عنه ﷺ: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب)[٤]. ثم انفجر جرح آخر حين قال أحد الصحابة: (لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أُحُد مرّ على مصعب مقتولاً على طريقه، فقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾)[٥] ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٦].

كان في نزول هذه الآية تكريم لهؤلاء الرجال، الذين صدقوا مع الله في عهودهم، فمنهم من قضى نحبه، كمصعب وحمزة، وهناك من قضى نحبه وهو

---

(١) سنده حسن، رواه الحاكم ١-٥١٩ وأبو داود (٣١٣٦) وغيرهم من طرق عن أسامة بن زيد الليثي عن الزهري عن أنس. أسامة حسن الحديث من رجال مسلم. التقريب ٩٨.

(٢) سنده ضعيف، لكنه حسن بما قبله.. رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٧٢ والبيهقي في السنن -٤-١٢ وغيرهم طريق يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس. ويزيد ضعيف.

(٣) سنده حسن، وهو حديث أسامة بن زيد عن الزهري عن أنس.السابق، وحسنه الألباني.

(٤) انظر: صحيح الجامع للشيخ ناصر.

(٥) إسناده حسن، رواه الحاكم ٣-٢٠٠ حدثني محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى الشهيد، حدثنا عبدالله بن عبدالوهاب الحجبي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن عبد الأعلى بن عبدالله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير عن أبي ذر.. وعبيد: وعمير ولد على عهد النبي، وذكر البخاري أنه رأى النبي عليه السلام وقد أجمع على توثيقه، التهذيب ٧-٧١ وجامع التحصيل ٢٨٥ وتلميذه صدوق، أظن الحافظ قد أخطأ بجعله من السادسة، والأولى أن يكون من الخامسة أو الرابعة، لأن ابن عمر توفي قبل عبيد.. وعبد الأعلى ثقة فقيه. التقريب ٣٣١ وحاتم حسن الحديث، قال الحافظ: صحيح الكتاب صدوق يهم، وهو من رجال الشيخين، والحجبي ثقة من رجال البخاري ويحيى هو الذهلي الثقة الحافظ، وتلميذه ثقة حافظ، قال ابن الجوزي: كان له فهم وحفظ، وكان من الثقات لا يأكل إلا من كسب يده. وقال عنه ابن يعقوب: صحبت محمد بن صالح ما رأيته أتى شيئًا لا يرضاه الله، ولا سمعت منه شيئًا يسأل عنه. (المنتظم ٦-٣٧٠) وقد رواه البيهقي ٣-٢٨٤ من طريق الحاكم ٣-٢٤ بسند صحيح.

(٦) أكملت الآية للفائدة.

لا يزال حيًّا، مثل طلحة بن عبيد الله، الذي شلت يده، وارتقى ﷺ على ظهره أثناء المعركة ليراقب، ثم قال له: (أوجب طلحة). أي أنجز عملًا أوجب له الجنّة.

لكن هناك من ليس بين الأحياء ولا يتبين بين الأموات.. إنه أنس بن النضر عم أنس بن مالك، الذي يقول: (نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾)[1].

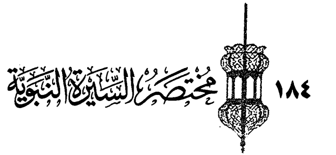
لكن أين ابن النضر..؟ لا أحد يدري. كما أن المشركين لم يأخذوا معهم أسرى، وإلاّ لقلنا إنه معهم. سنترك بعض الصحابة ليبحثوا عن أنس، بينما نتعقب هذه المرأة لنرى ما تفعل على أرض أُحُد.. إنها فاطمة بنت عمرو بن حرام أخت عبدالله ابن عمرو بن حرام، عمّة جابر بن عبد الله، وهي تحمل حزنًا كالجبال، فقد فقدت أخاها وزوجها عمرو بن الجموع، فأذهلها الوجد عمّا يجري حولها، فاتّجهت إلى من يعينها على حمل زوجها فحملته على بعير، واتجهت إلى أخيها فحملته أيضًا، وعادلتهما على ذلك البعير، ثم أمسكت بخطام البعير والهموم ومضت ثقيلة نحو المدينة.. مهمومة، لكنها متماسكة بالإيمان بقدر الله، فأي حزن تحمله هذه المرأة المسكينة..؟ وماذا ستقول لجابر وأخواته..؟

تابعت هذه الحزينة سيرها نحو المدينة، بينما كان جابر لا يزال مرابطًا مع النظارين على مشارفها، فإذ به يشاهدها ويشاهد فجيعتها على البعير. فيقول: (فبينا أنا في النظارين، إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت، فرجعنا بهما)[2] إلى أُحد، حيث كان ﷺ يشرف على تكفين الشهداء استعدادًا لدفنهم.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٧٨٣).

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٣٩٧ ورواه غيره مختصرًا من طرق عن: الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر. الأسود تابعي ثقة من رجال الشيخين، وشيخه ثقة، وقد أخطأ الحافظ رحمه الله في التقريب بقوله: (مقبول)، فهو ثقة وإن لم يعرفه ابن المديني رحمه الله، فقد عرف أبو زرعة والعجلي فقالا: ثقة. وصحح حديثه ابن خزيمة، والترمذي، وابن حبان، والحاكم. الجرح والتعديل ٨-٥٠٨ والتهذيب ١٠-٤١٧.



عاد من حَمَل شهيده بشهيده، حتى أعيد الشهداء كلهم إلى ساح الوغى، ووصل جابر وعمتّه، وربما بعض أخواته المسكينات، وترجّل الفارسان عن البعير، فانهمرت دموع جابر على وجه والده الحنون، وتعالى نشيجه وحرقته عليه، فرآه الصحابة، فنهوه عن ذلك، فلم يبال حزنه بقولهم، ولم تتوقف دموعه لرجاءاتهم. كان النبي ﷺ شاخصًا إلى هذا الكرب، وإذ به يخاطب الشاب خطابًا خفف الكثير من مصابه. يقول جابر رضي الله عنه: (لما قتل أبي يوم أُحُد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي فاطمة تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه، أو لا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[1].

عُرف الشهداء كلّهم إلاّ واحدًا.. الجميع يبحث عنه، والجميع يتحدّث عن بسالته، فأين هو؟ أين أنس بن النضر؟ أين عمّك يا أنس بن مالك؟ إنه ليس بين الأحياء، ولم يتعرف إليه أحد بين الشهداء.

نادوا أخته الربيع بنت النضر، علّها تتعرف عليه، فأقبلت ملهوفة بين الجثث حتى أوقفوها أمام جسد شجاع مجهول ومذهل. توقفت تتأمل جسدًا مزقته أكثر من ثمانين ضربة فلم تعرفه، لكنها لم تنصرف.. جلست وكأنها تفتش عن ذكريات الطفولة في شوارع طيبة. مدت يدها نحو كفه، ثم رفعتها وقلبتها فتسارع قلبها، وتأملت أنامله ففاضت عيناها، وعلا نحيبها. إنه هو.. إنها أنامل حبيبها وأخيها ورفيق طفولتها أنس.. جسده كان ساحة لمعركة أخرى ولو كان له جسدان لأتلفهما في سبيل الله. انحنت الربيع كالفجيعة عليه، وأمطرته بدموعها.

يتحدث أنس بن مالك عن عمّه، فيقول: (قاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربةٍ، وطعنة، ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع بنت

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (١٢٤٤).

النضر: فما عرفتُ أخي إلاّ ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾، فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه)[١].

هكذا مضى أنس بن النضر بعد أن برّ بيمينه، وتلقّى السيوف والرماح والسهام بكل جسده، ونزلت هذه الآيات العظيمة فيه وفي رفاقه، فقرأها ﷺ وبشّرهم وبشّر من بعدهم.

النبي يبشّر الشهداء

(مر ﷺ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾. ثم قال رسول الله ﷺ: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلاّ ردوا عليه)[٢]. وقف ﷺ أمام هؤلاء الأبرار الذين سافروا إلى جناتهم التي لا تعرف مللًا ولا شقاءً ولا رتابة.. سافروا إلى مدنهم ومنتجعاتهم وقصورهم وأنهارهم ومراكبهم الفارهة، أمّا رسول الله ﷺ فمشغول بهم..

وفجأة شخص الزبير ببصره إلى امرأة تركض نحو الشهداء فعرفها ولحق بها.. إنها أمه صفية شقيقة حمزة، وهو يقول: (لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى كادت أن تشرف على القتلى، فكره النبي ﷺ أن تراهم، فقال: المرأة..

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣)، واللفظ له.

(٢) سنده صحيح، رواه الحاكم ٣-٢٤ ومن طريقه البيهقي ٣-٢٨٤: أخبرنا عبيدالله بن محمد القطيعي ببغداد من أصل كتابه حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله الأويسي حدثنا سليمان ابن بلال عن عبد الأعلى بن عبدالله بن أبي فروة عن قطن بن وهب عن عبيد بن عمير عن أبي هريرة. عبيد مجمع على ثقته ولد على عهد النبي وتلميذه صدوق. التقريب ٤٥٦ وعبدالأعلى ثقة فقيه. السابق ٣٣١ وسليمان ثقة من رجالهما. السابق ٢٥١ والأويسي ثقة. السابق ٣٥٧ وتلميذه ثقة حافظ. التهذيب ٩-٦٢.



المرأة. قال الزبير: فتوسمت أنها صفية، فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، فلدمت في صدري -وكانت امرأة جلدة- قالت: إليك عني لا أرض لك. فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك. فوقفت، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما.

قال الزبير: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل، فعل به كما فعل بحمزة، فوجدنا غضاضة وخنى أن يكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفنّا كل واحد منهما في الثوب الذي طار له)[١]، وحصل حمزة على كفن بعد أن كان ثوبه هو كفنه، واقتسم المهاجرون والأنصار الأشجان والأكفان، وفي مكان غير بعيد يتلألأ أمير الاقتسام والكرام (سعد بن الربيع) مضرجاً بدمائه.. ينظر إليه عبد الرحمن بن عوف مودعًا أخًا لم تلده أمه، ومحتفظًا بجميله.. حين قال له: (إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمّها لي أطلقها فإذا انقضت عدّتها فتزوّجها)[٢]، وها هو الكريم راقد رقدة الموت وقد ترك خلفه زوجة واحدة وابنتين[٣] يبكينه، وها هو حذيفة يبكي والده، وفي مكان آخر يذرف هشام ابن عامر الأنصاري دموعًا على والده الحبيب. كانت الساحة تغصّ بالأحزان والدموع، فكثر البكاء، (وكثر القتلى، وقلّت الثياب)[٤].

---

(١) سنده قوي، رواه أحمد ١-١٦٥ والبزار ٣-١٩٥ والحارث/ زوائد ٢-٧٠١ وأبو يعلى ٢-٤٥ من طريق سليمان ابن داود أخبرني ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن عروة أخبرني أبي. علته هو عبدالرحمن بن أبي الزناد وهو صدوق تغير عند قدومه بغداد، وسليمان بغدادي لكن الناقد علي بن المديني يقول: ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة، وجعل علي يستحسنها. علل الترمذي ٢-٦٠٦. كما تابعه السنن ٣-٤٠١ يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، وهو ثقة متقن والراوي عنه ثقة، إلا إذا روى عن علي بن مسهر، وهذه ليست منها، وقد وثقه أبو حاتم وابن قانع ومدحه ابن معين. التهذيب ١-١٦٩.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٧٨٠).

(٣) سيمر معنا الدليل لاحقًا.

(٤) سنده حسن، وقد مر معنا، وهو حديث أنس السابق، وقد حسنه الشيخ ناصر رحمه الله.

يقول هشام بن عامر رضي الله عنه: (شكي إلى رسول الله ﷺ شدّة الجراح يوم أُحد، فقال ﷺ: احفروا، وأوسعوا، وأحسنوا، وادفنوا في القبر الاثنين والثلاثة، وقدموا أكثرهم قرآنًا، فقدموا أبي بين يدي رجلين)[١]، (وكان يكفن الرجل أو يكفن الرجلين والثلاثة في الثوب الواحد، وكان رسول الله ﷺ يسأل عن أكثرهم قرآنًا، فيقدمه إلى القبلة، فدفنهم رسول الله ﷺ)[٢] دون أن يغسلهم.. دفنهم بجراحهم الطاهرة، ودمائهم العبقة (أمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا)[٣]. وقال ﷺ: (أنا شهيد على هؤلاء، لفّوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح في الله إلاّ جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[٤]. هذا ما جرى حول عدم تغسيلهم وما جرى حول تكفينهم ودفنهم، لكن ماذا عن:

الصلاة على الشهداء

يحدّثنا عن ذلك أحد الذين لم يحضروا المعركة، لكنه حضر إلى أرضها بعد انتهائها، وشاهد عمليات التكفين والدفن.. وهو جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، فيقول: (لما قتل أبي يوم أُحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمّتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه أو لا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[٥]، ثم (إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: أيّهم أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحد قدّمه في اللحد، وقال ﷺ:

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٤-١٩ وأصحاب السنن وغيرهم من طرق عن حميد بن هلال عن هشام بن عامر. حميد تابعي ثقة، سمع الحديث من التابعي الثقة: سعد بن هشام ومن أبي الدهماء وهو ثقة أيضًا، واللفظ لابن أبي شيبة ٣-٣٧٢ وانظر الجنائز للإمام الألباني ١٤٢.

(٢) هو الحديث قبل السابق.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (١٣٤٣).

(٤) حديث حسن، مر معنا من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، وله شواهد قوية.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (١٢٤٤).



أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلّ عليهم، ولم يغسلهم)(١).

وبعد الدفن فاضت مشاعر النبي ﷺ فلهج بكلمات كلها شوق حتى أنه تمنى الاستشهاد معهم فقال ﷺ: (أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل، يعني سفح الجبل)(٢)، ويقول جابر رضي الله عنه أنه قصد: ليتني (قتلت معهم)(٣). تلك مشاعر محمد ﷺ والذين معه، فماذا عن مشاعر المشركين؟ إنهم الآن بأرض تسمّى (الروحاء) وأبو سفيان يخطب فيهم.

أبو سفيان وجيشه نادمون

تأملوا المعركة، وأحصوا قتلاهم، فرأوها هزيمة، كما أنهم لا يحملون بين أيديهم أي دليل على النصر، فالنبي ﷺ حي، وليس معهم غنائم أو أسرى. لذا (لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أحد وبلغوا الروحاء، قالوا: لا محمدًا قتلتم،

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (١٣٤٧). ولكن لي ملاحظة: فقد ورد أنه ﷺ صلى على حمزة وحده، وورد أنه صلى على حمزة وعلى بقية الشهداء كمجموعات معه رضي الله عنهم، والذي جعلني لا أذكر هذا في المتن هو إشكال في أسانيد ومتون تلك الروايات، وهذا الإشكال يتلخص في النقاط التالية:

- حديث ابن إسحاق عن ابن الزبير، وهو جيد الإسناد، وابن إسحاق قوي الحديث إذا لم يخالف من هو أوثق منه، وقد خالف هنا، وابن الزبير كان عمره عامان.
- حديث أنس بن مالك اضطرب فيه أسامة الليثي -وهو صدوق يهم- فمرة قال: لم يصل عليهم، ومرة قال: لم يصل على أحد من الشهداء غير حمزة.. والصواب القول الأول، ثم وجدت ما يؤيد قولي هذا: وهو نقد للإمام البخاري رحمه الله، حيث قال: إن القول الثاني غير محفوظ غلط فيه أسامة، فالحمد لله.
- حديث ابن عباس جيد السند، لكنه مخالف لحديث أنس ولحديث جابر أيضًا، لأنه ذكر أنه صلى على جميع الشهداء.
- إن مما يرجح حديث جابر هو حضوره ومشاهدته للأحداث في الوقت الذي كان فيه ابن الزبير يبلغ الثانية من عمره.. بينما كان ابن عباس في الثانية أيضًا ومع والده في مكة. ولتفصيل أكثر راجع الصحيح من مرويات أحاديث السيرة.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه: أحمد ٣-٣٧٥ وغيره حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبدالرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه. عاصم ثقة وعبد الرحمن تابعي ثقة.

(٣) هو الحديث السابق.

ولا الكواعب أردفتم، شـرّ ما صـنعتم)[١]. كلمات تتحسّـر على بقاء محمد ﷺ في سـجلات الأحيـاء، وعلى عدم التمكن من سـبي فتيات المسـلمين؟ فهل هناك نية للعـودة إلى أرضـ المعركة من جديـد، ومحاولة أخرى للإجهاز علـى ما تبقى من المؤمنـين وهم يدفنون شـهداءهم، أم كانت زفرات وأمنيات يائسـة. سـواء كانت كـذا أو كذا، فهي لم تكـن خارج نطاق تفكير القائد ﷺ.. كان يقـرأ أفكار القوم، ويتصفح أحلامهم، لذلك قرّر أن يقوم بحركة عسكرية لتغطية أسوأ الاحتمالات.

تتحدّث عن ذلك عائشة رضي الله عنها إلى أحد أبناء أختها أسماء. أي أحد أبناء الزبير بن العوام، وهي وتخبره عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فتقول: (يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا. قال ﷺ: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب سبعون رجلًا، كان فيهم أبو بكر والزبير)[٢] لغزوة سميت:

غزوة حمراء الأسد

وذلك بعدما (انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد، وبلغوا الروحاء قالوا: لا محمدًا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، أو بئر أبي عيينة، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾)[٣] من بعد ما أصابهم من الجراح وفقد الأحبة والأصحاب، لكن قريشًا لاذت بالفرار خشية أن يصيبها

---

(١) سنده صحيح، رواه الطبراني ١١-٢٤٧: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا السند صحيح، عكرمة وعمرو وسفيان أئمة ثقات ومحمد بن منصور ثقة من رجال التقريب ٥٠٨ وشيخ الطبراني ثقة مأمون. انظر: البلغة (٢٢٨).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٧٧).

(٣) سنده صحيح، وهو جزء من حديث الطبراني قبل السابق.

ما أصابها في أوّل المعركة، فجيش محمد ﷺ كالأسود الجريحة.. الرماة يريدون التكفير عن معصيتهم لأوامر قائدهم ﷺ، وبقية الصحابة يريدون اللحاق بحمزة ورفاقه، لعل الله أن يخاطبهم هذا المساء، فمكث ﷺ وأصحابه بعض الوقت، ثم عادوا مثقلين إلى المدينة الحزينة.. المشتاقة إلى نبيّها وفرسانها، كما عاد أولئك الذين لاذوا بالفرار بعد نزول الرماة وحدوث الانتكاسة، فقد تاب الله عليهم وعفى عنهم وأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[١].

عاد الجيش حزينًا عبر شوارع المدينة، فـ (مرّ ﷺ بنساء عبد الأشهل)[٢] (فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهنّ، فقال: لكن حمزة لا بواكي له! فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ورقد ﷺ، فاستيقظ وهن يبكين، فقال: ويلهنّ، إنهن لهاهنا حتى الآن)[٣] (ويحهن ما انقلبن بعد)[٤] ولا انصرفن إلى بيوتهن حتى الآن؟ إنها عادة جاهلية لم ينزل فيها وحي حتى الآن، وهي لا تعبّر عن الحزن العميق، بل تتجاوزه إلى شيء خطير جاء الإسلام ليجتثه من أعماق المؤمنين والمؤمنات، وهو الجزع من أقدار الله، وهو ما قد يؤدي إلى هدم أحد أركان الإيمان الستّة التي جاء بها الإسلام، فأركان الإيمان هي:

الإيمان بالله.

وملائكته.

وكتبه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٢) سنده حسن، رواه ابن ماجه ١-٥٠٧ والحاكم ٣-١٩٥. عن ابن وهب وعبيد الله بن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر. أسامة حسن الحديث. التقريب ٩٨ وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه ١-٢٦٥ وبقية السند كالذهب.

(٣) هو الحديث السابق.

(٤) هو الحديث السابق.

ورسله صلّى الله وسلم عليهم جميعًا.

والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور.

الإيمان بقدر الله.

ولهذا نزل الأمر من الله بـ:

تحريم النياحة على الميت

فحين (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له. فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ورقد ﷺ فاستيقظ وهنّ يبكين، فقال: ويلهن إنهن لهاهنا حتى الآن؟! مروهن فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم)[(١)] ثم قال ﷺ فيما بعد: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)[(٢)].

عاد القائد ﷺ لبناء دولته بالإيمان والنظام والعدل، فأحد معركة وانتهت، والحياة ليست أُحدًا.. الحياة أولها الدنيا وآخرها الجنة أو النار. تنهض المدينة من جديد فهي ليست مسكونة بالثأر ولا الانتقام.. هي مشغولة بنشر التوحيد والعدل، وهما رسالة محمد ﷺ ورسالة كل الأنبياء، فالله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، استأنف القائد ﷺ أرساء العدل، وهاهو يؤسس لمبدأ استقلال القضاء.

---

(١) سنده حسن، ورواه ابن ماجه الصحيح ١-٢٦٥ والحاكم ٣-١٩٥ ابن وهب وعبيدالله بن موسى أخبرنا أسامة ابن زيد عن نافع عن ابن عمر وأسامة حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٩٨ وصححه الإمام الألباني صحيح ابن ماجه ١-٢٦٥ وبقية السند كالذهب.

(٢) صحيح مسلم ٢- ٦٤٤.

جذور استقلال القضاء

يأتيه رجل ليس من شعبه، وليس مسلمًا يطالب النبي ﷺ بناقة استلفها منه، ولما وقف أمام قائد الدولة ورأسها لم يبال بمن أمامه، بل أطلق لسانه بكل وقاحة وتطاول عليه ﷺ. كان الصحابة حوله كالبراكين غضبًا، لكن النظام الإسلامي يمنعهم من المساس به، أما النبي ﷺ فلم يأمر باعتقاله، ولم يسمح بشتمه، بل التفت إلى أصحابه وأنكر عليهم تبرمهم من تعبيره عن رأيه، والمطالبة بحقوقه.

حدث ذلك حين (كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه)[١] (فأغلظ[٢]، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً. ثم قال ﷺ: أعطوه سنًّا مثل سنه)[٣] (فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سنًا فوقها[٤]، فقال: أعطوه. فقال: أوفيتني أوفى الله بك. قال النبي ﷺ: إن خياركم أحسنكم قضاءً)[٥].

وفي قصة أخرى أكثر وضوحًا يقف النبي موقف الحاكم والقاضي والخصم معًا، لكنه في أثناء ذلك يفصل بين تلك السلطات وبين حقه كخصم. حدث ذلك حين اشترى من رجل وثني فرسًا، فلما انصرف ليحضر الثمن سام بعض الناس الفرس وزادوا السوم، فطمع وأنكر أنه باعه على النبي ﷺ. حينها بدأ الفصل بين النبي ﷺ قائدًا وقاضيًا وخصمًا، فطالب بحقه وهو خصم، فقال: (أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك. فقال النبي ﷺ: بلى قد ابتعته منك. فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان).

---

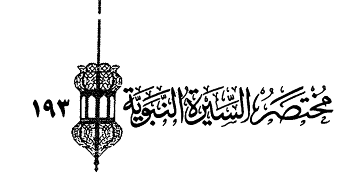
(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٣٠٥) يعنى أن النبي استلف بعيرًا.

(٢) تكلم مع النبي ﷺ بأسلوب غليظ.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٣٠٦).

(٤) أي أكبر منها في السن وأغلى في الثمن.

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٣٠٥).



هنا تظهر أجواء العدل في دولة النبي ﷺ، فهو وهو رأس الدولة يتراجع مع خصم من غير مواطنيه، دون أن يضغط عليه أو يخرسه عن المطالبة بالدليل، وهنا يتضح انضباط المجتمع الإسلامي، وعدم تدخله للضغط على الغريب. بل اكتفى الصحابة بتذكير الأعرابي بأنه يخاصم نبي الله ﷺ، لكن الوثني لا يأبه بالنبي ويلح على طلب الدليل برغم كذبه (فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي لم يكن ليقول إلا حقًا) فلم ينكر ﷺ مطالبته بالدليل، ولم يجرؤ أحد على الشهادة (حتى جاء خزيمة لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة) لا ليشكره على شهادته، بل ليفحص صلاحية تلك الشهادة، فقال لخزيمة: (بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين)[1].

هنا أرسى النبي ﷺ استقلال القضاء، حين لم يصدر أمرًا بمصادرة الفرس بصفته حاكماً، ولم يستغل صفته القضائية فيصدر حكمًا قضائيًّا لصالحه، فإذا كان نبي الأمة وأعظم قضاتها وقائد الدولة وأتقى الناس وأخشاهم لله قد طبق على نفسه النظام التشريعي الذي جاء به من عند الله، فمن غيره يكون فوق هذا النظام. لم يكتف ﷺ بالعدل مع شعبه وغيرهم.. كان يقف مع الضعفاء والأيتام والفقراء من شعبه.. يأخذ بأيديهم، فلا يترك تلك الأيدي حتى يرفعها من وهدتها ويبلسم جراحها. ها هو الفتى الصغير جابر بن عبد الله تضيق به الدنيا وهو لا يملك ما يقضي به دين والده الذي استشهد في أُحد، فلا يجد سوى الرحمة المهداة وقائد دولته ﷺ.. يسأله العون، فكان ﷺ له في المكان والزمان المناسبين:

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٣٦- ٢٠٥ وغيره من طرق عن الزهري، حدثني عمارة بن خزيمة، أن عمه. وعمارة ثقة.

على باب القائد ﷺ جابر يتعلم أدبًا

يقول رضي الله عنه: (إن أبي قتل يوم أُحُد وترك تسع بنات، كنّ لي تسع أخوات)[١]، (وترك عليه ثلاثين وسقًا[٢] لرجل من اليهود)[٣]، (فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضًا؟ فأَبَوْا)[٤]، ورفضوا التنازل عن أي شيء، (فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه؟ فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاءً، فأتيت النبي ﷺ)[٥] (فدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال ﷺ: أنا! أنا!، كأنّه كرهها)[٦]، لأن كلمة: (أنا) ليست إجابة، ولا تعريفًا، بل هي استدعاء لمزيد من الاستفسار والتساؤل، ولو قال جابر: (أنا جابر) لما كره ﷺ ذلك، ولكان أفضل.

تعلّم جابر أدبًا رفيعًا من نبيه ﷺ، ثم بثّ للقائد ﷺ شكواه وديونه، وتعنّت الدائنين، فوجده رحيمًا معينًا على النوائب والشدائد. قال جابر للنبي ﷺ: (قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أُحُد وترك دينًا كثيرًا، وإني أحب أن يراك الغرماء)[٧] (فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء)[٨]. سار القائد ﷺ مع هذا المواطن الفقير وكأنه من كبار رجال دولته.. سار معه حتى أوقفه على أبواب التجار اليهود بابًا بابًا، فكان الرد اليهودي واحدًا يقول عنه جابر: (فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويحللوا أبي؟ فأبوا. فلم يعطهم رسول الله ﷺ، ولم يكسره لهم، ولكن قال: سأغدو عليك إن شاء الله تعالى. فغدا علينا حين أصبح، فطاف في النخل، فدعا في

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٢) الوسق يساوي ستين صاعًا.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٣٩٦)، أي لم يمهله ويؤجل سداده.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٤٠٥).

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٧٠٩).

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري (٦٢٥٠).

(٧) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٥٣).

(٨) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٥٨٠).

ثمره بالبركة فجددته)[1] فقال ﷺ: (إذا جددته فوضعته في المربد)[2] (فبيدر كل تمر على ناحية)[3]، ثم جاءه ودعا له بالبركة، وطلب أن ينادي خصومه فجاءوا، وكال لهم من التمر حتى استوفوا حقهم دون أن ينقص التمر.. في مشهد أشرقت فيه شخصية قائد الدولة المتواضع مع فقراء شعبه، وكانت النساء يعانين الأمرين في الجاهلية خاصة في مسألة الإرث، فهاهي أرملة أحد رموز الكرم، الشهيد سعد بن الربيع تشكو لقائد الدولة حال يتيميها بعد استشهاد والدهما في أحد، وأن عمهما استولى على كل الإرث، ولم يعط الفتاتين ولا أمهما شيئًا!! (فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما، فقال: أعطِ ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لك)[4] سعدت اليتيمتان وأمهما بإنصاف الإسلام لهما، بعد أن كانت الجاهلية واليهودية والنصرانية تجعلان من المرأة شيئًا يورث.. فرحت ابنتا شهيد أحد، ومرت الأشهر بعد أحد وحملت فاطمة ثم ولدت ابنًا.

فاطمة تلد حربًا

يقول زوجها عليّ رضي الله عنهما: (لما ولد الحسن سميته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حربًا. قال ﷺ: بل هو حسن)[5]. فغيّر ﷺ ذلك الاسم الحاد باسم جميل.. يدخل البهجة على النفوس، وحمله ﷺ بين يديه وقبّله، فقالت فاطمة: (ألا أعقّ عن ابني بدم «بكبشين»؟

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٦٠١).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٢١٢٧)، والمربد هو مكان يجفف فيه الثمر.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٧٨١).

(٤) سنده حسن، رواه ابن سعد ٣-٥٢٤ واللفظ له عدا «معك» وأحمد ٣-٣٥٢ من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل، وهو تابعي حسن الحديث عن جابر. والراوي عن ابن عقيل هو عبيد الله بن عمرو الرقي: ثقة. التقريب ٣٧٣.

(٥) سنده قوي، رواه أحمد ١-٩٨ و١١٨ واللفظ له والبخاري في الأدب (٢٨٦) وغيرهم من طرق عن أبي إسحاق السبيعي عن هاني بن هاني عن علي. أبو هاني تابعي، وثقه العجلي والنسائي. التهذيب ١١-٢٢ وله شاهد عند الطبراني بسند منقطع.

قـال ﷺ: لا، ولكن احلقي رأسـه وتصـدّقي بوزن شـعره من فضّـة على المسـاكين والأوفاض (وكان الأوفاض ناسًـا من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في المسجد أو الصـفة) ففعلت ذلك)[١] وتصـدّقت على فقراء الشعب والمحتاجين، ولما توافر المال عند قائد الدولة ﷺ (عقّ عن الحسن.. كبشًا)[٢] وفي يوم جميل بالحَسَن أكل فقراء الشـعب وأهل الصـفة من العقيقة، وشـاركوا النبي ﷺ وأهل بيته الاحتفاء بالحسـن، أمـا هذا الطفل الحسـن فقد سـكن قلب جـده حبًّا ودلالًا، ولما أصـبح قادرًا على المشـي كان يصـحبه للمسـجد ليمارس براءته، حتى أنَّ جده ﷺ: (كان يصـلّي، فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه، فيرفع رسول الله ﷺ رفعًا رفيقًا لئلا يصـرع (فعل ذلك غير مرة) فلما قضّـى صـلاته، قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت بالحسن شيئًا ما رأيناك صنعته. قال ﷺ: إنه ريحانتي من الدنيا)[٣]. كان نبيًّا لا يقاوم براءة الطفولة.. طفولة منحها الإسـلام مسـاحة من الحب والرحمة والتسـامح فسيحة.. فسـيحة تمتّع بها الحسن، ونعم فيها بطفولته، حتى قال صحابي اسمه شداد: (خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنًا[٤]، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبّر للصلاة، فسجد بين ظهراني صلاته سـجدةً أطالها، فرفعت رأسي، وإذا بالصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو سـاجد، فرجعت إلى سـجودي، فلما قضـى رسول الله ﷺ الصـلاة، قال الناس:

---

(١) سنده حسن، رواه أحمد ٦-٣٩٠ وغيره من طرق عن شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن علي بن الحسين عن أبي رافع. وروى أحمد متابعة أبي النضر لشريك، وهو حسن من أجل ابن عقيل. التقريب ٣٢١.

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود ١-٢٨ عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا سند صحيح والنسائي ٧-١٦٤ عن حسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه والحاكم ٤ -٢٦٥ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأبو يعلى ٥-٣٢٣ عن أبي الزبير عن جابر.

(٣) سنده صحيح، رواه أحمد ٥-٥١ وابن حبان ١٥-٤١٨ والطبراني ٣-٣٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن أخبرني أبو بكرة. وفي هذا السند مدلسان: الحسن ومبارك رحمهما الله، أما الأول فصرح بالسماع من شيخه، وأما مبارك فقد توبع عند الطبراني ٣-٣٤ تابعه إسماعيل بن مسلم، فإن كان العبدي فهو ثقة، وإن كان المكي فهو ضعيف.

(٤) أو حسينًا، كما جاء في النص، وفعلت ذلك من أجل السياق.

يا رسـول الله إنك سـجدت بين ظهراني صلاتك سـجدةً أطلتها حتى ظننا أنه قد حـدث أمر، أو أنـه يوحى إليك..؟! قال ﷺ: كل ذلك لم يكـن، ولكن ابني ارتحلني فكرهـت أن أعجلـه حتى يقضـي حاجتـه)[1] إنها رحمة يشـعر بهـا ﷺ ويحرض أصـحابه على الشـعور بها، فتقول عائشـة: (جـاء أعرابي إلى النبـي ﷺ، فقال: تقبّلون الصـبيان؟ فما نقبلهم.! فقال النبي ﷺ: أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[2].

ذات يوم وبينما كان ﷺ يخطب أصحابه على منبره، كان الصحابة ينصتون، وفجأة توقف عن الخطبة وحدق بشيء جميل يتهادى من بعيد (الحسن بن علي في عنقه خرقة يجرّها، فعثر فيها، فسقط على وجهه) التفت الصحابة فهرول بعضهم للطفل، أما النبي ﷺ فذهل عن خطبته ونزل (عن المنبر يريده، فلما رآه الناس أخذوا الصبي فأتوه به، فحمله فقال: قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أني نزلت عن المنبر حتى أوتيت به)[3].

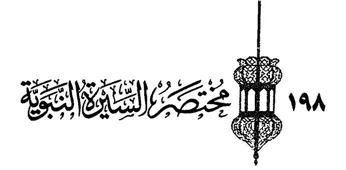
لم تكن الرحمة للحسن وحده.. فهناك طفلة تنافسه.. زهرة اسمها «أمامة» بنت زينب رضي الله عنهما.. كانت أمامة ملء سمعه وبصره.. تتعلق به عيناها البريئتان، وتمد يداها الصغيرتان وهو يهم بالخروج للمسجد، فيستسلم قلبه لتلك البراءة العذبة، فيحملها ويضمها ويقبلها، ويأخذها معه إلى المسجد، وهو يريد الصلاة بصحابته (وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلّى، فإذا ركع

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد ٣-٤٩٣ والنسائي صحيح الألباني - ١-٢٤٦.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٣) سنده قوي، رواه الطبراني ٣-٣٥ حدثنا عبد الله بن علي الجارودي، حدثنا أحمد بن حفص، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عباد بن إسحاق، عن زيد بن أبي العتاب، عن عبيد بن جريج عن ابن عمر.. وعبيد وزيد تابعيان ثقتان من رجال التقريب، وعباد بن إسحاق صدوق واسمه عبد الرحمن. التهذيب ٦-١٣٧ وإبراهيم ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٩٠ وأحمد ووالده صدوقان من رجال البخاري وشيخ الطبراني حافظ من أئمة الأثر، أثنى عليه الحاكم والناس: البلغة لحماد الأنصاري رحمه الله (١٩٤).



وضع، وإذا رفع رأسه رفعها)[1]، (فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)[2].. يفعل ذلك في أثناء صلاته بالمؤمنين.

لم تكن تلك الرحمة والملاطفة منه ﷺ لأولاده فقط، بل كان يشمل بها أبناء المسلمين. ها هو يزور دار أحد الأنصار، دار (الربيع بن سراقة الخزرجي)، فيجد طفلًا صغيرًا اسمه محمود، فيبدأ بملاطفته وملاعبته، ثم يرمق دلوًا على حافة البئر، فيأخذ الدلو، ويملأ فمه بالماء، ثم يقترب من الصغير ويلاحقه، ويطشّ الماء في وجهه، والطفل يملأ المكان بضحكاته وحركاته الجميلة، وتعلق تلك الحركة في ذاكرته، فيقول: (عقلت من النبي ﷺ مجّة مجّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين)[3]. (مجها رسول الله ﷺ من دلو في دارنا)[4]. قد يفعل الرجل هذا مع أبنائه وبناته، فهل يفعلها حاكم أو عالم أو وجيه مع أطفال غيره.. ماذا سيقول الناس عن ذلك..؟ ماذا سيقول الجهل عن ذلك..؟ لكن محمدًا ﷺ النبي وقائد الدولة يفعل ذلك، بل لقد بلغ به التواضع والرحمة أعماقًا وآفاقًا بعيدةً في مشهد مضحك مبك معًا:

النبي ﷺ وذوو الاحتياجات

كان القائد ﷺ بين رجال دولته، وإذ بطيف امرأة في عقلها شيء تقبل من بعيد نحوهم، فتناديه من بينهم، فينهض رأس الدولة وسيد حقوق المرأة نحو مواطنة مسكينة.. تاركًا عظماء الرجال، ولما اقترب منها قالت يارسول الله: (إن لي إليك

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٩٩٦).
(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٥١٦).
(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٧٧).
(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٦٤٢٢).

حاجة)[١]، فأخبرها أن كل الشوارع تؤدي لقلبه، وأن كل الدروب في خدمتها. قائلا: (يا أم فلان انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك)[٢]. فأخذته فأنصت باهتمام، حتى نحتت في مسامعه حقوقها، ولم تنصرف حتى حصلت عليها، ثم عاد لأصحابه. كان جنّة من المشاعر تنعم بها العصافير والطيور.. ينعم بها الشعب، حتى ضعاف العقول.. النساء المملوكات كن يجدن فيه الأب والمعلم والقائد الحاني.

يقول أنس: (كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت)[٣]، كان عذبًا أغرت عذوبته إحدى النساء، فلم تملك مشاعرها، فقامت تعلنها أمام الجميع، وأين؟ في المسجد وعلى الملأ، وأمام الرجال والنساء، كانت تبحث عنه، وهو أمامها:

تبحث عنه وهو أمامها

ذات يوم كان ﷺ يصلي، وخلفه أصحابه وخلفهم، صحابياته، ولما سلم فوجئت النساء بامرأة تنهض من بينهن تنادي نبيها.. تبحث عنه وهو أمامها: (يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي؟ فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعَّد النظر إليها وصوَّبه، ثم طأطأ رأسه)[٤] وسكت. أدركت المرأة أن سكوته ليس علامة الرضا، (فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست)[٥]، وإذ بكتفين عاريتين ترتفعان من بين صفوف الرجال.. رجل مكشوف الظهر والبطن، وليس عليه سوى

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (٢٣٢٦).
(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (٢٣٢٦).
(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٦٠٧٢).
(٤) حديث صحيح، رواه البخاري ٤- ١٩٢٠.
(٥) حديث صحيح، رواه البخاري ٤- ١٩٢٠.

إزار.. يخاطب قائده: (يا رسول الله، إن لم يكن لك بها حاجة، فزوجنيها. فقال: هل عندك من شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله. قال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا. فذهب)[٦] وانتظرت المرأة الجريئة خطيبها، فلإن لم تفز بنبيها، فلتنل شرف تزويجه لها. عاد الرجل صفر اليدين (رجع، فقال: لا والله يا رسول الله، ما وجدت شيئًا. قال: انظر ولو خاتمًا من حديد؟ فذهب، ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتما من حديد. ولكن هذا إزاري، فلها نصفه، فقال ﷺ: ما تصنع بإزارك، إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك شيء)[٧]. انكسر قلب الرجل فجلس مهمومًا بفقره، حتى طال جلوسه، ثم نهض وغادر المسجد، فإذ بالقائد ﷺ يرق لهذا المواطن الذي لا يملك سوى قطعة قماش يلفها على خصره، ويقرر تزويجه. أمر ﷺ بمناداته، فنهض أحدهم وناداه، ولما عاد جعل ﷺ العلم والثقافة مهرًا لمن لا مهر له، حين سأله: (ماذا معك من القرآن؟ قال: معي سورة كذا، وسورة كذا، وسورة كذا.. عدها.. قال: أتقرؤهن عن ظهر قلبك؟ قال: نعم. قال: اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن)[٨]. فخرج الزوجان من المسجد، سعيدين، وحظيت المرأة بكلمات الله مهرًا لها.. يخلد ذكرها.

كان ﷺ جدول حب يشرب منه الجميع فيرتوون. يقول ابن مسعود: (كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمُرَّة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بَولده؟ ردوا ولدها إليها. ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال ﷺ: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلاّ رب النار)[٩] أما أكثر المناظر إيلامًا لقلبه، فهو منظر الفقراء والمساكين حتى لو كانوا غير مسلمين، فقد كان رحمة للعالمين.

---

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري ٤- ١٩٢٠.

(٧) حديث صحيح، رواه البخاري ٤- ١٩٢٠.

(٨) حديث صحيح، رواه البخاري ٤- ١٩٢٠.

(٩) حديث صحيح، انظر: صحيح سنن أبي داود (١٦١٨/٣).

موقفه ﷺ من الفقراء غير المسلمين

ذات يوم أقبلت على المدينة مجموعة من الفقراء غير المسلمين، قد تطايرت شعورهم، وحفيت أقدامهم، وتمزقت أزرهم.. عراة الظهور والبطون والأكتاف، قد شوتهم الشمس، وشققت الدروب أقدامهم، فلما وقفوا أمامه بكى قلبه ﷺ، وتغير لونه، وعجز عن البقاء في مكانه من شدة التأثر.. دخل بيته وخرج، ودخل وخرج، ولم يهدأ حتى حرك المدينة كلها، وحرك شعبه رجالاً ونساء لمواساة الغرباء المعدمين الذين ليسوا على دينه. واساهم، ونزلت عليه آيات تذكره برابطة الإنسانية والآدمية، فتلاها على شعبه، ليكون أرحم شعوب الأرض بغيرهم.

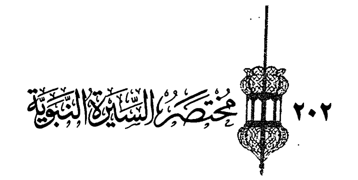
يقول أحد الصحابة: (كنّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم عراة، حفاة، متقلّدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلّهم من مضر، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلّى ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[2] وقال: تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة. فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها، بل لقد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا)[3]، أي من

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم (١٠١٧) الزكاة، والنسائي (الصحيح ٢-٥٣٩).



أحيا سنة من سنن الإسلام، ودلّ عليها فله ذلك الأجر، ومن ابتدع في الإسلام سنة لم يأت بها النبي ﷺ فعليه ذلك الوزر المخيف، كانت تلك الصدقات سنة حسنة.. تهلّل وجه النبي ﷺ عندما رآها، لأنه رأى الجوع والعري ينزاح عن أولئك المساكين، الذين أحسّوا بالحياة تسري في عروقهم من جديد، وشعروا كم هو عظيم هذا الدين الذي يوصي أتباعه بالرأفة بغير المسلمين، وأنصتوا لهذا القرآن الذي يجعل من الحدب على غير المسلمين عبادة، لكن الرحمة أحيانًا تُستغل.. يستغلها الأوغاد واللئام، ولكن ذلك لا يعني أن يتوقف تدفقها للتوقعات والظنون.

قصة أولها رحمة وآخرها جحيم

مجموعة من اللصوص من عكل وعرينة سمعوا برحمته ﷺ، وبشفقته على أصحابه وعلى الناس جميعًا، فظنّوا أن بإمكانهم استدرار رحمته، واستدراج طيبته، ثم الضحك عليه بعد نوال عطائه. جاء هؤلاء إلى المدينة وتظاهروا بالإسلام، ثم أصيبوا بالحمى، فأرسل معهم رجلًا يمرضهم ويطعمهم ويسقيهم ويسهر على راحتهم. فما جزاء ذلك؟ لقد (بايعوه ﷺ)(١) ثم قالوا: (يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة)(٢) (فقال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من ألبانها وأبوالها)(٣) (فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ(٤)، وراعٍ، أمرهم فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها)(٥) أجل أمر لهم بممرض يعتني بهم ونصحهم بشرب أبوالها

(١) حديث صحيح، رواه مسلم/ القسامة.
(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١٩٢)، ومعنى استوخموا: أي لم يوافق مناخها أجسادهم.
(٣) حديث صحيح، رواه مسلم (١٦٧١) القسامة.
(٤) الذود: هو القطيع من الإبل.
(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١٩٢).

علاجًا، لاغذاءً، وهي معجزة طبية ثبتت علميًّا في ألفيتنا الثالثة كدليل على نبوته[١] (فانطلقوا، فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وسمنوا)[٢] وفي إحدى الليالي، شعر الراعي قبيل الفجر بحركة مخيفة، وإذ بضيوفه يطوقونه، يكتفونه ويفقأون عينيه. ثم اغتالوه واتجهوا لإبل الفقراء، فحلوا قيودها وسرقوها وانطلقوا. يقول أحد الصحابة: (فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النعم)[٣] و(سملوا أعين الرعاء)[٤] أي فقأوا عينيه بالحديد. (فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم)[٥] (فجاء الخبر في أوّل النهار، فبعث ﷺ في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر بقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمرت أعينهم)[٦].

ما ذنب ذلك الراعي المسكين الذي مرضهم واعتنى بهم وبصحتهم؟ سقاهم ومرّضهم وأطعمهم وسهر على أنينهم، فكان جزاؤه أن فقأوا عينيه ثم نحروه! إن فقأهم لعيني الراعي قبل قتله.. دليل على توغّل الإجرام والحقد في نفوس هؤلاء المجرمين، الذين جمعوا كل صفات الدناءة: ارتدوا، وقتلوا، ومثّلوا، وخانوا، وسرقوا، فكان عقابهم شديدًا بحجم جريمتهم. إن أمثال هؤلاء الرعاع والجهلة وقطاع الطرق.. يشكلون خطرًا على كل أرض يطأونها، ولا يمكن أن يوقف نزيف الخوف والدم الذي يسفكونه سوى السيف البتّار.

ترى هل أغرى هؤلاء اللصوص ذلك الانكسار الذي حدث للمؤمنين في غزوة أحد؟ ربما، وربما كانوا طلائع استكشاف لمجرم قابع في عرنة الملاصقة لمنطقة عرفة، وهو رجل يجمع الآن جيشًا لاقتحام المدينة ونهبها.

---

(١) للدكتورة فاتن خورشيد براءة اختراع حول هذا الموضوع، وللدكتورة أحلام العوضي وزميلاتها أبحاث أخرى مبهرة حول بول الإبل، ويمكن الوصول إليها عن طريق (النت).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠١٨).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٣٣).

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم –القسامة (١٦٧١).

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١٩٢).

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠١٨).

خالد بن سفيان يريد نهب المدينة

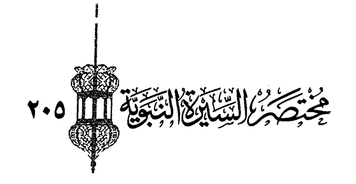
وصلت التقارير تفيد بتحرك خالد بن سفيان، فوقع اختيار القائد ﷺ على فارس مغوار يختصر الأحداث.. ويجمع الجيوش والآلام والنواح بطعنة واحدة.. وقع اختياره ﷺ على فارس يدعى (عبد الله بن أنيس) فقال له: (إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة، فأته فاقتله)[1].

نفذ ابن أنيس المهمة وخلص الطرفين من خوض حرب لا طائل من ورائها إلا إشباع غرور طواغيت قريش. إن هذا النوع من الاغتيال لم يكن باجتهاد فردي، ولم يقم به الصحابي حماسًا واجتهادًا، وهو قادر على ذلك.. إنها دماء لا يجوز الخوض فيها دون الرجوع إلى النبي الإمام- النص، وإلا فإنها ضرب من التهور غير المبرر.

لم يكن عبد الله بن أنيس وحده الذي يبعث في سرية مكوّنة من فرد واحد.. كان هناك من ينافسه.. رجل شديد البأس قويّ البنية.. كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش.. يتغلغل في مكة، فإذا ما وصل إلى هدفه.. انتظر حتى يخيم الليل، وتنام

---

(١) حديث صحيح، عدا ما بين الأقواس الصغيرة، وقد حسن الحافظان ابن حجر وابن كثير سند أحمد وأبي داود، وهو سند ضعيف، وبقية الحديث هو: فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعًا، والحديث عند أحمد ٣-٤٩٦ والطبراني (مسند العبادلة - ٧٦) وأبي داود (١٢٤٩) مختصرًا. وقد ضعفه الإمام الألباني في ضعيف أبي داود (١٢٣) وسنده عند أحمد وأبي داود: محمد بن إسحاق عن محمد ابن جعفر عن ابن عبدالله بن أنيس عن أبيه. وإسحاق صرح بالسماع من شيخه الثقة عند أحمد ٣-٤٩٦ فتبقى مشكلة ابن عبد الله بن أنيس، وعند الرجوع للتقريب نجد الحافظ يقول: إن اسمه: ضمرة أو عمرو، أو دون اسم. ولكن عندما نرجع إلى سنن البيهقي ٣-٢٥٦ نجد أنه قد سماه بـ عبيد الله، وهو الأصوب للتصريح من تلميذه. لكن الرجل لم يوثق فيحتاج إلى شاهد أو متابعة، وقد وجدت ذلك عند الطبراني: حدثنا مصعب بن إبراهيم حدثني أبي حدثنا عبدالعزيز الدراوردي عن يزيد بن عبدالله بن الهاد عن محمد بن كعب القرظي قال قال عبد الله بن أنيس. وفي هذا السند خطأ، فالصواب يزيد بن عبد الملك بن الهاد تابعي ثقة وشيخه ثقة، وسائر رجال السند ثقات، وهو متصل انظر: التقريب ٦٠٢ و٥٠٤ وشيخ الطبراني ثقة. انظر: مجمع البحرين ٣-١٥٥ ورواية الدراوردي ليست عن عبيد الله العمري. فالسند حسن، والحديث صحيح بالسندين والزيادات بين المعقوفين من رواية الطبراني.



العيون، فيتسلل نحو أخيه الأسير الممنوع من الهجرة، فيقله عن الأرض، ويحمله بقوته المميزة على ظهره حتى يتوارى عن العيون، وهناك ينزله ويفك قيوده ويأخذه إلى دولته.. دولة الإسلام. ذلك هو نشاط الصحابي مرثد بن أبي مرثد.

سرايا لمرثد بن أبي مرثد

وكان لمرثد رضي الله عنه صديقة في مكة.. ينزل عليها سرًّا، وكان يحبها وتحبه وتحفظ سره وعلاقته بها.. اسمها: (عناق)، لكن أمرًا حدث في المدينة أثار غضب تلك الحسناء، فخانت مرثد ونادت قريشًا لكي يحاصروه ويقبضوا عليه، فذات ليلة مقمرة كان مرثد بن أبي مرثد يتسلل تحت حائط من حوائط مكة خوفًا من انكشاف وجهه تحت ضوء البدر. يقول: (فجاءت عناق، فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني فقالت: «من هذا» مرثد؟ فقلت: مرثد. قالت: مرحبًا وأهلًا، هلم فبِتْ عندنا الليلة. قلت: يا عناق، حرم الله الزنا) عندها صرخت بأعلى صوتها. (يا أهل الخيام، «هذا الدلدل، هذا الذي يحمل أسراكم من مكة إلى المدينة». فتبعني ثمانية) استطاع مرثد فك أسيره، وواصلا معا السير للمدينة، فتوجه نحو نبيه وهو بشوق إلى عناق بالحلال فقال: (قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقًا؟ «فسكت عني»، فأمسك رسول الله ﷺ ولم يرد عليّ شيئًا حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك، فلا تنكحها)[1]. لأنها تحترف الزّنا وتصرّ عليه، أما إذا تابت الزانية، وتاب الزاني، فيجوز عند ذلك، فباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، أمّا إذا لم يتوبوا فهم أمراض متنقلة تنخر الأجساد والمجتمعات.

(١) سنده حسن، رواه النسائي (الصحيح - ٣٠٢٧)، والترمذي (الصحيح - ٣٥٣٨)، واللفظ له والزوائد للنسائي، من طريق عبيد الله بن الأخنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعبيد الله ثقة. التقريب ٣٦٩ وبقية السند حسن مشهور.

لم يتردّد القائد ﷺ في بثّ عيونه هنا وهناك، فالوثنيون كما صرح أحد الصحابة أعلنوا وأجمعوا على حرب الدولة الإسلامية، فقال: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)[١]، وكانت المناطق الواقعة بين مكة والمدينة أشدها توترًا وخطرًا، وقد تمّ القضاء على إحدى بؤر التوتّر، وهو خالد بن نبيح، لكن بقي من هو أشدّ خطرًا.. بقي طاغوت اسمه (عامر بن الطفيل) جاء إلى المدينة يهدد النبي ﷺ باجتياح المدينة إن لم يجعله وريثًا للحكم بعده، أو أن يشاطره الحكم، لكن النبي ﷺ رفض ذلك، وبدأ بث سراياه لرصد حركة القبائل الوثنية التي ناصبت الدولة الإسلامية العداء دون مبرر سوى مجاراة قريش، ومن تلك السرايا سرية تدعى:

سرية الرجيع

(بعث النبي ﷺ «عشرة رهط» عينًا، وأمَّر عليهم (عاصم بن ثابت)...[٢] فانطلقوا حتى كانوا «بالهدأة» بين عسفان ومكة، ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مئة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلًا نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب. فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما «رآهم» عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[٣]، وجاء القوم

---

(١) سنده حسن، رواه الطبراني (مجمع البحرين ٦-٥٨) والبيهقي ٣-٦ واللفظ له: أحمد بن سعيد الدارمي ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي: أبو العالية تابعي ثقة وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٢١٠ و٢٠٥ والحسين ثقة من رجال مسلم وابنه حسن الحديث. التقريب ١٦٩ وأحمد ثقة حافظ.

(٢) مكان النقاط جملة اعتراضية، هي (وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب).

(٣) الرابية المرتفعة.

فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلًا. فقال عاصم «أمير السرية»: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهمّ أخبر عنا نبيّك. فقاتلوهم حتى قُتِلَ عاصم في سبعة نفر بالنبل[١]، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر. فأبى أن يصحبهم، فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد، حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث ابن عامر ابن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فمكث «خبيب» عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله[٢] استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها[٣]، فأعارته. قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه[٤] حتى أتاه فوضعه في فخذه. فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذلك مني وفي يده الموسى. فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قطّ خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف[٥] عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله «خبيبًا». فخرجوا به من الحرم[٦] ليقتلوه «في الحل»، فقال رضي الله عنه: دعوني أصلي ركعتين «ذروني أركع ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين» ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن «تظنوا» أن ما بي جزع من الموت لزدت «لطوّلتها»، فكان أوّل من سن الركعتين عند القتل هو. ثم قال: اللّهمّ أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبق

---

(١) أي قتلوا سبعة من الصحابة أحدهم عاصم رضي الله عنهم جميعًا.

(٢) قرروا قتله ثأرًا لقتله والدهم الحارث.

(٣) طلب موسى ليحلق بعض شعره.

(٤) مشى الطفل حتى دخل على خبيب والموسى بيده.

(٥) القطف هو العنقود ساعة قطفه.

(٦) كان المشركون يحترمون منطقة الحرم، لذلك خرجوا به إلى منطقة الحل.

منهم أحدًا. ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شقّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله)[1]. لكن عقبة بن الحارث ينكر ذلك ويقول لمن حوله: (والله ما أنا قتلت خبيبًا، لأنا كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله)[2].

هكذا سافر خبيب وعاصم وزيد ورفاقهم شهداءً إلى ربهم، بعد خيانة قام بها أولئك المشركون فكلفت المؤمنين الكثير.. خيانة ليست من طباع العرب الكريمة.. تأثر منها المؤمنون، وتشفت منها قريش، وحزّت في أنفس الشرفاء من العرب.. خاصة أولئك الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، وهم بنو عامر، لذلك انطلقت مجموعة منهم بقيادة رجل اسمه: (عامر بن مالك، أبو البراء) ويلقب بـ«ملاعب الأسنة» نحو الدولة الإسلامية في رحلة كالاعتذار. عرض خلالها أن يرسل ﷺ بعض الصحابة لنشر الإسلام في نجد، وتعهّد بحمايتهم والدفاع عنهم، حتى يطمئن ﷺ أنه لن يصيبهم ما أصاب خبيبًا وأصحابه، ومما دفع النبي ﷺ إلى الموافقة أن رجالًا من أحياء: رعل وذكوان وعصية كانوا قد قدموا مع «ملاعب الأسنة» وتظاهروا بالإسلام أيضًا، وادّعوا أنهم بحاجة إلى مجموعة من الصحابة تعلّمهم القرآن والتوحيد، فاستجاب ﷺ واثقًا بعهد ملاعب الأسنة، وأرسل معه مجموعة من الشباب تحار الكلمات في وصفهم.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٨٦)، والزيادات عنده أيضًا.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٣-١٣١) حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عقبة بن الحارث. عباد تابعي ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٢٩٠ وابنه يحيى ثقة وهو تابعي صغير ٥٩٢.

شباب حلقات القرآن

أحدهم شقيق (أم سليم) وخال أنس بن مالك واسمه (حرام) كانوا من صفوة تلاميذ محمد ﷺ.. شباب لا تعرف كيف تصفهم! هل هم عباد، أم تجار، أم علماء، أم عمّال..؟ إنهم الإسلام في صورة شباب.

يقول كعب: إن ملاعب الأسنة جاء إلى النبي ﷺ فقال: (ابعث إلى أهل نجد من شئت فأنا لهم جار، فبعث إليهم)[1] فأرسل شبابًا يصفهم أنس بقوله: (جاء ناس إلى النبي ﷺ «رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان» فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرآن والسنّة، فبعث «إلى ناس من المشركين بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد» سبعين رجلًا من الأنصار، يقال لهم (القرّاء) فيهم خالي حرام:

يقرأون القرآن.

ويتدارسون بالليل يتعلّمون.

وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونه في المسجد.

ويحتطبون فيبيعونه.

ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء.

فبعثهم النبي ﷺ إليهم «حتى كانوا ببئر معونة»)[2] (فأتوا على حي من بني سليم، فقال حرام لأميرهم: دعني فلأخبر هؤلاء أنّا ليس إياهم نريد، فيخلون

---

(١) سنده قوي، رواه الطبراني ١٩-٧٠ و٧١ و٨١) عن يونس ومعمر والأوزاعي عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن كعب. وهذا السند صحيح، وقد مر معنا.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (٦٧٧ - وبين ١٩٠٢ - ١٩٠٣).

وجوهنا)[1] (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل)[2] (فاستجاش عامر بن الطفيل بني عامر، فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا ملاعب الأسنة، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه)[3] (فانطلق حرام أخو أم سليم ورجلان معه: رجل أعرج، ورجل من بني فلان. قال:كونا قريبًا مني حتى آتيهم، فإن أمنوني كنتم كذا، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم. فأتاهم حرام، فقال: أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم. فجعل يحدّثهم، وأمـأوا إلى رجل فأتاه من خلفه، فطعنه، فأنفذه بالرمح «فلما وجد حرام مسّ الرمح في جوفه، قال: الله أكبر، فزت وربّ الكعبة»)[4]. ولما سال دمه من جرحه اغترفه بيديه، ثم (نضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة)[5]. (فانطووا عليهم فما بقي منهم مخبرٌ «فلحق الرجل، فقتلوا كلهم إلاّ الأعرج كان في رأس الجبل»)[6] (فقتلوهم وغدروا بهم)[7] (قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا رضي الله عنهم: اللّهمّ بلّغ نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا)[8] فأنزل الله قرآنًا يتلى في هؤلاء الشباب الأطهار الأبرار، فقال تعالى: (إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)[9].

نزلت هـذه الآيـة على النبي ﷺ، فحزن حزنًا لم يحزن مثله أبـدًا، وخيّم الوجوم على المدينة.. على أصحاب النبي ﷺ، وأحـرق الدمع والحـزن أجـواف الأمّهات والآبـاء والأبنـاء، وبكى أهـل الصفة أرحـم النـاس بحالهم.. بكى أهل الصفة أحبابهم، الذين طالما كدحوا وشقوا، ليخفّفوا مما بهم.. ليمنحوهم بعض

---

(١) هو حديث البيهقي السابق، وهو صحيح.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٩١).

(٣) حديث صحيح، وهو حديث الطبراني السابق.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٩١ - ٤٠٩٢) والبيهقي (٣/٣٤٥) واللفظ له.

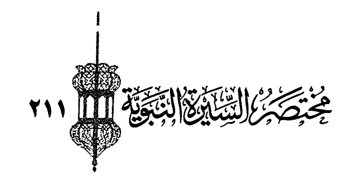
(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٩٢).

(٦) حديث صحيح، وهو حديث الطبراني السابق، والزيادة للبخاري (٤٠٩١).

(٧) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٩٠).

(٨) حديث صحيح، رواه مسلم (٦٧٧).

(٩) هذه الآية منسوخة، وهي في البخاري (٤٠٩١).



السعادة.. هذا قد منحوه ثوبًا، وهذا اشتروا له طعامًا، وذاك أعطوه فراشًا، ورابع قدّموا له غطاءً، وخامس قدموا له حذاءً. فلك أن تتصوّر حجم الفراغ الذي يتركه سبعون بمثل هذا الجمال والحب والسخاء.

أهل المدينة يتذكرونهم عندما يرون تلك القرب، التي كانوا يملأونها بالماء لهم على باب المسجد، فكم من عطشان فقد تلك السحابة. أمّا النبي ﷺ فدعا على أولئك المشركين المجرمين شهراً كاملاً في صلواته كلّها. (قنت رسول الله ﷺ شهرًا متتابعًا في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح في دبر كل صلاة، إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على أحياء من بني سليم: على رعل، وذكوان، وعصية «وبني لحيان» ويؤمِّن من خلفه)[1]، ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (وذلك بدء القنوت وما كنّا نقنت)[2]. فاستجاب الله لنبيّه ﷺ، فأصيب الطاغية عامر بن الطفيل بمرض عضال وصفه ﷺ بقوله: (غدة كغدة البعير[3]، وسماه ﷺ بـ«الطاعون»، وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي، الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم الغدد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال)[4]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل، حتى أصبح حبيسًا في بيت امرأة من قومه. ففقد صوابه وصرخ بمن بقي حوله، قائلًا: (غدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي، فركبه فمات على ظهر فرسه)[5].

---

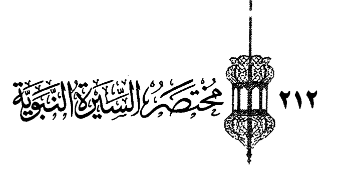
(١) سنده جيد، رواه أحمد ١-٣٠١ وأبو داود (١٤٤٣) من طريق عبد الله بن معاوية وعبد الصمد وعفان، حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وثابت وشيخه ثقة تغير، ولعله وهم في ذكره لصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والذي عند البخاري من رواية أنس، وهو الذي روى القصة وعاصرها وصلى مع النبي عليه السلام تلك الصلوات لم يذكر سوى الفجر، و«بني لحيان» عند البخاري.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٨٨).

(٣) سنده صحيح، رواه أحمد ٦-١٤٥ من طرق أخبرنا جعفر بن كيسان حدثتنا معاذة بنت عبد الله دخلت على عائشة. معاذة تابعية ثقة. التقريب. وجعفر ثقة. ذيل الكاشف (٦٢).

(٤) انظر تعليق فضيلة الدكتور: قلعجي على الدلائل (٣٤٦/٣).

(٥) حديث صحيح، رواه البخاري (١٠٩١) والبيهقي، واللفظ له (٣٤٦/٣).



أحاطت الأخطار والتهديدات بالدولة الإسلامية، فحرص ﷺ على حماية دولته، حين جاءته الأخبار بأن بني محارب وغيرهم يعدون العدة في مكان يقال له:

ذات الرقاع

وصل القائد ﷺ إلى منطقة ذات الرقاع، فوجد أمامه حشود بني محارب وغطفان، ويبدو من المشهد أن حربًا لم تقع بين الطرفين، لكن الوضع متوتّر للغاية، والأعصاب مشدودة.. خاصة أعصاب المشركين، أمّا المؤمنون، فبعضهم كان في حالة حراسة، والبعض في حالة استرخاء أو نعاس، أما نبيّ الله ﷺ فقد علق سيفه بشجرة ثم نام. يقول جابر: (فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابي جالس)[1] من بني محارب! (يقال له: غورث بن الحارث فاستيقظ ﷺ وعنده رجل لا يشعر به، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال ﷺ: الله عزّ وجلّ. فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال ﷺ: أتشهد أن لا إله إلاّ الله، قال: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى سبيله، فذهب إلى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس)[2].

لم يتخل ﷺ عن سماحته وعفوه حتى في ساحات الوغى، وكانت سماحته ولطفه بلا حدود حين ترحل به الذكريات إلى أحبته المسافرين، فذات يوم استأذنت عجوز للدخول، وهو عند عائشة فأذن لها، ولما جلست بين يديه قال لها: (من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية) فغير اسمها الثقيل الذي يعني الكابوس

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١٣٥)، والزوائد عنده (٢٩١٣).

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٣٦٥ والبيهقي ٣-٣٧٦ من طرق عن أبي عوانة، عن أبي بشر عن سليمان بن قيس عن جابر. سليمان تابعي ثقة، وتلميذه أبو بشر اسمه جعفر بن إياس تابعي ثقة، التهذيب ٤-٢١٤ وأبو عوانة ثقة ثبت اسمه: الوضاح بن عبد الله اليشكري. وزوائد الحديث عند البخاري (٢٩١٣).

إلى اسـم جميل، ورحل به اسـمها إلى الذكريات التي تعصف بالقلب، فقال: (بل أنت حسـانة المزنية. كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسـول الله) أحضـرت عائشـة طبقًا من لحم، فجعل يناولها فقالت عائشـة: (يا رسـول الله لا تغمر يدك. فلما خرجت قلت: يا رسول الله.. تقبل على هـذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسـن العهد من الإيمان)[1].

كان ﷺ يحب الجمال ويحرض عليه، وكانت نساؤه مثله، فذات يوم دخلت المرأة العظيمة التي خطبت سودة وعائشة للنبي ﷺ (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيّئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ، فذكرن ذلك له، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون، أما لك بي أسوة؟ فقال: بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل. قال ﷺ: «لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًّا، وإن لجسدك حقًّا، وإن لأهلك حقًّا، فصلّ ونم، وصم وأفطر. يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما لك فيّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا». فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس. فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[2] تعاليم أغاظت اليهود، وأثارت

---

(١) سنده قوي، رواه الحاكم ١-٦٢ والبيهقي في الشعب ٦-٥١٧ من طريق: الضحاك بن مخلد حدثنا صالح بن رستم حدثنا ابن أبي مليكة.. وابن أبي مليكة تابعي أدرك ثلاثين صحابيًّا وهو عبد الله بن عبيد الله ثقة فقيه. التقريب ٣١٢ والضحاك ثقة ثبت. التقريب ٢٨٠ أما صالح فحسن الحديث، إذا لم يخالف.. توثيقه قوي وجرحه غير مفسر، قال أبو داود: ثقة، وقال الطيالسي وهو تلميذه: ثقة، وقال البزار: ثقة، وقال ابن وضاح: ثقة وقال ابن عدي: عزيز الحديث روى عنه يحيى القطان مع شدة استقصائه، وهو عندي لا بأس به ولم أر له حديثًا منكرًا، وقال العجلي: جائز الحديث. أما جرحه فقال الدارقطني: ليس بالقوي. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم أما ابن معين فقال مرة: ضعيف وقال مرة: لا شيء.. وهو يعني بهذه من ليس له من الحديث إلا القليل، وهذا الجرح لا ينهض أمام ذلك التوثيق المعتبر. التهذيب ٤-٣٩١.

(٢) رجال ثقات لكنه مرسل، رواه ابن سعد (٣/٣٩٤) أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا إسرائيل وأخبرنا الحسن ابن موسى، أخبرنا زهير، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي بردة.. وهذا مرسل إلا إن كان أبو بردة هو الصحابي – وللحديث شاهد بسند صحيح، رواه عبد الرزاق (٦/١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.. وما بين الأقواس الصغيرة هو ما جاء فيه من حديث النبي ﷺ.



غبطة اليهوديات، الواقعات تحت تعاليم تحرم عليهن البقاء في المنزل في حالة حيضهن، لأنهن ينجسن كل شيء يلمسنه ويجلسن عليه، ومن يلمسهن أو يلمس شيء لمسنه أو جلسن عليه فعليه الاستحمام وغسل ثيابه، وهذا ما أثار استغراب الصحابة، حيث يقول أنس بن مالك: (إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوهن، ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي، النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه)[1].

قد يقول قائل: إن هذا الكلام يقوله المسلمون، وينسبونه لليهود والنصارى، ولم يقله اليهود والنصارى أنفسهم، لكن من يفتح الكتاب المقدس اليوم وبالتحديد سفر اللاويين ١٤ يرى ما هو أشد تطرفًا مما قاله أنس، حيث يقول الكتاب المقدس عن المرأة الحائض:

(سبعة أَيَّام تَكُونُ فِي طَمْثِهَا. وَكُلُّ مَنْ مَسَّهَا يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٠ وَكُلُّ مَا تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ فِي طَمْثِهَا يَكُونُ نَجِسًا، وَكُلُّ مَا تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا. ٢١ وَكُلُّ مَنْ مَسَّ فِرَاشَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٢ وَكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتَاعًا تَجْلِسُ عَلَيْهِ، يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٣ وَإِنْ كَانَ عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ عَلَى الْمَتَاعِ الَّذِي هِيَ جَالِسَةٌ عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَمَسُّهُ، يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ) حتى الاستحاضة التي يسميها النبي ﷺ ويسميها الطب الحديث أيضًا نزيفًا.. يجعلها الكتاب المقدس حيضًا، فيقول:

«وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ يَسِيلُ سَيْلُ دَمِهَا أَيَّامًا كَثِيرَةً فِي غَيْرِ وَقْتِ طَمْثِهَا، أَوْ إِذَا سَالَ بَعْدَ طَمْثِهَا، فَتَكُونُ كُلَّ أَيَّامِ سَيَلاَنِ نَجَاسَتِهَا كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِهَا. إِنَّهَا نَجِسَةٌ.٢٦

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم ١- ٢٤٦.

كُلُّ فِرَاشٍ تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ كُلَّ أَيَّامِ سَيْلِهَا يَكُونُ لَهَا كَفِرَاشِ طَمْثِهَا. وَكُلُّ الأَمْتِعَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَيْهَا تَكُونُ نَجِسَةً كَنَجَاسَةِ طَمْثِهَا. ٢٧ وَكُلُّ مَنْ مَسَّهُنَّ يَكُونُ نَجِسًا، فَيَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٨ وَإِذَا طَهُرَتْ مِنْ سَيْلِهَا تَحْسُبُ، لِنَفْسِهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَطْهُرُ)، أي أنها تنجس وتعزل عن بيتها وأطفالها وأشيائها نصف كل شهرٍ. أي نصف كل عام. أي نصف أزهى سنوات عمرها.

جاء الإسلام ليصحح هذه المعلومة، ويزيل هذا التطرف والتحامل على المرأة، ويكشف أن الحيض إفراز جسدي طبيعي لا يستدعي كل هذا الظلم للمرأة، ولذا تقول عائشة: (بينا أنا مع النبي ﷺ مضطجعة في خميصة إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضتي، فقال ﷺ: أنفست؟ قلت: نعم. فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة)[١]. وتقول: (كان النبي ﷺ يقرأ القرآن ورأسه في حجري، وأنا حائض)[٢] وتقول أيضًا: (إنها كانت ترجل رسول الله ﷺ وهي حائض ورسول الله ﷺ حينئذٍ مجاور في المسجد، يدني لها رأسه وهي في حجرتها فترجله وهي حائض)[٣] أي تسرّح شعره. وناداها ذات يوم لتعطيه السجادة ليصلّي عليها وهو في المسجد وهي حائض، فتقول: (قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد. فقلت: إني حائض. فقال رسول الله ﷺ: ليست حيضتك في يدك)[٤]. ويزداد الضغط على المرأة حين يجعلها الكتاب المقدس قادرة على إنجاس الرجل سبعة أيام، فيقول:

(وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا)

أين هذا من قول عائشة رضي الله عنها: (كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد[٥]، وأنا طامث حائض، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه، لم

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٩٨). ومعنى أنفست: أي هل حضت.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٧٥٤٩).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٩٦).

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم (الحيض)، والنسائي - (٣٧١).

(٥) أي الثوب الذي يلاصق الجسم مباشرة.

يعدُهُ[١]، وصلّى فيه، ثم يعود، فإن أصابه منه فعل مثل ذلك غسل مكانه لم يعدُهُ، وصلّى فيه)[٢].

أين هذا من رقة النبي ﷺ وهو يلح على أن تشرب عائشة قبله وهي حائض، ثم يقوم بحركة يتوهج منها الذوق والحب.. حركة تدخل السرور إلى قلبها ونفسها، لا الإحباط والشعور بالمهانة.

سئلت عائشة رضي الله عنها: (هل تأكل المرأة مع زوجها وهي طامث؟ قالت: نعم، كان رسول الله ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا عارك، كان يأخذ العَرْقَ[٣]، فيقسم عليّ فيه، فأعترق منه[٤]، ثم أضعه، فيأخذه، فيتعرق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من العرق، ويدعو بالشراب، فيقسم عليّ فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح)[٥].

لذا فلا غرو أن يكون حلم كل النساء برقته ولطفه، وهو ما ظفرت به أم سلمة التي توفي زوجها رضي الله عنها بعد أحد بأكثر من عام، فتزوجها ﷺ وتكفل بأيتامها، أما زينب بنت عمته، فكان لزواجه منها قصة تفيض بالأحكام والحكم. فقد خيم الوجوم على العلاقة بينها وبين زوجها زيد بن ثابت، ابن رسول الله بالتبني. تغيرت القلوب في هذا المنزل الكريم على غير ما يحب رسول الله ﷺ، فلم يتحمل زيد ما يحدث في صدره وصدر زوجته، فحمله إلى النبي ﷺ و(جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك)[٦].

---

(١) أي يغسل مكان الدم فقط، ولا يغسل ما حوله.

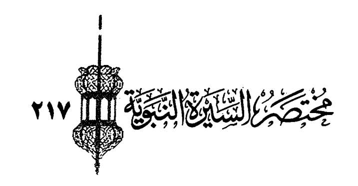
(٢) حديث صحيح، انظر: صحيح أبي داود (١/٥١) والنسائي (١/١٢٥).

(٣) عظم في لحم.

(٤) آكل منه.

(٥) حديث صحيح، صحيح سنن النسائي (١/٨٠)، ورواه مسلم مختصرًا.

(٦) حديث صحيح، رواه البخاري (٧٤٢٠).



قال النبي ﷺ ذلك بعد أن نزل عليه الوحي بشيء يخص زيدًا وزينب، ويخصّه هو بالدرجة الأولى، فقد أخبره الوحي أن زينب زوجة ابنه زيد سوف تصبح زوجته وإحدى أمّهات المؤمنين، فأخفى ﷺ ذلك الأمر على زيد خشية أن يتأثر زيد.. خشية أن يلوك المنافقون وضعاف النفوس ذلك الحدث. بقي الزوجان على غير وفاق حتى تفاقم الصدع، فأصبح أكبر منهما ومن منزلهما، فكان الطلاق هو الحل الوحيد، والمخرج الآمن لحياتهما ومعاناتهما، وكان في هذا الزواج إلغاء تام لعادة التبني، وهذا ما يؤكده الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أطلق زيد زينب وطلّقها بعد أن شعر أن البقاء معها شبه مستحيل، فالإسلام جعل الطلاق بيد الرجل، لأنه المكلف بالمهر والنفقة والحماية والرعاية، والرجل السويّ لا يقدم على الطلاق إلاّ بعد أن يستهلك كل وسائل البقاء الممكنة، لكن ماذا عن المرأة؟ هل اضطهدها الإسلام لأنها لا تنفق ولا تدفع مهرًا..؟ هل يرغمها على البقاء في بيت رجل لا تطيقه لهذا السبب فقط..؟ الجواب في قصة هذه المرأة التي:

تطلق زوجها لأنها لا تحبه

ففي الظلام، وعندما بدأ الفجر يمزق خيمة ليل ثقيل على امرأة اسمها: (حبيبة بنت سهل) وعندما صدع بلال أسوار الليل بالأذان نهضت تلك المرأة من ليلها الطويل الشاحب.. توجّهت نحو الباب وفتحته، ثم خرجت مثقلة بالهموم والشكوى.. تاركة البيت وصاحبه، وبعد خطوات ثقيلة وحزينة توقفت أمام باب كالفرج.. أمام باب كالفجر.. أمام باب القائد محمد ﷺ.

خرج ﷺ فقال: (من هذه؟ فقالت: أنا حبيبة بنت سهل. قال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس «يا رسول الله ﷺ، إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه. فقال رسول الله ﷺ: فتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم») ثم قال ﷺ لثابت: (خذ منها. فأخذ منها، وجلست هي في أهلها «وأمره ﷺ يطلقها»)[1]، فطلقها ثابت رضي الله عنهما، ولم يستطع إرغامها على العيش معه، وبذلك انتزعت حبيبة حقها وحق غيرها من النساء من بعدها في الانفصال والخلع، فالزواج ليس سجنًا ولا إكراهًا.. إنه حب ومشاركة.. ألفة وود وتكامل، فإن لم يكن الأمر كذلك فباب الطلاق وباب الخلع مفتوحان كالرحمة إلى يوم القيامة.

هذا ما لا يعرفه النصارى حتى اليوم، فالقسّ في الكنيسة يربط الزوجين برباط يسمّيه رباط الله المقدس، ثم يقول: إن ما يربطه الله لا يفكّه ابن آدم. أي أن الطلاق محرم، والزواج حتى ولو كان فاشلًا لابدّ أن يكون مؤبدًا، وفي ذلك يقول كتابهم المقدس: (أما أنا فأقول لكم: من طلّق امرأته - إلاّ في حالة الزّنا - يجعلها تزني، ومن تزوّج مطلقة زنى)[2]. أي أن المطلقة تعتبر زانية عند النصارى، ومن تزوّج امرأة مطلقة فهو أيضًا زان، فلا غرابة أن نرى انتشاره عندهم بشكل مخيف، فما دامت المطلقة المسكينة قد حكم عليها بالزنا المؤبّد، فلن يغير من الأمر شيء أن تمارسه فعلًا، ولن تفلح الكلمات الإنشائية في قتل الفطرة البشرية، مهما كانت العبارات براقة، فكتابهم المقدس يقول: (أبناء هذه الدنيا يتزاوجون، أما الذين هم للحياة الأبدية والقيامة من بين الأموات فلا يتزاوجون، هم مثل الملائكة لا يموتون، وهم أبناء الله)[3] كلمات براقة لكنها.. تقتل الفطرة، تقتل الإنسان. ولا أدري ما مصير البشر لو أخذوا بهذه المقولة المتطرّفة.

أمّا الإسلام، فلم يحارب إنسانية الإنسان ولم يمح فطرته، لكنه هذبها، فرق كبير بين سماحة الإسلام وتطرّف المسيحية والمسيحيين الذين يرون الزواج

---

(١) صحيح رواه البخاري (٥٢٧٥ - ٥٢٧٤)، والزوائد له وأبو داود (٢٢٢٧) واللفظ له.

(٢) الكتاب المقدس - متى - الطلاق.

(٣) الكتاب المقدس - لوقا - قيامة الأموات.

بالمطلقة زنا، بل يعتبرون الزواج بالمطلقة لا يليق بالنصراني المستقيم، فقد أحب ﷺ المطلقة وتزوجها، وزوَّجها، وأفضل زوجاته خديجة تزوجت قبله أكثر من رجل، وها هو الوحي يخبره بأنه سيتزوج مطلقة زيد.

الزواج بزينب

مرّ على طلاقها من زيد بن ثابت ثلاثة أشهر، أي ثلاث حيضات، والمرأة لابدّ أن تنتظر ثلاث حيضات حتى تتأكّد من خلوّ رحمها من أي علاقةِ من زوجها الأوّل، وتتأكّد من عدم وجود حمل حتى لا تختلط الأنساب، وتتفشّى الأمراض. وبعد أن مرت تلك الأشهر أمر الله النبي ﷺ بالزواج من زينب رضي الله عنها لسبب واحد ذكره الله في القرآن، ونزل به جبريل عليه الصلاة والسّلام، فما

سبب زواج النبي ﷺ من زينب؟

كان الناس في ذلك الوقت يعتبرون الابن بالتبنّي كالابن الحقيقي، أي أن الابن بالتبني إذا طلّق زوجته فهي حرام على أبيه والعكس، فأنزل الله نسخ ذلك الشيء وأبطله بتزويج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، التي كانت زوجة لابنه بالتبني (زيد بن حارثة) أنزل الله ذلك الأمر بعد أن كان النبي ﷺ يخشى كلام الناس حول ذلك، لكن النبي ﷺ لا يستطيع أن يخفي شيئًا من الوحي ولا القرآن، فإذا نزل الأمر فما عليه سوى السمع والطاعة لربّه سبحانه وتعالى، ولذلك يقول أنس: (جاء زيد بن حارثة، فجعل النبي ﷺ يقول: اتّق الله وأمسك عليك زوجك. قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه)[1]. فقال رسول الله ﷺ لزيد: (اذكرها عليّ. فانطلق زيد حتى أتاها، وهي تخمر عجينها، قال:

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٧٤٢٠).

فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أن رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك؟ قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن)[١] أي نزل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ (وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن)[٢] فكانت رضي الله عنها تبتهج بذلك (كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكنّ أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات)[٣] وكان في ذلك الزواج تكريم للمطلقة، وتكريم لزيد رضي الله عنه، فقد خصّه الله بذكر اسمه من بين جميع أصحاب النبي ﷺ في القرآن. وفي أثناء زفافها أنزل الله تشريع الحجاب على نساء النبي، ثم فرض على المؤمنات جميعًا.

لم تكن أيامه ﷺ أفراحًا، فما زالت القبائل الوثنية تتناوب في إخافة دولته، وهذه المرة جاء الدور على قبيلة بني المصطلق قرب مكة، وبما أن القبيلة في معظمها قد وافقت على الغزو، فقد قرر ﷺ مفاجأتها، فالتخلص من القائد وحده لن يفيد.

غزوة بني المصطلق

كالعادة انضمّ لجيش الإسلام مجموعة من المنافقين.. على رأسهم كبيرهم ابن سلول، ربما لشعوره بقوة جيش الدولة الإسلامية، وتأكده من هزيمة بني المصطلق. وقبل أن ينطلق القائد ﷺ أجرى قرعة بين سودة وعائشة وأم سلمة وزينب لتشاركه، فخرجت القرعة على عائشة، فاستعارت من أختها أسماء قلادة تتزين بها لزوجها،

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (زواج زينب).

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (زواج زينب).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٧٤٢٠).

ولما انطلق الجيش حاول ﷺ طرد الملل والسأم عن نفس حبيبته عائشة في ذلك السفر، حيث أمر ﷺ فرسانه الشجعان بالتقدّم، ثم ناداها وطلب منها أن تسابقه، قائلًا: (تعالي أسابقك) تقول عائشة: (فسابقته، فسبقته على رجلي)[١]، تقبّل ﷺ الخسارة بروح طيبة، لكنه يضمر لعائشة ثأرًا وسباقًا آخر. واصل الجيش مسيره، ثم فاجأ بني المصطلق بهجوم كالبرق، تمكن من أن يسوقهم كلهم أسرى نحو المدينة. وهم (مئة أهل بيت)[٢].. كانوا يحلمون بسبايا المدينة يقتادونها نحو مرابعهم.. يحلمون بدم النبي ﷺ وأصحابه وإخماد دعوته، لكن الله ردّ كيدهم في نحورهم، وها هي بيوتهم وأحلامهم قد خلت منهم، وها هو جيش محمد ﷺ في طريقه إلى المدينة، وفي الطريق توقف القائد ﷺ وتوقف جيشه للاستراحة قرب المدينة، فانبثت الجموع هنا وهناك، ومع حلول الليل تلاشت تلك الحركة، وبعد أداء صلاة العشاء أوى من أوى لفرشه، وقام من قام في سياحة روحية، وبعد منتصف الليل أمر ﷺ جيشه بالانطلاق وأمر جنديه (صفوان بن معطل) رضي الله عنه بالتأخر لرصد أي مباغتة للعدو من الخلف. تحرك القائد فسبق عائشة لكن دون ركض.

النبي ﷺ يسبق عائشة

لكن دون سباق.. دون ركض.. دون ابتسامات وضحكات، فقد ذهبت عائشة للخلاء بعيدًا قبيل الفجر، ولما عادت تحسست صدرها فلم تجد قلادة أختها، فعادت تبحث وتبحث حتى طلع الفجر، فصلت وواصلت بحثها حتى طلعت الشمس، فأيست من العثور عليه، فعادت لتجد الجيش قد غادر، ولما وصلت مكان هودجها وجدت العقد تحت مكان البعير. لمْ تفرح فقد ذهبت القافلة. انتظرت وانتظرت

---

(١) حديث صحيح، رواه النسائي في الكبرى (٥/٣٠٤) عن هشام عن رجل عن أبي سلمة عن عائشة، وهذا السند فيه جهالة، لكن هشام رواه عن أبيه عن عائشة عند أحمد (٦/٢٦٤)، وعند النسائي أيضاً في الكبرى (٥/٣٠٤).

(٢) سنده صحيح عند ابن إسحاق، وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

فلم يعد أحد، لكن صفوان بن معطل المكلف بمسح المنطقة مر لتفقد المكان، فإذا عائشة نائمة متلفعة بجلبابها. تقول عائشة: (فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، «فلما رآني، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أظعينة رسول الله؟! وأنا متلفّفة في ثيابي». فاستيقظت باسترجاعه[١] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها «واستأخر عني، فركبت وجاء فأخذ برأس البعير»، فانطلق يقود بي الراحلة «سريعًا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني» حتى أتينا الجيش. بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة)[٢].

رأى المنافقون عائشة الصغيرة.. عائشة الطاهرة على راحلة صفوان ابن المعطل رضي الله عنه، فرقصت الفتنة في قلوبهم، وتراقص الشيطان بينهم، وطالت أنيابهم تنهش أطهر الأعراض.. تتهم عائشة النقية بالخنا، وتتّهمها بصفوان البريء، من شدة غيظهم وهم يرون قبيلة وثنية كاملة في قبضة الدولة الإسلامية، أما النبي ﷺ ففرح بقدومها، وفرحت عائشة بحبيبها وهي لا تعلم، وهو أيضًا لا يعلم ما تلوكه ألسنة المنافقين.

استأنفت القافلة رحلتها الشاقة للمدينة، ولما وصلت المدينة وتم توزيع الأسرى والغنائم، فوجئت عائشة بفتاة جميلة غير محجبة تدخل عليها وهي مع زوجها ﷺ، فشعرت بالغيرة وهي تُعرف نفسها على أنها أميرة بني المصطلق، التي تدفع ثمن تهور والدها في الانصياع لقريش دون مبرر، وهي تعرض على النبي ﷺ عرضًا ما كانت لتجرؤ عليه لو لم تر رقي التعامل مع الأسرى في الدولة الإسلامية. دخلت جويرية (فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه،

---

(١) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم، والزوائد لابن إسحاق.

وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي[١]، فجئتك أستعينك على كتابتي. قال ﷺ: فهل لك في خيرٍ من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك؟ قالت: نعم.. يا رسول الله، قد فعلت. قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم[٢]. قالت عائشة: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)[٣].

حلت البركة على بني المصطلق، وأدركوا فداحة جرمهم وهم يستجيبون لتحريض قريش ضد نبي لم يتعرض لهم يومًا، وربما لم يطأ أرضهم، فانطلقوا معززين مكرمين نحو ديارهم، وفي وسط تلك الأجواء الاحتفالية.. كانت عائشة تحسّ بآلام السفر والإعياء الشديدين.. سقطت بعد أيام قليلة على فراشها، وطال رقادها وأنينها، لكن ألمها ازداد عندما أحست بجفوة غريبة من النبي ﷺ. أحسّت بتغيّر معاملته لها، وهي التي تعوّدت منه الرقّة واللطف.. خاصة عندما تكون مريضة، حيث يتدفق حبه عليها ﷺ.. يغمرها بكلماته ولمساته الحانية المحبة، فقد علم ﷺ بما يشاع، بينما كانت الأخبار لا تصل لعائشة لأنها لا تخرج من شدة المرض.

ارتّجت المدينة وتكدّر ﷺ لإلقاء التهم جزافًا على زوجته وأحب الناس إليه، وتأثر بتلك الشائعة أناس مؤمنون، وضعفوا أمام لغط المنافقين، وهم بشر كبقية البشر، ولكل إنسان هفوات وأخطاء. تلقف ثلاثة من المؤمنين الإفك، وهم رجلان

(١) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.
(٢) حرروهم وأطلقوهم.
(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق وغيره من طريقه: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة، محمد ثقة من رجال التقريب (٢/ ١٥٠)، وعروة مر معنا كثيرًا.

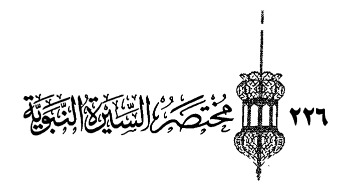
وامرأة.. وهم (حسان بن ثابت) ورجل من أهل بدر اسمه (مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب) وقد كان أبو بكر الصديق ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، ومع ذلك حدث منه ما حدث. أما المرأة فهي أخت أم المؤمنين (زينب بنت جحش) واسمها (حمنة)، ولا أدري مادافع الرجلين، أما حمنة فكان دافعها الحمية لأختها زينب، التي كانت تنافس عائشة في المنزلة عند رسول الله ﷺ.

أما رأس الحية وسمّها الناقع وناشر الإشاعة، فهو زعيم المنافقين (عبد الله ابن أبي ابن سلول) الذي ذهب يذرع المدينة.. شوارعها ومجالسها بلسانه العفن. حوله الحقد إلى رجل تافه بلا قيم.. بلا أخلاق.. رجل لا يحترم مكانته بين قومه.. رجل أفقده الحسد عقله ورزانته، فأصبح كالأبله لا همّ له، ولا شأن سوى عائشة الصغيرة.. يتشفّى بذكرها واتّهامها، بعد أن فقد الأمل في الحصول على زعامة، أو حتى مكانة محترمة في المدينة.

شعرت عائشة بجفاء النبي ﷺ فهو إذا دخل لا يزيد على كلمة: (كيف تيكم؟) فطلبت أن تنتقل إلى أمها لتمرضها، فأذن لها، ولما تعافت عادت إلى بيتها، وذات يوم كانت مع أم مسطح في طريق لحاجة ما، فعثرت أم مسطح في ثوبها فسقطت على الأرض، فدعت على ابنها، وقالت: تعس مسطح، فغضبت عائشة كيف تدعو على ابنها وهو من أهل بدر، فقالت المرأة: (والله ما أسبّه إلاّ فيك. فقلت: في أي شأني؟ قالت: أي هنتاه! أوَ لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتها الخبر). توقفت عائشة من هول الصدمة، وكأن الكون ينهار على رأسها، أصابتها حمى شديدة، وتضعضعت حتى بالكاد وصلت بيتها، وألقت بجسدها الذي بالكاد شفي من مرض طويل.. ألقته على الأرض تبكي وتبكي، وعاودها المرض أشد مما كان، وظلت تبكي حتى ظنت أنه سيصدع قلبها، ولما دخل ﷺ وجدها تبكي، فاستأذنته أن تعود لبيت أمها، فأذن لها وأرسل معها غلامًا لمرافقتها.

لبست جلبابها وخرجت تريد أن تتحقق من الخبر من أبويها.. مشت حزينة تبكي بعد شهر من المرض والجفاء.. مشت نحو بيت والديها الحكيمين اللذين لم يتسرعا باتهامها، ولا بالدفاع عنها برغم ثقتهما بها. سارت تسابق دمعها حتى وصلت بابهما، ولما وصلت سمعت القرآن ينساب من سطح المنزل بصوت والدها الحزين. طرقت الباب ففُتح، فاستقبلتها أمها المؤمنة أم رومان، فدخلت الفتاة ورفعت رأسها ونظرت لأمها بعينين تفيضان عتابًا ودموعًا، وقالت: (يا أمتاه ما يتحدث به الناس؟) هنا سافر السؤال كخنجر في قلب الأم الحزينة، فحاولت إيقاف نزفه. حاولت إنقاذ مايمكن إنقاذه من هذه الناحلة، التي هدها الحزن والمرض، فقالت: (يابنية هونّي عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلاّ أكثرن عليها، إلاّ حسدنها).

لم تطفىء إجابتها مابقلبها. بحثت الفتاة عن آثار للخناجر في قلوب أحبتها، فقالت: (وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. فقالت: ورسول الله؟ قالت: نعم ورسول الله). حينها احترقت أضلاعها، فزفرت من أعماقها زفرة حرى، وقالت: (سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا، وبلغك مابلغك، ولاتذكرين لي من ذلك شيئًا؟)، ثم خنقتها العبرات، وانهمرت دموعها، وعجزت عن الشكوى، وعلا نحيبها حتى سمعها والدها وهو على السطح، فتوقف عن التلاوة، فهذا النحيب يفتت الأكباد. نزل أبو بكر من السلم، وحين أصبح على الأرض نظر إليهما، وسأل زوجته سؤالًا متوجسًا، فقال: (ماشأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها)، فاضت عينا الشيخ الجليل، وغص بالمرارة وهو يرى دموع ابنته وقلة حيلتها.. أعياها السهر والمرض، وأضناها الحزن والبكاء، لكنه أدرك أن لا ملاذ لحبيبته إلا قرب نبيها وزوجها ﷺ، عل وحيًا ينقذها، فاقترب من تلك العينين الغارقتين، وناشدها ورجاها، وقال: (أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت إلى بيتك).



امتثلت الفتاة، وودعت أبويها، وتهادت خلال طرقات حزينة ومظلمة، ولما دخلت بيتها ألقت بجسدها الطاهر الذي أنهكته خناجر النفاق على الأرض.. ظلت ترتجف مرضًا وبكاءً طوال الليل.

أذن بلال لصلاة الفجر وهي تبكي، وأشرقت الشمس وهي تبكي، لايرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، وأبطأ الوحي، فضاقت الدنيا برسول الله ﷺ، فقرر البحث بنفسه، فتوجه نحو بيت زوجته زينب، فأختها حمنة هي أحد الذين نشروا الإفك، عله يجد إجابة لتحامل حمنة.

دخل عليها فزادته إجابة زينب حيرة.. سأل زينب عن عائشة، وقال: (ماعلمت، مارأيت؟) فإذ بزينب ومخافة الله بين عينيها تقول: (يارسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ماعلمت إلاّ خيرًا). قالت عائشة: (فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك). ظل المنافق ابن سلول يستوشي الإفك، يجمعه ويتولّى كبره هو وحمنة. وأبطأ الوحي فأراد ﷺ المزيد من التثبت، فاستدعى أعرف الشباب ببيته.. حفيده السابق أسامة بن زيد فسأله: فلم يتردد أسامة ولم يتلعثم، وهو يتحدث عن فتاة طاهرة.. عرفها قبل أن تدلف قدماها بيت رسول الله. أكد أسامة براءة عائشة، بل حث نبيه على تجاهل مقالات المنافقين، وقال: (يارسول الله هم أهلك، ولا نعلم إلاّ خيرًا، وهذا الكذب والباطل) خففت إجابة أسامة وزينب من حزنه ﷺ، واتجه لعلي ﷺ يسأله فأجاب علي إجابة لا علاقة لها بعائشة.. إجابة تشفق على قلب نبيه الذي امتلأ بحب عائشة، فالأهم عند علي هو أن لايتكدر نبيه ﷺ. قدم عليٌ اقتراحين قد يخففان هذا الحزن الذي رآه في وجه نبيه. قال في الأول: (يارسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإنك لقادر على أن تستخلف) الاقتراح الآخر: هواستدعاء جاريتها بريرة فهي من ألصق الناس بها وقال: (إن تسأل الجارية تصدقك) لم يأخذ ﷺ بالاقتراح الأول الذي يلوح الطلاق بين حروفه، إنما أخذ بالآخر، فاستدعى بريرة

التي اشتراها الصديق لابنته، ولما وقفت بين يديه قال لها: (أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟) فإذ ببريرة تزيح الستار عن شمس البراءة.. ذكرت أنها لاتنتقد عائشة إلا في شيء واحد.. هو أنها فتاة حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الشاة الداجن فتأكله. غضب أحد الحاضرين من إجابتها البريئة، فصاح بوجهها، فتساءلت وكأنها تقول للدنيا: أنتم لاتعرفونها كما أعرفها.

انتهرها الرجل قائلا: اصدقي رسول الله. ترى ما الصدق إن لم يكن ما قالته صدقًا؟! ظلوا يلمحون لها، فقال ﷺ: لست عن هذا أسألك، ثم صرحوا لها فتنبهت فوجدتهم قد أبعدوا وأبعدوا، فقالت: (سبحان الله! والله ماأعلم من عائشة إلاّ كما يعلم الصائغ من التبر الأحمر). وماذا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر النقي قبل خلطه بغيره سوى النقاء.. كانت بريرة تتحدّث عن الصفاء.. عن الطهارة.. عن عائشة، أمّا المنافقون فكانوا يتحدّثون عن صديد ينزّ من نفوسهم، لكن ماذا عن البريء الآخر صفوان بن معطل الذي تم قذفه أيضًا. لقد علم بالأمر فأوجعه الافتراء عليه وعلى أمّه عائشة، وضاقت الأرض به، وضاق بنظرات الناس حتى حلف، فقال: (سبحان الله! والله ماكشفت كنف أنثى قط). بعد تلك الشهادات الصادقة تبين كذب المنافقين، فبدأ ﷺ ممارسة دوره قائدًا للدولة. جمع شعبه لا ليعتقل ابن سلول ورفاقه، فدولته محكومة بنظام قضائي عادل، لكن يبدو أن حكم القذف لم ينزل بعد، فلجأ ﷺ لشعبه، وهي سنته عند عدم وجود وحي.

امتلأ المسجد برجاله فصعد منبره، فحمد الله وأثنى عليه، ثم استشارهم والمرارة في صوته، فقال: (أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي أي رموهم بخلق قبيح، يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ماعلمت على أهلي إلاّ خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ماعلمت عليه إلاّ خيرًا، وماكان يدخل على أهلي إلا معي).

هز المكان صوت كالسيف.. صوت سيد الأوس سعد بن معاذ يهز جنبات المسجد غضبًا لله ولعرض رسوله، فترتعد له فرائص النفاق: (أنا أعذرك منه يا رسول الله. إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك) أخذت الحمية سعد بن عبادة أحد السابقين للإسلام، وسيد الخزرج فقال: (كذبت. لعمر الله لاتقتله ولاتقدر على قتله «أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم») ثار اللغط في المسجد بين الأوس والخزرج، فالتفت أوسي اسمه أسيد بن حضير لابن عبادة وصرخ بوجهه غضبًا لله: (كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين).

كلمتان قسمتا الأنصار إلى جيشين («حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد»، وحتى همّوا أن يقتتلوا)، تأزم الموقف، ورقص الشيطان طربًا لمايحدث، وبكت عائشة التي تنصت خلف بابها من هول المسافات التي وصلت إليها الأمور، فالعبارات التي تفوّه بها ابن عبادة دفاعًا عن رأس المنافقين في ساعة غضب خطيرة، ولاتقل عنها كلمات ابن حضير حين وصف ابن عبادة بالنفاق.

هنا يبرز دور القيادة.. هنا محكها، فالغضب أطلق كلمات كالرصاص الطائش تحت سمع وبصر قائد أهين في عرضه وافتري على زوجته.. موقفان يتكرّران في كل زمان: موقف من تجتاحه الحمية فيجاوز حدوده، وموقف من يغضب لله فينسى حدوده: لاهذا الموقف سنة ولا ذاك، والرصاص الطائش لايجني حصاده سوى أعداء الدين والوطن. مايهم هو هذا القائم فوق منبره، فهوالقائد والقدوة، وهوالسنة التي لاتنطق عن الهوى. قتل الفتنة والحمية في مهدها، ونظر لمستقبل دولته ودعوته وشعبه فهم ثروته.. اتجه لهم بقلبه.. بكليته يهدئهم.. يسكنهم، حتى ساد الصمت في المسجد، ثم صرفهم، فانصرفوا ليعيدهم بلال بعد ساعات أخوة من جديد، فيكتشفوا كم هو محب وحكيم هذا القائد، الذي لم يرجح طرفًا من شعبه على

طرف، ولم يوظف طرفا ضد آخر، بل لم ينتصر لنفسه على حسابهم، أوحتى يظهر تأييده لمن انتصر له.. عادوا يكتشفون كم يداري وينطوي على جراحه من أجلهم، أما حبيبته المظلومة فتفاقم حزنها حتى همت بأمر خطير كادت تندم عليه.

أُغلقت أبواب الأرض في وجه الفتاة الطاهرة، فوسوس لها الشيطان حتى قالت: (هممت أن آتي قليبًا فأطرح نفسي فيه)، لكنه وسواس سرعان ما اختفى أمام رسوخ إيمانها وثقتها بربها، وأنه لن يتركها وحيدة في هذا العالم الحائر، لكن وجعها جعلها تذبل في هذين اليومين، حتى عافت الطعام والشراب والحياة، وأصبحت على وشك الفناء، فانطلق من يخبر والديها، فجاءا وبقيا عندها، وفي اليوم الثاني وقبل صلاة العصر استأذنت امرأة من الأنصار لزيارتها، فدخلت وصدمت وهي ترى هذا الجسد يذوي بين أبويه: أهذه هي عائشة التي كانت قبل شهر فتاة تنبض بالحيوية والنشاط والجمال؟ أهذه عائشة التي سبقت حبيبها قبل الإفك؟ فاضت عيون الأنصارية فجلست تبكي مع عائشة وأبويها اللذين قلت حيلتهما، وشوه المنافقون سمعتهما في الطرقات والأسواق.

أذن بلال لصلاة العصر فخرج أبو بكر وخرجت الأنصارية للصلاة، وبعد أن انتهت الصلاة عاد أبوبكر لابنته وجلس بجانبها وأمها بجانبها الآخر، يسندانها من شدة ضعفها، وإذ بالنبي ﷺ يدخل ويسلم فردوا عليه السلام. لم يقل هذه المرَّة: كيف تيكم؟ بل جلس لأول مرة عند حبيبته منذ شهر، ولما جلس تشهد ونظر إليها، وقال: (أمابعد ياعائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه). سكت النبي ﷺ وسكت دمع عائشة.. جف تمامًا، فاستجمعت بقاياها والتفتت لوالدها، وقالت: (أجب عنّي رسول الله فيما قال. فقال الصديق والحزن يقتله: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فالتفتت إلى

أمها وقالت: أجيبي عني رسول الله. فقالت أم رومان: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. سكت الجميع وتاهت الإجابات، فزفرت عائشة بكلمات للسماء بعد أن ضاقت بها الأرض.. غاب بعدها نبي الله عن الوعي فتحدرت من جبينه قطرات ملأ الغرفة صمت حزين وتاهت الإجابات، فزفرت عائشة بعبارات كالجمر، وخاطبت أحبتها الثلاثة تعاتبهم، وتبث حزنها إلى الله، تبثه كما بثه والد يوسف حين فقد يوسف. قالت لهم: (إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في نفوسكم، وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لاتصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقونني). ثم أخرجت من صدرها دعوات مظلوم لا تضل طريقها.. دعوات مكروب تشق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء.. دعوات أقسم الجبار بعزته أن ينصرها. قالت عائشة (وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثم سكتت وحنت جسدها الذابل نحو الأرض، وتوسدت أحزانها واضطجعت. وفجأة بدأ والداها يرتجفان من حولها. ثم تحرك والدها والخوف يكاد يقتله نحو نبيه ﷺ الذي بدأ يعاني ثقلًا وإجهادًا شديدين.. أخذته ﷺ مثل الحمى، فتحدر من جبينه عرق كاللؤلؤ.. غاب عمن حوله وعما حوله، فعرف أبوبكر أنه يوحى إليه، فنهض وغطاه بثوب، ووضع تحت رأسه وسادة.

شعرت عائشة بحركة مألوفة لديها، فرفعت رأسها ببطء، لكنها تأملت أمها وأباها، فرأت في وجهيهما خوفًا.. تكاد روحاهما أن تخرج خشية أن يدينها الوحي، أما هي فغشيتها السكينة، ووصفت مشاعرها، فقالت: (أما أنا، فوالله مافزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي، وأن الله مبرئي ببراءتي)، ثم وصفت توقعاتها بتواضع مع ربها وإجلال له، فقالت (عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ماكنت أظن أن ينزل في شأني

وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها).

غشيت المكان هيبة وجلال وترقب، ثم أفاق ﷺ ورفع رأسه، وهو يمسح عرقه ويبتسم. ثم نظر لحبيبته، فقال: (أبشري ياعائشة، فقد برأك الله).

امتلأ البيت بالفرح والحمد، وابتسم الجميع إلاعائشة التي عادت الروح لها. التفتت أمها من شدة الفرح.. فقالت: (قومي إلى رسول الله). فنظرت إليها عائشة وقد استبدلت دموع الحزن التي جفت بدموع الفرح: نظرت إليها فأطلقت كلمات الامتنان لله وحده، ممزوجة بالعتاب لزوجها وأبويها، فقالت: (والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي). لم يلمها ﷺ، فالمرارة التي مرت بها كادت تودي بحياتها.. لم يلمها بل زادها فرحًا حين تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

حمد الصديق ربه، وخرج ﷺ لشعبه، فجمعهم مجددًا، وصعد منبره وقرأ الآيات، فاختنق ابن سلول والمنافقون عصر ذلك اليوم، وخجل حسان ومسطح وحمنة.. حاصرتهم العيون، وعاتبتهم الشوارع والطرقات، وأمست براءة عائشة قرآنًا يتعبد المؤمنون بتلاوته في المساجد والبيوت والطرقات والأسواق.. انتشرت سيرتها كالعطور في البوادي والمدائن، وأصبحت الوحيدة في الدنيا بعد مريم التي يكفر من يقذفها، ونزل قائد الدولة ﷺ عن منبره ليمارس مهامه تجاه عائشة المواطنة، التي قذفت بلا دليل ولابرهان، فطلب إحضار الثلاثة، فاعترفوا دون إكراه، فطبق في حقهم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وأخذ الغضب أبوبكر فقطع المعونة التي كان يرتبها لمسطح بن أثاثة، لكن عندما سمع قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اهتز قلب

الصديق أستاذ البذل والكرم، فقال: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)[1]، فأعاد المرتب لمسطح، وكأن شيئًا لم يكن.

محاكم التفتيش للمنافقين

المنافقـون يكفرون بالإسـلام ويدعـون اعتناقه. يتآمـرون مع أعدائـه ويدعون احترامـه. النفـاق حالة من السـفالة متدنية جدا. هم خلايا نائمة تنشـط باقتراب العدو من الوطن. حينها تزحف ألسنتهم كالأفاعي ومقالاتهم كالسم في الدسم، وقد قدم ﷺ في سـيرته (سـنته) الأسلوب الأمثل مع ظاهرة النفاق، وهي سنة كفيلة بوأد مؤامراتهم. كانت سنته ﷺ هي عدم الانشغال بهم، فلم يلاحقهم بالقتل أوالتجسس، ولم يـبن لهم سـجونا أومحاكم تفتيش.. انشـغل ببناء الوطـن والمواطن. جن جنون المنافقين حين عجزوا عن إدانة محمد ﷺ عن رؤيته يسـرق أو يسـتأثر ، بل حرم الله عليه وعلى أسرته أموال الزكاة والصدقات، وهي الدخل الأكبر للدولة. حيرهم بعدله وخضوعه لأنظمة القضاء وكأنه فرد من شعبه، حيرهم بإنصاته لأعدائه ومعارضيه، ما الذي بقي لم يفعله القائد ﷺ. أصبح المنافقون في حالة نفسية مزرية. كالنار تأكل بعضـها، ظل يعاملهم بالظواهر لا بالسـرائر، في تلك الأيام كانت الكنيسة في أوروبا تقيـم محاكم التفتيش وحفلات التعذيب في أقبيتها لمن ترتاب بنفاقهم.. أقبية يفرم فيها اللحم، وتقتلع فيها الأظافر، ويُجلس فيها المشتبه بنفاقه على خوازيق كالرماح، تخترق أسـفله فأحشـاءه، ثم تحطم جمجمته، أهوال تمارسها الكنيسة باسم الرب، وبتهمة الإسـاءة لها ولرموزها، ظلت أوروبا تعذب بالشـبهة، تفرم بالتهمة لأكثر من ألف ومائتي عام، بينما كان المنافقون يجلسون مع النبي، يأكلون من طعامه، ويمنحهم مـن مال دولته، مع أنه يعرفهم بوجوههم وأسـمائهم، فلا يمسـهم بسـوء، بل يدخل

---

(١) كل ما مضى أجزاء من حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٧٣.

عليه حاخامات من الأقلية اليهودية، فيقولون: السام عليك. أي الموت عليك. كلمة لو قالوها لكسرى.. لهرقل.. للبابا في أوروبا، لأبيدوا عن بكرة أبيهم. يقولونها لمحمد النبي.. لمحمد رأس الدولة ﷺ.. يقولونها في بيته، فلا يمسهم بسوء. فتغضب عائشة وتلعنهم، فيقول لها: (مهلا يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله) رقي لا ينكره إلا حاقد.

لكن هذا النوع من اليهود لا يأبهون لرقي، ولا تعنيهم الأخلاق، ولا يأسرهم العدل والتسامح.. هم نوعية من البشر إن تتنبه لها سحقتك، ولذا فالقرآن عندما يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ فإنه لا يأمر بأذيتهم، ولكنه يحذر من التعامل معهم بسذاجة، وها هي الأيام تثبت ذلك، فهاهم يهود بني النضير الذين خانوا وطنهم أكثر من مرة، لا يستطيعون التخلص من طبع الخيانة حتى وهم لاجئون في خيبر.

اليهود يجمعون الأحزاب

في حصن خيبر.. يتحرك الحاخام الخائن حيي بن أخطب، لإحياء مشروع سلفه الخائن الهالك كعب بن الأشرف. تحرك ابن أخطب للقيام بمؤامرة كبرى مرعبة، إن نجحت فهي كفيلة باجتثاث الإسلام ودولته، وتتلخص هذه المؤامرة بجمع الوثنيين واليهود في جيش واحد هائل.. بدلًا من التناوب في غزو المدينة وإنهاكها، فقد ثبت فشل التناوب الذي لم يزد الدولة الإسلامية إلا قوة، حيث أثبت محمد ﷺ أنه قادر على التعامل معهم على انفراد.

نضجت الخطة في مطبخ الخيانة في خيبر، فحملها الحاخام، وامتطى راحلته مع وفد من كبار اليهود من بينهم سلام بن أبي الحقيق وأخيه كنانة وغيرهما. خرج الوفد مزهوًّا من بوابة حصن خيبر.. في رحلة بدأت بقريش وغطفان ثم

مرت بغيرهم. نجح حيي بن أخطب في مسعاه، وأقنع قادة القبائل الوثنيين بضرورة توحد الجهود وتوجيه ضربة قاضية ونهائية لدولة الإسلام.. في شتاء العام الخامس من الهجرة، ولن يتمكنوا من ذلك إلا إن كانوا جيشًا واحدًا. كانت تلك الخيانة الثالثة لليهود التي لم تكتف بالتحريض، بل قامت بالتزوير واستغفال الوثنيين وادعاء أنهم أهدى وأقرب إلى الله من محمد ﷺ..

كانوا نفرًا من اليهود، منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري «وكنانة بن أبي الحقيق النضري» وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ[1]، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؟ فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه. فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[2].

---

(١) سبق أن خرج كعب بن الأشرف لكنه قتل قبل إكمال مشروعه.

(٢) حديث حسن، رواه ابن إسحاق بأسانيد عدة، منها: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبدالله ابن كعب بن مالك.. ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة.. وهذه الأسانيد كلها مرسلة، وإن كان عبد الله بن كعب له رؤية.. وهي لا تقوي بعضها بعضًا، لأنه ربما كان مصدرها واحدًا وهو مجهول، مع ملاحظة أن القرظي تابعي من نسل يهودي. ولها شاهد يرفعها إلى درجة الحسن، وهو عند ابن إسحاق أيضًا (تفسير ابن كثير - الأحزاب): حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.. وهو سند حسن بالشواهد من أجل محمد. وابن إسحاق لا يتهمه.. انظر: التقريب ٥٠٥ حيث قال عنه: مجهول.

لم تغب تحركات الخونة عن أعين الدولة الإسلامية، فاستخباراتها وعيونها في كل مكان. تم رصد تحركاتهم زعماء اليهود، وقدمت التقارير للقائد ﷺ، فهاله الخبر وشعر بخطورة الوضع، وكان أكثر ما يقلقه هو أن تستجيب قبيلة قريظة اليهودية للأحزاب وتنقض المعاهدة التي وقعتها مع الدولة الإسلامية، لأن ذلك إن حدث فسيصبح وضع الدولة غاية في السوء، لأن القبائل الوثنية ستهاجم من الخارج، وقريظة تطعن من الداخل، مع احتمال خيانة ابن سلول وحزبه الخياني، وقد ظهرت بوادر المؤامرة بحصار اقتصادي خانق للمدينة.. عزلت فيه عن العالم، وكان الوقت شتاء، حيث يقل الطعام وتجدب الأرض بعد خريف طويل، ولا طعام للمدينة سوى التمر.. كانت المدينة غير مهيأة لحرب من هذا النوع، وكان الوقت لا يسعف النبي ﷺ وجنده، لذا فكر القائد ﷺ بتوظيف التضاريس كما وظفها في أحد. وجد أن المدينة محاطة بالجبال والنخيل إلا جهة واحدة، لذا أصدر أمرًا بصنع شيء غير مسبوق لصد الجيوش الوثنية التي ستتجاوز العشرة آلاف على أقل تقدير.

حفر الخندق

تأمل القائد ﷺ مدينته، فوجدها تحدب عليه: النخيل من هنا والجبال من هناك، ولم يبق سوى جهة الشمال الرخوة المكشوفة. فقرر حفر خندق طويل لصد الهجوم منه، ولم يصح أن سلمان الفارسي رضي الله عنه صاحب الفكرة، فقد كان مدللاً في فارس، ولم يقم بعمل سوى خدمة نار المجوس، ثم أمضى بقية حياته قسًّا في عدد من الكنائس، ثم تم الغدر به وبيعه لليهود، فعاش بين مزارعهم وحقولهم عبدًا.

بدأ ﷺ حفر الخندق.. فتهاوت المعاول بعده تعزف خندقًا، والحناجر تتغنى شعرًا وحماسًا. وسط هذا الحماس والتفاني.. لا تدري هل كان النبي ﷺ معهم، أم هم الذين معه؟ وسط ذلك الجو الشتوي البارد، وخلال ذلك الغبار المنبعث

من الخندق.. قسم الجيش إلى قسمين: قسم يحفر، وآخر يحمل التراب، ويجعله أكمات وسواتر. وكان ﷺ مع هؤلاء مرة ومع أولئك أخرى. أحدهم يقول: (كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا)[١]. أما البراء فيقول: إن النبي ﷺ (كان ينقل التراب حتى وارى شعر صدره، وكان رجلًا كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله «بن رواحة»:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

إن الأعداء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته «أبينا.. أبينا» «يمد صوته بآخرها»)[٢].. يحمس من حوله بأبيات الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة رافعًا ومادًّا بها صوته، فالجو مشحون بالجوع والبرد والحذر، ولا بد من إشعال جذوة الحماس، ولم يكتف ﷺ بذلك.. كان يذرع المنطقة.. يتفقّد كل شيء.. يحتاط لكل شيء، ثم يعود لمحاربيه.. يشجّعهم.. يحفر معهم.. يدعو لهم حتى انتهوا من حفر الخندق.

كان الوقت يمضي، والمعاناة تزيد والجوع يزيد، والخوف يخيم على المكان، وبدأت الجحافل تزحف وتزحف، وبدأ المنافقون ينسلون نحو بيوتهم كالحيات. وصلت الجيوش الوثنية مزهوة بكثرتها.. واثقة بأن المسألة مسألة ساعات ويكون محمد في قبضتها، ونساء المسلمين سبايا وإماء، والصحابة بين قتيل ورقيق، وما إن تراءت لهم نخيل المدينة حتى فوجئوا بخلوها من أي جيش للتصدي.. زحفوا ولما اقتربوا منها صدموا بهذا الابتكار النبوي المذهل.. صعقوا بهذا القبر المستعد لابتلاعهم.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٩٨)، ومسلم (١٨٠٤).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٠٣٤)، والزوائد له (٤١٠٤ - ٤١٠٦).

خيم السكون والترقب على زعماء الوثنيين، وأحسوا بإحباط مريع، وشعر زعيم غطفان بصعوبة الاقتحام، فقرر الظفر بغنيمة دون خوض حرب، فالدولة الإسلامية في نظره في حالة ضعف لا تسمح لها بإملاء الشروط، وهي مستعدة لدفع أي شيء للنجاة.

غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب

تسلل زعيم تلك القبيلة العظيمة نحو المدينة، ولما تهادت به راحلته في شوارعها سأل عن القائد ﷺ، فأخبروه عن مكانه، فتوجه نحوه حتى توقفت راحلته أمامه، فنزل عنها وأملى على النبي ﷺ أن ينسحب من جيش التحالف الوثني اليهودي، ولكن بشرط. (فقال: يا محمد، ناصفنا تمر المدينة «وإلا ملأناها عليك خيلًا ورجالًا»؟) لم يوافق القائد ﷺ مباشرة، فهو لم يؤسس دولته بالسيف، بل بالكلمة والاتفاقيات والمواثيق، ومن تلك المواثيق أن للأنصار كلمتهم. لذا اشترط للقبول موافقة الأنصار.. لم يعرض القائد ﷺ ذلك الأمر على أبي بكر ولا على عمر، بل على أهل دار الهجرة والكرم، وأصحاب الشأن الأوّل، فهو لا يتخلى عن عهوده ومواثيقه التي أبرمها في العقبة حين أسس دولته.

استدعى ﷺ السعدين، فكانت إجابتهما كحد السيف. قال لهما محذرًا من حرب اجتثاث قادمة، وكأنه يجس صمودهما: («إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد؟ قالوا: يا رسول الله أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا

تمرة إلا بِشرى أو قرى»[١] فقالا[٢]: ما أعطينا الدنية[٣] من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام)[٤].

فعاد الحارث الوثني ليعسكر مع الجيوش الهائلة الحائرة، بانتظار استسلام طيبة تحت ضغط الحصار والبرد والجوع والخوف.. طال الأمر وفجأة تلوح فكرة شيطانية لقائد الأحزاب الفعلي، ومهندس الخيانة (حيي بن أخطب) بدأ يجوب المكان، ويتنقل بين زعماء المشركين الحائرين يطمئنهم بخطة لا قبل لمحمد بها.

فركت الوثنية يديها فرحًا بهذا الداهية، الذي تسلل كالحية بين النخيل والجبال متخفيًا عن أعين المسلمين، فهو من أعلم الناس بالطرق الملتوية نحو قريظة.. مشى حتى وصل حصنهم، فطرق باب الحصن وصاح بحراسه. نظروا إليه فعرفوه وفزعوا من مجيئه ولم يفتحوا له. اتجه الحرس لقائدهم الحاخام (كعب ابن أسد) الذي وقع معاهدة الصلح مع الدولة الإسلامية، فأخبروه ففزع وتشاءم من مجيء ابن أخطب، فأمرهم بإغلاق الأبواب وعدم السماح له بالدخول.

ظل حيي يرفع صوته ينادي: كعب بن أسد، فلم يجد كعب بدًّا من طرده بنفسه، فنهض وهتف: (ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإنه لاحاجة لي بك، ولابما جئتني به، إني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء، وقد وادعني موادعة فدعني وارجع عني). أدرك حيي أن مهمته فاشلة، لكنه لم ييأس، فأدخل عنصر الاستفزاز، قائلًا: (إن أغلقت دوني إلا عن خشيتك أن آكل معك)، شعر كعب بالإهانة فأخذته العزة وأمرهم بفتح الباب له. فتسللت الحية وغرزت أنيابها في ذلك الحصن الآمن، وأفرغت فيه بقايا سمها لتحل الكارثة.

---

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

(٣) أي لم نعط الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية، فكيف وقد أسلمنا؟!

(٤) سنده حسن، رواه البزار/ زوائد ٢-٣٣١ والزوائد للطبراني ٦-٣٤ حدثنا عقبة بن سنان حدثنا عثمان بن عثمان الغطفاني حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. أبو سلمة بن عبد الرحمن تابعي ثقة. التقريب ٦٤٥ وتلميذه ابن علقمة حديثه حسن من رجال الشيخين. التقريب ٤٤٩ وعثمان صدوق من رجال مسلم السابق ٣٨٥ وعقبة صدوق من شيوخ أبي حاتم، الجرح والتعديل ٦-٣١١.

كارثة : خيانة يهودية رابعة

فتح الباب ودخل حيي لكن كعبًا قال: (ياحيي إنك امرؤ مشؤوم، وإنه لاحاجة لي بك، ولابما جئتني به، إني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء، وقد وادعني موادعة، فدعني وارجع عني). فرد عليه حيي والحماس يملأ ثيابه: (ويحك ياكعب جئتك بعز الدهر، بقريش معها قادتها حتى أنزلتها برومة، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتها إلى جانب أحد، جئتك ببحر طام لا يرده شيء. فقال كعب: جئتني والله بالذل، ويلك فدعني وما أنا عليه، فإنه لا حاجة لي بك ولا بما تدعوني إليه).

بدأ حيي يمني كعبًا بزوال الدولة الإسلامية وانمحاء الإسلام.. بأمهات المؤمنين والنساء المسلمات جواري في حصنه.. بدأ يجري له عمليات حسابية: ماذا يفعل ألف مقاتل مسلم جائع، أمام أكثر من عشرة آلاف مقاتل مدجج بالسلاح؟! بدأ بإخافته من الأحزاب، وأنهم سيعاقبونه إن ظل على مسالمته وعهده مع محمد.. ظل حيي بن أخطب يفتله في الذروة والغارب حتى أطاع له، لكن كعب بن أسد أراد ضمانات من حيي أن لايتخلى عنه.. ماذا لو عاد الأحزاب دون حرب؟ هنا أعطاه حيي العهد والميثاق، فقال: (لئن رجعت قريش وغطفان قبل أن يصيبوا محمدًا، لأدخلن معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك). اقتنع كعب بن أسد بجدية العرض، وأن أكثر من عشرة آلاف مقاتل وثني سيدفعون فاتورة خيانته. فنقض العهد وأظهر البراءة من القائد صلى الله عليه وسلم، وماكان بينه وبينه. أرسل له يعلن أنه مع الأحزاب وأنه شريك في الحرب. وصل الخبر للمسلمين، فزلزلوا زلزالًا شديدًا وارتبكوا، وفتت الخيانة اليهودية الرابعة من معنويات الكثيرين، وبدأ المنافقون يرتجفون.. تدور أعينهم. بدأوا يستأذنون هربًا لبيوتهم، وشعر القائد بهول الأمر، فأمر بجمع النساء والأطفال في حصن منيع، يقال له (حصن بني حارثة)، فامتلأ الحصن بنظراتهم البريئة الخائفة، أما الأحزاب فارتفعت

معنوياتهم، وشنوا هجومًا من بعض النقاط الضعيفة في الخندق، لكن تم صدهم، وتبادل الطرفان الرماية، التي يبدو أنها الوسيلة الوحيدة للطرفين.

(اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم)[١] وغدرهم، الذي لم يتزحزح حتى الآن، لكنه طمأنه أنهم لم يخرجوا من الحصن، وفي أثناء الرماية أصيب سيد الأوس سعد بن معاذ بسهم في ذراعه، وظل ينزف حتى أمر القائد ﷺ بحمله وعلاجه، وصنع قبّة له داخل المسجد النبوي، كي يزوره أهله وأصحابه.

اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضًا «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير، ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حواريًّا، وإن الزبير حواريي)[٢] أي صاحبي النقي أو وزيري. ظلت المعارك مشتعلة بالرماية، حتى إنه في أحد أيام الحصار انشغل ﷺ عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، ومع ذلك فشل الوثنيون في اقتحام الخندق، وطال أمد الحصار وبدأ الطعام ينفد من المدينة، والبرد يزداد، كانت الظروف قاسية على الطرفين.. كان الوضع غاية في الكرب. وضع وصفه الله فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾[٣]

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤١٦)، وأحمد (٣/٣١٤)، واللفظ له.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.

(٣) سورة الأحزاب: الآيات ١٠ - ١٥.

ولما طال الأمر شعر يهود قريظة بالكارثة، فأرادوا التكفير عن خيانتهم للدولة الإسلامية، ولكن بخيانة أخرى.

يهود قريظة يعرضون خيانة الأحزاب

أرسل الخائن كعب بن أسد زعيم يهود قريظة رسالة اعتذار للنبي ﷺ حين شعر بفشل الحصار، يقول فيها: (إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجلًا رهنًا من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم)[١].

قالوا ذلك وكأن النبي ﷺ متعطّش للدماء.. أيّ دماء، وكأنه يستبيح أي شيء من أجل الوصول إلى هدفه..كانوا يريدون إشراك النبي ﷺ والمؤمنين في خستهم تلك، هم.. هم لا يتغيرون يسخرون الأمم لتتقاتل نيابة عنهم، فهل هذه الأخلاقيات يمكن أن تكون لقوم يدينون بدين سماوي، ويزعمون أن لديهم كتاباً منزلاً من عند الله بذلك؟

أدرك ﷺ أن هؤلاء القوم لن يتورعوا انتهاك أي مقدس، وسفك أي دم، وأنهم يفعلون ذلك عن وعي وحقد، من أجل أحقادهم، لذلك قرر أن يسقيهم من الكأس الذي سقوه منه.. قرر ﷺ إطلاع قريش وغطفان على غدر قريظة بهم، وذلك عن طريق داهية غطفاني يثير عندما يتكلم ويؤثر يدعى نعيم بن مسعود. تقول عائشة رضي الله عنها: (كان نعيم رجلاً نموماً، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن اليهود قد بعثت إليَّ: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجالًا رهنًا من قريش وغطفان، من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم؟ فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتاهم، فأخبرهم بذلك) انطلق نعيم فلما ولى نعيم، قال رسول الله ﷺ: (إنما الحرب خدعة)[٢]، وقريش تعلم أن النبي ﷺ لا يكذب.

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي ٣-٤٤٧: حدثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد مولى آل الزبير تابعي ثقة. التقريب ٦٠١، وشيخه، إمام ثقة.

(٢) سند صحيح، وهو الحديث السابق.

نحر نعيم بن مسعود قادة الأحزاب، حين أخبرهم أن قريظة ستدعوهم لاجتماع ثم تغدر بهم وتسلمهم لمحمد ﷺ ليحز رؤوسهم.. أدركوا أن الثقة باليهود انتحار. ثم لفهم سكون وبرد كالموت.. لابأس بإشعال الحطب والتحلق حوله لطرد البرد والسأمة بالثرثرة، وفجأة توقفت الثرثرة، وفز الآلاف واتسعت أعينهم، وارتجفت قلوبهم وامتدت أيديهم وأصابعهم.. تشير لشيء مقبل من بعيد.. دب في المعسكر الوثني الهائل نشاط كالجنون.. علا صياحهم وهم يرون شبحًا هائلًا يزحف نحوهم. تراكض الشجعان والجبناء في كل اتجاه، فالشبح يطيح بكل من أمامه، ويسحق كل ما أمامه.. يحوله إلى نفايات، وكأنه يقلب الأرض.. غبار وأوراق وسعف وجرائد وقش وثياب.. فوضى تملأ السماء والأرض.. تسد الأفق، وتغطي الشمس وتقترب كالموت. اسودت الدنيا، وتحول النهار إلى ليل، فجفلت الخيل وندت الإبل، والريح السوداء تطوح بالقدور.. بالفرش.. تنثر الجمر والرماد والدقيق والطعام في كل اتجاه، وتقتلع الخيام فإذا الوثنيون في عراء. لا أحد يرى، فالريح تملأ الأعين والأفواه بالتراب.. لا أحد يسمع، فالريح تزمجر.. تصم الآذان. لا أحد يتكلم، فالريح تلقي كلمتها، وقريظة ترى الجبل الأسود يمر وهي في حصونها فترتعد، والمنافقون في بيوتهم ينسون خمرهم وطعامهم وهم يرون المدينة بلا نهار.. بلا شمس. لأول مرة يرون هذه الأجواء المرعبة، أما المؤمنون فحول نبيهم يرتجفون بردًا وجوعًا، ويتوجسون من هذا الجدار الأسود الذي حال بينهم وبين الأحزاب، أما النبي ﷺ فقد كان قبل قليل ببطن الشعب قرب خرابة قديمة يصلي يناشد الجبار: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[1] يدعو والريح تزمجر، يدعو والريح تدمر.

تبددت أحلام الأحزاب، وتفرقت جيوشهم، وبدأت بوادر استجابة الله لدعاء سعد بن معاذ الذي حاول ﷺ علاجه (فحسمه رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده،

---

(١) البخاري ٤- ٤٤.

فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فنزفه، فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[١]. اشتد البرد شدة لا تطاق، حتى أذن ﷺ للكثيرين بالرجوع لبيوتهم، فلا قريش قادرة على الهجوم، ولا الصحابة قادرون على التحمل، ثم خف البرد قليلًا فاستدعاهم ﷺ، لكن الكثير منهم عجز عن العودة، فتساءل القائد عما فعلت الريح.

الريح في معسكر الوثنيين

هتف ﷺ بالقلة المحيطين به، ونادى بالتطوع لاكتشاف ما حل بالمشركين، لكنه لم يجد مجيبًا. ثم هتف فلم يجبه أحد، وكرر ثالثة، فكانت الريح والبرد هي الإجابة، ولما رأى ﷺ أن التطوع في هذه الساعة صعب.. أصدر أمره لأحد الصحابة، فامتثل على الفور لما أمره به. هتف ﷺ فقال: (قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم) يقول حذيفة: (فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب، فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم عليَّ[٢]، فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام[٣]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصْلِي[٤] ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم عليَّ[٥]، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت[٦]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٣٥٠ من طرق عن الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر. وعنعنة أبي الزبير لا تضر الزبير، لأن الراوي عنه هو الليث بن سعد، وقد أعلم له أبو الزبير ما سمعه من جابر فرواه عنه. التهذيب ٩-٤٤٢ وحجين ثقة. التقريب.

(٢) لا تثيرهم ولا تحركهم، ولا تثر انتباههم.

(٣) أي كأنه يسير في حمام دافئ معجزة من عند الله رغم شدة البرد.

(٤) أي يدفئ.

(٥) لا تثيرهم ولا تحركهم.

(٦) أي بردت.

يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: قم يا نومان[١][٢].

فقد أصبحت المدينة وأصبح الملك لله، وأصبح النصر لله ورسوله وللمؤمنين، وخلت الساحة من الأوثان والوثنيين، الذين ولوا مدبرين.. تكنس الريح آثارهم ونفاياتهم.

نظر ﷺ إلى ساحة القتال، فحمد الله هو وأصحابه، وذكرهم بنعمة الله عليهم، ومعجزته التي لوت أعناق المشركين وأذلتهم، فقال ﷺ: (لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده)[٣] وها هو ﷺ يبشر أصحابه بعد انتهاء المعركة بنهاية عصر وبداية آخر.. يبشرهم ﷺ بانهيار هيبة وثنية قريش، وانكسار حربتها.. يبشرهم بأن:

الخندق مقبرة الوثنية

خاطب ﷺ جنده حين أجلى الأحزاب عنه، فقال: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)[٤].

كان ﷺ في الفترة السابقة حريصًا على وحدة المدينة، وتماسكها، وتجذير الإيمان والتوحيد والحب فيها، والتأسيس أهم متطلبات الدولة، فالتهور لاطائل من ورائه، والمغامرات الطائشة ليست من أعمال من يريدون بناء أمة عظيمة، أما قريش فكانت حريصة على تقويض ذلك كله.

تفتت الأحزاب وانكسرت شوكتهم، وعادت فلولهم الخائبة إلى ديارها، وعاد ﷺ وأصحابه إلى بيوتهم، ليغتسلوا من عناء أيام قاسية، ومن غبار ريح

---

(١) يا كثير النوم.. يمازحه ﷺ.

(٢) صحيح، رواه مسلم (الجهاد - غزوة الخندق).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١١٤) ومسلم (الذكر - الدعاء).

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١١٠).

عاتيــة، لكــن الوحي نــزل يأمــره ﷺ بالتوجه لقريظــة، التــي كادت خيانتها تودي بالدولة الإســلامية. تقول عائشــة: (لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتســل، أتاه جبريل «وهو ينفض رأســه من الغبار»، فقال: قد وضــعت الســلاح! والله مــا وضــعناه، فاخــرج إليهم. قــال: إلى أين؟ قــال: ها هنا. وأشــار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم)[1].

حصار قريظة

وصل القائد إلى قريظة، فعرض ﷺ عليهم أمرين بدلا من اقتحام حصونهم: الأمر الأول: أن يسلموا، فإن أبوا ذلك فعليهم بالأمر الثاني: وهو النزول تحت حكمه ﷺ، وأن يرضوا بعقوبة الخيانة التي سينزلها بهم، وهو لم يحددها ﷺ حتى الآن، وهي عقوبة يتوقع اليهود أن تكون شديدة تناسب حجم غدرهم.

قريظة تطلب خيارًا ثالثًا

رفض يهود قريضة كلا الشرطين، وهم في حالة لا تسمح لهم بالرفض.. رفضوا لأنهم يعاندون.. يرفضون الإسلام برغم اقتناعهم بأن محمدًا ﷺ نبي مرسل، ورفضون الحرب لأنهم لا يطيقون الحرب، أما أشد ما يرفضونه فهو أن ينزلوا على حكمه ﷺ، لأنهم يخشون أن يحيلهم إلى كتابهم المقدس كما أحالهم ذات يوم للتوراة حين أحضروا زانيين، لكن ما الذي يخيفهم من إحالتهم إلى كتابهم المقدس (التوراة)؟ الجواب: هو أن التوراة تحكم على الأعداء بأحكام شنيعة دون استثناء للأطفال والنساء والشيوخ.. التوراة تقول في الإصحاح الخامس من مراثي إرميا:

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١١٧).

(اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفِقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا. ٦اقتلوا اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ... نَجِّسُوا الْبَيْتَ، وَامْلأُوا الدُّورَ قَتْلَى).

كان النبي ﷺ متسامحًا، فرضي بما يريدون، فطلبوا أن يجعل حكمهم بيد حليفهم السابق.. الصحابي الجريح وسيد وأسد الأنصار (سعد بن معاذ) مهما كان هذا الحكم. لم يتردد ﷺ بقبول هذا الشرط، فأرسل في طلب سعد بن معاذ وإحضاره من خيمته داخل المسجد النبوي. انطلق المبعوث، ولما وصل المسجد تم حمل سعد وأركب على حمار، فأدرك أن دعوته قد استجيبت، عندما ناشد ربه والدماء تشخب من عروقه في ساعات الخوف والبرد والخندق، فقال: (اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة)[١]. وقبل أن يصل سعد.. كان هناك اضطراب وضجيج وحركة داخل الحصن.. كان هناك لغط بين اليهود، هل تشاجروا..؟ ربما.. لا أحد يعلم، وفجأة فتح باب الحصن، فخرج منه الكثير من الرجال والنساء نحو النبي ﷺ، فأعلنوا إسلامهم، واختلطوا بأخوتهم الجدد، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم برغم خيانتهم السابقة. و(لحقوا بالنبي ﷺ، فآمنهم وأسلموا)[٢]، وكان من بين هؤلاء ثلاثة شباب ليسوا من بني قريظة.. كانوا من قبيلة هدل اليهودية، لكنهم قبل خروجهم أدلوا بشهادتهم، وأحرجوا زعماء يهود، حين ذكروهم بكلام الحاخام ابن الهيبان، الذي بشرهم بقدوم نبي ليثرب، كل صفاته لم تتوافر إلا في محمد ﷺ، لذا صرخوا في وجوههم، وقالوا:

(يا معشر يهود، والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان. فقالوا: ما هو به. قالوا: بلى والله، إنه لصفته. ثم نزلوا فأسلموا، وأحرزوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم)[٣]،

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٣٥٠ وقد مر معنا تخريجه تحت عنوان خيانة ثالثة.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٤٠٢٨).

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي ٢-٨٠: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي مر معنا كثيرًا، وشيخه صحابي أدرك ذلك الحدث وأسلم، وقد يكون عطية القرظي رضي الله عنه.

وانتهى كل شيء بالنسبة لهم.. لم يعودوا أعداءً، ولم يجدوا من يعاتبهم أو يلومهم، أو حتى يذكرهم بمواقفهم اللئيمة.. انتهى كل شيء فالإسلام يمحو ما قبله.

أدرك هؤلاء الشباب أن دين الله أرحب من أن يحبس في حصن من حصون يهود، وأعظم من أن تحتكره قبيلة بني إسرائيل. خرج هؤلاء، فوجدوا أذرعًا مفتوحة وقلوبًا بيضاء فسيحة، ووجدوا رسول الله والإسلام، وأما من أغلقوا على أنفسهم أبواب الحصن والعناد والتعصب، فقد وصل إليهم سعد بن معاذ كما طلبوا قطع تلك المسافة لتقر عينه من بني قريظة الخونة، كما أقر عينه من قريش. وصل سعد الذي هدد أبا جهل وأمية وهو وحيد في مكة، ورفض دفع نصف إنتاج المدينة من التمر للأحزاب.. وصل سعد الذي لا تأخذه في الله لومة لائم.

وصول سعد إلى حصن بني قريظة

رضي القائد ﷺ بحكم سعد على حلفائه حتى لو عفا عنهم، حتى لو طلب منهم الرحيل، ولما تهادى على دابته بجوار الحصن تعالت الصيحات من فوق جدران الحصن لكن سعد بن معاذ لم يأبه سوى بخيانتهم التي كادت تطيح بدولته، لذا تجاهلهم وقال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: (لقد حكمت فيهم بحكم الله)[1]، ولا أحد يعلم إلا الله أي مذبحة كانت سيقيمها اليهود للنبي ﷺ وصحابته، لو انتصر اليهود مهندسو غزوة الأحزاب، فالمذابح عندهم ليست قرارات فردية، ونقض العهود ليست اجتهادات فردية.. المذابح ونقض العهود عقيدة.. دين، والقصة التالية من التوراة هي الدليل.

---

(١) حديث حسن، وله شواهد صحيحة، وهو حديث عائشة الذي حسنه ابن كثير من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عنها. وأبوه يحتاج إلى توثيق، والحديث حسن بما عند البخاري وأحمد وغيرهما.

قصة دينة بنت يعقوب

تقول القصة: إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم»، واشتروا أراضي لهم، فخرجت دينة ذات يوم تتمشى، فرآها ابن الملك «حمور» واسمه «شكيم» فاغتصبها، ثم طلب من أبيه أن يخطبها، فتكدر يعقوب عليه السلام لما حدث لابنته وسكت، حتى جاء أبناؤه، وقال لهم: إن الملك عرض عليه الإقامة الدائمة والمصاهرة بين العائلتين، فتظاهر الأبناء، وهم أعظم أنبياء اليهود، بالموافقة، لكن اشترطوا أن يختتن كل من أراد الزواج منهم، فاختتن الملك وابنه ورجال شعبه، وفي أثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك، برغم العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر، ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم ونساءهم وكل ما في بيوتهم[1].

هذه هي شريعة النضير وقريظة وقينقاع وشريعة نسلهم، ولو لم يتنبه ﷺ لهذه الشريعة التي يزعمون أنها من عند الله، لما قامت قائمة للدولة الإسلامية.

حزن المنافقون لمصير أصدقائهم اليهود، وشعروا باليتم بعد خلو المدينة من شراكتهم في المؤامرات، لكن ما زال للمتآمرين فلول يقبعون في أرض خيبر، وفي مقدمتهم الخائن سلام بن أبي الحقيق رفيق حيي بن أخطب في جمع الأحزاب، فهل سيدعهم ﷺ ليكملوا مسيرة التآمر؟ لم يغب ذلك عن تفكير القائد ﷺ، لذا أصدر أمرًا بالتخلص منه، فلن تستقر دولته ﷺ وسلام يؤلب العالم ضدها.

التخلص من سلام بن أبي الحقيق

كان أكثر المتحمسين لذلك فرسان الخزرج، الذين أرادوا منافسة إخوانهم الأوس في نصرة الله ورسوله، وفي مقدمتهم الشاب عبد الله بن عتيك، وقد تمكن عبد الله من التسلل لحصن خيبر، والقضاء على سلام داخل غرفة نومه.

---

(١) انظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين - ٣٤).

تغيرت موازين القوى بعد الخندق، وأصبح النبي ﷺ في موضع القوة، وتضعضعت الوثنية في النفوس، وبدأ الدهاة يتخلصون منها، فأسلم المغيرة بن شعبة داهية ثقيف، ولجأ عمرو بن العاص داهية قريش للحبشة وبايع جعفرًا بانتظار فتح مكة، وفي الحبشة توفي عبيد الله بن جحش الذي هاجر مؤمنًا، ولم يثبت أنه تنصر[1]، بل (هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ)[2] فبكته زوجته أم حبيبة، ووصلت وصيته للنبي، وبعد أن انقضت عدتها (زوجها النجاشي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف «ثم جهزها من عنده» وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة، «وجهازها كله من عند النجاشي»)[3]، فصارت هذه المهاجرة العظيمة أسعد امرأة في العالم، وهي تصبح من أمهات المؤمنين، أما والدها أبو سفيان فيبدو أن الخبر أفرحه، ولئن كان زواج النبي ﷺ من رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قد أبهج والدها، إلا أن النبي ﷺ قد عزم على ما يكدر صفوه، ويضيف إلى هزيمته عند الخندق هزيمة أخرى، ف:

النبي ﷺ يريد أداء العمرة

وهذا من حقه، ومن حق أي عربي، بل من حق أي إنسان أن يزور بيت الله ويطوف به، لذا انطلق بألف وخمسمئة من خيرة أهل الأرض، وتخلف المنافقون،

---

(١) روي أن عبيد الله مات نصرانيًّا على أرض الحبشة مرتدًا عن الإسلام، لكنني لم أجد حديثًا صحيحًا يثبت ذلك، إنما وجدت العكس، وهو الحديث التالي، والله أعلم.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن حبان (الزوائد - ٣١٢) أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا الليث عن ابن مسافر عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة. عروة وابن شهاب الزهري مرا معنا كثيرًا. أما ابن مسافر فاسمه: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر - أمير مصر - قال ابن يونس وتلميذه الذهلي: ثبت. وقال العجلي والدارقطني: ثقة. التهذيب ١٦٢/٦ والبقية أئمة ثقات.

(٣) سنده صحيح، رواه أبو داود (٢١٠٧) واللفظ له وأحمد ٦-٤٢٧ والزوائد له: حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمر، عن الزهري عن عروة عن أم حبيبة. عروة والزهري ثقتان مرا معنا كثيرًا، ومعمر ثقة ثبت فاضل. التقريب (٢٦٦/٢) ولخص الحافظ القول في ابن المبارك: ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير. التقريب (٤٤٥/١).

فلم يصحبه إلا واحد أو اثنان، وعندما اقتربوا من الحديبية بين مكة وجدة تصدت له قوات قريش، فاستشار أصحابه في شن حرب، فقال: («أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله عزّ وجلّ قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين»..؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال ﷺ: «امضوا على اسم الله»)[1] ولما وصل الحديبية توقف هناك، وقرر إرسال رجل لقريش ليخبرهم بسبب مجيئه، فأرسل عثمان بن عفان، الذي استقبله كبار عائلته، فأخبرهم أن النبي ﷺ جاء من أجل العمرة لا القتال، فاقترحوا أن يعتمر هو فقط، فرفض أن يعتمر قبل نبيه ﷺ، ثم حاولت قريش تأخير عودته، فانتشرت إشاعة أن قريشًا قتلت عثمان، فقرر القائد ﷺ خوض الحرب، وطلب من أصحابه أن يبايعوه، فقام لهم تحت شجرة سمر وبدأ يبايعهم، وهي البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، والتي قال الله عنها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

تسابق الصحابة وازدحموا يبايعون قائدهم ﷺ، منهم من بايع على الصبر، ومنهم من بايع على ألا يفر، ومنهم من بايع على الموت، لكنهم ما زالوا محرمين.. قد ساقوا هديهم، وفجأة حاصرت قريش المكان معها بعض حلفائها من الأحابيش، وبعض أهل الطائف بقيادة عروة بن مسعود.، وفي أثناء ذلك أقبل عثمان بن عفان فانزاح هم عن رسول الله ﷺ.

توافد كبار قريش نحو الحديبية، ثم بدأوا يرسـلون المندوبين واحدًا تلو الآخر، كان آخرهم عروة بن مسعود الذي عبر لقريش عن مشهد لم تعرفه الدنيا.. مشهد

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٤١٧٨).

رآه بين المسلمين، فقال: (يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمد في أصحابه)، ثم قال: إنه («إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها». ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا، فروا رأيكم)[1]، زلزلت الكلمات كبار قريش، وحرضت عبيدهم على الفرار، فهرب مجموعة منهم، فأرسلت قريش تقول: (يا محمد، والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هربًا من الرق. فقال ناس: صدقوا يا رسول الله، ردهم إليهم. فغضب رسول الله ﷺ وقال: ما أراكم تنتهون يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا. وأبى أن يردهم، وقال: هم عتقاء الله عزّ وجلّ)[2]، بعد عدة مندَوبين استقر أمر قريش على إرسال سهيل بن عمرو، ليوقع اتفاقية الصلح.

صلح الحديبية

وبعد أخذ ورد حول بعض الصيغ، تنازل النبي عن كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) وكلمة (محمد رسول الله)، وبعد نقاش كتبت الشروط التالية:

شروط صلح الحديبية

قال سهيل بن عمرو: (اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو، على:

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد ٤-٣٢٤ والبخاري (٢٧٣١)، والزوائد لفظ البخاري.

(٢) حديث صحيح، دون قوله: هم. رواه أبو داود (٢٧٠٠)، وله طريق أخرى عند أحمد ١-١٥٥ حيث توبع ابن إسحاق وشيخه، فالتقى الطريقان عند منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن علي رضي الله عنه: ومنصور ثقة لا يدلس، وشيخه مخضرم ثقة عابد.



- وضع الحرب عشر سنين.
- يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.
- على أنه من أتى رسول الله ﷺ «رجل» من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم.
- ومن أتى قريشًا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليهم.
- وأن بيننا عيبة مكفوفة[١].
- وأنه لا إسلال[٢].
- ولا إغلال[٣].
- وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب أنه: من أحب[٤] أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.
- ومن أحب[٥] أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.
- وأنك ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة.
- وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك.
- فتدخلها بأصحابك وأقمت فيهم ثلاثًا معك السلاح الراكب.
- لا تدخلها بغير السيوف في القرب)[٦].

---

(١) أي لا غش فيها.

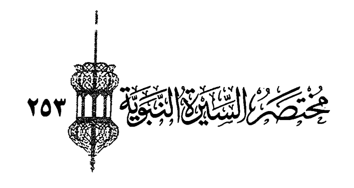
(٢) أي لا سرقة.

(٣) ولا خيانة.

(٤) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف محمدًا.

(٥) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف قريشًا.

(٦) حديث صحيح رواه أحمد ٤-٣٢٥ والزوائد للبخاري (٢٧٣٢).



- (وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه.
- وأن لا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها)[١].

ذهل الصحابة من تلك الشروط الجائرة (فقالوا: يا رسول الله: أنكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا)[٢]. وفجأة وقبل التوقيع يتأجج غضب الصحابة، وترتفع أصواتهم، وهم يرون شابًّا يقبل من بعيد.. يحجل حجلًا بين شجر السمر المتناثر هنا وهناك، يثب وثبًا من شدة قيوده، والغبار يثور مع كل وثبة من قدميه. يصرخ يستنجد، ثم يرمي بنفسه بين يدي أخوته. سمع سهيل الضجيج، فالتفت، فاتسعت عيناه حين رأى الشاب.. إنه ابنه (أبو جندل) وهذه القيود هو من أمر بها، فقال سهيل: (هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد! قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا. «فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فقام إليه فأخذ بتلبيبه[٣]، وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنونني في ديني. فزاد الناس شرًّا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه، وإنا لن نغدر بهم». قال النبي ﷺ : فأجزه لي[٤]. قال: ما أنا بمجيز ذلك لك. قال: بلى، فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزنا لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله)[٥].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٨٣).

(٣) أي بثوبه من جهة الصدر.

(٤) أي قال النبي ﷺ لسهيل: اتركه لي.

(٥) حديث البخاري الطويل السابق، والزوائد لأحمد.

كان رجال الدولة الإسـلامية وتلاميذ النبي ﷺ قمة ـ في الانضـباط.. ينتظرون كلمـة.. إشـارة مـن نبيهم، لكن شـيئًا من ذلك لم يحـدث. اختفت صـرخات أبي جندل وتوارى عن الأعين.. ابتلعه طوفان الظلم. لكن عمر لم يسـتطع الصبر، فقد كان المشـهد خنجرًا يسـافر في قلبه.. يفقده صـوابه وصـبره، (فوثب إليه عمر بن الخطاب مع أبي جندل، فجعل يمشـي إلى جنبه، وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، ويقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن[1] الرجل بأبيه، ونفذت القضية)[2].

كان عمـر يريـد من أبي جنـدل أن يجهـز على أبيه بالسـيف، ويحرر نفسـه بنفسـه، ويهرب دون مسـاعدة المسـلمين، لكي لا تتهم الدولة الإسلامية، ولا يلام قائدهـا ﷺ، ولا شـعبها، بنقض المعاهدة. لكن الفتى لم يفعل، فطار صـواب عمر وتوجه نحو نبيه ﷺ بعد أن رأى ما لا يستطع تحمله، فقال: (ألست نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسـنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «وألسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشـركين؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنيـة في ديننا إذن؟ «فعلام نعطي الذلة في ديننا؟». قال ﷺ: إني رسـول الله ولسـت أعصـيه، وهو ناصـري، «أنا عبد الله ورسـوله، ولن أخالف أمره، ولن يضـيعني». قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سـنأتي البيـت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العـام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «أو لسنا بالمسلمين، أو ليسوا بالمشركين»؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ فعلام نعطي الذلة في ديننا؟». قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه،

(١) أي بخل بأبيه على الموت.

(٢) حديث البخاري السابق.

فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به)[١]. فندم عمر على ما كان منه من احتجاج على ذلك الظلم الوثني.. ندم وتوجه بالتوبة إلى الله، وحاول تكفير ما كان منه بأعمال كثيرة، يقول عنها: (مازلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ، حتى رجوت أن يكون خيرًا)[٢].

ساد السكون أرض الحديبية وخيمت الأحزان والهموم على الجميع. أين تلك الأحلام بالطواف بالبيت الحرام، والصلاة فيه..؟ أين أحلام المهاجرين بمعانقة أجواء مكة الحبيبة..؟ تلاشت الأحلام وهم بين مكة وجدة.. كل شيء قد انتهى بالنسبة للنبي ﷺ، ولم يتبق سوى التحلل من الإحرام والانتهاء منه، ثم العودة إلى المدينة.

لكن الصحابة لم يمتثلوا لأوامره ﷺ

حاول ﷺ أن يزيل تلك الدهشة وذلك الذهول، حين (فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فوالله ما قام رجل)[٣]، فقال ثانية: قوموا فانحروا ثم احلقوا، فلم يقم منهم أحد مما بهم، ثم قال الثالثة: قوموا فانحروا ثم احلقوا. لكنه لم يلق إجابة (قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة)[٤] تهادى نحو خبائها، علَّه يجد حلًّا.

أم سلمة تشير على النبي ﷺ

(١) حديث صحيح، رواه البخاري، وهو الحديث الطويل السابق، والزوائد لأحمد.

(٢) حديث صحيح، وهو حديث أحمد الطويل السابق.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٤-٣٢٦).

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٤-٣٢٦).

دخل ﷺ على مستشارته وزوجته أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. («فقال: يا أم سلمة ما شأن الناس؟» فقالت أم سلمة: «يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت»، يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدنك[1]، وتدعو حالقك فيحلقك. «فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك». فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه[2]، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا) وبكلمة من هذه المستشارة استيقظ ألف وخمسمئة من خيار أهل الأرض فنحروا، (فجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا)[3]، كان منظر رؤوسهم مضحكًا، وكأنهم عادوا من غزوة. فقلما ترى رأسًا لاينزف مما بهم من الحزن، وبعد أيام غادروا نحو المدينة.

وصل أهل بيعة الرضوان المدينة، وأدركوا بعد أن هدأوا أي حكمة يتمتع بها نبيهم وقائدهم ﷺ، ويبدو أن الأحداث لم تتركهم للإشاعات، فقد غزا المدينة أثناء غيابهم مجموعة من الوثنيين من فزارة وغطفان، فسلبوا إبل الفقراء والمساكين المسماة (إبل الصدقة) وقتلوا الراعي، فتمت ملاحقتهم واسترداد ما سلبوه، وكان لسلمة بن الأكوع الدور البطولي في تلك المطاردة، يليه أبو قتادة، في معركة تسمى غزوة ذي قرد، نسبة للمكان الذي جرت فيه أحداثها، وبعد ثلاثة أيام من الراحة أمر القائد بالتحرك نحو فلول مهندسي الأحزاب، القابعين في حصن خيبر.

غزو خيبر

في ذلك الحصن زفت أميرة بني النضير (صفية) ابنة الخائن الأكبر حيي ابن أخطب إلى أحد أمراء يهود، يدعى (كنانة بن أبي الحقيق) كان العروسان

---

(١) البدن؛ هي: الإبل والبقر، التي ينحرها الحاج أو المعتمر لله.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٧٣٢)، وأحمد (٤-٣٢٦).

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٢٧٣٢)، والزوائد لأحمد (٤-٣٢٦).

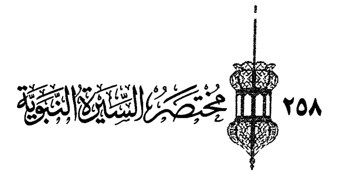
يشتركان في بغض النبي ﷺ بغضًا شديدًا، لكن حين خيم الظلام رأت صفية شيئًا غريبًا. رأت القمر يهبط من السماء على الحصن، ثم يستقر في حضنها.

استيقظت من هذه الرؤيا ورفعت رأسها عن حجر زوجها، وأخبرته برؤياها، ففسر (كنانة) الرؤيا بلكمة قوية وجهها إلى وجهها الجميل، حتى استدارت هالة حمراء حول إحدى عينيها، ثم أعقب اللكمة بكلمة أشد فقال: (تمني ملك يثرب)[1]، رغم أنها تقول: (ما كان أبغض إليَّ من رسول الله).

طلع الفجر ففوجىء العروسان بملك يثرب على مشارف الحصن.. أصيب اليهود بالهلع، وأغلقوا حصنهم، ونشروا رماتهم على السور، وإذ بهم يفاجأون بأبي بكر يتقدم لاقتحام الحصن المنيع، ولكن بعد أن دعاهم للإسلام فرفضوا ذلك.. حاول المسلمون الاقتحام فعجزوا، فالحصن منيع، وفي اليوم التالي أقبل ابن الخطاب لاقتحام الحصن، ولكن بخطة أخرى، أدرك المسلمون أن الاقتحام مستحيل، ولا بد من فتح الباب، فنادى عامر بن الأكوع يريد المبارزة فخرج الملك وتمت فيها مبارزة استشهد فيها عامر بسيفه هو.. إثر تعثره وسقوطه. عاد الملك وأغلق الباب، وتكررت المحاولة، على يد علي بن أبي طالب، الذي طلب المبارزة، وتمكن علي من القضاء على الملك وتم اقتحام الباب المفتوح بسرعة قبل إغلاقه. وفتحت خيبر، ولم يصح أن عليًّا اقتلع الباب فلم يستطع أربعون رجلًا إعادته، ولم يصح أنه أخذ إحدى درفتي الباب وجعلها ترسًا في أثناء القتال، فتلك الأخبار من الخرافات الطائفية.

تم اقتحام الحصن، فبدأ اليهود يتخلصون من أشيائهم ويلجأون لقصر داخل الحصن، وبعد حصار خانق بدأت مفاوضات الاستسلام، فتم التوقيع على

(١) سنده صحيح، رواه ابن حبان، واللفظ له ١١-٦٠٧ والطبراني والزيادة له ٢٤-٦٧ من طريق الإمام الثقة حماد ابن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. وعبيد الله ثقة ثبت، من أوثق الناس عن الإمام الثقة نافع. انظر: التقريب ٣٧٣ ورواه غيرهم.



وثيقة استسلام بشروط هي:

- جلاء اليهود من خيبر بما حملت ركابهم.
- يترك اليهود الذهب والفضة.
- لا يكتم اليهود شيئًا من الذهب والفضة لا يغيبوا.
- إن كتموا أو غيبوا فلا ذمة لهم ولا عصمة.

فوجىء اليهود بالقائد ﷺ يسأل عم حيي بن أخطب عن كنز من الذهب والفضة حمله حيي داخل جلد ضخم، فنقضوا المعاهدة مباشرة بإنكارهم، وقالوا: أذهبته النفقات والحروب. ثم اعترفوا بالقوة ودلوا على مكان الكنز، وأصبحوا مهدوري الدم بتوقيعهم هم. تم قتل زوج صفية وشقيقه، وتم سبيهم لأنهم خانوا الوثيقة، وأما يهود خيبر فحكم عليهم بالجلاء، لكنهم ناشدوا النبي ﷺ أن يبقيهم على الأرض لزراعتها مقابل نصف الإنتاج فوافق.

هدأت الأمور واختلط الناس وتبايعوا، فجاء أحد الصحابة وأخبر أن أميرة النضير ضمن السبايا، وأنها لا ينبغي أن تكون إلا للنبي، فخطبها ﷺ بعد انقضاء عدتها، ولكن قبل ذلك أراد ﷺ غسل قلبها من هذا الغل الذي ورثته، فظل يعتذر إليها، ويعدد خيانات والدها وزوجها السابق حتى اقتنعت وأسلمت، فأصبح النبي ﷺ أحب أهل الأرض إليها، فلم يرغمها على البقاء معه. خيرها بين اللحاق بأهلها أو الزواج به، فاختارته وعادت معه أمًّا للمؤمنين. ولما وصل كانت المدينة تعد له خبرًا سارًا.

المدينة تعد مفاجأة للنبي ﷺ

في المدينة فتح النبي ﷺ عينيه على فرحة كفرحة خيبر، فالذي يقف أمامه الآن حبيب طالما انتظر قدومه.. إنه ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ومعه من تبقى من مهاجري الحبشة.. كانت مفاجأة سارة جدًّا للنبي ﷺ.. عبر عنها بكلمات من مشاعر، فقال: (ما أدري بأيهما أنا أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر)(١). احتضن أحبابه الذين لم يرهم منذ أكثر من عشر سنوات، صبغ الشيب بعض الأصداغ، وأصبح للبعض أولادًا، وكثر عددهم. وفي أحد المجالس معهم قال لهم:

(ألا تحدثوني بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟) فروى فتية منهم حادثة جرت أمام أعينهم هناك، حين تهادت عجوز حبشية نحو نهر أو نبع ماء.. تحمل جرتها الفارغة لتستقي، ولما وصلت غمستها في الماء حتى ملأتها، ثم رفعتها ببطء فوق رأسها، وعادت تتهزع نحو المكان الذي جاءت منه.. كان جسدها يهتز والجرة تهتز، فتتقافز قطرات الماء على شعرها المجعد، وتنساب على عاتقيها. مرت العجوز بمجلس لشباب المهاجرين، وعلى مقربة منهم تجمع لبعض شباب الحبشة المنحرفين. أخذوا ينظرون إليها، وينظر بعضهم إلى بعض، ولما تجاوزتهم أغراهم ضعفها واهتزازها، فتسلل أحدهم خلفها بخبث، ولما أصبح وراءها تمامًا مد يده بين كتفيها الضعيفتين، ثم دفعها بقوة فخرت على ركبتيها ووجهها، وهوت الجرة من يديها الضعيفتين، وارتطمت بالأرض وطش الماء وساح على الطريق.

لملمت العجوز بقايا عزمها، ورفعت رأسها وتأملت شيخوختها الملقاة على الأرض، وكرامتها وماءها المسكوبين.. تأملت كسر جرتها المتطايرة حولها.. تأملت

---

(١) حديث حسن، رواه الحاكم ٢-٦٨١ و٣-٢٣٣ من طريق أجلح عن الشعبي عن جابر، وقد جاء من مرسل الشعبي عند غيره بسند صحيح إلى الشعبي، وله شواهد لا تخلو من ضعف، وعند الطبراني بسند لا بأس به ٢٢-١٠٠ عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه، وروي بسند ضعيف عن عائشة في الإخوان ١٧٩، وقد فصلت تخريجه في صحيح الموسوعة.



قلة حيلتها، فلم تجد سوى الجبار سبحانه. نظرت للشاب المزهو بقوته.. المنتش بضحكات رفاقه.. حدقت به فقالت والغصة تخنقها: (ستعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بماكانوا يكسبون، فسوف تعلم أمري وأمرك عنده غدًا) قلصت شفاه الشباب، وأنصت الطريق ليوم عدالة قادم ومخيف، ورق القائد النبي العادل ﷺ لحال تلك العجوز، ولضعفاء الشعوب، ثم قال لأمته: (صدقَتْ ثم صدقَتْ، كيف يقدس الله قومًا لايؤخذ لضعيفهم من شديدهم)[١].

كان ﷺ إلى جانب الضعيف حتى يأخذ حقه.. حتى لو كان الضعيف وثنياً، وحتى لو كان عدوه أو خصمه. كان يأمر بالوقوف مع الحق.. لم يكن يخدرهم بالوعود والكلمات، بل يقنعهم بالأعمال والإنجازات، فقد جاءه أعرابي وثنيًّا يطالبه بدين له، فتلفظ الأعرابي على قائد الدولة ﷺ بألفاظ قبيحة أغضبت أصحابه، حتى قال: (أحرج عليك إلا قضيتني. فانتهروه، وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟) فقال الوثني وكله ثقة بعدالة الدولة الإسلامية: (إني أطلب حقي) عندها التفت القائد ﷺ لشعبه، وطالبهم بالتزام سنته، قائلًا: (هلا مع صاحب الحق كنتم)، ثم اقترض من إحدى المواطنات مالًا، فسدد له، بل وأطعمه. فقال الوثني: (أوفيت أوفى الله لك. فقال ﷺ: أولئك خيار الناس)، ثم بين سنته للحكام والدول، وكأنه يقدم لها نصيحة تضمن لها القوة والاستقرار، فقال ﷺ: (إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع)، أي يأخذ بيسر دون منة أو أذى أو خوف.

بعد صلح الحديبية وفتح خيبر، تمكن أبو جندل من الفرار من معتقله في مكة، وهرب نحو المنطقة الساحلية الواقعة بين مكة والمدينة، ثم هرب شاب آخر لا يقل شجاعة وإقدامًا، يقال له أبو بصير، لكن أبا بصير ركب راحلته وقصد الدولة الإسلامية، ليجد:

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٥٥١.

الدولة الإسلامية دولة عقود

وصل أبو بصير للمدينة، فأرسلت قريش رجلين لإعادته، ولما وصل الرجلان للدولة الإسلامية قابلا قائدها ﷺ، وطالباه بتنفيذ معاهدة الحديبية، وقالا: (العهد الذي جعلت لنا؟) لم يتنصل ﷺ من المعاهدة، بل قام بتسليم صاحبه المسلم، لأنه ينتمي إلى جهة غير مسلمة، لأنه وقع اتفاقاً بذلك.

أدرك الوثنيان والصحابي أن دولة الإسلام دولة عهود لا تنقض اتفاقياتها، لذا ساروا بأريحية، ثم توقفوا ليستريحوا ويتناولوا طعامهم. هنا قال أبو بصير لأحد الرجلين: (والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد[1]، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرًا. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر)[2].

اجتمع أبو بصير بأبي جندل وانضم لهما العشرات ممن استطاعوا الفرار من مكة، فشكلوا قوة مرعبة لقوافل قريش حتى توقفت تجارة الصيف، مما جعل قريش تتخلى عن شرطها، وتسمح لمن أراد التوجه للمدينة بالذهاب، فأسلم بعد ذلك القائدان: عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، ليشكلا قوة ضاربة.

مر عام على الحديبية، فحان موعد العمرة البديلة لعمرة الحديبية، وهي ما يسمى بـ:

---

(١) أي ضعف وفتر، والمقصود أنه مات.

(٢) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.



عمرة القضاء

أي العمرة البديلة لعمرة الحديبية حسب اتفاق الطرفين، ولها استعد المسلمون وسط ظروف معنوية مرتفعة بفتح خيبر، وعودة المهاجرين من الحبشة، أما المشركون فيعانون من الإحباط الشديد، فمحمد يضم خيبر، ودولته تتعاظم كل يوم، وسمعته سحابة عطر تطوف الجزيرة، وأبو جندل ومن معه يقضون مضاجع قريش وقوافلها، وقوائم ضحاياهم تصل إلى قريش محملة بالنواح والعويل، والندم على ذلك الشرط المكتوب بالغطرسة الوثنية، وتسير قافلة المؤمنين ملتزمة بشروط قريش، التي تقول: «لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها»[1].

تسير قافلة المؤمنين ملتزمة بالسكينة والهدوء.. حسب الشروط والاتفاقية الموقعة بين الطرفين، وتقترب من مكة الحبيبة، فتشرع نوافذ الأرواح وأبوابها للذكريات، وأيام الطفولة والمعاناة. أدى النبي ﷺ وصحابته عمرتهم، وبعد أن انتهى تزوج من ميمونة أخت زوجة عمه العباس، وهنا يرد سؤال مهم:

ما سر تعدد زوجاته ﷺ؟!

إن أهم صفاته ﷺ على الإطلاق هو أنه نبي مرسل من عند الله، والنبي لابد أن يوافق ظاهره باطنه، ولا يمكن معرفة من يدعي النبوة إلا بالإحاطة به من كل الجوانب، وسؤال الملتصقين به.

لقد حصل ﷺ على لقب الأمين قبل النبوة، ولم تسجل عليه قريش كذبة أو غدر أو خيانة طوال مدة بقائه مضطهدًا بينهم، وظل وفيًّا للأنصار كما تعهد لهم بعد أن أصبح قائد دولة. بقي شيء واحد ومهم جدًّا يكمل صورته الناصعة:

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٥٥١.

سيرته في بيته، فالقادة والزعماء ينكشفون في خلواتهم ومجالسهم الخاصة، فما الذي انكشف من محمد ﷺ وهو بين زوجاته؟ هل خالف ظاهره باطنه، لا سيما وقد تزوج اثنتين من ألد أعدائه: جويرية بنت الحارث، التي سباها مع قومها، وصفية اليهودية التي رضعت بغضه من والديها، وعائشة الغيور وأم سلمة الأشد غيرة، لأنه عند أي خطأ من الزوج المعدد تظهر معايبه.

أما رسول الله ﷺ فكانت سريرته بمثل نقاء علانيته.. لم يكن أمام شعبه يتظاهر بالزهد، وفي بيته شره أكول. يمر الشهران على قائد الدولة دون أن يطبخ في بيته قدر، لم يبن قصرًا بل ظل في تلك الغرف حتى بعد فتح قريظة والنضير وخيبر، بل كان بيته وهو مضطهد في مكة أكبر من بيته بعد أن أصبح قائد دولة. تأثرت زوجاته به، فأصبحن ينافسنه في الصدقة والبذل والعبادة، وهمن به وهن يرينه لا يكلفهن أمرًا من أموره الشخصية، فقد كان بنفسه يرقع دلوه، ويخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويكون في خدمة زوجاته، ولذا فلا يلمن حين همن به، وفضلنه على كل شيء، عاد ﷺ من العمرة وتواصلت الانتصارات، وفي غمرة الانتصارات والأفراح يصل النبي ﷺ خبر حزين:

موت النجاشي رضي الله عنه

خبر تكدرت له الحبشة، وتكدر له جعفر وأصحاب السفينة والنبي ﷺ والمؤمنون جميعًا.. خبر يجعل اليوم ثقيلًا تحسب ساعاته بالدموع. لم يأت الخبر فوق سفينة أو بعير.. جاء الخبر من السماء، فتكدر له أهل الأرض، وفاضت العيون على ذلك الملك الإنسان.. العادل الصالح، الذي كان خير معين عندما عز المعين، وكان خير مجير عندما ضاقت الديار والأهل بمن يقول: لا إله إلا الله.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «نعى لنا رسول الله ﷺ صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال: استغفروا لأخيكم»[١]، وقال: «مات اليوم رجل صالح»[٢]، «مات اليوم عبد لله صالح»[٣]. ثم قال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أصحمة النجاشي»[٤]. ثم تولى الحكم في الحبشة ملك آخر، فأرسل له النبي ﷺ ولغيره رسائل.

مراسلة الملوك والجبابرة

ومن المؤكد أن ردود الفعل تجاه تلك الرسائل ستكون متباينة، كما أنه من غير المستساغ لدى هؤلاء الجبابرة أن يروا عربيًّا.. كان يرعى الغنم في الصحاري وبين الجبال يقتحم عليهم ما هم فيه من أبهة وعظمة.. مطالبًا إياهم باتباعه وترك ما ألفوه وورثوه هم وشعوبهم.. الأمر صعب ويحتاج إلى نفوس تتفوق على نفسها. يقول «أنس: (إن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي، فقيل: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا بخاتم. فصاغ رسول الله ﷺ خاتمًا حلقة فضة، ونقش فيها محمد رسول الله)[٥] (كأني أنظر إلى بياضه في يده)[٦]، (وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر:

محمد سطر

ورسول سطر

والله سطر)[٧].

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٤) سنده على شرط الشيخين، رواه أحمد ٤-٧ من طرق عن قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ. أبو الطفيل وحذيفة صحابيان.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٦) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٧) صحيح البخاري ج:٣ ص: ١١٣١.

كان رد كسرى رد ملك معتوه، لا يتمتع بلياقة أدبية، ولا حتى دبلوماسية تؤهله لقيادة أمة عظيمة كأمة فارس. لم يُجد خطاب النبي ﷺ في تذكيره ببشريته، وقدرة الله عليه، بل استشاط غضبًا وغرورًا.. كيف يبعث عربي إليه رسالة يقدم فيها مطالب، بدلًا من أن يبعث له بفروض الطاعة والولاء مقرونة بالهدايا والضرائب؟! هذا ما لا يحتمله رجل وثني يعبد حطبًا محترقًا.

يقول أحد الصحابة: (إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله ابن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه)(١) و(خرقه)(٢) غير آبه به ولا بمن كتبه، أما النبي ﷺ فواصل كتابة الرسائل.. مبشرًا الدنيا بعودة التوحيد النقي إلى الأرض من جديد، فكتب رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وهو أمير القبط، أو الأقباط، وهم سكان مصر، وقد تحول بعضهم من الوثنية إلى المسيحية، وكان ملكهم أكثر تهذيبًا وأكرم خلقًا من ذلك المجوسي الأرعن، فقد أهدى المقوقس (أمير القبط أهدى إلى رسول الله ﷺ جاريتين وبغلة)(٣)، فحملت إحدى الفتاتين وتدعى مارية، فكانت أول امرأة تحمل منه ﷺ بعد زوجته خديجة رضي الله عنها.

أما أكثر الرسائل إثارة فكانت تلك التي حملها الصحابي دحية الكلبي إلى ملك الروم، حيث تصادف وجود أبي سفيان مع وصول الرسالة النبوية الكريمة، حيث استدعاه هرقل لطرح بعض الأسئلة عليه حول شخصية النبي ﷺ، بصفته رجلًا من قومه ومن أقاربه وأعرف الناس به، وبعد أن أنصت هرقل لإجابات أبي سفيان قال للمترجم: قل لأبي سفيان: (إني سألتك عن حسبه فيكم؟ فزعمت أنه

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

(٣) حديث حسن، رواه الحارث / زوائد١-٥١١ حدثنا خالد بن خداش نا حاتم بن إسماعيل عن بشير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، ورواه في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧ والطبراني في الأوسط ٤-٣٧ من طريقين عن حاتم. وهو سند قوي لولا لين بشير، وهو صدوق من رجال مسلم، وله شاهد ضعيف من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن رجل مجهول في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧.

فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم[١] بقول قيل قبله. ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف. قال هرقل: إن يك ما تقول فيه حقًّا، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. قال أبوسفيان: (فلما فرغ من قراءة

---

(١) يعني قلّد قول أناس قبله.

الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا. فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر)(١). (والله ما زلت ذليلًا مستيقنًا بأن أمره سيظهر)(٢).

لم يكن في رسائل النبي التهديد بقوة عسكرية، أو زحف أحمر لا يرحم.. كانت الرسائل موجهة نحو الضمير والعقل.. كانت رسائل تهز من الداخل، وتغزو من العمق، فليس هناك من يستطيع اليوم تهديد هرقل أو كسرى، لكنها رسالة الإسلام التي لا تعرف حدودًا، وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم فسوف يستقيل له غدًا، لذا وبعد أن وصلت تلك الردود إلى مسامعه ﷺ قال لأصحابه وحيًا صادقًا، وبشرى لن تتخلف.. قال ﷺ: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)(٣). أما النجاشي فلا أدري ما رده على الرسالة التي وصلته.

لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى هرقل أخافت الروم فأعدوا جيشًا لمهاجمة الدولة الإسلامية، مما جعل النبي ﷺ يعد جيشًا لصد الروم في مكان يقال له مؤتة.

غزوة مؤتة

عيَّن النبي ﷺ على الجيش زيد بن حارثة أميرًا، مما أثار حفيظة بعض الصحابة رضي الله عنهم وتساؤلاتهم: كيف يعين الرقيق السابق أميرًا!!

لكن النبي ﷺ الذي قدم لأمته درسًا في هدم الجاهلية بتزويج زيد من زينب السليلة.. يقدم درسًا آخر.. فيقول: (وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ)(٤)، بل (ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

(٣) صحيح البخاري ٣-١١٣٥.

(٤) صحيح البخاري ٦-٢٤٤٤.



عليهم)[١]، فرغ ﷺ من إعداد الجيش، ثم خرج لتوديعهم مبكرًا وهي سنته ﷺ، وجعل زيد بن حارثة أميرًا عليهم، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: (إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة)[٢].

ما القرار في مثل حال مؤتة

جيش رومي أوله في مؤتة وآخره في أوروبا.. أمام جيش مسلم لا يتجاوز عدده الألفين، وهو العدد الذي حضر الحديبية وخيبر، بالإضافة إلى القادمين من الحبشة والمؤمنين الجدد، مع ملاحظة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا وكثيرًا من كبار الصحابة رضي الله عنهم لم يشاركوا.

نصارى العرب يقاتلون مع الروم

ظروف قاسية للغاية، فالحرب الآن ضد النصارى العرب والروم، ويبدو أن المعارك تقفز نوعيًّا إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى، التي غالبًا ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين.

تواجه الجيشان، فإذا الموت ولا شيء غيره أمام المسلمين.. قاتل زيد حتى خر شهيدًا، فقفز جعفر من على ظهر فرسه بعد سقوط زيد وقام بعقرها، فلن يحتاجها بعد اليوم، وليس أمامه خيار سوى مواجهة جحافل الروم والنصارى العرب والموت، وهو لا يهاب هذه المصطلحات، وليس في ذاكرته حروف للهرب.. عقر فرسه الشقراء، وامتطى صهوة الشعر والحماس.. كان موتًا يصرخ بالموت.. وشعرا يملأ

---

(١) سنده قوي، رواه ابن أبي شيبة ٦-٣٩٢ وأحمد ٦-٢٨١ عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل ابن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة. ووائل التيمي وشيخه البهي تابعي ثقة، انظر: التهذيب. والبهي عن عائشة على شرط مسلم.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٤.

الأجواء لهيبًا، ويقول:

يـا حـبـذا الجـنـة واقـترابـهـا ... طـيـبـة وبــــاردًا شــرابـهـا
والـــــروم قــد دنـــا عـذابـهـا ... كــافــرة بـعـيـدة أنـســابـهـا
عليَّ إذا لاقـيـتـهـا ضـرابـهـا

ثم استقبل الروم حاملًا راية رسول الله ﷺ بيده اليمنى.. متلقيًا الطعنات والضربات بالرماح والسيوف، حتى قطعت يده اليمنى، وانفجر شلال الدم.. يروي عطش مؤتة، فأخذ الراية بيده اليسرى، فهجم عليه أحدهم يريد إسقاط تلك الراية، فتمكن من قطع يد جعفر اليسرى، فواصلَ احتفاءه بالطعنات وسط التكبير والدماء، حتى خر شهيدًا مميزًا ومدهشًا ومذهلًا.. خر جعفر ولم تخر راية رسول الله ﷺ، فقد أخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة، الذي شاهد تلك المناظر المروعة لأصحابه، وتلك الجموع التي لا يمكن مجابهتها إلا بالموت. أحس عبدالله بن رواحة بشيء من التردد، لكن الشعر قام بتذكيره، فالشعر في الإسلام يعيد ضخ الحياة والنشاط. صرخ شعرًا يقول:

أقـسـمـت يـا نـفـس لـتـنـزلـنـه ... لتنزلـــن أو لــتــكــرهـــنـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مـا لي أراك تـكـرهـين الجـنـة
قـد طـال مـا قـد كنت مطمئنة ... هـل أنـت إلا نـطـفـة في شـنـه

وقال أيضًا:

يـا نـفـس إلا تـقـتـلـي تموتـي ... هـذا حـمـام المـوت قـد صـلـيـت
ومـا تمـنـيـت فـقـد أعـطـيـت ... إن تـفـعـلـي فـعـلـهـمـا هـديـت

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا) (١)

---

(١) سنده صحيح، وهو سند الحديث السابق، انظر ابن هشام ٥-٢٨، وتاريخ الطبري ٢-١٥١.

أخذ ابن رواحة الراية والإمارة ووضع قدميه على أبواب الجنة، حتى استشهد مع صاحبيه وفعل فعلهما.

اختفى الأمراء الثلاثة، لكن راية الإسلام ما زالت ترفرف، فقد اختطفتها يد أحد الصحابة، الذين يحبون الموت في سبيل الله لكنه لا يحب الإمارة «أخذ الراية ثابت بن أقرم، أخو بني العجلان، فقال: (يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد)، (فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس)[١]، ووقى الله بحسن تصرف خالد جيش الإسلام من انتكاسة، لأن استمرار الحرب معناها الإبادة لا محالة، فقوة الروم ونصارى العرب لا يمكن هزيمتها بمثل هذا الجيش الصغير، الذي يشرب أفراده الموت كما يشربون الماء. لم ينتصروا على جيش الروم، لكنهم أيضًا لم يهزموا.

في تلك الأثناء وفي المدينة (نعى ﷺ زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)[٢]. وهذا الفتح يعني ضمن ما يعني قرارًا سليمًا، أو نصرًا على تلك الأرض المميتة. انتشر الخبر فانتشر الحزن والبكاء واليتم. أما النبي ﷺ (فأمهل آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم)[٣] أي ترك زيارتهم ثلاثة أيام، لكنه حرض مشاعر المدينة على العناية والطواف بآلامهم، فقال لمن حوله: (اصنعوا

---

(١) سنده صحيح، وهو سند الحديث السابق. ابن هشام ٥-٢٨، ومعنى خاشى أي تاركهم.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٣٧٢.

(٣) سنده صحيح، رواه أحمد١-٢٠٤ ومن طريقه الطبراني ٢-١٠٥ حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر. محمد والحسن الهاشمي ثقتان - التقريب ٤٩٠ و١٦١ ووهب ووالده ثقتان ورواية والده عن قتادة ضعيفة وهذه ليست منها التقريب ١٣٨ و٥٨٥.

لآل جعفر طعامًا، فقد جاءهم ما يشغلهم)[1]. لم يهنأ ﷺ بصحبة جعفر، ولم تصف الحياة له.. رحل أحبته زيد وجعفر وابن رواحة وغيرهم من الأحبة.. عاش وأصحابه حياة كفاح، وهاهم يدخلون مرحلة كفاح آخر. المعتدون هم هم أعداء الإسلام، وإن تغيرت صورتهم. بالأمس كانت القبيلة هي العدو. واليوم الإمبراطورية هي العدو، وهاهي أطراف فارس تتحرك بعد مؤتة، وكأن الكفر يتناوب في إنهاك دولة الإسلام، التي تستعد للدفاع على أطراف نفوذ فارس، حيث أعد القائد جيشًا لمجابهة خطر واهم.

غزوة ذات السلاسل

عين ﷺ لقيادة هذ الجيش الداهية عمرو بن العاص، وقد أمره ﷺ على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة لعلمه بالحرب. انطلق الجيش وعاد دون خسائر، ولكن عاد أفراد الجيش بشكاوى رفعوها لقائدهم ﷺ ضد عمرو، فقد علمهم النبي ﷺ أن لا أحد فوق المساءلة، وأهم هذه الشكاوى:

الأول: منعه للجيش من إيقاد النار والأجواء شديدة البرودة.

الثاني: حرمانه الجيش من غنائم مؤكدة برفضه ملاحقة فلول الأعداء الهاربة من المعركة.

استدعاه القائد ﷺ وساءله، فقال عمرو: (كانوا قليلًا فكرهت أن يوقدوا، فيستبين للعدو قلتهم. وكرهت أن يتبعوا العدو، وخفت أن يكون لهم مادة فيعطفوا

---

(١) سنده ضعيف، رواه الحميدي ١-٢٤٧ وغيره عن سفيان ثنا جعفر بن خالد المخزومي أخبرني أبي أنه سمع عبدالله بن جعفر. وظاهر السند الصحة، نظرًا لقول الحافظ في التقريب عن خالد بن ساره: صدوق والأصح غير ذلك، انظرصحيح الموسوعة لكن له ما يشهد له.

على الناس. فحمد رسول الله ﷺ أمره)[١] وتبين للجميع بعد نظر النبي ﷺ في اختياره لقادة جيشه، ودهاء عمرو العسكري مع مساحة الحرية الشاسعة في طرح المشكلات والشكاوى دون قمع أو مصادرة للرأي الآخر.

لم يقتصر الخطر على فارس والروم.. اليمامة شكلت خطراً:

زعيم اليمامة مأسور القلب

أصبحت الدولة في خطر أكبر، فالدول العظمى بدأت تتحرك لاجتثاثها، لذا كثف القائد طلائع الاستطلاع، وفي إحداها عرض زعيم اليمامة ثمامة الحنفي للنبي ﷺ حتى كاد أن يقتله، لكن بعد مدة تم رصد تحركاته، فقبض عليه وتم إحضاره أسيرا للمدينة. (فربطوه بسرية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟) فكرر مقولته (فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟)[٢] فكرر. كان أبو هريرة ومن معه من المساكين أهل الصفة يستمعون إلى هذا الحوار، ويتمنون لو ينتهي الأمر إلى شيء يفرحهم. ويقولون فيما بينهم: (ما يصنع بدم ثمامة؟! والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة)[٣] أما النبي ﷺ، فيرى أن الدنيا بحذافيرها لا تساوي شيئًا أمام هداية رجل أو امرأة، فكيف بسيد اليمامة

---

(١) سنده قوي، رواه ابن أبي عاصم في الآحاد ٢-١٠٣ حدثنا سعيد الأموي أخبرنا أبي حدثنا اسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عمرو بن العاص. سعيد ثقة ووالده صدوق وإسماعيل ثقة ثبت وقيس مخضرم.

(٢) حديث صحيح، سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٣) حديث صحيح، سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

هذا. أقبل رسول الله ﷺ على أسيره، فقال: (عفوت عنك يا ثمامة)[١]. (أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ. والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ. والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟)[٢] (فبشره رسول الله ﷺ في عمرته، وعلمه، فخرج معتمرًا)[٣] بعد أن اعترف بذنبه واستحقاقه لعقوبة القتل.. أطلق النبي ﷺ ثمامة بن أثال الحنفي من أسره، ليقع في أسر آخر.. أسر الحب.. حب الله ورسوله ودينه وحتى أرضه وبلاده.

هذه النوعية من البشر لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها.. هي منساقة خلف خلق جميل، وتعامل راق.. مأخوذة بالدين المعاملة، لا بالدين العبادة، وهي نوعية لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها.. لا تجد أفضل من محمد يتهادى خلف كلمات ربه التي تقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[٤].

تعامل ﷺ بهذا المستوى مع ثمامة، فحقق قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[٥]. وقد حولت الأخلاق ثمامة إلى ولي حميم، بعد أن كان عدوًا مبغضًا. سار ثمامة نحو

---

(١) حديث صحيح، سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة، وأخبرني سعيد عن أبي هريرة، وقد مر معنا.

(٤) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وأخبرني سعيد عن أبي هريرة وقد مر معنا.

(٥) سورة فصلت: ٣٤.



عمرته فلما دخل مكة رحبوا به، لكنهم رأوا سمتًا وتغيرًا في طريقة عمرته، قرأوا التوحيد في حركاته وكلماته، فقالوا له: (أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ)[1] عندها استفزه بعض الحمقى منهم، فانتفض سيد اليمامة على سدنة الأصنام مهددًا إياهم كما هددهم سعد بن معاذ رضي الله عنه قبل غزوة بدر.. صرخ فيهم ثمامة وعزة الإيمان تملؤه: (ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ)[2] قالها، فكان:

أول من سن المقاطعة الاقتصادية

سيد بني حنيفة يحاصر مكة اقتصاديًّا، غضبًا لله ورسوله، ودفاعًا عن الظلم الذي لحق بأصحاب نبيه، علم النبي ﷺ بذلك فأقره ولم يعترض، فكانت سنة نبوية، وسلاحًا فعالا (رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز)[3] أي الدماء. بعد أن دعا النبي ﷺ عليها، فكان ثمامة استجابة الدعاء، دعا عليهم النبي ﷺ فقال: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[4] فاستمر الوضع على ما هو عليه (حتى جهدت قريش فكتبوا إلى

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٣) سنده قوي، كما قال الحافظ رحمه الله في الإصابة ١-٤١١ وعزاه لابن منده من طريق علباء بن أحمر، ووجدته في دلائل البيهقي ٤-٨١ من طريق علباء عن التابعي الثقة عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعلباء صدوق من رجال مسلم. التقريب ٣٩٧.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٧٩١.

رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم، أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ)[1] وعفا عنهم.

لكن قريشًا لم تنتفع بذلك العفو ولم تتعظ.. لم تستوعب الدرس جيدًا، فقد فقدت مبررات البقاء على جاهليتها ووثنيتها، ولم يبق لها سوى العناد.. العناد آخر أسوار قريش التي بقيت لها، لكن العناد تحول إلى قشرة خفيفة تستر بها فضيحة الشرك وعيوبه. كانت الجزيرة العربية وما حولها تترقب نهاية حاسمة وقريبة، فلم يبق في صف قريش إلا حلفاء الأصنام.. الذين وقعوا معها حلفًا بعد صلح الحديبية وهم (بنو بكر)، لكن يبدو أن الظروف لا تساعد قريشًا كثيرًا، فحتى هؤلاء الحلفاء لم تعد لهم أهمية تذكر. فقد تحولوا إلى فخ يدني قريشًا كل يوم من حتفها. حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة على قريش، وعلى حليفتها بكر.. عندما قررتا الانتحار عند نبع الوتير.

ليلة المؤامرة على خزاعة عند نبع الوتير

في ساعة كالغدر اتفق الطرفان قريش وبنو بكر على استغلال الليل، للغدر بالقبيلة التي حالفها المسلمون عند توقيع صلح الحديبية، وهي قبيلة (خزاعة) ومباغتتها. وقد خطط طرفا المؤامرة لتتم العملية بسرية لا يعلمها النبي ﷺ ولا حتى خزاعة، وبسرعة خاطفة وكأنها من بقايا السلب والنهب الجاهلي، وتمت الخيانة وتم الغدر، لكن بعض رجال خزاعة تمكنوا من التعرف على بعض المجرمين، فأمرت خزاعة أحد رجالها واسمه: عمرو بن سالم كي ينطلق نحو المدينة لطلب النجدة من النبي ﷺ، ففعل. ولما وقف أمام النبي ﷺ انطلق الشعر من أعماقه جمرًا ومرارة واستغاثة.

---

(١) حديث صحيح، وهو آخر حديث ابن إسحاق السابق.

الشعر يستغيث النصر لخزاعة

ركب عمرو بن سالم ينهب الأرض نحو المدينة، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده شعرًا قال فيه:

اللهم إني ناشد محمدًا	حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنا والدًا وكنت ولدًا	ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرًا أعتدا	وادعوا عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيم خسفًا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	إن قريش أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وزعموا أن لست أدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددا	قد جعلوا لي بكداء مرصدا
هم بيتونا بالوتير هجدا	فقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم)[1].

هنا قرر النبي غزو قريش في قعر دارها، تنفيذًا لتلك المعاهدة.

فتح مكة

هذا النوع من البشر يستنفد كل طاقات الإقناع والسلام، والعفو والحلم والحكمة، بل إنه ينظر إلى هذه الألوان السلوكية الإسلامية الرائعة على أنها ضرب من ضروب السذاجة، والسطحية والغباء تستحق الانتهازية والاستغلال والمماطلة ما أمكن، هذا النوع من البشر لا يخضع للحق برغم سطوعه كالشمس في عينيه، لكنه يسرع إليه إذا رأى شعاع الشمس منعكسًا على شفرة سيف حاد.

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، بسنده الذي روى فيه قصة الحديبية.

ولأهمية هذا الأمر لم يعلن النبي ﷺ لأصحابه كيف سيكون الرد، ولا متى.. حتى أهل بيته.. حتى أبو بكر وبقية الصحابة.

لا أحد يعلم هدف هذا الاستعداد ولا وجهته، فقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته (عائشة وهي تغربل حنطة لها، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ فقالت: نعم، فتجهز. فقال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئًا، غير أنه قد أمرنا بالجهاز)[1] لكن أحد الصحابة السابقين من أهل بدر فهم من هول وضخامة الاستعداد أن مكة هي الهدف، فأرسل رسالة لقريش يحذرهم فعلم النبي ﷺ من الوحي، فاستدعى عليًّا والزبير، وقال لهما: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة[2] معها كتاب فخذوه منها» انطلق الفارسان حتى لحقا بالمرأة وأوقفاها، وقالا لها: (أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها[3]. فأتينا به النبي ﷺ ، فإذا فيه من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة.. يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ)[4]. عاد الفارسان فسلما الخطاب لقائدهما ﷺ، فاستدعى حاطباً لمساءلته:

مساءلة حاطب

حاطب الآن بين يدي النبي ﷺ دون قيود.. دون ضرب، أو إهانة أو سجن على ذمة التحقيق، لكن عمر بن الخطاب كان متأهبًا بالسيف لفصل رأس حاطب عن جسده، فهو في نظر عمر منافق مرتد، لكن للنبي ﷺ قولًا آخر وحلمًا آخر.

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥-١٢ حدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة. فجعفر ثقة، وعروة إمام ثقة، مر معنا كثيرًا.

(٢) الظعينة هي المرأة، ويقال: هي المرأة في الهودج.

(٣) شعرها.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٨٥٥.

خاطب صاحبه بكلمات قليلة: (يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ.. إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، كنت حليفًا ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1].

بعدها انطلق القائد ﷺ بجيش هائل تجاوز العشرة آلاف، تدفقت الجموع الهائلة، ولما اقتربت من مكة، أدرك العباس أن مكة هي الهدف، ولما وصل مكاناً يقال له (مر الظهران) قال العباس وكله خوف على قومه: (واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر). عسكر جيش الإسلام، فعلم زعماء قريش فخرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء ورجل ثالث في الليل يستطلعان من مكان مرتفع على طريق مكة، فلما رأى أبو سفيان انتشار النيران على مساحة هائلة، قال: (ما رأيت كاليوم قط نيرانًا ولا عسكرًا!! يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب. يقول أبو سفيان: خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها) في أثناء ذلك مر العباس فنادى صديقه أبا سفيان: (يا أبا حنظلة. فعرف صوته فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: ويحك يا أبا سفيان.. هذا رسول الله ﷺ في الناس،

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٤-١٥٥٧.

وا صباح قريش والله. قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه)[١] إلى مكة.

وفجأة لمعت النار في وجه أبي سفيان فإذ بعمر يحدق به وهو لا يكاد يصدق، فصرخ: (أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ) فأسرع العباس ببغلته حتى سبقه. يقول العباس: (فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عمر فقال: يا رسول الله.. هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قلت يا رسول الله: إني أجرته. ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني. فلما أكثر عمر في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر.. أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف! قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: اذهب به إلى رحلك يا عباس، فإذا أصبح فائتني به. فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله. قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا. قال: ويحك يا أبا سفيان.. ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن)[٢] عندها ناشده العباس: (ويحك يا أبا سفيان أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فشهد بشهادة الحق وأسلم)، ثم همس

(١) سنده صحيح، وتخريجه في نهايته.
(٢) تخريجه في نهايته.

العباس بنبيه، فقال: (يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن)[١].

كان الصباح في بدايته، لذا قام ﷺ بتقسيم جيشه إلى أربع كتائب:

- كتيبة تمثل جناحًا أيمن، يقودها الزبير رضي الله عنه.
- وكتيبة أخرى تمثل جناحًا أيسر، ويقودها خالد بن الوليد رضي الله عنه.
- وقسم يقوده أبو عبيدة رضي الله عنه، وهم الحسر الذين لا يملكون دروعًا، ويبدو أنهم في المؤخرة.
- وقسم يقوده النبي ﷺ، وهو قلب الجيش وأكثره، وهو عبارة عن معظم القبائل العربية.

وفرقة مدرعة ضخمة لقبت بالخضراء، لشدة سوادها من كثرة الدروع، وهي مكونة من المهاجرين والأنصار..

أما قريش فقد جمعت لها جيشاً من المرتزقة.. من بعض أفراد القبائل في محاولة كالمقامرة، بحيث إذا ما تمت المعجزة وانتصروا.. شاركوهم في الغنائم، وإن انهزموا فاوضوا المسلمين. لكن النبي ﷺ كان أكثر حزمًا هذه المرة، فقد قرر حصد كل من يقاوم من تلك القوات المرتزقة أو من غيرهم، وخص الأنصار وحدهم دون غيرهم بتنفيذ هذه المهمة. هذا الحصد هو ما بقي من خيارات استنفذتها قريش كلها، وقال لهم: (اسلكوا هذه الطريق، ولا يشرفن لكم أحد إلا أنمتموه)[٢]. ثم صرح بحزم تجاه من يقاوم، فقال: (احصدوهم حصدًا حتى

---

(١) حديث صحيح، تخريجه عند نهايته.
(٢) أي من قاومكم فاقضوا عليه.

توافوني بالصفا)[١]، كما أمر ﷺ عمه العباس أن يأخذ زعيم قريش أبا سفيان إلى مكان يطل على ممر الجيش، وقال: (يا عباس احبسه بمضيق الوادي.. عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها)، فانطلق به ووقفا هناك، وبدأت الكتائب تتدفق أمامه، فلما رأى أول كتيبة قال: من هؤلاء؟ قال العباس: (فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم. ثم تمر القبيلة قال: من هـؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى تعدت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان. فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء، كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منها إلا الحدق، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا. قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن)[٢].

بدأ أهل مكة بالفرار نحو المسجد والبيوت، وخلت شوارعها وميادينها من المارة، وأغلقت دكاكينها، وخيم السكون على كل شيء.

مكة صامتة

وكأنه الصمت الذي يسبق العاصفة.. يسبق الزلزال، لا شيء سوى العيون المتسعة والقلوب المرتجفة. ذاق الوثنيون طعم الخوف الذي أذاقوه لنبي الله وصحابته في كل شبر من مكة، وفجأة بدأت الحياة الجديدة تسري كالدماء في شرايين مكة.. في شوارعها. بدأت طلائع الجيش.. يتقدمها نداء مهم.. صوت

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وابن حبان ١١-٧٤ والبيهقي ٩-١١٧ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ وغيرهم، واللفظ لابن حبان والزيادة للدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة، وهي زيادة صحيحة.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس، وقد مر معنا. وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

الأمان لكل أهل مكة إلا أربعة مجرمين وامرأتين: فقد قال ﷺ : (اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح)[1].

أما مقيس فيبدو أنه لم يأخذ وقتًا طويلًا حتى قضي عليه، فقد (أدركه الناس في السوق فقتلوه)[2] وأما ابن أخطل فقتله الناس داخل المسجد، وأما عكرمة ففر من مكة، أما ذلك المرتد المدعو عبد الله بن أبي سرح، الذي كان أحد كتبة الوحي الذين تم الاستغناء عنه وعن كتابته، فهو مختبئ نادم على ما صدر عنه من سخافات، فالنبي ﷺ مازال حيًّا، والوحي لم ينقطع ينزل كل يوم، وجبريل يراجع لمحمد عليهما السلام كل عام ما نزل من القرآن، وبالتحديد في هذا الشهر (رمضان) من كل عام. أما ابن أبي سرح فقد خسر شرف الكتابة، وشرف الأمانة، وشرف الفروسية والنصر، وهو الآن يفتش عن ثقب إبرة يهرب من خلاله.

أما النبي ﷺ فعلى أبواب مكة، وهو يهم بدخولها هذه المرة من مكان يقال له: (كداء)، ثم سال الجيش نحو المسجد الحرام دون مقاومة.. كان المسجد مزدحمًا، لكن تلك الجموع الخائفة أفسحت الطريق لسيد البشر، الذي تهادى نحو الكعبة بخشوع وتضرع وتواضع لله، الذي نصره بعد أن خرج منها قبل ثمان سنوات شريدا مع صاحبه. رأى الخرافة تلوث التوحيد.. رأى ثلاثمئة وستين صنمًا تئن منها الكعبة.. أقبل ليحطم الجاهلية العنصرية ومعه الفتى الأسود أسامة

---

(١) حديث حسن، وسنده ضعيف، رواه ابن أبي شيبة وغيره عن طريق أسبان بن نصر عن السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه. وأسباط له أخطاء وهو من رجال مسلم وهو صدوق. التقريب ٩٨ وشيخه أوثق منه: صدوق يهم، أي أن حديثه حسن إذا لم يخالف، وهو من رجال مسلم أيضًا، ومصعب تابعي ثقة. التقريب ٥٣٣ لكن الحديث له شاهد وهو مرسل عكرمة ولم يذكر فيه عكرمة ويشهد لذكر عكرمة حديث ابن أبي شيبة ٧-٤٠٢ وللحديث شاهد عند الطبراني ٦-٦٦ وغيره من طريق عمرو بن عثمان المخزومي وهو مقبول عند المتابعة حسب التقريب ٤٢٤ ثم وجدت له شاهدًا يرفعه إلى درجة الحسن عند البزار: زوائد ٢٣٤٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس ومبارك والحسن ثقتان، لكنهما مدلسان وقد عنعنا، وحديثهما في هذه الحالة حسن بالشواهد.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

بن زيد، وهما على ناقة أسامة (أقبل رسول الله ﷺ إلى الحجر فاستلمه، وطاف بالبيت في يده قوس أخذ بسية[1] القوس، فأتى في طوافه صنمًا في جنبة البيت يعبدونه، فجعل يطعن بها في عينيه، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل)[2].

تهاوت الأصنام.. تحولت إلى نفايات، فأفاقت الجموع.. هذا هو الشرك ببساطة.. أكوام من الكلام والهشيم والعناد يكفي للقضاء عليها عود ثقاب صغير.. كان مشهد التوحيد عظيمًا، والجموع تنتظر.. خاصة أولئك الصناديد الذين اختبأوا داخل الكعبة وأغلق عليهم سادن الكعبة الباب. سادا الصمت فالكل ينتظر.

بيان النصر الأول

نزل النبي ﷺ عن ناقته وصلى، ثم نهض وأخذ بعضادتي الباب، فارتفعت الرؤوس تحدق ببيان النصر الأول.. ترتجف القلوب خشية الانتقام، بعد حرب كراهية مارسوها ضده لأكثر من عشرين عامًا.. قام أمامهم وهتف بهم (يا معشر قريش ما تقولون؟ قالوا: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم عاد عليهم القول..؟ (يا معشر قريش ما تقولون؟ قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: يا معشر قريش.. ما تقولون؟ قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم» قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم.. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)[3].

---

(١) طرفها.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن خزيمة ٤-٢٣٠ ثنا عبد الله بن هاشم ثنا بهز يعني ابن أسد ثنا سليمان ابن المغيرة عن ثابت قال ثنا عبد الله بن رباح وقد سمعه من أبي هريرة، ورواه أيضًا من طريق الربيع حدثنا سليمان.. به، وسليمان بن المغيرة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك ثابت وعبد الله ثقة من رجال مسلم فقط، وقد مر الحديث تحت عنوان إسلام أبي سفيان.

(٣) حديث صحيح، مر معنا، رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢، والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة. وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢، وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

سمع الطواغيت البيان رقم واحد، فكادت فرحتهم تفجر جدران الكعبة، فالأرض.. كل الأرض لا تتسع لهذا الفرح، ولا يجدون خجلًا وحياءً، أو حتى أعذارًا تصمد أمام عفو محمد.

إذا كان لعظمة محمد ﷺ مقاييس فتلك هي مقاييسها.. لا انتقام للذات، ولا للأهل والعشيرة.. لا انتقام لمن مزق أجساد حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله ابن جحش. لم يأخذ بيوتهم ولا أموالهم، لكنه أخذ القلوب والعقول والأرواح.. ترك كل شيء لله، فمن أجله دعا، وفي سبيله حارب وحورب وانتصر، وهاهو يشرع أبواب الله لمن يريد الدخول فيها.. يشرعها بالعفو والصفح وطي الماضي بآلامه، والبدء من جديد لإعادة تشكيل الأرض ومن عليها.. هرول المشركون الطلقاء إلى النبي ﷺ (فبايعوه على الإسلام)[1] بعد أن تناثرت الأصنام وطهرت الكعبة من الخارج، فأراد النبي ﷺ تطهيرها من الداخل، فطلب مفاتيح الكعبة من العائلة التي شرفها الله بحجابة بيته وخدمته وسدانته.

كان مشهدًا جميلًا أفرح الجميع إلا أحب الناس، إلا الأنصار، الذين تهامسوا بحزن فيما بينهم، وقالوا بعد ذلك العفو وتلك البيعة: (أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته)، وفجأة تجمعوا كالحزن عند الصفا. عندها توجه ﷺ نحو الصفا فبكى الأنصار:

حب الأنصار ثم باقي البشر

أبو هريرة كان هناك.. حول الصفا يروي ويرتوي من ينابيع الحب، فيقول: إن النبي ﷺ: (أتى الصفا فعلاها حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه وجعل يحمد

(١) حديث صحيح، مر معنا، رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢، والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة. وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢، وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

الله ويذكره، ويدعو بما شاء أن يدعو، والأنصار تحته.. يقول الأنصار بعضها لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي. فلما قضي الوحي قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار.. قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله. قال فما أسمى إذاً؟! كلا إني عبدالله ورسول الله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون يقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضن بالله ورسوله. قال: فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم)[١] (فوالله ما منهم أحد إلا بل نحره بالدموع)[٢] (قال أبو هريرة: فرأيت الشيوخ يبكون حتى بل الدموع لحاهم)[٣] في حضرة هذا الوفاء الذي تسيل فيه الدموع، بعد أن عجزت الكلمات عن التعبير.

بهذا الوفاء غسل ﷺ قلوب الأنصار من الحزن، بعد أن غسل المسجد الحرام والكعبة من الشرك والأصنام، وبتلك العبارات شعر الأنصار أنهم سادة الدنيا، وأن مدينتهم غدت عاصمة الإسلام.. حتى مكة أفضل بقعة على وجه الأرض.. غدت مدينة تابعة للمدينة المنورة.

البيان رقم (٢) للدولة الإسلامية في مكة

يقول أحد الصحابة: (لما فتح على رسول الله ﷺ مكة قال: كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر. فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال: كفوا السلاح. فلقى من

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم وأحمد ٢-٥٣٨ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧، واللفظ له من طرق عن سليمان بن المغيرة عن ثابت قال هاشم قال حدثني ثابت البناني ثنا عبد الله بن رباح.

(٢) هذه اللفظة صحيحة عند الدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق محمد بن الفضل عارم وهدبة بن خالد قالا حدثنا سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة، وسندها صحيح. سلام ثقة. التقريب ٢٦١، وعارم ثقة ثبت. التقريب ٥٠١.

(٣) هو جزء من حديث أبي هريرة السابق، وهذه اللفظة عند النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢.

الغد رجل من خزاعة رجلًا من بني بكر بالمزدلفة فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. فقام خطيبًا، فقال: «يا أيها الناس إن الله عز وجل كرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام الله تعالى إلى يوم القيامة.. لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا.. لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها. ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس.. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل بها، فقولوا إن الله عز وجل قد أحلها لرسوله، ولم يحللها لكم. يا معشر خزاعة.. ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقع. لئن قتلتم قتيلًا لأدينه، فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله)[١].

(إن أعدى الناس على الله من عدا في الحرم، ومن قتل غير قاتله، ومن قتل بنحول الجاهلية[٢])[٣].

وبعد أن انتهى من خطبته (ودى رسول الله ﷺ الرجل الذي قتلته خزاعة)[٤]، أي دفع دية الرجل المقتول من بني بكر برغم غدرهم بخزاعة، ثم قال: (لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.. الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده. ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي[٥] هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج)[٦] ثم بين مقدار الديات،

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه أحمد ٤-٣٢: حدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي. سعيد تابعي ثقة. التقريب ١-٢٩٧، وشيخه صحابي.

(٢) أي قتل أحدًا ثأرًا.

(٣) حديث حسن، رواه أحمد ٢-٢٠٧ وابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ والحارث «زوائد» ٢-٧٠٩ وغيرهم من طرق عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، وهذا السند قوي مشهور.

(٤) هو حديث ابن إسحاق وأحمد السابق، وهو صحيح.

(٥) أي باطلة لا قيمة لها.

(٦) سنده قوي، رواه أحمد ٣-٤١٠ من طريق خالد الحذاء عن القاسم بن ربيعة بن جوشن عن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: وعقبة تابعي صدوق: التقريب ٢-٢٦ وتلميذه تابعي ثقة: التقريب ٢-١١٦ وخالد بن مهران تابعي صغير ثقة: التقريب. وللحديث شواهد تقويه.

ثم توالت التوبة تلو التوبة، والبيعة تلو البيعة، وأعطي الطلقاء فرصة كبيرة للتفكير والتروي ومراجعة النفس، و قرر النبي ﷺ البقاء في مكة لمدة تكفي لإذابة ما بقي في نفوس الطلقاء من بقايا الجاهلية. فأقام تسعة عشر يومًا.

هوازن متوترة

فقد أربكتها الإشاعات التي ترددت حول جمع النبي ﷺ لعشرة آلاف مجاهد، وأثارت مخاوفها تلك الحشود.. كانت التخمينات قد ذهبت بهوازن بعيدًا، فظنت أن النبي ﷺ يقصدها بذلك الجيش الكاسح، فاستعدت لنزاله استعدادًا انتحاريًّا، وهي الآن (على بكرة أبيها، بظعنها ونعمها وشائها هي في وادي حنين)[1]. لم يبق منها ذكر ولا أنثى إلا توجه نحو وادي قريب من مكة يسمى وادي حنين، وقد اختبأوا (في شعابه وأنحائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا)[2].

كل هذا كان يجري في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه ينعمون بأجواء مكة الهادئة الجميلة، ويقترب عيد الفطر فيخرج المسلمون زكاة الفطر للفقراء والمساكين في مكة، ويواسونهم بطريقة لطيفة لم يتعودوا رقتها من قبل، ويأتي العيد فيصلي المسلمون العيد، ويخطب النبي ﷺ في أكثر من عشرين ألفًا من المسلمين والمسلمات، ثم يحتفلون بعيد الفطر لأول مرة في مكة، فيرى الطلقاء كم هو جميل هذا العيد بالإسلام، وكم هو جميل هذا الإسلام الذي ينشر النظافة والفرح والحب.. كم هو جميل هذا الدين الذي طالما أغواهم العناد والشيطان بتشويهه،

---

(١) سنده صحيح، رواه في الآحاد والمثاني ٤-١٠٦ والنسائي في الكبرى ٥-٢٧٣ وغيرهما من طريق: معاوية بن سلام عن جده أبي سلام عن أبي كبشة السلولي عن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه، فأبو كبشة تابعي كبير ثقة. التقريب ٢-٤٦٥ وتلميذه تابعي ثقة أيضاً من رجال مسلم. التقريب ٢-٢٧٢ ومعاوية ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٢-٢٥٩.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق/ ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه: عبد الرحمن تابعي ثقة. التقريب ١-٤٧٥ وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي من رجال الشيخين. التقريب ١-٣٨٥.

ويرى الطلقاء هذه الاحتفالية الإسلامية المدهشة، فمكة صاخبة بالحركة والحب والتراحم.. أكثر من عشرين ألفًا يفزون جميعًا خمس مرات يوميًا للصلاة، ثم يرونهم بعد أداء الصلاة حول المسجد يتحادثون بود.. يتبايعون بأمانة، ويقرضون دون ربا، ويتصدقون، ويواسي بعضهم بعضًا، ويقضون أوقاتًا ممتعة ومرحة تدخل البهجة على النفوس.. أهذه مكة التي كانت قبل أيام بطيئة مملة كئيبة خائفة وملوثة الأجواء بالأصنام والطبقية والعنصرية والربا والأحقاد؟!! لو لم يكن هذا الرجل نبيًّا لما تغيرت مكة بهذه الطريقة المعجزة، ولو بعد آلاف السنوات. لكن هذه الأجواء الساحرة تظل بشرية بحتة، إنما موجهة بالوحي النقي والعادل، وما دامت بشرية فلا بد من الزلل والخطأ، وقد حدث ذلك عندما أقدمت امرأة مخزومية على السرقة، فكانت سرقتها رحمة للمسلمين، ودرسًا جديدًا للطلقاء.

الجريمة والواسطة

حددت المرأة السارقة، واعترفت بجريمتها.. كانت من قريش (كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها)[١]، (فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة زوج النبي ﷺ)[٢]، بعد أن عرفت أن عقوبة السرقة هي قطع اليد، وتوجه وجهاء الطلقاء وأرفعهم نسبًا، متنازلين إلى شاب يتيم أسود اللون يدعى (أسامة بن زيد)، لكي يتوسط عند رسول الله ﷺ لإسقاط حد السرقة عن تلك المرأة، (فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد.. فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها)[١].

عندها تعلم الطلقاء درسًا جديدًا، اسمه المساواة أمام الشريعة والنظام الإسلامي، بعد أن استوعبوا المساواة في التعامل والمكافأة، وأيقنوا أنهم أمام وحي لا يزحزحه شيء، فليس بعد فاطمة من قرابة، والقضية لا تتعلق بشخصين أو ثلاثة يمكن التفاهم حول ما أخذ أحدهما من الآخر، بل يتعلق بأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، ومن ثم فهو يتناول بشكل خطير أمن الدولة برمتها، وهو لا يقل خطرًا عما يحدث الآن في وادي حنين.

وادي حنين وأرضها

هو الآن تحت سيطرة جيش المشركين، الذين قاموا بتنظيم ما معهم من قوات وغير قوات.. بمنتهى التهور والدهاء معًا، بل ربما قاموا باستنساخ خطة النبي ﷺ في غزوة أحد مع اختلاف التضاريس، فقد قسمت هوازن وغطفان جيشها إلى قسمين:

أولاً: قسم أمامي، ومكانه مقدمة بطن الوادي، أو لنقل مدخل الوادي، وهو خط المعركة الأول، وقد قسمه المشركون إلى أربعة صفوف، أو أربع مجموعات، يقف بعضها خلف بعض.

وقد عبر أحد جنود الإسلام عن إعجابه بتلك الصفوف، وهو أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: (افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حنينًا فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت؛ فصفت الخيل، ثم صفت المقاتلة، ثم صفت النساء من وراء ذلك، ثم صفت الغنم، ثم صفت النعم)[٢].

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

ثانيًا: قسم الرماة، وقد تترس هؤلاء بتجاويف الوادي وتعرجاته، ويبدو أنهم في مكان مرتفع، بحيث يسهل عليهم إصابة المسلمين من خلاله، وعن ذلك يقول جابر رضي الله عنه: (لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادي من أودية تهامة، أجوف حطوط[١] إنما ننحدر فيه انحدارًا، وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا)[٢].

أما جيش المسلمين فكان كالعادة منظمًا ومقسمًا، يقول أنس: (وعلى مجنبة خيلنا خالد بن الوليد»، وهذا يدل على أن هناك جناحًا أيمن وآخر أيسر، وقلبًا يقوده النبي ﷺ، لكن النبي ﷺ كان يشعر ببعض الخوف ليس من الأعداء، فما خرج إلا وقد أعد لهم واستعد. لكن خوفه كان منصبًا على جيشه العظيم الذي يحقق الانتصارات، ولا بد لهذا الجيش أن يظهر ويبطن الامتنان لخالقه.. تحت أي ظرف من الظروف.

ها هو ﷺ، وبعد كل صلاة فجر يحرك شفتيه، فيتساءل الصحابة عن تلك الأحرف التي لا يسمعونها، ويشعرون بالشوق إليها؟

يقول الصحابي المهاجر الصابر المجاهد صهيب الرومي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله إنا نراك تفعل شيئًا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيًّا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء. فأوحى الله إليه: أن خير أمتك بين إحدى ثلاث: أما ان نسلط عليهم عدوًّا من غيرهم، فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت. فشاورهم. فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسل

---

(١) شديد الانحدار.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق/ ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه: عاصم وشيخه تابعيان ثقتان. التقريب ٢٨٦ و٣٣٨.

عليهم الموت، فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفًا. قال رسول الله: فأنا أقول الآن حيث رأى كثرتهم: اللهم بك أحاول وبك أصاول وبك أقاتل)[1]. (اللهم إنك إن تشأ لا تعبد بعد هذا اليوم)[2]. فبالدعاء كان ﷺ يبدأ معاركه.

كيف سارت المعركة على أرض حنين

في البداية كانت المواجهة بين الجيشين على أرض الوادي.. دون تدخل رماة المشركين، وعندما التحم الجيشان هجم المسلمون ببسالتهم المعروفة، فاكتسحوا عدوهم وهزموهم، بل وطاردوهم. وكان فارس الإسلام (أبو قتادة) أحد هؤلاء. يقول البراء: (لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم)[3]. وبدأ الطلقاء يجمعون الغنائم الهائلة التي خلفتها هوازن ومن معها، ومرة أخرى تطل المأساة برأسها البشع.. مرة أخرى يرتكب بعض المؤمنين الخطأ نفسه، لكنهم معذورون فهم لم يحضروا، ولم يتجرعوا كأس أُحد المر.. مرة أخرى:

الغنائم والرماة يهزمون المسلمين

الغنائم هي الغنائم، لكن الرماة ليسوا هم الرماة.. إنهم رماة هوازن، وهم دقيقو التصويب، وعندما وصل الجيش المسلم إلى مرمى تلك السهام وهو يطارد تلك الفلول الهاربة.. انهمر سيل السهام من تلك التجاويف والمنحنيات، فقد كان الوادي مفخخًا بالرماة البارعين، وقد أعان الرماة في مهمتهم ذلك الارتباك الذي

---

(١) سنده صحيح، رواه الإمام أحمد ٤-٣٢٢: حدثنا عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي ثقة كبير، وعفان إمام معروف، وكذلك بقية السند. وهو أصح من لفظ خيبر، كما بينت في صحيح الموسوعة.

(٢) سنده ثلاثي صحيح، رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٦ حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس قال: كان من دعاء النبي يوم حنين: يزيد وحماد ثقتان معروفان، وحميد سمع من أنس.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

أحدثه تكالب الطلقاء على الغنائم، وبدأ الفرار الكبير من الطلقاء وغيرهم حتى سئل البراء: (أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام)[1] (والله ما ولى النبي ﷺ، ولكن ولى سرعان الناس، فلقيهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

يقول أنس: (فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس)[2].

أما النبي ﷺ فكما وصفه البراء بن عازب بقوله: (أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى)[3]. (كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ)[4]. لقد توجه ﷺ نحو الوثنيين بمفرده بعد أن (ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار)[5].

كان مشهد الهروب محزنًا لفارس الإسلام أبي قتادة الذي يقول عن تلك اللحظات: (لما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلًا من المشركين علا رجلًا من المسلمين، فاستدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه، فأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني. فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله)[6]. ففرار جيش بهذا الحجم شيء لا يصدقه عمر، (وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم ٣-١٣٩٨ والنسائي في السنن الكبرى ٥-١٩٧ واللفظ له.

(٦) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

أين أيها الناس؟ هلموا إليَّ أنا رسول الله.. أنا محمد بن عبد الله.... فلا شيء. حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد قتل يومئذ. ورجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه وأبو سفيان بن حرب وبعض الناس يشمت بالمسلمين)[(١)].

لكن النبي ﷺ لم يترك مساحة أكبر من هذه لانشراح قلوب الشامتين، فمثل هذه الحالات الشديدة والحرجة يصعب تجاوزها بأمثال الطلقاء، الذين لم يقضوا فترة تربوية كافية على يد النبي ﷺ. ولهذا صاح النبي ﷺ يستدعي البنائين الأوائل للدولة الإسلامية، الذين شيدوها بدمائهم وعرقهم وإيمانهم.. (نادى رسول الله ﷺ: يال المهاجرين.. يال المهاجرين. ثم قال: يال الأنصار.. يال الأنصار...)[(٢)]. قال أنس (قلنا: لبيك يا رسول الله)[(٣)].

وحتى يصل الصوت أقصى مدى.. استعان القائد ﷺ بعمه الثابت الشجاع العباس بن عبد المطلب، الذي يمسك الآن بلجام بغلة نبيه.. يواجه بها عاصفة هوازن ونبالها، ويقول (إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرءًا جسيمًا شديد الصوت، ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء... فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة. فأجابوا: لبيك..

---

(١) سنده صحيح، مر معنا رواه ابن إسحاق/ ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم ٢-٧٣٦.

لبيك. فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ. حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. وكانت الدعوى أول ما كانت: ياللأنصار.. ثم خلصت أخيرًا: ياللخزرج. وكانوا صبرًا عند الحرب.

فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم، وهم يجتلدون، فقال: الآن حمي الوطيس)[١].

هذا ما يحدث في المقدمة، أما في المؤخرة فقد كانت هناك امرأة ثابتة تفوقت على كثير من المحاربين الرجال.. يقول ابنها (أنس: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء.. انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن)[٢].

فقد نظم ﷺ أصحابه من جديد، ثم هجم بهم على المشركين، وهب علي بن أبي طالب وشجاع آخر من الأنصار نحو حامل الراية حتى استطاعوا:

إسقاط راية المشركين

فقد كان (رجل من هوازن على جمل له أحمر في يده راية سوداء، في رأس رمح طويل له أمام الناس، وهوازن خلفه، فإذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق السيرة: ٥-١١٠ حدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال: وهذا السند صحيح، الزهري تابعي إمام ثقة، أشهر من أن يعرف، وشيخه صحابي صغير.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٤٢.

رفعه لمن وراءه. فاتبعوه. فهوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه، فيأتيه علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل، فوقع على عجزه. ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه، فانعجف عن رحله، واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ)[١] فعاد النصر إلى أصحابه البنائين الأوائل، ثم عاد الطلقاء، ليروا الغنائم الهائلة.. حدقوا بها، لكن النبي ﷺ لم يقسمها، فتوزيعها ليس في قائمة اهتماماته الآنية.. هناك أخطار ملحة تحتاج إلى حل عاجل جدًّا.. هناك الطائف الذي شارك بعض زعمائه في هذه المعركة، لذلك قرر ﷺ: حبس الغنائم في مكان يقال له (الجعرانة). ثم توجه لـ:

حصار الطائف

يقول أحد الجند: (انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة)[٢] لكن الحصار لم يجد في فتح الطائف، فعاد ﷺ إلى الجعرانة حيث الأسرى، وهناك مكث ﷺ عدة أيام بانتظار هوازن، وكأن حليمة الحبيبة تتجول بين أضلاعه.

النبي يريد رد الغنائم على هوازن

يقول أحد الصحابة: (وكان النبي ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة، حين قفل من الطائف)[٣] ولما لم يعودوا قام عليه السلام بـ:

---

(١) سنده صحيح، مر معنا، رواه ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله: السيرة النبوية، ومن طريقه الإمام أحمد ٣-٣٧٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) صحيح البخاري ٢-٩٢٠.

توزيع الغنائم

وقد كانت طريقة النبي ﷺ في توزيع الغنائم على غير المعتاد.. كانت طريقة تناسب هذه الظروف الجديدة تمامًا، فقد دخل في الإسلام أعداد لا حصر لها ما بين يوم وليلة، وهذه النوعية من الناس تحتاج إلى من يعمق جذور الإيمان الغضة الطرية في داخلها، لأنها عرضة للتلف في العراء. وقد تبين ذلك قبل أيام على أرض حنين.. عندما هرب الطلقاء ومن أسلم حديثاً، وتركوا النبي ﷺ على أرض المعركة.. كانت كثرتهم غير مجدية، بل ضارة ومعيقة، ومن أجل هذا انسابت الغنائم بشكل أثار استغراب الكثيرين، لكنه بُعد نظر النبي ﷺ وسعة أفقه. فبرغم أن تلك الغنائم كانت هائلة جدًّا، وكثيرة جدًّا، إلا أن شيئًا منها لم يذهب إلى أحق الناس بها، وهم الأنصار.. كانت غنائم حنين تقييمًا للإيمان والمؤمنين.. كان توزيعها نقلة نوعية في طريقة الدعوة عند ما تتهاوى الدول أمام الدولة الإسلامية، لأن الشدة تمحص تلك النوعيات الفذة والممتازة من الرجال، أما الرخاء فحلفاء الرخاء والرفاه كثيرون.

بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم فحاصره الذين هربوا من المعركة حصارًا قال عنه أحد الذين كانوا برفقته ﷺ في تلك اللحظات: (إنه بينما يسير هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا) [(١)] ثم حذرهم ﷺ من الغلول، وهو الاختلاس من الغنائم والمال العام فكانت هذه القصة:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٣٨.

قصة الأنصاري وخيوط الشعر

اتبع الناس نبيهم ﷺ (يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجؤوه إلى «سمرة»، فاختطفت الشجرة عنه رداءه، فقال: ردوا عليَّ ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا، لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا. ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يوم القيامة. فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر. قال ﷺ: أما نصيبي منها فلك. فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده)[1]. فلا حاجة لهذا المجاهد في إفساد جهده وجهاده ولو بكنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة شعر تافه.

هذا هو الجيش الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة، لا من تكنات الإمبراطوريات التي أرعبت الأمم، وعجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب و.. وقائمة شنيعة من جرائم الحرب، بل عجزت عن ضبطهم حتى ضد أنفسهم. أما محمد ﷺ فبكلمة واحدة ضبط كل شيء، لأنه لا يخاطب جنوده من الخارج، بل يشيدهم من الداخل.. هو صوت دائم في أعماقهم يجذر خوف الله قبل كل شيء فيهم، وها هو صوته الذي لا يخبو ينادي من أجل ذلك رجالًا ليس لهم تاريخ ولا رصيد في الإسلام، بل إن بعضهم سخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الدين، ومع ذلك يطل ﷺ رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم،

---

(١) سنده حسن، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي. الكبرى ٦-٣٣٦ وغيرهما قال: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال: وهو سند حسن مشهور، والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.



وعرفهم بربهم تعريفًا جديدًا لا تحجبه الأحقاد. استدعى ﷺ أبا سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فحولهم إلى أثرياء.. في لحظات كان الجميع يترقب أن يكون الثراء من نصيب أبي بكر أو عمر أو علي أو سعد بن عبادة أو أسيد بن حضير، أو غيرهم من عمالقة الأنصار والمهاجرين.

استدعى ﷺ أولئك الرجال فـ (أعطى النبي ﷺ من غنائم حنين الأقرع بن حابس مئة من الإبل، وعيينة بن حصين مئة من الإبل. فقال ناس من الأنصار: يعطي رسول الله ﷺ غنائمنا ناسًا تقطر سيوفهم من دمائنا، أو تقطر سيوفنا من دمائهم؟! فبلغه ذلك)[1] بلغه هذا الكلام الصادر من بعض فتيان الأنصار المتحمسين، والذين يرون في الغنائم أوسمة للمحاربين، ومكافأة لهم، وهم يرون أن هؤلاء لا يستحقون مثل هذا التكريم، نظرًا لتاريخهم البعيد، وحتى القريب.. حيث فروا من أرض المعركة.. هذه الكلمات غير المتزنة، التي ينقصها التروي وبعد النظر.. وجدت خصوبة لدى أحد المتهورين من فتيان الأنصار، فأطلق كلمات غيرت وجه النبي ﷺ، وعكرت صفو انتصاره، فقال: (ما أراد بها وجه الله)[2] يقول أحد أصحابه: (فتغير وجهه ﷺ حتى كان كالصرف[3]، فغضب من ذلك غضبًا شديدًا واحمر وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله. ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر. قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثًا)[4]. لم يكن ذلك الأنصاري الطائش وحده الذي تطاول على النبي ﷺ، واتهمه، فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع ورأى متهورًا آخر تطاول معلنًا عن:

---

(١) سنده صحيح، رواه الإمام أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس، وهذا سند ثلاثي صحيح. يزيد ثقة مر معنا وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦ والزيادة له أيضًا.

(٣) الصرف شجر أحمر.

(٤) صحيح مسلم ٢-٧٣٩.

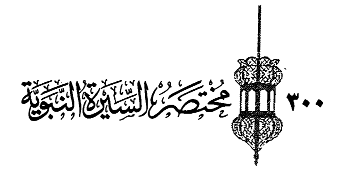
مولد أول الطوائف المتطرفة

طائفة غرتهم كثرة عبادتهم، فتوجهوا نحو عيوب الناس وتناسوا عيوبهم، فجرهم ذلك إلى قذف التهم يمينًا وشمالًا، وتطاولوا فتسوروا القلوب، واقتحموا النوايا، ورسموها لا كما هي، بل كما يريدون، وكما تشكلت في مخيلتهم المريضة. برغم أن النبي ﷺ وهو قائد الأمة يقول: (إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم)[١]. أما هؤلاء المتطرفون فتهوروا باقتحام ما هابه النبي ﷺ، بل تجرأ أحدهم على أرض الجعرانة على الاستدراك على الوحي ذاته ونقد النبوة. شاب متطرف يقال له ذو الخويصرة فقال: يا رسول الله اعدل. فقال ﷺ: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحابًا، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...)[٢]، وقد ذكر النبي ﷺ مزيدًا من صفاتهم، حتى لا ينخدع الناس بكثرة ركوعهم وسجودهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن، ولا بكثرة حلقهم لرؤوسهم، فقال: (يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة)[٣] (قيل: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق)[٤] أي حلق شعر الرأس.

حادثة هذا الخارجي الذي يعتبر شاذًا أمام هذا الحضور الغامر والجميل لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.. هذه الحادثة سلطت الضوء على مساحة الحرية

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.
(٤) صحيح البخاري ٦-٢٧٤٨.



الشاسعة في القول والتعبير عن الرأي بالكلمة، كما كشف رحابة صدر القائد المسلم، والدولة المسلمة في الاستماع لمواطنيها، فهذا الرجل لم يضرب، ولم يسجن، بل رفض ﷺ أن يمسه عمر بأذى، بل قال لعمر: (دعه). لماذ؟

لأن في الحق والعدل ما يخرس ألسنة المتطرفين، ويصرف وجوه الناس عنهم، لكن الخوارج إذا انتقلوا من اللسان إلى السيف، فلا بد من مواجهتهم بالأسلوب نفسه، وبالعدل أيضًا، وهذا ما شرعه النبي ﷺ لأمته في التعامل مع الخوارج. ألقى المتطرف كلمته، ورد عليه النبي ﷺ، فماذا عن عتاب شباب الأنصار لنبيهم؟ وهل أهمل ﷺ ذلك العتاب.

الحب أنصاري

أرسل القائد إلى سعد بن عبادة فقال: (ما مقاله بلغني عن قومك أكثروا فيها؟ فقال له سعد: فقد كان ما بلغك. قال: فأين أنت من ذلك؟ قال: ما أنا إلا رجل من قومي. فاشتد غضبه وقال: اجمع قومك ولا يكن معهم غيرهم. فجمعهم في حظيرة من حظائر النبي ﷺ، وقام على بابها وجعل لا يترك إلا من كان من قومه، وقد ترك رجالًا من المهاجرين وزاد أناسًا. ثم جاء النبي ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله ﷺ: ابن أخت القوم منهم)[١].

(فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: فإني أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم[٢] يا

(١) سنده صحيح، مر معنا قبل قليل، رواه أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٣.

معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله؟ فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. يا معشر الأنصار، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله؟ فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. يا معشر الأنصار، ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟ فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. فقال ﷺ: ألا تجيبون؟ قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل.

فلما سري عنه قال: ولو شئتم لقلتم فصدقتم: ألم نجدك طريدًا فآويناك، ومكذبًا فصدقناك، وعائلًا فآسيناك، ومخذولًا فنصرناك؟ فجعلوا يبكون ويقولون: الله ورسوله أمن وأفضل. قال: أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قومًا أتألفهم على الإسلام، وكلتكم إلى إسلامكم، لو سلك الناس واديًا أو شعبًا، وسلكتم واديًا وشعبًا لسلكت واديكم أو شعبكم، وأنتم شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، الأنصار كرشي وعيبتي[١]، ثم رفع يديه حتى إني لأرى ما تحت منكبيه، فقال: اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار. أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وانصرفوا وهم يقولون: رضينا بالله ربًّا، وبرسوله حظًّا ونصيبًا)[٢] سالت الدموع تغسل ما بالقلوب من عتاب.. تملؤها بكنوز لا يستحقها إلا الأنصار، وهل للأنصار مثيل؟ أما هوازن فـ:

هوازن كلها تدخل في الإسلام

هاهي خيل فرسانهم تنهب الأرض نحو الجعرانة.. تبحث عن رسول الله ﷺ، لا لتقاتله، بل لتسلم وترجوه أن يطلق أطفالها ونساءها وأموالها، ويحررها من

---

(١) سنده صحيح، وهو حديث الإمام أحمد السابق.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه ابن أبي شيبة ٧-٤١٨: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد. عاصم تابعي ثقة. التقريب ٢٨٦.

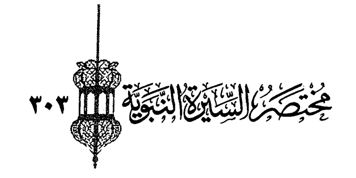
الأسر، لكن الوقت قد فات، فقد انتظرهم النبي ﷺ أكثر من عشرة أيام. فهل ستحصل هوازن على ما طلبته؟

وقف الفرسان أمام النبي ﷺ فقالوا: (يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

فقام رجل من هوازن أحد بني سعد بن بكر ، وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ، يقال له (زهير بن صرد) ، وكان يكنى بأبي صرد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم	فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر	ممزق شملها في دهرها غير

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا، فهم أحب إلينا. فقال ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم) ، ثم طمأنهم واقترح عليهم اقتراحًا يلوح الفرج منه، فقال: (إذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم. فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به؛ فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله) ، ورفض بعض زعماء القبائل الأخرى ووافق آخرون، فتقدم ﷺ باقتراح آخر كله حب ووفاء لمرابع هوازن وحليمة الحبيبة، فقال: (أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم، فله بكل إنسان ست فرائض من



أول شيء نصيبه. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم)[١]، فأطلقوهم وعادت هوازن مبتهجة مجموعة الشمل بالإسلام والنساء والأطفال، ونهض الجيش المسلم متوجهًا نحو مكة لأداء العمرة مع النبي ﷺ، وتمايلت مطايا الأنصار تحمل النبي ﷺ، فهو غنيمتها من هذه المعركة العظيمة، وفي الطريق توقف النبي ﷺ ومن معه لأداء الصلاة، ولما بدأ المؤذن بالنداء للصلاة انطلقت صيحات غريبة من خارج المعسكر المسلم.. كانوا:

مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان

ويقومون بترديد ما يقوله.. مقلدين صوته الجميل، وساخرين منه، وكان أشدهم تقليدًا هو أكثرهم بغضًا للنبي ﷺ ولدينه.

وصلت صيحات الساخرين إلى مسامع النبي ﷺ، فتحرك نحو الصوت المستهزئ حاملًا في صدره حلم الداعية، ووعي المربي، وبأسلوب عذب وراق، ودون تجهم وجه أو تشنج أو ضجيج.. تهادى نحو أولئك الفتيان برفق، وقدم للقادة درسًا في استغلال الطاقات، وعدم إهدار القدرات. (قال رسول الله ﷺ: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع)، فأشار الشباب كلهم إلى شاب يقال له أبو محذورة فتركهم وتوجه للشاب، فقال: (قم فأذن بالصلاة) يقول الشاب: (فقمت ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى إليَّ رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه)[٢]، ثم دعاه فأعطاه صرة فيها شيء من فضة، (ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمارها على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة،

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢-١٧٣ وغيره: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهذا السند مشهور جدًا وهو حسن، لكن كلمة الأنصار وَهَمٌ من عمرو أو من ابن إسحاق، لأن الأنصار لم يحصلوا على شيء من غنائم هوازن، إلا إن كان المقصود كل ما حصلوا عليه من السلب، فقد حصل بعض الأنصار على سلب من قتلوه في أثناء المعركة.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٨٧.

ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك)، هدأت روح الشاب وشعر بأبوة لا مثيل لها، واكتشف موهبته المهدرة في الهزل، فقال: (يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة.

فقال: قد أمرتك به. وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية، وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ)[1] الذي لم يعنفه، ولم يأمر بقطع رأسه، بل اكتفى بالنظر داخل هذا الفتى، فوجد طيشًا يحتاج إلى من يترفق به، ووجد مواهب ليس من العدل إهدارها على الطريق، فمحمد ﷺ أفضل بيئة لتنمية الإبداع ورعاية المواهب، ولكن نحو خير البشرية ورفاهها، لذلك أطلق ذلك الفتى وانطلق بجيشه نحو مكة لـ:

أداء العمرة..

وصل النبي ﷺ إلى مكة، فأدى العمرة وهذه العمرة هي الثالثة بعد عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، ثم وفى بعهد الحب بينه وبين الأنصار، فانطلق نحو شعاب ومدينة الأنصار وطيبة الأنصار، وهناك تلقى خبرًا أسعده، فقد أهدته مارية القبطية هدية غالية.

مارية تلد ابنًا للنبي ﷺ

سَعِدَ النبي ﷺ بولادة ابنه الجميل، وسماه باسم أبيه إبراهيم ﷺ. وكان

---

(١) حديث حسن، رواه الإمام أحمد ٣-٤٠٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة: أن عبد الله بن محيريز أخبره، وكان يتيمًا في حجر أبي محذورة، عن أبي محذورة... ثم قال ابن جريج: وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز، وهذا السند فيه ضعف من أجل عبد العزيز فهو مقبول عند المتابعة، ولذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول ٣٥٨ أما شيخه فثقة. التقريب ٣٢٢ وعبد العزيز لم ينفرد فقد تابعه من أدرك ابن جريج من أهله، وللحديث شاهد عند ابن خزيمة: ٢٠٠١ حدثني عثمان بن السائب أخبرني أبي وأم عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة. وقد توبع عثمان. وصححه الإمام الألباني في صحيح سنن النسائي (٦١٣).

هـذا الرضيع الجميل يمـلأ قلبه ﷺ ويحظى بعنايته.. حتى انتقى له بيتًا من عـوالي المدينة.. يتولون رضاعه، وكـان يـتردد على ذلك البيت كالشوق. شوق يصفه أنس، فيقول: (ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخل وكان ظئره قينًا، فيأخذه فيقبله ثم يرجع)[١] وتمر الأيام وتبدأ وفود القبائل بالتقاطر على عاصمة الدولة الإسلامية، فتشعر الإمبراطورية الرومانية المسيحية بالغيظ دون مبرر أو مؤشرات على هجوم أو اعتداء، لكنها سنة الحياة، وقلق العظماء من المنافسة، فبلاد العرب المهملة أصبحت دولة تملأ سمع العالم وبصره.. قرر النصارى ثانية تحطيم دولة الإسلام فاختاروا وقتًا حرجًا للغاية.

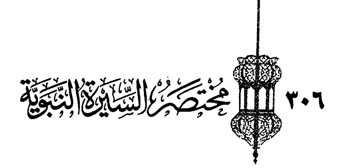
جيش تبوك في ساعة العسرة

علم القائد ﷺ بتحركات الروم فأعد جيشًا كبيرًا يتجاوز عدده عدد جيش الفتح.. لم تكن هناك ميزانية للتسلح، فالكل كانوا جنودًا للإسلام.. الكل يسهم حسب طاقته وإمكاناته، وفي مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان.. يشرق الكرم العثماني، ليؤسس نموذجًا راقيًا لرجل الأعمال المسلم الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام، بل ينظر إلى الأرقام من خلال الدنيا والآخرة معًا، وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان بإنجاز، فقد قال النبي ﷺ (من يحفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرها عثمان. وقال: من جهز جيش العسرة فله الجنة؟ فجهزه عثمان)[٢]. ومن المؤكد أن هناك من استجاب بسخاء لذلك النداء النبوي، لاسيما وأن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها للتبرع للجيش، بينما كان في المعارك السابقة يدعو القادرين وأصحاب الرواحل للاستعداد.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٣-١٣٥١.



انطلق الجيش الضخم، وعندما وصلوا إلى المدينة الصخرية (الحجر) أو ما يسمى مدائن صالح.. أسرع بعض الصحابة يروون عطشهم، ويستسقون الماء، ويعدون الطعام مستخدمين الماء الموجود في هذا المكان، لكنهم فوجئوا بصوت مرتفع يناديهم: الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة.

وهي لفظة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع داخل المسجد أو خارجه. فما الذي حدث؟ لقد (أمرهم ﷺ أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء)[١] و(قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثم تقنع بردائه وهو على الرحل)[٢]، فنهض الصحابة (فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر، التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا. قال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم)[٣] (وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة)[٤]. وبعد أيام واصلوا مسيرهم حتى مدينة تبوك، وهناك توقفوا. لم يجدوا الروم النصارى.. كانت المنطقة خالية، فلا روم ولا فرس ولا نشاط عسكري لأحد.

حينها قرر القائد ﷺ أن يبقى أيامًا جاعلًا أرض تبوك مركزًا لنشاطات عسكرية وسياسية مختلفة، وأول المستهدفين بتلك النشاطات هم من جاء من أجلهم: الروم النصارى..

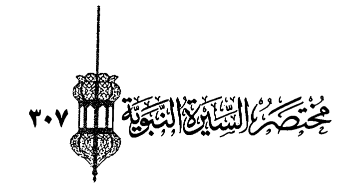
---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٣) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.



إرسال رسالة إلى قيصر الروم

نظر ﷺ إلى أصحابه وهو على أرض تبوك، فقال: (من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: وإن لم تقتل.

فانطلق الرجل به، فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس، قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره، فرمى بالكتاب على البساط وتنحى، فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه، ثم دعا رأس الجاثليق[1] فأقرأه. فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك. فنادى قيصر: مَنْ صاحب الكتاب، فهو آمن؟ فجاء الرجل. فقال (قيصر): إذا أنا قدمت فأتني. فلما قدم أتاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت، ثم أمر مناديًا ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمدًا ﷺ وترك النصرانية. فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره، فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترى، إني خائف على مملكتي، ثم أمر مناديًا، فنادى: ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما خبركم لينظر كيف صبركم على دينكم فارجعوا. فانصرفوا، وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير. فقال رسول الله ﷺ: حين قرأ الكتاب كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية، وقسم الدنانير»[2] على جنده.

كانت هذه الإجابة المرتبكة تدل على أن الروم النصارى وعلى رأسهم قيصر.. بدأوا بمطالعة كتبهم المقدسة ومراجعة نبواتها، حيث ظهر خوفهم الشديد من

---

(١) ربما تعني هذه الكلمة: الكاثوليك، لكنها طائفة نصرانية دولتها الفاتيكان في وسط روما. أو يعني رئيس القساوسة وهو الأقرب.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن حبان ١٠-٣٥٧ أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الرحيم صاعقة حدثنا علي بن بحر حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا حميد عن أنس. حميد الطويل تابعي ثقة، سمع أنس، وتلميذه الفزاري ثقة حافظ. التقريب ٥٢٦ وتلميذه ثقة فاضل. التقريب ٣٩٨. وصاعقة ثقة حافظ. التقريب ٤٩٣ وابن إسحاق قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد ١-٢٤٨: كان من المكثرين الثقات الصادقين الأثبات، عَنِيَ بالحديث، وصنف كتبًا كثيرة، وهي معروفة مشهورة.

هذا النبي التي تشير النبوات في الكتاب المقدس إلى صدقه وصدق ما جاء به. لكنها السلطة التي تكمم الأفواه، وتغلق القلوب، وتحرم صاحبها من اتباع الحق.

كان ارتباك قيصر دافعًا لملك مدينة تدعى (أيلة) على ساحل البحر الأحمر أن يأتي بنفسه.. يحمل هداياه، ويقدم الولاء للنبي ﷺ (وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء. فكساه رسول الله ﷺ بردًا، وكتب له رسول الله ﷺ»[1] «كتب له ببحرهم»[2] أي أبقاه النبي ﷺ ملكًا على أيلة، ثم بعث بسرية إلى مكان آخر هو:

دومة الجندل

(بعث ﷺ إلى أكيدر صاحب دومة بعثًا)[3] وأوكل قيادة هذه السرية إلى الأمير (خالد بن الوليد) رضي الله عنه، وخلال ذلك النشاط حول النبي ﷺ أرض تبوك مدرسة يتعلم منها الجميع، حيث «أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا»[4].. أعطاهم فيها الكثير من الدروس في العبادات، والمعاملات، والنظام الجنائي، والجهاد، والغيبيات وأحداث كبرى تحدث قبل قيام الساعة، وحدثهم عن بعض الآداب والفضائل، وحذرهم من مزالق اللسان، ولما استغرب أحد الصحابة أكد عليه السلام ذلك بقوله: (هل يُكبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[5]، وقد حدث ما يؤكد خطورة اللسان في طريق العودة، حين تطاول قلة من المنافقين على المجاهدين ساخرين منهم، فكان الرد مخيفًا.

---

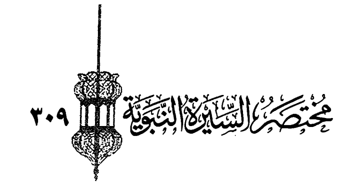
(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٣) سنده حسن، رواه النسائي ٨-١٩٩ وغيره عن محمد بن عمرو عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ سمع أنس. واقد ثقة وتلميذه حسن الحديث من رجالهما. التقريب ٥٧٩ و٤٩٩.

(٤) سنده صحيح، رواه أحمد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان. التقريب، والبقية أئمة.

(٥) سنده قوي، رواه الحاكم ٢-٤٤٧ من طريقين عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة عن ميمون ابن أبي شبيب عن معاذ: وميمون تابعي صدوق. التقريب ٢-٢٩١ والحكم وحبيب تابعيان ثقتان، وله شاهد حسن الإسناد عند أحمد ٥-٢٣١ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ ابن جبل.



المنافقون يسخرون من النبي ﷺ وصحابته

تأجج حسد المنافقين وهم يرون عدوهم محمدًا ﷺ يحكم العرب، وتهابه أقوى دولة في العالم، وتحجم عن مجابهته، فيلجأون إلى وسيلة الفاشلين، وهي التشفي بالوهم، ومحاولة قلب الحقائق. لم يجد المنافقون في هؤلاء الرجال الشجعان الذين تصدوا للروم.. الصادقين التاركين ديارهم في موسم الفاكهة والرطب، ليتجشموا عناء الرحيل خلال الحر والعطش والجوع.. لم يجد المنافقون شيئًا يخفف ما بهم من حسد سوى قلب الصفات الإيجابية إلى سلبية. قال أحدهم: (ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء: أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء) ذهل أحد الجند لتلك الفرية، فقال: (كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن) بآيات تفضح انحطاط النفاق وأهله، فقرأها النبي ﷺ، فصعق المنافق فلحق به يريد تكذيب الصحابي.. يركض خلف ناقته.. يتعلق بالحبل المشدود على بطنها، وحجارة الطريق تضرب قدميه، حدق ابن عمر بقدميه، فقال: (أنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1].

كان المنافقون يعقدون آخر آمالهم لإسقاط الدولة الإسلامية على الروم النصارى في تبوك، لكن أملهم تلاشى، فها هو القائد ﷺ يعود للمدينة أقوى مما كان وأكثر شوقًا، ولذا قال: (إني متعجل إلى المدينة، فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل)[2]، لكن المنافقين مرة أخرى عكروا فرح العودة والشوق لطيبة:

---

(١) سنده صحيح، رواه الطبري في تفسيره ٢-٣٦٨ وابن كثير في تفسيره ٢-٣٦٨ حيث قال رحمه الله قال عبدالله ابن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر فذكره إلى قوله: (تستهزئون)، وقد توبع ابن وهب تابعه الليث عن هشام بن سعد.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٣٩.

صراخ الجاهلية داخل معسكر المؤمنين

في طريق العودة توقف القائد ﷺ بجيشه للاستراحة، فانتشر الجند، وفي أثناء انتشارهم اقترب غلام مهاجري لعاب.. كثير المزاح من غلام أنصاري فكسعه، أي ضربه برجله، أو يده من قفاه، فلم يتحمل الأنصاري هذا المزاح الثقيل، وغضب غضبًا شديدًا فتلاحيا، ثم اشتبك الأخوان اشتباكًا غاب معه التعقل، والصحابة بشر يعتريهم ما يعتري غيرهم من الانفعال الذي غلا، حتى هتف الأنصاري: (يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين)[(١)] (فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما هذا.. دعوى أهل الجاهلية؟!! قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر. قال: فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره)[(٢)].

بهذه العدالة والتأني والحكمة من القائد ﷺ، وعدم الانحياز إلى طرف على طرف تقتل الفتنة، لكن مفكر المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول لم يعجبه قتل الفتنة.. هو يريدها حية تغرق الوطن بالدماء والعداء، فقرر أن يثير عفن النفاق المتكدس في صدره، لعل وعسى أن تقوم حرب أهلية داخل المدينة، فيحقق من خلالها حلمه بطرد النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين، لتعود يثرب كما كانت. فصاح بمن حوله من الأنصار، قائلًا: (فعلوها! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)[(٣)]، ثم تبنى مشروعًا انقلابيًّا على دولته وقائده ﷺ، فقال: (لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله)[(٤)]. وبذلك يسهل التخلص منه. كان الفتى زيد بن أرقم يتلقى تلك الكلمات كالرصاص، فأسرع

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٩٦.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠.

نحو عمه فأخبره، فبلغها بدوره للنبي ﷺ، الذي استدعى ابن سلول لمساءلته، فأتى هو ورفاقه كالحيات، ولما وقفوا أمامه سألهم النبي عما قالوه؟ يقول زيد: (فحلفوا ما قالوا. فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني. فأصابني هم لم يصبني مثله)[١]، ومما زاد حزن زيد ومعاناته ذلك العتاب القاسي الذي تلقاه من عمه، الذي قال له: (ما أردت إلى أن كذبك النبي ﷺ ومقتك؟)[٢]، لم يغب مكر المنافق ابن سلول عن الفاروق، (فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه)[٣].

انطوى زيد على آلامه وأحزانه، وأكمل مسيرًا ثقيلًا إلى المدينة، فقد عكر المنافقون صفو غزوته وجهاده مع النبي ﷺ، وعكروا على المؤمنين ذلك أيضًا، وزاد همومه ابتهاج المنافقين بتصديق النبي ﷺ لهم، فقد نجحوا في التملص من عواقب تلك الكلمات الخطيرة.

لم يكتف المنافقون بموقف السلطة المتحضر منهم، برغم جزمها بكفر ابن سلول ونفاقه، وسوابقه السوداء، لأن الأصل في المواطن أنه بريء حتى تثبت التهمة عليه.. حدث ذلك برغم شناعة هذا القول وخطورته.

كان المنافقون في حالة يأس، يشعرون بأنهم انتهوا، وأن الإسلام بدأ يتجاوز جزيرة العرب، فلاحت لأشرارهم فكرة شيطانية.. هي آخر وأقصى ما يمكن فعله:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

قبل أن يتحرك الجيش مرة أخرى جرى اجتماع سري بين مجموعة من المنافقين، وبعد أن أنهوا اجتماعهم، وبعد أن برد الوقت تحرك الجيش حتى

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

بدأت الشمس بالمغيب، ولما أشرفوا على أحد الأودية كانت الشمس قد غابت، وبدأ الظلام يطارد أشعة الشمس من قمم الجبال، فأمر القائد ﷺ جنده بأن يسلكوا طريق الوادي قائلا: إنه (أوسع لكم)، أما هو فأراد أن يسلك طريقًا مرتفعًا ضيقًا بجانب الوادي ويطل عليه، لكنه كان مختصرًا، ليشرف ﷺ على سير الجيش، ثم نادى عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وطلب منهما أن يسيرا معه مشيًا.

نزل الجنديان عن راحلتيهما، وسارا بجوار قائدهما، فاقتحم ﷺ العقبة فوجدها صعبة فأمر عمارًا أن يمسك بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها، أما الجيش فسال بسلاسة عبر الوادي، وفجأة لمح المنافقون قائد الدولة فوق الجبل، فتغامزوا لتنفيذ الخطة، فهي الفرصة الوحيدة والمناسبة والأخيرة، فليس معه سوى رجلين، تلثم الأشرار، ثم انفصلوا عن الجيش وغادروا الوادي، والتفوا نحو العقبة كالحيات لملاحقته ﷺ قبل أن يلاقي الجيش.

صعد المنافقون الملثمون العقبة، فتعالى رغاء إبلهم، فالتفت ﷺ وصاحباه وقد بدأ الظلام يمحو الملامح، وإذ بالعصابة الملثمة تدهمهم.. تهجم تريد رمي النبي ﷺ من فوق الجبل، فانتفض ﷺ غضبًا لهذه الخيانة، وهتف بحذيفة أن يردهم. نظر حذيفة لوجه قائده، فرأى الغضب يلون وجهه، فانتزع من راحلته عصًا غليظة معقوفة تسمى المحجن، ثم توجه كالأسد نحو الخونة، فرفع المحجن ثم هوى به على وجه أول بعير أمامه، فلوى البعير عنقه وعاد من حيث أتى، ثم ضرب وجه البعير الذي يليه، وظل يضرب وجوه الإبل، فيعلو الرغاء والصراخ ويختلط الغبار بالظلام بالرعب، وحذيفة كالسد يردم الخيانة، فارتعد لشجاعته الملثمون الجبناء، ولم يجرؤ أحد منهم على النزول.. ولوا مدبرين وكأن جن الوادي تضربهم، وانحدروا بسرعة حتى غرقوا في ظلام الوادي وتلاشوا بين الجموع. أما حذيفة فعاد لقائده ﷺ تعلو أنفاسه وتنخفض، ويتصبب عرقًا وشجاعة، فإذ بنبيه

يقول له: (اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار) فنفذوا الأوامر وأسرعوا حتى استووا بأعلاها، ثم تجاوزوا العقبة، وتوقفوا ينتظرون الجيش عند مخرج الوادي فالتفت ﷺ لجندييه الشجاعين، وقال: (هل عرفت ياحذيفة من هؤلاء الرهط أو أحدًا منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان)، ثم اعتذر حذيفة قائلًا: (كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون)، فخاطب ﷺ صاحبيه، وقال: (هل علمتم ماكان شأن الركب وماأرادوا؟ قالوا: لا والله يارسول الله قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها. قالوا: أفلا تأمر بهم يارسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمدًا قد وضع يده على أصحابه)[1].

كان القائد ﷺ حريصًا على سمعة دعوته ودينه ووطنه، لذا تغاضى عن تلك الطوام حتى لا ينفر الناس من الإسلام.. كان في تعامله مع المنافقين ملهمًا.. لم يضيع أوقاته بملاحقتهم والتجسس عليهم وتكميم أفواههم، بل صنع معجزة تكمم أفواههم.. معجزة جعلت شعبه عيونًا لدولته على خونة الوطن والدين.. معجزة اسمها العدل. مرة أخرى يقدم القائد ﷺ درسًا في السلوك السلطوي الإسلامي الرائع في تعامله مع الآخر، وتتضح سعة أفقه وحكمته في تحجيم الأحداث الخطيرة، والسيطرة عليها بحكمة، ثم تجاوزها بهدوء وتعقل دون تعريض أمن الدولة والوطن والمجتمع للزعزعة.

وفي لحظات الانتظار المخيفة تلك سلم القائد ﷺ حذيفة وعمار قائمة بأسماء المنافقين، ثم قال لهما: (اكتماهم)[2] وقال لحذيفة: (في أصحابي اثنا عشر

---

(١) حديث حسن، رواه البيهقي في الدلائل ٥-٢٥٦ عن عروة مرسلًا، ورواه من طريق ابن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة. وهو قوي لولا عنعنة ابن إسحاق وتابعه عند البزار ٧-٣٥٠ أبو بكر ابن عياش عن الأعمش، وله شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ من طريق يزيد أنا الوليد يعني ابن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل.

(٢) حديث حسن رواه البيهقي في الدلائل ٥-٢٥٦ وهو بقية الحديث السابق.

منافقًا، فيهم ثمانية لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة)[١] وهي عبارة عن دمل كبيرة قاتلة. وعند مخرج الوادي التقى الجيش المظفر بقائده ﷺ كما تلتقي الروح بالجسد، ثم سار بهم نحو طيبة، ولما اقترب منها هش لها وتحرك قلبه شوقًا، ولما تراءت طيبة لعينيه تحدث عنها وكأنه يذكر العالم بحبه، ويعرف الناس بمحبوبته وأشيائها فيقول: (هذه طابة وهذا أحد.. جبل يحبنا ونحبه)[٢].

أشرق أحد وتمايلت نخيل طيبة، ولاحت البيوت للقلوب فبشر ﷺ أهلها، وقال: (ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟ قالوا: بلى يارسول الله) فقال: (إن خير دور الأنصار دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير). كان سعد بن عبادة سيد الخزرج بعيدًا، وعندما اقترب قال له ابن عمه أبو أسيد: (ألم تر أن رسول الله ﷺ خيَّر دور الأنصار فجعلنا آخرًا)، كان سعد يحب قومه يريد لهم الصدارة، فلحق بنبيه حتى أدركه، فسأله سؤالًا يبحث عن مواطن الصدارة، فقال: (يارسول الله خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخرًا. فقال: أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟). ثم مد ﷺ يده وقبض أصابعه ثم نشرها، وكأنه يرمي شيئًا، وكأنه يشبه الأنصار بالشمس حين تنشر ضوؤها، فقال: (وفي كل دور الأنصار خير)[٣]. ثم بشر رجالًا ونساء فاضت أعينهم ساعة الرحيل حزنًا، لأنهم لم يجدوا رواحل تحملهم. حزنًا ألا يجدوا مالًا ينفقونه في تجهيز المجاهدين. فقال: (إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: يارسول الله وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر). لقد حصلوا على أجر الجهاد الذي يقول عنه ﷺ: (مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

(٢) صحيح البخاري ٦-٨.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

وَلا صَلاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ)[١]، دين لايهمش الفقراء، وقائد لا يتعامل معهم بفوقية، وإذا كان الفقراء قد جاهدت نياتهم نيابة عنهم، فهناك المنافقون الذين انتهوا من إعداد ملفات أعذارهم الملفقة، وهناك المشتاقون لحبيبهم ﷺ، ومن بينهم عصافير طيبة.. أطفالها الذين هرولوا لاستقباله من مدخل المدينة جهة تبوك، التي يقال لها (ثنيات الوداع).

الأطفال الذين تسابقوا نحو ثنية الوداع

ها هو أحدهم يقول: (خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ مقدمه من تبوك)[٢]. و(خرج الناس يتلقونه، فخرج النساء والصبيان، فكنت فيمن تلقاه مع الصبيان، حتى لقينا رسول الله ﷺ بثنية الوداع)[٣].. أحد هؤلاء الأطفال ابن الشهيد جعفر الطيار الذي يقول: كان ﷺ (إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة)[٤]. وبعد أن حيا الأطفال والنساء.. توجه نحو المسجد لـ (أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر ضُحًى، دخل المسجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس)[٥]، ثم جلس للناس، وفي أثناء جلوسه عليه السلام تهادى نحوه رجل يحاول جمع حطام قلبه.. رجل يظله الخجل ويقله.. ذو قصة مؤثرة جدًّا، وحزينة جدًّا.

بعد أن حيا ﷺ الأطفال والنساء والرجال المبتهجين بعودته من تبوك، وبعد أن صلى وجلس لاستقبال شعبه، إذ بأكثر من ثمانين رجلًا من المتخلفين عن الجيش

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٩٨.

(٢) صحيح البخاري ٣-١١٢١ وابن حبان ١١-١١٣ والطبراني في الكبير ٧-١٥٨ وأحمد ٣-٤٤٩ وغيرهم، واللفظ لابن حبان والطبراني على الترتيب.

(٣) صحيح، وهو الحديث السابق تماما.

(٤) صحيح مسلم ٤-١٨٨٥.

(٥) صحيح البخاري ٣-١١٢٣.

يتوافدون على المسجد.. (يعتذرون إليه ويحلفون له، فقبل منهم ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله)، ثم دخل المسجد صحابيان لاعذر لهما في التخلف، سوى التسويف، هما: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فاعترفا بتسويفهما وخطئهما. أنصت ﷺ لكل منهما، لكنه قال لهما كلامًا يختلف عن البقية. لقد صدقهما، ثم أضاف كلمة لكل منهما، قال: (قم حتى يقضي الله فيك).

بقي رجل واحد لم يأت.. رجل قد احتشدت في رأسه الحيرة والهموم، وبرغم أنه شاعر الكلمة والبيان الساحر، وبإمكانه أن ينمق عذرًا يخلب الألباب، إلا أن ضميره وخوفه من الله جعله يقول: (طفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا).. ضاقت به السبل فاتجه لاستشارة كل ذي رأي من أهله، لكنه عندما قيل له أن نبيه ﷺ (قد أظل قادمًا، زاح عنه الباطل، وعرف أنه لن يخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب)، فقرر أن يقول الصدق.

تهادى كعب بن مالك نحو المسجد للسلام على نبيه.. يجر خطاه.. يلملم حطام قلبه والخجل يظله ويقله. اقترب فسلم فرد ﷺ السلام، ونظر إليه وتبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال. أقبل كعب حتى جلس بين يديه، فقال ﷺ: (ماخلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟) فقال: (بلى، إني والله يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله.. لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك).

كان ﷺ ينصت للندم.. للصدق يتفجر كالدموع، ثم قال: (أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك)، نهض كعب وانصرف تلاحقه عيون أقاربه، فهو كعب الذي شهد بيعة العقبة، وشهد المعارك إلا بدرًا.. انصرف مهمومًا خجلًا، فتأثر لحزنه رجال من أقاربه بني سلمة.. كانوا في مجلس النبي ﷺ ينصتون للحوار،

فانطلقوا خلفه علَّهم يقنعونه باختلاق عذر كأعذار المنافقين المتخلفين لينتهي الأمر. حاصروه بكلماتهم، وقالوا: (والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك). ظلوا يؤنبونه حتى تضعضع، وقال لنفسه: (أردت أن أرجع فأكذب نفسي)، وفجأة طرح عليهم سؤالًا: (هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك). فقال كعب: (من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي). فقال كعب في نفسه: (رجلان صالحان قد شهدا بدرًا)، ثم قرر الثبات على صدقه، ففي هذين الصحابيين أسوة وقدوة. ثم واصل مسيره.

أما النبي ﷺ فنهض نحو بيت فاطمة، حيث (كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر، فآخر ما يكون عهده به من أهل بيته فاطمة رضي الله عنها، وإذا قدم فأول ما يدخل عليه فاطمة)[(١)]، ثم توجه لأحد أبياته، وبعد أن دخل رأى الناس عجبًا:

قائد تهابه فارس والروم وتجرؤ عليه جارية

أقبلت جارية ممتلئة بالفرح، تحمل دفًّا نحو بيته.. بيت عائشة، (فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن ردك الله سالمًا، أن أضرب على رأسك بالدف. فقال رسول الله ﷺ: إن نذرت فافعلي، وإلا فلا. قالت: إني كنت نذرت. فقعد)[(٢)].

---

(١) حديث حسن، رواه في الآحاد والمثاني ٥-٣٥٩ وغيره من طريق سليمان المنبهي عن ثوبان. وسليمان تابعي مجهول، لكن للحديث شاهدًا عنده أيضًا، لكنه ضعيف لضعف إبراهيم بن قعيس عن نافع عن ابن عمر، وله شاهد في المستدرك ١-٦٦٤ من طريق أبي فروة الرهاوي عن عروة بن رويم سمعت أبا ثعلبة الخشني. وأبو فروة ضعيف، وشاهد رابع بسند جيد، لولا أخطاء الأسود بن حفص حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر قبَّل ابنته فاطمة.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن حبان (موارد -١-٤٩٣) أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا زياد بن أيوب حدثنا أبو ثميلة يحيى بن واضح حدثني الحسين بن واقد حدثنا عبدالله بن بريدة عن أبيه. شيخه هو الإمام ابن خزيمة. وزياد ثقة حافظ. التقريب ٢١٨ وأبو ثميلة ثقة ٥٩٨ وشيخه وشيخ شيخه ثقتان.

جلس محمد بن عبد الله ﷺ خير من وطىء الأرض.. جلس أتقى الناس وأخشى الناس لله.. جلس القائد الذي تهابه فارس والروم على الأرض من أجل مواطنة فقيرة، تريد تحقيق حلمها. فأمسكت بالدف وبدأت تضرب فوق رأسه، (فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل عمر، فألقت الدف تحتها وقعدت عليه، فقال ﷺ: إن الشيطان يخاف منك يا عمر)(١).

لم تكتف الجارية بالدف.. لم تنصرف، بل توجهت بسؤال لنبيها، فقالت: (إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا. وهو مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية)، فسألها عن ذبح أهل الجاهلية هناك. هل كانوا يذبحون (لصنم؟ قالت: لا. قال: لوثن؟ قالت: لا. قال: أوفِ بنذرك)(٢).

فالذبح عبادة، والعبادة إما أن تكون لله، أو تكون شركًا. لأن الله سبحانه يقول لنبيه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، وبما أن نذر الجارية كان كمن نذر أن يذبح كبشًا في منتجع إن نجح، أو رزق مولودًا فلاشيء فيه. لذا أقر الجارية على نذرها، فهو يقول: (لا نذر في معصية الله). انتهى ذلك المشهد مع أطياف الشعب، ودخل القائد المظفر ﷺ بيته المتواضع، فلم يستنكف العيش فيه بعد أن دانت له الجزيرة تقريبًا، ولم يترفع عن تلك الغرف الصغيرة بعد أن بدأ زعماء القبائل يتوافدون عليه.. معلنين انضمامهم للدولة الإسلامية دون إكراه، وبدأ ملوك العالم من حوله يهدون له هيبة وإجلالًا.. لم يتغير بعد كل هذه العظمة والهيبة، بل ازداد تواضعًا. لم يأمر ببناء قصر مهيب ليري العالم من

---

(١) سنده صحيح، رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٧٧ وغيره عن الحسين بن واقد ثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه، وهو سند صحيح، مر تخريجه في الحديث قبل السابق.

(٢) سنده حسن، رواه أبو داود ٣-٢٣٧ حدثنا مسدد ثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة عن عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سند حسن معروف، وعبيد الله ثقة، وليس كما قال الحافظ رحمه الله: إنه صدوق يخطئ - انظر تعليقي على التقريب ١-٥٣٠ تلميذه الحارث حسن الحديث إذا لم يخالف، وهو من رجال مسلم. التقريب ١-١٤٢.

حوله أبهة دولته كفارس والروم، ولم تتغير ملابسه المتواضعه، بل عاد لحجراته المتواضعه التي قد لا تتجاوز الواحدة عشرين مترًا. دخل القائد ﷺ حجرة زوجته عائشة فوجدها قد أجرت تغييرات على تصميم الحجرة: زينت باب حجرتها بعباءة، وغطت جزءًا من الجدار بستر من بلاد الأرمن، وكان في داخل الجدار كوة كالرف.. تضع عائشة فيه أغراضها، وقد أسدلت عليه ستارة. دخل القائد ﷺ فسلم وتأمل الجدار المكسو بالستر، فقال لحبيبته: (ما لي ياعائشة والدنيا. ثم مد يده نحو الستر فهتكه حتى وقع بالأرض)[1]. في أثناء ذلك هبت ريح فتحرك جزء من الستارة، وكشفت عن عرائس لعائشة، فقال: (ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي)، ثم جالت عيناه بين البنات، فرأى شيئًا غريبًا له أجنحة. (رأى بين طوبها فرساً له جناحان من رقع. قال: فما هذا الذي أرى في وسطهن؟ قالت: فرس. قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان. قال: فرس له جناحان؟ قالت: أو ما سمعت أن لسليمان بن داود خيلًا له أجنحة؟ فضحك ﷺ حتى بدت نواجذه)[2].

كانت عائشة تتمتع بدلال هذا الزوج الرائع.. كانت تتلقى منه الذوق والمستوى الرفيع في التعامل حتى مع أعدائه، فذات مرة دخل عليه بعض حاخامات اليهود، فألقوا عليه تحية كالسم، وقالوا: (السام عليكم)، ففهمتها عائشة، فاستشاطت غضبًا، وقالت: (وعليكم السام واللعنة)، فهدأ ﷺ ثورتها، وقال: مهلًا ياعائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله)، فقالت (يارسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: قد قلت: وعليكم)[3].

---

(١) سنده حسن، رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٢١٩ واللفظ له، والنسائي في الكبرى ٥-٣٠٦ وأبو داود ٤-٢٨٣ عن يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن غزية: أن محمد بن إبراهيم التيمي حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة. يحيى الغافقي من رجال الشيخين، وشيخه لا بأس به من رجال مسلم، والبقية ثقات، وقد جاء في أبي داود الشك بين خيبر وتبوك.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٤٢.

إذا كان هذا هو رفقه ﷺ بأعدائه الذين تآمروا ضده وخانوه، وحاولوا قتله وحاربوه، فكيف سيكون موقفه من ثلاثة مؤمنين ينتظرون حكم الله فيهم، لتخلفهم عن غزوة تبوك.. ضاقت بهم الدنيا، واسودت في وجوههم حتى ضاقوا بأنفسهم.

أوامر صارمة تجاه ثلاثة مؤمنين

أصدر النبي ﷺ أمرًا بعدم التحدث مع هؤلاء المؤمنين الثلاثة فقط، من بين كل من تخلف عن تبوك، فإذ بهم غرباء في شوارعهم وأحيائهم.. تتحاشاهم العيون، وتشيح عنهم الوجوه، حتى تحولت الأماكن حولهم إلى صمت حزين يحل حيثما حلوا. لم تعد الدنيا كما كانت.. حتى قال كعب: (تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف)، عجز مرارٍ وهلالٍ عن تحمل صد الأحبة، فبقيا في بيتيهما يبكيان بحرقة، ويسألان الله الفرج، أما كعب فكان أشب منهما.. ظل متشبثًا بالأمل.. يفتش عنه في الطرقات.. يتردد في الأسواق.. يخالط الناس، ويصلي معهم في مسجد النبي، فإذا ما انصرف ﷺ من صلاته، وجلس بين أصحابه نهض كعب كالغريب فمر عليهم وسلم، فلا يسمع ردًّا، فيقول لنفسه: (هل حرَّك ﷺ شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟).

جواسيس الدول العظمى في المدينة

مرت الأيام والأسابيع والمؤمنون الثلاثة في غربة قاتلة.. لا جيران يردون السلام، ولا أقارب يزورون أو يزارون، ولا مارة يكترثون. شهر وكعب بن مالك يتمنى لو سمع أحدًا يناديه.. يكلمه.. يسأله عن حاله، أو حتى يرد السلام عليه.

شهر من الحزن والبكاء، وكأن كعبًا في كوكب آخر لا يفهم أحد لغته، ولا حتى إشاراته.. إذا حانت الصلاة مشى خلال الصمت والنظرات، حتى يدخل المسجد،

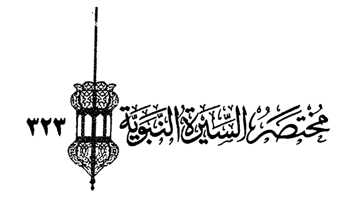
فيصلي خلف نبيه ﷺ، ثم يسلم وينظر إلى أحب الناس إليه عله يبادله بنظرة، أو ابتسامة، أو إشارة أو حتى عتاب. كان يسأل نفسه، ويقول: (آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني).

شهر من الغربة.. قرر كعب بعدها أن يكسر هذا الصمت، فتوجه نحو حائط أحب الناس إليه بعد رسول الله ﷺ.. حائط ابن عمه أبي قتادة، ولما وصل جدار الحائط تسلقه، ثم انحدر إلى داخل الحائط.. مشى بين نخيله ومائه حتى اقترب منه: فقال له السلام عليكم. تسمر أبو قتادة كالحزن فلم يرد عليه. نظر إليه كعب نظرة رجاء وناشده: (يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟) ألجم الحزن أبا قتادة، وخنقته العبرة، فقال كعب: (يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟) فسكت. فكررها كعب مرة ثالثة ورابعة: وإذ بالدموع تتكلم. فاضت عينا أبي قتادة، ثم تهدج صوته، وقال: (الله ورسوله أعلم)، انطوى كعب على حزنه، ثم انثنى ومشى ثقيلًا، وخرج من الحائط وقد اسودت الدنيا بوجهه.. انتشرت أخبار المقاطعة حتى علم جواسيس إحدى الدول المجاورة، ونقل الخبر لملكها، فظن أن الشاعر ذائع الصيت ما زال يتسول بشعره، ويمكن شراءه كما في الجاهلية، فلم يجد أنسب من هذه الفرصة للطعن في النبي ﷺ وشراء المدائح. وذات يوم وبينما كان كعب يمشي في سوق المدينة.. إذ بإبل محملة بأطعمة شامية يقودها نبطي من أنباط الشام.

دخل النبطي السوق وأناخ إبله، وبدأ بعرض سلعته وأطعمته، والتف الناس حوله، ليفاجأوا بهذا التاجر الغريب يهتف بهم: (من يدل على كعب بن مالك؟) تلفت الزبائن وهم حول بضاعته، فلمحوا كعبًا يسير حزينًا لوحده، فمد بعضهم

أيديهم نحوه وأشاروا إليه. ترك النبطي بضاعته دون وجل، فهو في عاصمة الدولة الإسلامية، حيث الأمن والأمان الحقيقيين.. حيث خوف الله في نفوس الناس، وصرامة الدولة في تنفيذ النظام على أي مواطن مهما كان مركزه أو قرابته، حتى لو كانت فاطمة بنت قائد الدولة ﷺ.

أسرع النبطي ليلحق بكعب، ولما اقترب منه أوقفه، ثم أخرج من ثيابه شيئًا مطويًّا ومده إليه. أخذ كعب المطوية وتوجه إلى بيته، ولما دخل فتحها، فإذا هي رسالة فاخرة قد كتبت على الحرير، من أحد الملوك الذين تسببوا في معاناته. كانت رسالة من ملك غسان النصراني العربي الحاقد على الدولة الإسلامية والعميل لإمبراطورية الروم. قرأ كعب الرسالة فإذا الملك يعرض عليه منح اللجوء قائلًا: (أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولامضيعة، فالحق بنا نواسك). كان الملك يريد توظيف هذا الكنز الإعلامي ضد دولة الإسلام، لكن رسالته لم تحرك ذرة في كيان كعب، لم تضف له إلا مزيدًا من الهموم، فقال لنفسه: (وهذا أيضًا من البلاء) (قَدْ بَلَغَ بِي مَا وَقَعْتُ فِيهِ أَنْ طَمِعَ فِيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ)، ثم نهض بثقة المؤمن وتوجه إلى تنور يتقد لهبًا، فرمى قطعة الحرير بين ألسنة لهبه، فحفاوة ملك غسان وهداياه وحريره وكنوزه وطبيعة بلاده الساحرة لا تعدل عند كعب ابتسامة واحدة من محمد ﷺ، ظل كعب ينتظر تلك الابتسامة، حتى مر أربعون يومًا، ليس له أنيس ولاعزاء بعد الله إلا زوجته، وفي اليوم الأربعين فوجئ برجل يناديه. خفق قلبه، فهذه أول مرة يسمع فيها من يناديه. فتح الباب وانتظر الخبر السعيد بقلب يرتجف. وإذ بالرجل يصدمه، يقول له: (إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك). أحبط كعب.. فقد كل شيء.. تقوض العالم فوق رأسه، حتى سأل الرجل من ذهوله: (أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها). فنادى كعب زوجته وأخبرها، وبكى قلبه وأبكاها.



كعب معزول عن العالم

نادى كعب زوجته وأخبرها بأمر نبيه ﷺ الذي لايصدر أوامره من تلقاء نفسه، فهو لم يهتم للعشرات من المتخلفين، بينما أمر المدينة كلها أن تعتزل كعبًا ورفيقيه. قال كعب لزوجته: (الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر). جمعت المرأة ثيابها، وغادرت بيت حبيبها والحزن يقتلها، وانطلق المبعوث إلى مرارة بن الربيع، فقال له: (إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك)، وتوجه كذلك للشيخ الذي أنهكه الحزن هلال بن أمية، وبلغه فنادى هلال زوجته وأخبرها، فذهلت لكنها لم تغادر بيتها. تأملت بكاء زوجها وضعفه وحاجته لها، فلبست جلبابها وخمارها وخرجت تسير عبر طرقات طيبة نحو النبي ﷺ، فسلمت عليه وعرفته بنفسها، وقالت له: (يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه. قال ﷺ: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان أمره ما كان إلى يومه هذا). عادت المرأة لتضميد جراح زوجها، فعلم بالخبر بعض أقارب كعب، فوجدوها فرصة للحديث معه.. توجهوا نحوه وهو لوحده قد بلغ به الحزن مسافات مهلكة، فأشاروا عليه وقالوا: (لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه)، لكن كعبًا كان مدركًا أنه ابتلاء، وقد استعد لتحمل تبعاته، فقال: (والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، ومايدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب).

مرت خمسون ليلة من البكاء والحزن والغربة، وبعد أن انقضت الليلة الخمسون وبدأ الفجر يتسلل.. يبدد بقاياها كان كعب يصعد إلى سطح بيته، ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتي الفجر، ثم يصلى الفجر، ويجلس بين نسائم الفجر التي فقد لذة الإحساس بها.. قد ضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.. يتأمل النخيل والجبال، وإذ بصوت يدوي من فوق جبل سلع، يملأ سماء المدينة يصرخ:

يا كعب بن مالك.. أبشر

كان النبي ﷺ في مسجده يصلي الفجر بأصحابه، فلما سلم أوحى الله له، فخاطب من في المسجد رجالًا ونساءً: أن الله قد تاب على الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرار بن الربيع. انفجر المسجد بالحمد والشكر، وانطلق رجال من باب المسجد، منهم من يركض، ومنهم من يركب فرحًا نحو بيوت الثلاثة. كان كعب ساعتها وحيدًا كئيبًا على سطح منزله تحفه الجبال والنخيل، وكأنها تخنقه، وكأن الأفق يموت بين عينيه.. قد ضاقت به الأرض. صعد أحد المبشرين من فرحه جبل سلع ولما علاه توقف، ثم رفع عقيرته ودوى صوته بصرخة ملأت سماء المدينة وسبقت الخيل: (يا كعب بن مالك أبشر). انفجر الفرح داخل أضلاع كعب، وأدرك أن الفرج قد جاء، وأن الله قد تاب عليه، فخر ساجدًا لله، شاكرًا للواحد الأحد، وإذ به يسمع وقع حوافر الفرس، وهي تدب على الأرض.. أقبل المبشرون، وانطلقت الكلمات المحرومة، والمشاعر المكبوتة شلالات من الدموع والعناق، وعاد الأبناء والزوجات، وتحولت المدينة إلى ساحات فرح، وشعر المنافقون بوزنهم الضئيل، وهم يرون المدينة تحتفل بالصادقين، وانطلق كعب إلى أحد أخوته فاستعار منه ثوبين، فأعاره، ثم خلع ثوبيه ولبسهما. ولما أقبل عليه أخوه الذي بشره من فوق الجبل عانقه، ومد يديه بالثوبين هدية.

ثم انطلق أسعد رجل في العالم عبر الشوارع والطرقات.. يخفق قلبه شوقًا لنبيه.. يريد الارتواء من قربه، لكن أشياء أعاقته عن المسير. أفواج وأمواج تتدفق.. تغمره في الطرقات تعانقه تهتف له، وتقول: (لتهنك توبة الله عليك)، وبعد أن شق مواكب المبشرين أشرق مسجد نبيه ﷺ أمام عينيه، فدخل فإذ بقائده وحبيبه ﷺ جالس حوله بعض أصحابه، الذين تركوا لأخيهم الاستمتاع بأجمل اللحظات، إلا واحدًا عجز عن كبت فرحه.. هو طلحة بن عبيد الله الذي فز وهرول وصافحه وهنأه، يقول كعب: (والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. فلما سلمت على رسول الله قال ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم

مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله)، ثم جلس كعب بين يدي قائده، فعبر عن شكره لله بكلمات كالأفعال، قائلًا: (يارسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله)، لكن النبي ﷺ قال: (أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك)، فقال: (فإني أمسك سهمي الذي بخيبر)، ثم استرسل ممتنًا لله سبحانه، فقال: (يارسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت)، ثم يذكر أثر الصدق على حياته، فيقول: (فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت)، فلإن بلغ الموت في سبيل الله بصاحبه درجة الشهداء، فإن الصدق يبلغ بصاحبه درجة أعلى دون دماء. حيث يقول الصادق ﷺ (لايَزَالُ الْعَبْدُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا)، وبعد تلك الأفراح تلا ﷺ ما أنزله التواب الرحيم:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، (فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا. فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1]، انتهت أحزان الثلاثة، وبقي حزن رابع.. بقي حزن زيد بن أرقم.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣، وقد أكملت الآية.

زيد بن أرقم لا يخرج من بيته أيضًا

حولته أيمان المنافقين الكاذبة إلى كاذب.. غارق في همومه منذ أخبر قائده ﷺ بتهديد ابن سلول للدولة الإسلامية. يقول زيد: (فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت)، وفي أحد الأيام طرق بابه شخص فلما فتح له أخبره أن القائد ﷺ يستدعيه.

تهادى زيد والهواجس تملأ رأسه، وبمجرد دخوله تلاشت هواجسه وهو يرى ابتسامة نبيه ﷺ، وهو يقول له: (إن الله قد صدقك يازيد)[١].

قرأ عليه سورة المنافقين التي نزلت للتو: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ① ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

لم يعد للنفاق أرض تقله، ولاسماء تظله. طاشت ضربة ابن سلول الحقيرة والأخيرة، لكن هذه المرة ليست في الهواء، بل في صدره، وزاد من انهياره.. انهيار مسجد الضرار الذي بناه المنافقون لمضارة مسجد قباء، ولجعله مسجد مؤامرات يشتتون من خلاله الصف. بدأ حقد ابن سلول يفتك به كالسرطان.. عرته سورة المنافقين، وفضحته الفاضحة سورة التوبة، التي لايكره المنافقون على مدار التاريخ سورة مثلها. تحول المنافقون إلى أطلال.. خرائب وهم يرون الزعماء والوفود تتدافع معلنة ولاءها للدولة الإسلامية.

مملكة دومة الجندل تحالف الدولة الإسلامية

كان أشد ما يخنق المنافقين مشهد زعماء كانوا بالأمس يتمنون منادمتهم، فغدوا تابعين لهذا النبي العظيم ﷺ، ومن بين هؤلاء ملك دومة الجندل واسمه

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩، وقد أكملت الآية.

أكيدر، وقد جاء يعلن الولاء لدولة الإسلام. لم يخض حربًا بالوكالة عن فارس تجاه الدولة الإسلامية، بل تهادى موكبه مع خالد بن الوليد محملًا بهدايا فاخرة، ولما وصل المدينة وقابل النبي ﷺ حياه، وقال: (يارسول الله، بلغني أن خيلك انطلقت وإني خفت على أرضي ومالي، فاكتب لي كتابًا لاتعرض له ولا لشيء هو لي، فإني مقر بالحق الذي هو عليّ)[١] أملى القائد ﷺ على كاتبه كتابًا، وهذا الكتاب يعني أن هناك شكلًا من أشكال الاتحاد السياسي بين الدولة الإسلامية ومملكة دومة الجندل.. تمثل فيه الدولة الإسلامية دور الحامي بمقابل، مع احتفاظ ملك دومة بحكمه، وهو امتداد للمرونة التي مارسها ﷺ في وثيقة الحديبية.

ابتهج أكيدر بهذه الوثيقة مع هذا النبي الذي أبهر العالم بفتح مكة، ليس من أجل توسيع رقعة دولته، ولا انتقامًا من قريش، بل نصرة لقبيلة وثنية، وتنفيذًا لاتفاقية دفاع مشترك معها. وبعد الاتفاق قدم (أكيدر) هداياه، ومن بينها لباس حرير يسمى (قباء منسوجًا بالذهب، مما كان كسرى يكسوهم، فقال: يا رسول الله اقبل عني هذا)[٢]. تناول القائد ﷺ ذلك الحرير الفاخر المنسوج على شكل جبة، أو ما يسمى اليوم بالمعطف أو الجاكيت ولبسه، فانطلقت همهمات التعجب، ثم صعد المنبر وظل قائمًا صامتًا.

حدق الشعب بقائده ينتظرون كلماته بشغف، لكنه لم يتكلم، بل جلس فازداد شوقهم لخطابه، لكنه ظل صامتًا، ثم نهض ثانية، ونزل دون أن يتفوه بكلمة،

---

(١) سنده قوي، رواه في معجم الصحابة ٢-٣٥١ حدثنا محمد بن بشر أخو خطاب نا جعفر بن حميد نا عبيد الله ابن إياد عن أبيه عن قيس بن النعمان. محمد ثقة. تاريخ بغداد ٢ – ٩٠، وشيخه ثقة. التقريب ١٤٠ وعبيدالله صدوق من رجال مسلم ووالده ثقة. انظر: التقريب ٣٦٩ و١١٦ لكنّ هناك وهم في المتن بلفظ: فإني أهديته لك. فقال النبي ﷺ ارجع بقبائك، فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حرمه في الآخرة. فالصحيح أنه قبلها كما سيأتي في الصحيح وغيره.

(٢) سنده قوي، رواه في معجم الصحابة ٢-٣٥١ حدثنا محمد بن بشر أخو خطاب نا جعفر بن حميد نا عبيد الله ابن إياد عن أبيه عن قيس بن النعمان. محمد ثقة. تاريخ بغداد ٢ – ٩٠، وشيخه ثقة. التقريب ١٤٠ وعبيدالله صدوق من رجال مسلم ووالده ثقة. انظر: التقريب ٣٦٩ و١١٦ لكنّ هناك وهم في المتن بلفظ: فإني أهديته لك. فقال النبي ﷺ ارجع بقبائك، فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حرمه في الآخرة. فالصحيح أنه قبلها كما سيأتي في الصحيح وغيره.

وفجأة خلع الحرير وجعله بيده، فاقترب الناس (يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا)[١]. فاضت دموع أنس وهو يتذكر ابن معاذ، وقال: (إن سعدًا كان أعظم الناس وأطوله، ثم بكى فأكثر البكاء)[٢]، ومن لا تبكيه ذكريات ومواقف سعد. أما القائد ﷺ فنادى أحد رجاله وسلمه الحرير، وأمره بإعطائه لعمر، فقال بعض الحضور مستغربين سرعة خلعه: (قد أوشكت ما نزعته يا رسول الله؟ قال: نهاني عنه جبريل عليه السلام)[٣] وبعد قليل أقبل عمر يبكي، ويقول: (يارسول الله كرهت أمرًا وأعطيتنيه؟ قال: إني لم أعطكه لتلبسه، إنما أعطيتكه تبيعه)[٤]. ثم سافر أكيدر، وبعد مدة أرسل هدية ثانية عبارة عن قطعة حرير كبيرة، فاستدعى ﷺ عليًا، ثم قال له: (شققه خمرًا بين الفواطم)[٥]. والفواطم: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بن أسد (أم علي)، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب.

فرحت الفواطم بهدية قائد الدولة ﷺ وبالحرير الفاخر، لكن مهلًا. لماذا قال ﷺ: شققه بين الفواطم.. أين زينب.. أين أم كلثوم؟

أين زينب.. أين أم كلثوم

لماذا لم يذكرهما ﷺ؟ لماذا لم ينلهما شيء من هذا الحرير المدهش؟

سؤال يحدق بباب زينب.. ينتظر وينتظر فلا يجد سوى الحزن إجابة. لم تجب زينب ولم تعد لبيتها، وعينا طفلتها الصغيرة أمامة تبحث عنها في المسجد في

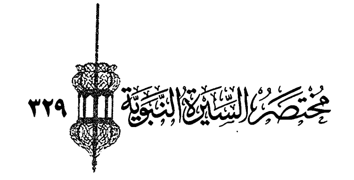
(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية ٥-٢٠٨ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس. وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وإمام في المغازي مر معنا كثيرًا.

(٢) سنده قوي، وقد مر معنا تحت عنوان: دومة الجندل وانظر السنن الكبرى ٥- ٤٧٢: حدثنا يوسف بن سعيد المصيصي حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير سمع جابر . يوسف ثقة حافظ. التقريب ٢-٣٨١ وشيخه ثقة ثبت. التقريب ١٥٣.

(٣) سنده قوي، وهو الحديث السابق.

(٤) سنده قوي، وهو الحديث السابق.

(٥) صحيح مسلم ٣-١٦٤٥.



طرقات المدينة وعند الجيران فلا تجدها. ماتت زينب وتحدثت عن موتها امرأة عظيمة تدعى أم عطية. تلك المجاهدة والممرضة التي (غزت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، تخلفهم في رحالهم، وتصنع لهم الطعام، وتداوي الجرحى، وتقوم على المرضى)[1]. ها هي أم عطية تبكي مع النساء حول جسد زينب. والنبي حزين يقول: (اغسلنها وترًا)[2]. (ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها)[3]. (اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتن فآذنني)[4].

بدأن بتغسيل زينب الطاهرة كما أوصاهن ﷺ، ولما انتهين أخذن بجدل شعرها المبلل (ومشطناها ثلاثة قرون)[5]. (فضفرنا شعرها ثلاثة أثلاث، قرنيها وناصيتها)[6]. فرمى ﷺ لهن بإزاره وأمرهن أن يجعلنه يلاصق جسدها مباشرة، ثم حملوها على الأعناق أمام حزن ابنتها الصغيرة أمامة، وزوجها أبي العاص ابن الربيع، ثم صلى عليها والدها ﷺ والمؤمنون، ثم حملت إلى قبرها. أدخلوها في اللحد ونصبوا عليها اللبن، ثم أهالوا عليها التراب، وبعد ذلك أو قبله فجع ﷺ بموت أختها أم كلثوم.. يشاهده أنس وهو جالس على القبر وعيناه ﷺ تدمعان.

رحلت أم كلثوم وزينب في قافلة لا تمهل أحدًا، ولا تمنحه وقتًا كي ينهي أشغاله، أو يودع الجميع.. قافلة لا يعرف جدول رحلاتها التأجيل، ولم تتأخر يومًا مواعيد وصولها أو مغادرتها. وخلال ترداد تلك القافلة لم تصفُ الحياة للنبي ﷺ، فلله ما أخذ ولله ما أعطى، لكن بين قوافل الموت قوافل للحياة.. للمستقبل.. قوافل أقبلت من كل الجهات تعلن انضواءها للدولة.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٣-١٤٤٧.
(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٣) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٤) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.
(٥) صحيح مسلم ٢-٦٤٧.
(٦) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.

عام الوفود

ففي هذا العام توافد زعماء القبائل نحو النبي ﷺ، حتى تحولت المدينة إلى عاصمة مزدانة ومزدحمة بالمبايعة، والالتزام السياسي والديني بالإسلام.. كان كل يوم يمر يدني الجاهلية من نهاياتها، حيث يعود كل وفد إلى دياره محطمًا داخل أعماقه كل رموز الجاهلية، وعندما تطأ أقدامه دياره.. تبدأ الأيادي التي تعلمت الطهارة في المدينة بتحطيم الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله الواحد الأحد، ولعل من أول الوافدين.

وفد الطائف (ثقيف)

الذين انحدروا من جبال العناد والطائف نحو المدينة مبايعين، وكان بصحبتهم رجل شريد أعياه التعب والخوف من النبي ﷺ، وضاق به الطائف، بل ضاقت به الأرض.. ضاقت الدنيا بوحشي بن حرب قاتل حمزة، لكن رجلًا حكيمًا نصحه بالانحدار معهم والتوجه نحو أبواب الحرية التي أشرعها النبي ﷺ.

قابل الوفد القائد ﷺ، لكنهم لم يسلموا ولم يعلنوا انضمامهم للدولة الإسلامية إلا بشرطين خطيرين هما:

- الأول هو أن لا يؤدوا الركن الثالث من أركان الإسلام، وهو الزكاة.
- الآخر هو أن لا يسهموا مع دولتهم الإسلامية في الجهاد.

شرطان خطيران، وافق النبي القائد ﷺ عليهما دون تردد، فهو أعلم الناس بدين ربه، وأثر الناس ثقة بتعاليمه.. يدرك أن المستقبل لهذا الدين، وأن اعتناق الإسلام ليس كاعتناق غيره، فالشعور بالتوحيد شغف لا يتوقف عن استدعاء المزيد، وهؤلاء القوم اشترطوا بحثًا عن التميز، لكنهم سيجدونه مع التوحيد

نوعًا من القصور لا يليق، ولذا فإن أعرف الناس بطبائع البشر ﷺ قد قال بعد مغادرتهم: (سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا)[1].

أسلمت ثقيف وأسلم وحشي، وقص على نبيه قصة قتله عمه حمزة، وبقي في المدينة، بينما عادت ثقيف، وتوالت الوفود تسيل من كل فج عميق.. تعلن انضمامًا سياسيًّا لدولة الإسلام بكافة أطيافها المسلمة والوثنية وغيرها، وفي هذا العام التاسع، وبالتحديد قبل دخول أشهر الحج، قرر النبي ﷺ أن تقود الدولة الإسلامية الحج هذا العام لأول مرة في التاريخ، وقد رشح لإمارة الحج وقيادته وزيره الأول، وصاحبه في الغار أبو بكر الصديق، ليقود الأمة في حجها.

حجة أبي بكر رضي الله عنه

تم نشر الخبر في كافة مناطق الدولة الإسلامية وقبائلها، فانطلق عشرات الألوف خلف أبي بكر رضي الله عنه، وعلمت الأمة قدره عند نبيه، وبين أمته، وبعد أن انطلق بيومين أو ثلاثة، نزلت سورة براءة وهي التوبة، فاستدعى ﷺ علي بن أبي طالب، وقرأها عليه وأملاها، ثم أمره بتبليغ ما فيها على كافة الحجاج، ومن بين تلك البيانات:

- منع أي مشرك يعلن شركه من الحج بعد هذا العام.
- منع التعري داخل البيت الحرام.. خاصة في أثناء الطواف، وهي من عادات الشرك البالية المتخلفة.

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود ٣-١٦٣ حدثنا الحسن بن الصباح ثنا إسماعيل يعني ابن عبد الكريم حدثني إبراهيم يعني ابن عقيل بن منبه عن أبيه عن وهب قال سألت.. وله طريق آخر عند أحمد ٣-٣٤١ وفي الآحاد والمثاني ٣-١٨٨ من طريق ابن لهيعة وموسى بن عقبة عن أبي الزبير سألت جابرًا، وهما طريقان: الأول قوي، والثاني صحيح.

أمر النبي ﷺ عليًّا أن يركب ناقته السريعة القصواء، ثم انطلق ينهب الأرض ليدرك تلك الجموع الهائلة، وبعد مدة شاهد رضي الله عنه مخيمًا هائلًا جدًّا، فاقترب وتوغل نحو خيمة الأمير الصديق رضي الله عنه، الذي (سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فخرج أبو بكر فزعًا، فظن أنه رسول الله ﷺ، فإذا هو علي، فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ، وأمر عليًّا أن ينادي بهؤلاء الكلمات)(١).

وصل الحجاج مكة، فطافوا مع أميرهم أبي بكر، ثم توجهوا يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة إلى مكان يقال له منى، فخيموا، ثم أخذهم يوم التاسع نحو منطقة عرفة محطمين مذهب قريش الجاهلي الذي اخترعوه، ويسمى الحمس، وهو عدم الوقوف بعرفة، لأنها خارج الحرم الذي يعتبرونه حرمهم، فيقفون بمزدلفة لأنها داخل الحرم. فـ(كانت قريش، ومن يدين دينها، وهم الحمس،(٢) يقفون عشية عرفة بالمزدلفة، ويقولون: نحن قطن البيت. وكان بقية الناس، والعرب يقفون بعرفات)(٣)، وبعد الوقوف بعرفة قاد أبو بكر الحجاج إلى منطقة مزدلفة للمبيت بها، ثم واصلوا يوم العيد (النحر) بقية المناسك من هدي وحلق وطواف، ولما جاء اليوم الحادي عشر وهو أول أيام التشريق، حيث يكون كل الحجاج في منطقة منى قام علي بالطواف على الحجاج لإبلاغهم التعليمات الجديدة الخاصة بمكة والحرم، فإذا تعب علي قام الأمير أبو بكر. يقول أحد الصحابة: (قام علي أيام التشريق فنادى: ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن. وكان علي ينادي، فإذا عيي قام أبو بكر فنادى بها)(٤)، كما شارك أبو هريرة وغيره في النداء.

(١) سنده قوي، رواه الترمذي ٥-٢٧٥ وغيره عن عباد بن العوام حدثنا سفيان بن حسين عن الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس، وله شاهد على شرط مسلم عند النسائي في الكبرى ٢-٤١٦ والدارمي ٢-٩٢ وغيرهما من طريق موسى بن طارق عن ابن جريج حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر.

(٢) ويقال: سموا كذلك لتشددهم في دينهم، وقيل: لأنهم كانوا لا يستظلون أيام منى.

(٣) متفق عليه.

(٤) سنده قوي، رواه الترمذي ٥-٢٧٥ وهو حديث ابن عباس السابق، وله شاهد عن جابر.

إذا فهو إعلان عن تخصيص المسجد الحرام للموحدين فقط، والحج للموحدين، كما جرى تطمين كل صاحب معاهدة، أن معاهدته باقية إلى مدتها، أما من حارب الإسلام على مدى العشرين عامًا فهو آمن لمدة أربعة أشهر، فإن عاد لنشاطه الإجرامي فلا يلومن إلا نفسه.

هذا ما كان يجري في الحرم، أما المدينة فتشهد نشاطًا سياسيًّا واستقبالًا لمزيد من الوفود، بل والبعثات العسكرية.

النبي ﷺ يرسل خالدًا إلى اليمن

يرسله أميرًا وداعية لأرض الإيمان والحكمة، وبعد عودة الحجاج أرسل علي ابن أبي طالب كي يخلفه. يقول أحد الشباب وهو البراء بن عازب: (بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث عليًّا بعد ذلك مكانه، فقال: مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب)[(١)].

جذور الخوارج

في فترة إدارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لليمن أحضر له جنده قطعة من الذهب الخام الذي لم يفصل عن ترابه، فوضعه داخل كيس من الجلد وأرسله لقائده ﷺ، ولما وصلت القطعة كان عنده مجموعة من زعماء القبائل من بينهم عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، وغيرهم من حديثي الإسلام فقام ﷺ بقسمتها بينهم أمام شعبه، فقام رجل من أصحابه وبكل أريحية، وقال: (كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء) وصلت المقولة للقائد ﷺ، فلم يعتقله، فقد عبر

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

عن رأيه، وربما كان أفضل منهم قبل أن يقول تلك الكلمة، فاكتفى ﷺ بتصحيح تلك الكلمات، لا مصادرة الحريات، فقال: (ألا تأمنونني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً)، فالنبي ﷺ لم يستأثر بها وهو وأسرته، ولم يجعلها ضمن مقتنياته، بل قسمها بين أمراء لهم تأثير على أتباعهم، ومن ثم تأثير على استقرار أمن دولته.. كلمة ينقصها بعد النظر.. تلقفها برعونة شاب متطرف (غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار). فأججت روح التطرف داخله، وبصق كلمات حين هتف بأرحم الناس وأعدلهم، فقال: (يا رسول الله اتق الله. قال: ويلك، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؛ ثم ولى الرجل) خجلًا خائفًا من تبعات كلمته، فلاحقته نظرات كالموت من سيف الله المسلول خالد بن الوليد، ثم التفت خالد لقائده بانضباط تام، وقال: (يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: لا، لعله أن يكون يصلي. فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ قال رسول الله ﷺ: إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم)، فالقيادة عندما تقتحم القلوب والنيات تمارس دورًا ليس لها، بل تتحول إلى سلطة كهنوتية بابوية كنسية، وتتحول معها إلى دولة ثيوقراطي.. تنصب نفسها بدلًا عن الله في محاسبة النوايا.

لكن ماذا عن ظاهرة التطرف إذا تحولت إلى نشاط مسلح؟

لقد أجاب القائد ﷺ في اللحظة نفسها حين حدق بذلك المتطرف وهو ينصرف، (نظر إليه وهو مقف، فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا، قوم يتلون كتاب الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود)[1] فردع دموية هؤلاء الخوارج من واجبات إمام المسلمين حتى ينعدم تأثيرهم على أمن دولة الإسلام، فبعد كسر شوكتهم يتحولون إلى مجرد أفكار متطرفة.. تعرض على الكتاب والسنة ومصلحة الوطن والأمة،

---

(١) البخاري ٤-١٥٨١.

لكنها لا تعرض على السيف، إلا في حالة تحولها إلى قوة تتحرك على وجه الأرض لزعزعة أمن المسلمين وأمن دولتهم. لذا لم يكفره ﷺ ولم يعتقله ولم يمسه بأذى، لأنه لا يمثل تهديدًا في ظل توجه الدولة بكليتها بكتاب الله وسنة رسوله، إنما بين انحرافه وانحراف أمثاله، كما فعل مع هذا المجرم:

وفد اليمامة

من أكثر الوفود إثارة وفد اليمامة، التي قام أميرها ثمامة بن أثال الحنفي بمحاصرة قريش اقتصاديًّا حين أسلم، لكن حقودًا من قومه يدعى مسيلمة قدم ولديه هوس بالزعامة.. هوس يشبه هوس ابن سلول الذي أصمه وأعماه، وها هي ركاب مسيلمة تحط بالمدينة.. كان الوفد كبيرًا، وما إن وصل الوفد حتى أشاع مسيلمة بين رفاقه أنه مستعد لمبايعة النبي ﷺ بشرط أن يكون ملكًا بعد وفاته، وقال: (إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته)، (فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني. ثم انصرف عنه) وهو حطام. هنا سأل الطفل ابن عباس أبا هريرة عن رؤيا النبي في مسيلمة، فقال له: (إن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما فأوحي إلي في المنام: أن انفخهما. فنفختهما فطارا. فأولتهما كذابين يخرجان بعدي. أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة)[1].

عاد مسيلمة، لكن الإشاعات حوله تنتشر، بل تجرأ حتى صار يكاتب النبي ﷺ كند له، فذات يوم أرسل رجلين من أتباعه يجاهر بما في نفسه، فنظر للرجلين

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٠.

وقال: (وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟ قالا: نعم، فقال رسول الله ﷺ، لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما)[١]، وهنا يجدد القائد ﷺ صفته: (الأمين) فهو لا يخون العهود والمواثيق مهما كانت مكلفة، والرسل تمنح حصانة حتى تغادر البلاد، ولا يغدر بها ويعتدي عليها إلا من لا يفقه سيرته ﷺ وسنته.

لم يتحرك ﷺ عسكريًّا تجاه ذلك الدجال، فالظروف الآن لا تسمح، لاسيما واليمامة لم تعلن انفصالها عن الدولة الإسلامية، لكن الإشاعات حول مسيلمة كثرت، فلما أكثر الناس تداولها (قام رسول الله ﷺ خطيبًا، فقال: أما بعد ففي شأن هذا الدجال الذي قد أكثرتم فيه، وإنه كذاب من ثلاثين كذابًا يخرجون بين يدي المسيح)[٢]. إذًا فأول كذابين ادعيا النبوة ورسول ﷺ حي هما كذاب اليمن وكذاب اليمامة، فمن هو كذاب اليمن، وهل قدم ضمن وفد اليمن.

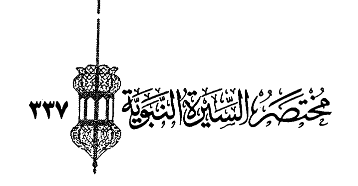
كذاب اليمن الأسود العنسي

لم يحظ وفد بالثناء كما حظي وفد اليمن، لكن لكل قاعدة شواذ، فعلى أرض اليمن ساحر معتوه يدعى (الأسود العنسي)، وقد أغراه احترافه للسحر بادعاء النبوة وملك اليمن، وقد كان يضمر في نفسه الخروج على النبي ﷺ في أقرب فرصة، أما الآن فهو لا يستطيع الجهر بما في نفسه.. خوفًا من علي بن أبي طالب الأسد الهصور، أما القائد ﷺ فتركه حتى يتحرك.

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥٤: حدثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال.. وسعد بن طارق تابعي ثقة من رجال مسلم (أبو مالك الأشجعي) تابعي ثقة. انظر: التقريب ١-٢٨٧ وشيخه صحابي.

(٢) سنده صحيح، رواه معمر بن راشد في الجامع ١١-٣٩٢ عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن طلحة بن عبيدالله بن عوف عن أبي بكرة، قال: وهذا السند صحيح. الزهري وشيخه طلحة بن عبدالله بن عوف الزهري تابعيان ثقتان. تهذيب التهذيب ٥-١٨.



وفد نصارى نجران يهرب من المناظرة

وفد يجسد صعوبة التخلص من الموروث. انطلقوا من بلاد الأخدود من نجران نحو عاصمة الدولة الإسلامية، بعد أن وصلتهم أخبار انضواء الجزيرة لها، وكانوا في نجران يحاولون إحراج المسلمين بالتنقيب عن أي خطأ في تعاليم هذا الدين الجديد. ذات يوم كان المغيرة بن شعبة في نجران، فرآه القساوسة فأقبلوا نحوه ليشككوه بالقرآن، كما يفعل المنصرون في كل زمان ومكان، وهي محاولة منهم للهروب للأمام.. الهروب من آلاف الأخطاء في الكتاب المقدس النصراني الذي يطفح بالكوارث بدءًا من جهالة مؤلفيه.. مرورا بضياع لغته الأولى وجهالة مترجميه، وتاريخ تدوين التراجم، ومصيبة تعدد نسخه التي تزيد على المئة إنجيل، حتى أصبحت الأناجيل تزداد مع مرور الزمن باكتشاف المزيد من نسخ الكتاب المقدس، التي تودع المتاحف ولا تتاح للشعوب المسيحية حتى لا تكتشف التناقضات فتترك النصرانية.

أمام هذه الكوارث يلجأ المنصرون للتشويش على القرآن لإلهاء النصارى عن أخطاء كتابهم المقدس. سأل القساوسة المغيرة، فقالوا: (إنكم تقرؤون: يا أخت هارون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟) سكت المغيرة أمام هذا السؤال الذي يحتاج إلى معلومة. ظل السؤال يحيره حتى عاد للمدينة، ولما قابل نبيه ﷺ سأله عن ذلك؟ فكانت الإجابة أيسر مما تصور. قال ﷺ: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)[1] لم تصل الإجابة للقساوسة فولد لديهم شعور بالزهو والجرأة، فأرادوا نشر التشكيك إلى معقل الإسلام (المدينة)، وقد تصدى لهذا الأمر قسان، فالنصارى بعد المسيح بعشرات السنين قسموا الناس إلى طبقتين لا وجود لهما في الدين الإسلامي، بل لا وجود لهما حتى في الكتاب المقدس.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٦٨٥.

الطبقتان هما: طبقة رجال الدين، وطبقة أخرى لبقية الرجال.

أما النساء فلاطبقات لهن ولا دور، فالمرأة في الكتاب المقدس نجسة تنجس حتى البهائم، ولا يحق لها التعلم أو حتى السؤال في الكنيسة..

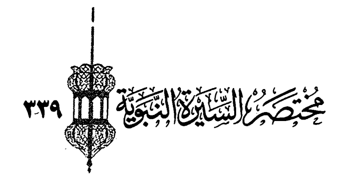
وصل قساوسة نجران للمدينة، فرحب بهم نبي الله كعادته مع كل ضيف، فهو القائل: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه). وقد كان في مقدمة هؤلاء القساوسة رجلان يدعى أحدهما: (العاقب) ويدعى الآخر (السيد)، وقد بلغت بهما الجرأة أن يجعلا من المباهلة حلًا، وهي الملاعنة حيث يدعو كل من الخصمين على نفسه باللعنة إن كان كاذبًا في دعواه. كانت نتيجة هذا الطلب اكتشاف ضعف حجة القساوسة النصارى وانعدام ثقتهم بعقيدتهم، حين تضعضع أحدهما وارتجف قلبه، ودنا من القس الآخر وطلب منه الانسحاب، قائلًا: (لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا).

أذعن القس الآخر لمطلب زميله وتشاوروا ثم أخبرا النبي ﷺ بقرارهما ورضيا بانضمامهما للدولة الإسلامية، فقد اكتشفا قائدًا عادلًا لم تعرف المسيحية ولا العالم مثله، فمنذ أصبح للمسيحية دولة لم تتوقف المذابح بحق المخالفين، كاليهود وغيرهم، بل بحق المثقفين والفلاسفة، ولم تتوقف المحارق بشأن المكتبات كمكتبة الإسكندرية الشهيرة. حرائق حولت تراث أوروبا الثقافي إلى رماد، وأغرقتها في ظلام الاستبداد والجهل ومحاكم التفتيش.

رأى القساوسة عدالته ﷺ، وإنصاته للآخر، فتوجها بخطاب كله رجاء، فقالا: (إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنًا إلا أمينًا. فقال ﷺ: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا، حق أمين). أنصت الصحابة لتلك الصفة، كما أنصتوا في خيبر حين تحدث عن الراية، فاستشرفوا لها، فحدق ﷺ بأحد العظماء الجالسين حوله. حدق بعامر بن عبدالله فقال: (قم يا أباعبيدة بن الجراح. فلما قام قال ﷺ: هذا أمين هذه الأمة)[1].

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٢.



الهروب صفة مثقفي النصارى

لم يكن للنصارى حضور ثقافي مقنع، فعقيدة التثليث لا تختلف عن عقيدة الوثنية، لذا كان النصارى يجيدون الهروب من المناظرات، فعقيدتهم لا تصمد أمام أبسط الأسئلة: كيف يكون لله ولد؟ ما معنى: (الله الأب. والله الابن. والروح القدس؟) وكيف تقولون: إن هذه الثلاثة واحد؟ ثم تقولون: إن بينها فرقًا، ثم كيف يكون لله ابن لا يعرفه آدم ومن بعده من الأنبياء؟ ولماذا لا يوجد في الكتاب المقدس كله عبارات صريحة بأن لله ولدًا ما دامت العقيدة النصرانية ترتكز على التثليث؟ كيف تهمش أساسيات العقيدة بينما يمتلئ الكتاب المقدس بقصص الأكل والشرب والقتل والزواج بشكل مفصل وممل؟ بينما لا يتم الحديث عن التثليث إلا بعد اختفاء عيسى ابن مريم، مع ملاحظة أن أول من صرح بأن عيسى ابن لله لم يكن الله، ولا عيسى نفسه، ولا صحابته، بل الذي صرح بذلك وابتدعه يهودي يدعى (شاءول)، وهو قاتل محترف ارتكب المجازر الجماعية ضد النصارى، ثم زعم أنه نبي، وهو لم ير عيسى ولم يدرس على يده، وبعد عام من زعمه ادعى هذا القائل أن عيسى ظهر له في البرق، وأخبره وحده أنه ابن الله، وقد نقض شاءول الشريعة التي يقول عيسى إنه لم يأت لينقضها. فنقض التوحيد الذي في التوراة وجاء بالتثليث، وأباح أكل الخنزير الذي حرمه عيسى، وترك الختان الذي فعله عيسى. ثم أين الإنجيل نفسه؟ أين لغته الأصلية؟ من ترجمه؟ وما مدى الثقة به؟ ولماذا يكتفي النصارى بأربعة ويتركون العشرات من الأناجيل؟ ومن الذي اختار تلك الأربعة التي لم يرها عيسى ولم يقرأها يومًا، بل ربما لم يقل حرفًا واحدًا منها... أسئلة لا يجيد القساوسة أمامها سوى الهروب، وهذا ما فعله أحدهم، فقد قدم وفد نصراني آخر، لكنه ليس من نجران، بل من منطقة في اليمامة، وقد دخلوا جميعًا في الإسلام، وقد سبقهم أحدهم واسمه طلق بن علي الذي أسلم

في أول أيام الهجرة، بل وشارك في بناء المسجد النبوي، ثم عاد داعية في بلاده. وهو يتحدث عن إسلامهم ومقابلتهم للنبي، حيث أخبروه أن لهم دار عبادة، وقد تحولوا إلى الإسلام كلهم، فأعطاهم ماء وقال لهم:

(اذهبوا بهذا الماء، فإذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم[1]، وانضحوا مكانها من هذا الماء، واتخذوا مكانها مسجدًا. فقلنا: يا نبي الله.. إن البلد بعيد والماء ينشف. قال ﷺ: فمدوه من الماء، فإنه لا يزيده إلا طيبًا. فتشاححنا على حمل الإداوة أينا يحملها؟ فجعلناها نوبًا بيننا لكل رجل يوم وليلة، فلما قدمنا بلدنا فعلنا الذي أمرنا، وراهبنا ذلك اليوم رجل من طي)، فلما أذن المؤذن منهم، أنصت الراهب للأذان فارتجف قلبه، وعجز عن مواجهة التوحيد ولو بكلمة، فصاح: (دعوة حق، ثم هرب فلم يرَ بعد)[2]. لم يكن هذا الراهب الطائي وحيدًا في سلوكه.. سبقه قس شهير.

القس الشهير يهرب من المناظرة

عدي بن حاتم الطائي، ليس له شهرة أبيه، فقد اعتنق النصرانية، فحولته إلى جاب لرعايا الكنيسة.. ينهب أتاوات باسم الرب، وما إن سمع بالتوحيد حتى كره الإسلام كرهًا شديدًا دون أن يسمع كلمة واحدة من قرآن أو سنة، بل اكتفى بالفرار من دياره نحو ديار الإمبراطورية الرومية النصرانية.

إنه يقول: (بعث رسول الله ﷺ حيث بعث، فكرهته أشد ما كرهت شيئًا قط، فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم).

فالتثليث لا يصمد أمام التوحيد، لكن له عقلًا راجحًا لا يقبل أن يعيش دون استخدامه. جلس مع نفسه في إحدى الكنائس أو الأديرة يفكر في غربته.. في

---

(١) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٢) هو باقي الحديث السابق الذي رواه النسائي والبيهقي وابن حبان، وهو صحيح.

نصرانيته التي تهرب من المواجهة إلى التشكيك.. في ثقافة الكراهية للإسلام دون مبرر. فقال لنفسه: (لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذبًا لم يخف عليَّ، وإن كان صادقًا اتبعته)، انطلق القس عدي تسبقه سمعة أبيه، فلما حط بالمدينة استشرف له الناس، وهو يعلق الصليب على صدره، فقالوا جاء عدي بن حاتم.

بحث عدي عن النبي ﷺ، فلما وقف أمامه قال له النبي: (يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم. قلت: إن لي دينًا. قال: أنا أعلم بدينك منك.. أنا أعلم بدينك منك.... ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى. قال: ألست تأكل المرباع[١]؟ قلت: بلى. قال ﷺ: فإن ذلك لا يحل لك في دينك.

قال عدي: فتضعضعتُ[٢] لذلك، ثم قال: يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم، فإني قد أظن أنه ما يمنعك أن تسلم خصاصة تراها من حولي، وتوشك الظعينة أن ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل منه ماله صدقة)[٣].

أسلم عدي وترك عقيدة التثليث، بعد أن رأى توحيدًا نقيًّا، ودينا ليس فيه رجال دين يتكلمون نيابة عن الله، أو يبيعون صكوك غفران أو يغفرون.. رأى السابقين من المهاجرين والأنصار لا يحظون برتب دينية، أو مخصصات مالية، أو ألقاب رسمية، ثم رأى المعجزة، فقال: (رأيت الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وكنتُ في أول خيل أغارت على المدائن، على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة. إنه لقول رسول الله ﷺ لي»[٤].

---

(١) أي أنه كان يغتصب من قومه ربع أرباحهم وغنائمهم دون حق.

(٢) ضعفت.

(٣) أي أن الرجل لا يجد من يأخذ الصدقة منه.

(٤) سنده قوي، رواه الحاكم ٤-٥٦٤ من طريق هشام بن حسان عن ابن سيرين وابن أبي شيبة ٧-٣٤٢ عن جرير ابن حازم عن ابن سيرين. ابن حبان ١٥-٧١ من طريق أيوب عن محمد عن أبي عبيدة بن حذيفة سمعه من عدي. أبو عبيدة ثقة روى عنه ابن سيرين ويوسف بن ميمون وخالد بن أبي أمية الكوفي وحصين بن عبدالرحمن السلمي وغيرهم. تهذيب التهذيب ١٢-١٧٧ ووثقه العجلي توثيقًا لفظيًّا، فقال في معرفة الثقات ٢-٤١٣: أبو عبيدة بن حذيفة كوفي تابعي ثقة، وابن سيرين غني عن التعريف.

توالت الوفود، وكانت في ذهابها وإيابها تطحن رجلًا قلبه كالحجارة قسوة وعنادًا وحسدًا، وكأن أيدي الوفود وهي تبايع تخنقه. المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول على فراش المرض. هوى جسده الضخم وتحول إلى عينين زائغتين. لم يعد يحتمل انتصار التوحيد ونجاح دولة التوحيد. احتسى الرجل سم الحقد الذي صنعه بنفسه لنفسه، وها هو السم يقتله.

عبد الله ابن سلول مريض

يبدو من تقاسيمه وهزاله أنه راحل عن هذه الدنيا، وبرغم كل ما فعله من خيانات وما خطط له من مؤامرات، فقد عفا عنه القائد ﷺ، ولم يكتف بالعفو عنه، بل حين سمع بمرض هذا المواطن الحاقد نهض لزيارته، وهو الذي أمضى حياته خنجرًا في خاصرة الدولة الإسلامية.. يزوره مستشعرًا مسؤوليته تجاه أفراد شعبه مهما كانت ديانتهم، ومن أسوأ من منافق؟ فالنبي ﷺ ليس مجرد حاكم يقيم الناس حسب اقترابهم من كرسيه.. إنه أرقى من ذلك.. هو رحمة لا تعرف اليأس، وأمل لا يكف عن التلويح. زار ﷺ زعيم حزب النفاق، عله يجد في قلبه مكانًا لله ولرسوله.. تهادى نحو بيته واستأذن فأذن له، ولما دخل نظر إليه فأدرك أنها النهاية، فرمى له بآخر أطواق النجاة. تأمله فلما عرف فيه الموت قال ﷺ: (أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود)، فإذا بعميل يهود ينفث بقايا حقده، ويقول: (أبغضهم أسعد بن زرارة فمه)[1] أي فماذا أفاد أسعد بن زرارة كره اليهود، حيث مات أسعد في أول أيام الهجرة.

إجابة تفضح ضيق أفق هذا المنافق، ونظرته المحدودة بين جدران الدنيا، فالنبي ﷺ لم يكن يعني أن حب اليهود هو الذي أمرضه، بل كان يعني أنه كان ينهى عن موالاتهم التي لا تفيد في مثل هذه الساعة، التي يكون فيها المرء أحوج ما

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه أبو داود ٣-١٨٤ حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد. الزهري تابعي ثقة رأس طبقته، وعروة تابعي كبير وإمام ثقة معروف.

يكون إلى الله وحده لاشريك له.. كان ابن سلول مكابرًا حتى في ساعات احتضاره. لم يقل للنبي ﷺ أي كلمة تشير لأسفه وندمه، أو توبته، فالحسد يعمي ويصم.

انتهت الزيارة فخرج ﷺ متألمًا من رد هذا الرجل الطافح بالغل، وبقي ابن سلول على فراشه يتأمل العالم الذي سيغادره، وربما العالم الذي سيقبل عليه.. كان ابنه المؤمن عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول يمرضه ويعتني به برغم نفاقه، فالله أرحم بالمنافقين من أنفسهم، والإسلام من التحضر يقول لأولادهم: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ فبعد أن خرج النبي ﷺ من عند رأس النفاق استدعى ابنه، وطلب منه أمرًا غريبًا كان يسخر ممن يطلبه.

قال: (أي بني، اطلب ثوبًا من ثياب رسول الله ﷺ، فكفني فيه ومره فليُصلّ عليّ)[1]. ويبدو أن الابن شعر بالإحراج، أو نسي حتى وُضِعَ أبوه في قبره، فتوجه نحو نبيه، فقال: (يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه واستغفر له)[2]. فأتاه ﷺ (بعد ما دفن، فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه)[3]، وعندما وضعه بينه وبين القبلة شعر النبي برجل يجذبه. نظر ﷺ فإذا الفاروق في حالة ذهول جعلته يقول لنبيه: (أليس نهاك أن تصلي على المنافقين)[4].

بدأ الفاروق يسرد قائمة بخياناته، وقال: (يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟)[5]. (اَلْقَائِلُ كَذَا وَكَذَا وَالْقَائِلُ كَذَا وَكَذَا؟).

---

(١) سنده صحيح، رواه الطبراني في الكبير ١١-٤٣٨ والأوسط ٦-١٦ من طرق عن بشر بن السري نا رباح بن أبي معروف عن سالم بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. سعيد بن جبير من أئمة التابعين الثقات، وسالم بن عجلان الأفطس ثقة من رجال البخاري. التقريب ١-٢٨١ ورباح حسن الحديث من رجال مسلم ١-٢٤٢، وبشر بن السري ثقة متقن. التقريب ١-٩٩.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ١-٤٢٧.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ١-٤٢٧.

(٤) صحيح البخاري ١-٤٢٧.

(٥) صحيح البخاري ٢-٩٧.

كان القائد ﷺ ينصت لوزيره (ويَبْتَسِمُ، وعمر يعَدِّدُ أَيَّامَهُ) المخزية ضد الإسلام ودولته، فلما أَكْثَر عمر أوقفه الرحمة المهداة.. أوقفه رحمة بعدوه، وقَالَ: (أخِّر عني يا عمر، إني خُيِّرت فاخترت، قد قيل: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. لو أعلم أني إن زدت على السبعين، غفر له، لزدت) (ثم صلى عليه، ومشى معه، فقام على قبره حتى فرغ منه) يقول عمر: (فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾. فما صلى رسول الله بعده على منافق، ولا قام على قبره)، وبعد مدة قصيرة أنزل الله آية حسمت الأمر مع المنافقين حال وفاتهم، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[١].

ولئن كان موت ابن سلول قد أفرح المؤمنين، فإن هناك من أحزنهم موته، وأسأل دموع نبيهم.

موت إبراهيم عليه السلام

فجع النبي ﷺ وما أكثر ما يفجع باشتداد المرض على ابنه الوحيد (إبراهيم)، فتوجه نحو بيت مارية التي تبكي حبيبها بحرقة، فوضعه بين يديه (وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون)[٢]. سالت الدموع فخفق لها قلب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فقال: (وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف، إنها رحمة. ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا

---

(١) صحيح البخاري ٢-٩٧.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٠٧.

إبراهيم لمحزونون)[١]، ثم سن سنته حين دفنه حيث (لم يصل عليه)[٢]، وفي هذا اليوم نفسه الذي توفي فيه إبراهيم عليه السلام نظر الناس إلى السماء فوجدوا أن:

الشمس قد كسفت يوم موت إبراهيم

وكان هناك اعتقاد سائد في الجاهلية، أن كسوف الشمس لا يكون إلا لموت إنسان عظيم، أو لمولد عظيم. (فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم)[٣] وفجأة سمع الناس نداء يقول: (إن الصلاة جامعة)[٤]، وهو نداء يتردد من المسجد عند حدوث أمر طارىء. يقول أبو بكر: (كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس، فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم)[٥].

كانت صلاة الكسوف ركعتين جهريتين، لكنها تختلف عن صلاة الفجر بأن عدد ركوعها يساوي عدد سجودها. أي أن الإمام يقرأ بعد تكبيرة الإحرام، ثم يركع ثم يرفع ويقرأ مرة أخرى، ثم يركع مرة أخرى، ثم يسجد ويرفع ويسجد، ثم ينهض للركعة الثانية ويكرر ما فعله في الركعة الأولى.

أنهى النبي ﷺ صلاته، ومعها أنهى خرافة من خرافات المنجمين والكهنة، وفي هذا العام العاشر أصدر ﷺ أمره بالاستعداد للحج، حيث سيقود بنفسه حج هذا العام.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٣٩.

(٢) سنده قوي، رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-٢٠٧ حَدَّثَنِي عَبْدُالله بْن أَبِي بَكْر، عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِالرَّحْمَن، عَنْ عائشة. وعبدالله وعمرة ثقات وابن إسحاق لم يدلس.

(٣) صحيح البخاري ١-٣٥٤.

(٤) صحيح البخاري ١-٣٥٤.

(٥) صحيح البخاري ١-٣٥٣.

حجة الوداع

خطب النبي ﷺ يومًا، فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[١] وبشرهم فقال: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[٢] وقال أيضًا: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[٣] وعندما قالت زوجته عائشة رضي الله عنها: (يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور. فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ)[٤] وذات يوم قال رجل: (يا رسول الله، إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج؟ فقال: اخرج معها)[٥] وكأن هذا الحديث يعطي لمن يسافر مع زوجته لأداء الحج أجرًا أكثر من أجره إذا سافر مع الجيش للجهاد. وقد حدد النبي ﷺ مواقيت زمانية ومكانية للحج.

مواقيت الحج الزمانية والمكانية

الزمانية هي: أشهر شوال وذي القعدة، وذي الحجة، أما المواقيت المكانية فهي أماكن محددة.. يبدأ الحاج والمعتمر منها، أو يبدأ قبلها حجه وعمرته، وهي تحيط بمكة من جميع الجهات، وتمثل نقاط مرور على الطرقات المؤدية إلى مكة.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٧٥.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦٢٩.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.

(٥) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.

أسماء المواقيت المكانية

(وقَّتَ رسول الله ﷺ: لأهل المدينة: ذا الحليفة[١]، ولأهل الشام: الجحفة[٢]، ولأهل نجد: قرن المنازل[٣] ولأهل اليمن: يلملم[٤])[٥].

أما الحاج والمعتمر الذي يمر بميقات غير ميقات بلاده، فيشير النبي ﷺ أن تلك المواقيت لمن مر عليهن كائنًا من كان، فيقول: (هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، ممن أراد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فمن أهله وكذا، فكذلك حتى أهل مكة يهلون منها)[٦].

أي أن من كان بيته أقرب إلى مكة من الميقات.. يحرم من بيته حتى إن أهل مكة يحرمون من بيوتهم، فإذا وصلها الحاج أو المعتمر وجب عليه خلع ثياب معينة حددها النبي ﷺ حين (قام رجل فقال: يا رسول الله، ماذا تأمرنا أن نلبس من الثياب في الإحرام؟ فقال النبي ﷺ: لا تلبسوا القميص ولا السراويلات، ولا العمائم، ولا البرانس[٧]، إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فليلبس الخفين، وليقطع أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا شيئًا مسه زعفران ولا الورس[٨])[٩] أما (من لم يكن له إزار، فليلبس السراويل، ومن لم يكن له نعلان فليلبس خفين)[١٠].

---

(١) مكان يبعد ستة أميال أو أكثر من المدينة.

(٢) قرية قريبة من مدينة رابغ الآن.

(٣) مكان بين الطائف ومكة.

(٤) بينه وبين مكة ثلاثون ميلًا.

(٥) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.

(٦) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.

(٧) هي ثياب في أعلاها غطاء للرأس.

(٨) نبات أصفر ينبت في اليمن تزين المرأة به وجهها.

(٩) صحيح البخاري ٢-٦٥٣.

(١٠) صحيح البخاري ٥-٢١٩٩.

أما النساء فليس لهن ملابس معينة، لكن لا يجوز للمرأة لبس القفازين ولا النقاب إذا دخلت في الحج أو العمرة. فقد قال ﷺ: (لا تنقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين)[١]. وإذا أحرم الحاج وجب عليه الامتناع عن عدة أشياء كانت مباحة له قبل أن يحرم تسمى:

محظورات الإحرام

ومنها باختصار: الصيد في البر فقط لا في البحر، والخطبة والزواج والجماع، وحلق الشعر... هذه بعض المعلومات التي تلقاها الصحابة في أثناء فترة الاستعداد للحج. انتشر الخبر في أرجاء الجزيرة، فعادت معظم تلك الوفود، وقدمت للمدينة حشود عظيمة كلها رغبة في الحج اقتداء بالنبي ﷺ.

قبل مغادرة المدينة

قبل مغادرته ﷺ لبَّد شعره بالصمغ، أو غيره من مثبتات الشعر، حتى لا يتطاير ويدخله الغبار، وقد قامت عائشة رضي الله عنها بتطييبه قبل إحرامه، حيث تقول: (كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرمًا ينضخ طيبًا)[٢]. وقبل انطلاقه زار ابنة عمه ضباعة بنت الزبير (فقال لها: لعلك أردت الحج؟ قالت: والله لا أجدني إلا وجعة. فقال لها: حجي واشترطي، قولي: اللهم محلي حيث حبستني)[٣] أي أنها إذا تعرضت لمانع ما، بعد تلك الكلمات، فإن إحرامها ينتهي مباشرة، وتصبح في حل من إحرامها دون ذبح فدية.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٥٣.

(٢) صحيح البخاري ١-١٠٤.

(٣) صحيح البخاري ٥ - ١٩٥٧.

متى غادر ﷺ المدينة

انطلق ﷺ (لخمس بقين من ذي القعدة)[1] أي قبل نهاية شهر ذي القعدة بخمسة أيام. ثم سار أميالًا، ثم توقف بوادي العقيق، وقال: (أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك. وقل: عمرة في حجة)[2].

ما معنى عمرة في حجة

كان الجاهليون يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، ولذا كان الصحابة لا يعرفون العمرة في أشهر الحج، حتى قال جابر: (لسنا ننوي إلا الحج لسنا نعرف العمرة)[3]. فأبطل الله تلك المقولة، وكان النبي ﷺ أيضًا يريد الحج فقط وهو ما يسمى بالإفراد، لكن جبريل قال له: (قل عمرة في حج) أي اعتمر، وبعدما تنتهي من العمرة ابدأ مباشرة بالحج دون فاصل بينهما، وهذا ما يسمى بالقران، وهو واجب على من أحضر هديه من الإبل أو البقر أو الغنم معه، كما فعل النبي ﷺ. إذًا لا يوجد حتى الآن إلا طريقتان هما: القِران و الإفراد، ثم سار ﷺ حتى وصل (ذا الحليفة) وهو ميقات المدينة.

الوصول إلى الميقات

ولما وصل ﷺ أصاب المخاض أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر، فولدت ابنًا سماه محمدًا، فأرسلت أسماء (إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي، واستثفري بثوب وأحرمي)[4]. أي أن النفاس والولادة لا تمنعان الحج ولا العمرة،

---

(١) البخاري ٢-٥٦٠ والزيادة سندها صحيح، رواها أحمد ١-٢٥٤ وغيره عن شعبة قال قتادة: سمعت أبا حسان يحدث عن ابن عباس. وأبو حسان الأعرج ثقة، وليس كما قال الحافظ.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٦.

(٣) حديث جابر في صحيح مسلم، والزيادة عند البيهقي ٥-٤٥ وغيره من الطريق نفسه.

(٤) صحيح مسلم ٢-٨٨٧.



وكل ما عليها هو أن تنتبه لنظافتها والدم الخارج منها، عن طريق الاستثفار، أي القيام بما تقوم به المرأة من احتياطات، ثم تواصل رحلتها وحجها وعمرتها.

انطلق النبي (فأهل ﷺ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. وأهل الناس بهذا الذي يهلون به «والناس يزيدون: ذا المعارج ونحوه من الكلام، والنبي ﷺ يسمع فلا يقول لهم شيئًا» فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئًا منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته. حتى بلغ مكاناً يبعد من المدينة ستًا وثلاثين ميلًا يقال له الروحاء: وهو المكان الذي بشر ﷺ أمته عنه، فقال: (والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا)[1]. وفي الروحاء لقي ركبًا من شعبه أسلموا قبل أن يروه، فقال: (مَنِ القومُ؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟ قال: رسول الله. فرفعت إليه امرأة صبيًّا.. فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر)[2]. ثم واصل ﷺ سفره وهو يلبي مضطبعاً، والاضطباع هو أن يلف الرداء على كتفه الأيسر، ويجعله تحت إبطه الأيمن كاشفًا كتفه الأيمن، وكانت تلبيته هي: (لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)[3]، ثم قال للناس: (أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي، أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية)[4].

كان سيلًا بشريًا متدفقًا هادرًا كالرعد.. يغسل السماء والأرض من بقايا الخرافة والوثنية. يا الله.. رجل كان قبل عشر سنوات يفر مع رفيقه من مكة طريدًا شريدًا.. باحثًا عن مأوى! واليوم يعود إلى مكة بالمهاجرين والأنصار، وبالجزيرة العربية كلها. مشهد يتمنى المرء لو تمتع به ولو للحظات.. اقترب السيل البشري من مكة وكان:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩١٥.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٧٤.

(٣) صحيح البخاري ٢ - ٥٦١.

(٤) سنده صحيح، رواه مالك ١-٣٣٤ عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم عن عبد الملك بن أبي بكر بن الحارث بن هشام عن خلاد بن السائب الأنصاري مرفوعًا. خلاد وتلميذه وعبد الله تابعيون ثقات. التقريب: ١٩٦ و٣٦٢ و٢٩٧.

تاريخ الوصول إلى مكة

فـ(قدم ﷺ مكة لأربع ليال خلون من ذي الحجة)[١] أي في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة، فيكون قد بقي على وقوف الحجاج بعرفة خمسة أيام، وهنا نزل حكم جديد فيه رحمة بهذه الجموع الغفيرة. حيث (أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدي، إذا طاف وسعى بين الصفا والمروة أن يحل)[٢] أي على من لم يحضر هديًا معه أن يلبس ما شاء ويفعل ما شاء بعد أن ينتهي من العمرة، وأن لا يدخل في الحج مباشرة، وهذا يعني نزول الوحي بطريق ثالثة من أنساك الحج هو:

التمتع

أي أن من لم يحضر معه هديًا من البقر أو الغنم أو الإبل، فله أن يكمل عمرته، ثم يتحلل من إحرامه، أي يتمتع بكل ما كان نهي عن فعله من الأشياء الجائزة قبل أن يحرم. كالطيب ولبس القميص وغيرها، ويخلع لباس إحرامه حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو الذي سماه النبي ﷺ (يوم التروية).

وقد أثار هذا الأمر تساؤل بعض الصحابة، فقالوا: (كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج؟ فقال: افعلوا ما أمرتكم، فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم)[٣] أي أن النبي أمرهم بذلك لأنهم لم يحضروا الهدي مثله، أما من أحضر هديه معه مثل النبي ﷺ، فعليه أن يبقى محرمًا حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، ثم دخل النبي ﷺ على زوجته عائشة فرآها تبكي:

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١١.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.



ماذا عن النساء في دورتهن

لم تغب النساء يومًا عن الوحي والتشريع.. كن ملء السمع والبصر بالنسبة لمحمد ﷺ. جاء موعد الدورة الشهرية لأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، فأصيبت بالحزن فصارت تبكي. فقال لها: (ما يبكيك؟ قلت: لوددت والله أني لم أحج العام. قال: لعلك نفست؟ قلت: نعم. قال: فإن ذلك شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري)[١]. أي أنها تمارس كل مناسك الحج إلا الطواف حول الكعبة، وقال لها: (انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج، ودعي العمرة ففعلت)[٢].

اتضحت الصورة تمامًا وهم على أبواب مكة، حيث توقف النبي ﷺ عن التلبية وبات في مكان يسمى بـ: ذي طوى (ثم يصلي به الصبح ويغتسل)[٣]، ثم (دخل مكة من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء)[٤] أي (دخلها من أعلاها)[٥]، ثم توجه عليه السلام نحو بيت الله الحرام، فـ:

أول شيء فعله حين دخل المسجد

كان (أول شيء بدأ به ﷺ حين قدم مكة أنه توضأ)[٦] من أجل الطواف لأن (الطواف صلاة)[٧] بعد ذلك توجه ﷺ نحو الكعبة، وبالتحديد نحو الحجر الأسود، ليبدأ الطواف.

---

(١) صحيح البخاري ١-١١٧.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٩٦.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٧٠.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٧١.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩١٨.

(٦) صحيح مسلم ٢-٩٠٦.

(٧) سنده صحيح، رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ عن ابن جريج أخبرني الحسن بن مسلم عن طاوس عن رجل قد أدرك النبي ﷺ أن النبي ﷺ. ابن جريج لم يدلس والحسن وطاوس من التابعين الثقات. التقريب ١٦٤ و٢٨١، وله شاهد عن ابن عباس مرفوعًا وموقوفًا.

الطواف

(أتى ﷺ الحجر فاستلمه، ثم مشى على يمينه فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا)[١] أي جعل الكعبة والحجر عن يساره، ثم يبدأ بالطواف حول الكعبة سبعة أشواط.. يرمل في أول ثلاثة أشواط، أي يسير سيرًا بين الركض والمشي، ثم يمشي مشيًا عاديًا في بقية الأشواط، وكان في طوافه (لا يستلم إلا الحجر والركن اليماني)[٢] والاستلام يكون باليد، كما أن النبي ﷺ يقوم بتقبيل الحجر الأسود فقط، لكنه لا يقبل الركن اليماني. ولذلك كان عمر بن الخطاب يقبل الحجر، ويقول: (والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك)[٣] كما كان ﷺ (يستلم الحجر بيده، ثم قبل يده)[٤] ولم يحدد ﷺ للطواف أدعية أو أذكارًا خاصة به، لذا فالأمر متسع لكل الأذكار، من قراءة القرآن، إلى الدعاء إلى التسبيح والتهليل، بل وحتى الصمت. أما الكلام فقال ﷺ: (إنما الطواف صلاة، فإذا طفتم فأقلوا الكلام)[٥].

وبعد الطواف

توجه ﷺ مباشرة نحو مكان يقع أمام باب الكعبة والحجر بمسافة قصيرة، يسمى (مقام إبراهيم)، (ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ:

---

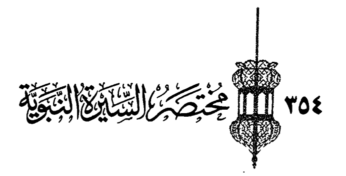
(١) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٥.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.

(٥) سنده صحيح، رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ وقد تم تخريجه قبل أربعة أحاديث، ولم أجد سندًا صحيحًا لذكر معين بين الركنين.



(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) فجعل المقام بينه وبين البيت)[١] و(كان يقرأ في الركعتين (قل هو الله أحد) و(قل يا أيها الكافرون)، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج)[٢] نحو جبل الصفا، وبذلك انتهى من الطواف تمامًا ليبدأ في

السعي بين الصفا والمروة

أي المشي بين جبلي الصفا والمروة. (فلما دنا من الصفا قرأ: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا بين ذلك. قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى)[٣] أي ركض ركضًا عندما نزل بطن الوادي، وقال: (لا يقطع الأبطح إلا شدًا)[٤] وقد أشير لبطن الوادي بعلامتين بعد ذلك. وقد سعى النبي ﷺ سبعة أشواط.. مقدار كل شوط هو مقدار ما بين الجبلين، من الصفا إلى المروة شوط، ومن المروة إلى الصفا شوط. وبذلك تكون نهاية الشوط السابع والأخير عند المروة، وتنتهي العمرة بعد إكمال الشوط السابع.... إذا فالعمرة باختصار طواف وسعي.

ولما أكمل ﷺ وصحابته شوط السعي السابع ذكرهم بما قاله من قبل، وهو أن من لم يحضر معه غنمًا أو إبلًا أو بقرًا فعليه أن يخلع لباس إحرامه، ويتمتع بكل المباحات حتى اليوم الثامن من هذا الشهر (ذي الحجة). فلما:

---

(١) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٢) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٣) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٤) سنده صحيح، رواه أحمد ٦-٤٠٤ وغيره من طريق هشام الدستوائي عن بديل بن ميسرة عن صفية بنت شيبة عن أم ولد شيبة. وهشام وبديل ثقتان. وصفية صحابية، وقال العجلي: تابعية ثقة. معرفة الثقات ٢-٤٥٤.

جاء اليوم الثامن من ذي الحجة

وهو المسمى بـ (يوم التروية) (فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر)[١] في منى.. كان يومًا جميلًا حافلًا بذكر الله، وليس هناك أذكار مخصوصة أو أفعال مخصوصة في ذلك اليوم، سوى التزود بالطاعات، ومحاولة ضبط النفس عن الانفعال في تلك الأيام التي يشتد فيها الزحام، وأحيانًا العطش والتعب، فالحج جهاد ومجاهدة للانفعالات وردود الأفعال البشرية. ولما جاء:

اليوم التاسع (يوم عرفة)

صلى النبي ﷺ وأصحابه الفجر ذلك اليوم في منى، ثم أمر ببناء خيمة صغيرة في مكان في عرفة يسمى (نمرة)، ثم تحرك هو وأصحابه نحو عرفة، وكان الصحابة في مسيرهم كما وصفهم أحدهم، فقال: (كان يهل منا المهل، فلا ينكر عليه، ويكبر منا المكبر، فلا ينكر عليه)، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز[٢] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها)[٣].. توقف ﷺ عند تلك الخيمة، وبقي تحتها حتى وقت صلاة الظهر، فخطب في شعبه خطبة قصيرة ومختصرة، برغم أن الخطيب كان أبلغ الناس، وأعلم الناس، وأكثرهم تأثيرًا، وأنه لا ينطق عن الهوى.. وبرغم أن الناس لن يملوا حديثه، إلا أنه سن سنته لمن بعده أن يقصروا الخطبة. فقال:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٩.

(٢) أي تحرك ولم يتوقف كما توقعوا.

(٣) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٩٠.

(إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع[١]، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع ربانا، ربا عباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني[٢] فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ،وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد. اللهم اشهد)[٣] (ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا)[٤] ثم تحرك:

للوقوف عند جبل عرفة

لم يصعد ﷺ الجبل بل وقف عند الصخرات (واستقبل القبلة)[٥]. وقال: (وقفت ههنا وعرفة كلها موقف)[٦] وتحدث عن فضل يوم عرفة، فقال: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي

---

(١) أي باطل ساقط لا قيمة له.

(٢) ستسألون عني يوم القيامة أو في القبر.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

(٦) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

بهم الملائكة فيقول: ما أراد هـؤلاء؟)[١]. وفي أثناء وقوفه (أقبل أناس من أهل نجد فسألوه عن الحج؟ فقال: الحج يوم عرفة. من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج)[٢] أي أن من لم يقف بعرفة قبل طلوع الفجر من هذه الليلة، فقد فاته الحج، ومن وقف بعرفة ولو ساعة من نهار أو ليل، فقد أدرك الحج. ثم ظل ﷺ (واقفًا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا، حتى غاب القرص)[٣] وبعد أن غابت الشمس ركب ﷺ ناقته نحو منطقة مزدلفة:

مزدلفة

ووسط تلك الحشود الهائلة من القبائل كان القائد ﷺ يواصل تحطيم الجاهلية والعنصرية، فأردف خلفه الفتى الأسود أسامة بن زيد وقد (شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة.. السكينة. كلما أتى جبلًا من الجبال أرخى لها قليلًا، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة)[٤] ويقول أسامة أن النبي ﷺ (كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص)[٥] أي كان يسير ببطء في المكان الضيق، حتى لا يتضايق من وراءه من الزحام، فإذا وجد طريقًا فسيحًا انطلق. وفي أثناء سيره سمع (وراءه زجرًا شديدًا، وضربًا، وصوتًا للإبل. فأشار بسوطه إليهم، وقال: أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع)[٦] أي ليس البر أن ترغموا الرواحل

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

(٢) أي من أدرك الوقوف بعرفة، وسنده صحيح، رواه البيهقي ٥-١٥٢ وغيره من طرق عن بكير بن عطاء عن عبدالرحمن بن يعمر. وبكير بن عطاء الليثي تابعي ثقة من التقريب.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) حديث جابر.

(٥) صحيح البخاري ٢-٦٠٠.

(٦) صحيح البخاري ٢-٦٠١.

على السرعة. ثم توقف ﷺ في المزدلفة فنزل (فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما)[١].

في تلك الأثناء وصل رجل من جبل طي إسمه عروة بن مضرس، ولما وقف أمام النبي ﷺ قال: (يا رسول الله جئت من جبلي طيء، والله ما جئت حتى أتعبت نفسي، وأنضيت راحلتي، وما تركت جبلًا إلا وقفت عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: من شهد معنا هذه الصلاة، وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد تم حجه، وقضى تفثه)[٢] وقال ﷺ: (وقفت هاهنا، والمزدلفة كلها موقف)[٣].

ثم نادى ﷺ ابن عباس ومن معه من الصغار والنساء الضعفة، وأمرهم أن يتوجهوا من الليل نحو منى ليرموا الجمرات، وذلك لشدة الزحام المتوقعة غدًا، ولكنه نبههم إلى عدم رمي الجمرات قبل طلوع الشمس. و(كان رسول الله ﷺ يقدم ضعفاء أهله بغلس ويأمرهم، يعني لا يرمون الجمرة حتى تطلع الشمس)[٤].

في تلك الليلة لم يقم النبي ﷺ، ولم يتهجد بل نام حيث (اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة)[٥]، ثم نهض قبل أن يسفر وتوجه نحو مكان يقال له المشعر الحرام:

---

(١) صحيح البخاري ١-٦٥.

(٢) سنده صحيح، رواه الحميد ٢-٤٠٠ وغيره من طرق عن الشعبي، قال سمعت عروة بن مضرس والشعبي تابعي إمام ثقة معروف.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن خزيمة ٤-٢٧١ وغيره من طرق عن جعفر ثنا أبي قال أتينا جابر بن عبد الله، وهذا هو سند مسلم.

(٤) حديث صحيح، رواه أبو داود ٢-١٩٤ والنسائي في الكبرى ٢-٤٣٧ وغيرهما من طرق عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عباس لولا عنعنة حبيب، وله شاهد عند ابن ماجه ٢-١٠٠٧ من طريق الحسن العرني عن ابن عباس وفيه إرسال وعند ابن أبي شيبة ٣-٢٣٤ وغيره من طريق المسعودي، وهو ضعيف عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

المشعر الحرام

وهو عبارة عن جبل في منطقة مزدلفة. (فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًا)[١] وبعد أن أسفر الجو توجه عائدًا إلى منى لرمي جمرة واحدة تسمى العقبة، وفي طريقه مر بواد يقال له (محسر)، وهو الوادي الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل، فأسرع السير حتى تجاوز الوادي.. فـ(أتى بطن محسر فحرك قليلًا، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى)[٢]، وهو مستمر في التلبية حتى وصل إلى منى. عندها توقف لالتقاط الحصى، والتقى بالطفل ابن عباس وأوصاه بحجم الحصى.

حجم الحصى

قال ابن عباس: إن النبي ﷺ قال له وهو واقف على راحلته: (هات القط لي. فلقطت له حصيات، وهي حصا الخذف[٣] فلما وضعتهن في يده، قال: نعم، بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا. وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)[٤] ومن الغلو في الدين الرمي بأحجار كبيرة، أو بالأحذية، أو أي شيء غير حصى الخذف الصغير، ولما أتى الجمرة توقف عن التلبية وبدأ الرمي، فـ(رماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي)[٥] (وجعل البيت عن

---

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع. لسان العرب ٩-٤٠.

(٤) سنده صحيح، رواه ابن حبان - موارد الظمآن ١-٢٤٩ وأبو يعلى ٤-٣١٦ وغيرهما من طرق عن عوف الأعرابي عن زياد بن حصين حدثني أبو العالية حدثني ابن عباس . أبو العالية رفيع بن مهران تابعي ثقة وتلميذه ثقة. التقريب ٢١٠ و٢١٩وعوف ثقة. التقريب ٤٣٣.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

يســاره، ومنى عن يمينه)[١] وقد كان النبي القائـد ﷺ يرمي جمرة العقبة راكبًا، حيـث يقـول جابر: (رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يـوم النحر ويقول: لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه)[٢]. ويقدم لأمته صورة من صور التلاحم، والتواضع، والسكينة، وضبط النفس، في شدة الزحام، التي تحتاج إلى هذا المستوى الرفيع من التعامل والأخلاق والقيادة.

عظمة هذا النبي يوم الرمي

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر على ناقته صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إلـيك)[٣] أي أن الناس لا يُضربون ولا يُدفعون في أثناء مروره، بل لا يقال لهم: أفسحوا الطريق للنبي، أو ابتعدوا كي يمر.. كان النبي القائد ﷺ جزءًا من أمته.. يسبح في مشاعرها، وتسبح في مشاعره.. يمتع ناظريه بهم ويمتعون أنظارهم به.

صحابية أخرى تدعى: أم الحصين (تقول حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيته حين رمى جمرة العقبة، وانصرف وهو على راحلته، ومعه بلال وأسامة، أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس. فقال رسول الله ﷺ قولًا كثيرًا ثم سمعته يقول: إن أمر عليكم عبد مجدع أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا)[٤] وبعد أن انتهى من الرمي تحرك عليه السلام لينحر هديه.

---

(١) صحيح مسلم ٢ - ٩٤٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٣.

(٣) سنده قوي، رواه ابن خزيمة ٤-٢٧٨ والترمذي ٣-٢٤٧ وغيرهم عن أيمن بن نابل أخبرني قدامة بن عبد الله. أيمن تابعي حسن الحديث من رجال البخاري. التقريب ١١٧

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٤٤.

نحو المذبح

ولذلك سمي يوم العاشر بـ (يوم النحر)، ولما وصل ﷺ قام فـ(نحر ثلاثًا وستين بيده)[١] ثم بين ﷺ لأصحابه التيسير في أمر الذبح، فقال: (نحرت ههنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم)[٢] أي اذبحوا في أماكن إقامتكم في منى، دون التكلف للذهاب إلى المذبح، أما عن الاشتراك في البقر أو الإبل فيقول أحد الصحابة: (نحرنا البعير عن سبعة، والبقرة عن سبعة)[٣]، ثم بين ﷺ للحجاج أنه يجوز لمن شاء أن يأخذ من ذلك اللحم إن أذن صاحبه، فقد قال ﷺ بعد أن ذبح هديه: (من شاء اقتطع)[٤] كما قال: (إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر، وهو الذي يليه)، لأنها أيام توحيد لله، وأيام إطعام للفقراء والمحتاجين.

كان ذلك السلوك الكريم من النبي القائد ﷺ تأثرًا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥] والقانع هو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس، أما المعتر، فهو الذي يتعرض لهم كي يعطوه. بعد ذلك أرسل النبي ﷺ إلى زوجاته بلحم بقر كان قد ذبحه عنهن. حيث تقول عائشة رضي الله عنها: (دخل علينا يوم النحر بلحم بقر، فقلت: ما هذا؟ قال: نحر رسول الله ﷺ عن أزواجه)[٦] لكن ماذا عن الذي لا يستطيع النحر. لفقره مثلًا؟ الإجابة هي أن الحجاج من ناحية الهدي أربعة أنواع:

---

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

(٤) سنده صحيح، رواه البيهقي ٧-٢٨٨ وغيره عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد عن عبدالله بن لحي عن عبدالله بن قرط. وعبد الله مخضرم ثقة. التقريب ٣١٨ وتلميذه راشد بن سعد تابعي ثقة. التقريب ٢٠٤ وثور ابن يزيد ثقة ثبت. التقريب ١٣٥.

(٥) الحج: ٣٦.

(٦) صحيح البخاري ٢-٦١١.

- حاج من أهل مكة، فلا يجب الذبح عليه.
- حاج مفرد نوى الحج فقط، فليس عليه أن يذبح.
- حاج قارن أحضر معه هديه وانتهى أمره.
- حاج متمتع وعليه ذبح هدي إن كان من غير أهل مكة، فإن عجز عن الذبح لظرف من الظروف، فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده، لأن الله سبحانه يقول عن المتمتع الذي ليس من أهل الحرم: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1].

لكن الحج ليس سعيًا وطوافًا ورميًا ونحرًا فقط.. هناك هدف أسمى هو التوحيد، وأهداف تربوية أخرى هي ضبط النفس، والتحكم في الغرائز المتوثبة، والامتناع عن الانتصار للذات، وتعلم الإيثار، والتعرف على الشعوب الأخرى وإزالة الفوارق العنصرية والمناطقية بينها، والتخلص من وهم التفوق، لتغمر الحجيج أجواء حسن الخلق وحسن الجوار، وبعد أن أرسل ﷺ لنسائه اللحم نادى حلاقه:

الحلق بعد النحر

فبعد أن نحر ﷺ كان الحجام جالسًا بقربه فـ(قال بيده عن رأسه، فحلق شقه الأيمن)[2] (ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: احلق. فحلقه)[3] ثم قال ﷺ: (اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين.

---

(١) الحج ١٩٦-١٩٧.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: وللمقصرين)[١]

أما النساء فقال ﷺ: (ليس على النساء حلق، إنما على النساء التقصير)[٢]، ثم توجه ﷺ إلى عائشة لتطيبه، وهذا يعني أنه قد أبيح له الطيب، وانتهى من الإحرام. حيث تقول رضي الله عنها: (طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل، قبل أن يطوف)[٣]، إذًا فالحاج يتحلل إذا قام بالرمي والنحر، أما النبي ﷺ فهو في طريقه للكعبة ليطوف طواف الإفاضة لكن قبل ذلك قام ب:

خطبة يوم النحر

ففي منى خاطب ﷺ إيمان أمته.. خاطب فيهم هذا الصفاء، وهذه الأخوة الرائعة.. آملًا أن تستمر دون منغصات، فقال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى. قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٦.

(٢) سنده صحيح، رواه الدارمي ٢-٨٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد الحميد بن جبير عن صفية بنت شيبة أخبرتني أم عثمان بنت أبي سفيان عن ابن عباس مرفوعًا. وعبد الحميد تابعي ثقة. التقريب ٣٣٣ والبقية صحابة.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦٢٤.

قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه. ثم قال: ألا هل بلغت.. ألا هل بلغت)[١]. وبعد أن انتهى ﷺ من خطبته سأله بعض الصحابة عن أشياء كانت الإجابة عليها كلها واحدة، هي:

لا حرج

فقد وقف ﷺ على راحلته فانهالت عليه الأسئلة. قال أحدهم: (يا رسول الله إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل الرمي؟ قال رسول الله ﷺ: فارم ولا حرج. وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر؟ فيقول: انحر ولا حرج)[٢] ثم انطلق ﷺ لمكة لأداء:

طواف الإفاضة

وصل ﷺ المسجد، فدخل ببعيره المسجد، فـ(طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره، يستلم الركن كراهية أن يضرب عنه الناس)[٣] أما عن طريقة استلامه، فكان (كلما أتى على الركن أشار إليه بشيء في يده وكبر)[٤] حتى إن أبا الطفيل رضي الله عنه رأى معه عصا معوجة الرأس، تسمى الصولجان، وتسمى المحجن أيضًا، فقال: (رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت، ويستلم الركن بمحجن معه، ويقبل المحجن)[٥].

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢١١٠ وبعد كلمة وأموالكم «قال محمد وأحسبه قال».
(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٨.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٤) صحيح البخاري ٢-٥٨٨. والركن هو الحجر الأسود.
(٥) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

أما الأشخاص ضعيفو البنية، الذين لا يطيقون الزحام وشدته ومن بينهم عائشة التي كانت تشكو وتقول: (شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي. فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة)[١].

أكمل النبي ﷺ طوافه، ثم توجه نحو بئر زمزم، حيث حق بني عبد المطلب في الإشراف على زمزم، فأتاهم وهم (يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم.. فناولوه دلوًا فشرب منه)[٢] وبعد أن شرب ركب بعيره وتوجه للسعي راكبًا، حيث يقول جابر: (طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة، ليراه الناس وليشرف وليسألوه)[٣]. وكأن الطواف والسعي ركوبًا يمنح المستقبل حلولًا للزحام باستخدام الأجهزة الحديثة في الطواف والسعي، فهي أكثر مرونة من البعير والناقة وتحمل أعدادًا أكثر، وبعد السعي (رجع فصلى الظهر بمنى)[٤] عاد ﷺ إلى منى ليمضي بقية أيام الحج فيها. وتسمى الأيام الباقية:

أيام التشريق

أيام التشريق هي: اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر . وخلال تلك الأيام بات ﷺ بمنى، وكان يرمي الجمرات الثلاث يوميًّا، كل جمرة بسبع حصيات. ووقت الرمي يختلف عن وقت الرمي يوم النحر. فقد (رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد (أي أيام التشريق) فإذا زالت الشمس)[٥] أي أنه رمي أيام التشريق بعد دخول وقت صلاة الظهر. وكانت سنته في الرمي هي أنه

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٠.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

يأتي للجمرة الأولى، وهي الصغرى، فيرميها بسبع حصيات، يقول بعد كل رمية: الله أكبر. فإذا انتهى من الرمي تحرك عن يمينه، ثم استقبل القبلة، ورفع يديه ودعا طويلاً. ثم يتحرك نحو الجمرة الوسطى، ثم يرميها بسبع حصيات، يكبر بعد كل حصاة، ثم يتحرك عن يساره ويستقبل القبلة، ويدعو دعاءً طويلاً رافعًا يديه. ثم يتحرك نحو جمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات من بطن الوادي، ثم يغادرها دون أن يقف عندها.حيث يقول ابن عمر (هكذا رأيت النبي ﷺ يفعله)[١] وذلك لمدة ثلاثة أيام هي أيام التشريق. لكن من الممكن:

الاكتفاء بالرمي يومين فقط

بحيث يستطيع الحاج مغادرة منى في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة قبل غروب الشمس، لكن إن غابت الشمس قبل مغادرته، فيجب عليه المبيت في منى، ليرمي اليوم الثالث عشر. لقول الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٢]، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: (من غربت له الشمس من أوسط أيام التشريق وهو بمنى، فلا ينفرن حتى يرمي الجمار من الغد)[٣] لكن:

المبيت في منى ليس واجبًا على كل الحجيج

فالنبي ﷺ سمح للمضطرين، وأصحاب الأعذار بالمبيت خارج منى فقد (استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٣.

(٢) البقرة: ٢٠٣.

(٣) سنده صحيح، رواه مالك ١-٤٠٧: عن نافع عن ابن عمر : وهذا أصح الأسانيد.

منى، من أجل سقايته فأذن له)[1] والسقاية هي تقديم الشراب إكرامًا لضيوف بيت الله.

يتحدث ابن عباس عن سقايتهم، فيقول: (إن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها. فقال: اسقني. قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح. ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه يعني عاتقه، وأشار إلى عاتقه)[2].

وكان العباس يقدم النبيذ المباح.. الذي لم يتحول إلى خمر، وقد انتقد أحد الأعراب بني العباس تقديمهم للنبيذ، فقال: (ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن، وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن حاجة بكم، أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل. قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ)[3] ومن أجل ذلك توجه العباس نحو مكة للمبيت بها من أجل السقاية، كما (رخص ﷺ للرعاء أن يرموا بالليل، وأن يجمعوا الرمي)[4] وقد أوضح أحد الصحابة الحديث معنى الجمع، فقال: (إن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا يومًا، ويدعوا يومًا)[5] أخبر ﷺ أصحابه

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٨٩.

(٢) صحيح البخاري ٢- ٥٨٩.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٥٣.

(٤) سنده صحيح، رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ حدثنا سلم بن جنادة ثنا وكيع عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبي بداح عن أبيه أن رسول الله ﷺ. سلم ثقة. التقريب ٢٤٥ وعبد الله تابعي ثقة مر معنا. التقريب، لكنه سمع الحديث من والده الثقة أبي بكر كما في الحديث التالي، وأبو البداح تابعي ثقة. التقريب ٢-٣٩٤ ووالده صحابي.

(٥) سنده صحيح، رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ وهو الحديث السابق.

بذلك، وقضى أيام التشريق بمنى، ولما انتهت أيام التشريق الثلاثة، توجه ﷺ نحو مكة ليطوف بالكعبة سبعة أشواط تسمى:

طواف الوداع

وقد أوجبه النبي ﷺ فقال: (لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت)[١]، ثم طاف النبي ﷺ طواف الوداع.. سبعة أشواط يفعل مثل ما كان يفعل لكن:

ماذا عن المرأة الحائض وطواف الوداع

هل تحبس الحائض من معها فينتظرونها حتى تطهر، أم تغادر مكة معهم ولا شيء عليها؟ هذه المشكلة تعرضت لها أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها، فذكرت عائشة ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (أحابستنا هي؟ قالوا: إنها قد أفاضت. قال: فلا، إذًا)[٢] أي أنها لن تحبسكم عن الخروج، ما دامت قد طافت طواف الحج أي طواف الإفاضة، فليس عليها طواف وداع، ويكفيها طواف الإفاضة عن طواف الوداع، بل قال ﷺ: (اخرجوا)[٣] وبذلك انتهت حجته ﷺ.

مكان التجمع للانطلاق نحو المدينة

قبل أن يخرج النبي ﷺ حدد لأصحابه مكانًا للاجتماع اسمه: (المحصب)، وهو ذلك المكان الذي يحمل ذكريات مريرة جدًّا للنبي ﷺ وأهله وصحابته، عندما حاصرتهم قريش فيه وقاطعتهم، ومنعت الاتصال بهم والتعامل معهم.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦٢٥.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦١٨.

قال أسامة بن زيد: (يا رسول الله، أين تنزل غدًا) فقال ﷺ: (نحن نازلون غدًا إن شاء الله بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر)[١]. ثم خرج النبي ﷺ وخرج الصحابة رضي الله عنهم، ولكن قبل خروجهم طلبت عائشة من النبي ﷺ طلبًا فيه قربة إلى الله.

عائشة تريد أداء العمرة

وهي تشتكي من أن الناس سوف يرجعون إلى ديارهم وقد أدوا عمرة وحجًّا، أما هي فستعود وقد أدت حجة فقط. فقالت للنبي ﷺ: (يا رسول الله يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة؟)[٢] (أيرجع الناس بأجرين، وأرجع بأجر؟ فأمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن ينطلق بها إلى التنعيم. قالت: فأردفني خلفه على جمل له)[٣] وقال لها النبي ﷺ: (اذهبي مع أخيك إلى التنعيم، فأهلي بعمرة ثم موعدك كذا وكذا)[٤] و(التنعيم) مكان خارج الحرم.

انطلقت عائشة مع أخيها نحو التنعيم، ثم أحرمت بالعمرة وفي أثناء عودتها لمكة التقت بزوجها ﷺ وقالت: (لقيني النبي ﷺ وهو مصعد من مكة، وأنا منهبطة عليها)[٥] (فاعتمرت فقال ﷺ: هذه مكان عمرتك)[٦]. ثم انطلق نحو المدينة، وفي الطريق إلى طيبة كان الأنصار أسعد الناس بنبي الأمة وقائد الدولة، وكان ﷺ أوفى الناس بعهوده ومواثيقه، حين عاد لطيبة. وفي الطريق أيضًا حدثت قصص طريفة بين زوجات النبي ﷺ، وبينه وبينهن.. لعبت الغيرة دورها المعتاد، برغم

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم والبيهقي في الكبرى ٥-١٦٠ واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٧٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٠.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.

(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.

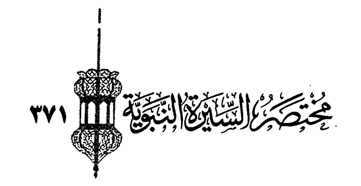
(٦) صحيح البخاري ٢-٥٩٠.

عودة الجميع من رحلة الحج الرائعة، فتألق النبي ﷺ كعادته بسلوك الزوج الرائع، ففي طريق الأشواق إلى المدينة كان النبي ﷺ يشعر بمعاناة صفية:

شكوى زوجته صفية من جملها

في الطريق كانت صفية قاسية على مشاعره الفياضة ﷺ، وقد استغلت صفية كون ذلك اليوم يومها كي تقطف المزيد من الحنان والدلال، لكنها بالغت في الشكوى حتى كلفتها مبالغتها تلك متعة يومها ذلك. كانت تسير ببطء (فاستقبلها رسول الله ﷺ وهي تبكي، وتقول: حملتني على بعير بطيء) فاقترب ورق لتلك الدموع ومد يديه برفق، وبدأ (يمسح بيديه عينيها، فأبت إلا بكاء، وجعلت تزداد بكاء، وهو ينهاها فلما أكثرت زبرها وانتهرها) وتأثر لبكائها فأمر الناس بالتوقف والنزول وهو لا يريد النزول.. كان غاضبًا من تصرفها فتركها.

شعرت صفية بالحرج وهي تغضب زوجًا عطوفًا، وتعطل قافلة جميلة.. شعرت بالذنب وهي ترى قائد الدولة يحاول استرضاءها فتقابله بالبكاء، فتهادت نحو منافستها عائشة تقدم لها عرضًا لا يرد، مقابل أن ترد قلب حبيبها لها. (أتت عائشة فقالت: يومي هذا لك من رسول الله ﷺ إن أنت أرضيتيه عني) وافقت عائشة على الفور، وبدأت الأنوثة تمارس دورها في التأليف لا في التفريق. صبغت خمارها بورس وزعفران، ورشته بقليل من الماء، ثم تهادت نحو زوجها الحزين الذي اعتزل في خيمة لوحده، قد استلقى، دخلت عائشة فجلست عند رأسه ﷺ، فنظر إليها مستغربًا اقتحامها ليوم صفية، وقال: (ما لك؟ فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)، ثم استدرت عاطفته، وألانت قلبه حتى رضي عن صفية)، وذهب ما بنفسه عليها.



لم يكتف ﷺ بالرضا عن صفية، بل قرر أن يبهجها.. أن يستعير لها وهو قائد الدولة بعيرًا، لكن بدلا من أن تنحل تلك المشكلة الأسرية تفاقمت. فقد (انطلق ﷺ إلى زينب فقال لها: إن صفية قد أعيا بها بعيرها، فما عليك أن تعطيها بعيرك؟) نظرت زينب إلى حبيبها وقد غلت غيرتها، فانفلتت الكلمات دون شعور تقول: (أتعمد إلى بعيري فتعطيه اليهودية؟)[1] لم يرد ﷺ عليها، بل تركها، وهجرها طوال الطريق) فصفية يهودية من ناحية النسب، وهذا ليس عيبًا، لكن عندما تحضر الغيرة تغيب الحكمة، فذات يوم دخل ﷺ على صفية فوجدها تبكي، (فقال: ما يبكيك؟ فقالت: قالت حفصة :إني ابنة يهودي) وجدت حفصة بنت عمر في أصل صفية اليهودي مكانًا جيدًا للوخز والإيلام، وإشباعًا لغيرتها منها، لكن صفية وجدت الإنصاف في كلمات زوجها العذبة الحانية. حين قال لها: (إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبم تفخر عليك؟) ثم لقي حفصة فقال لها: (اتقي الله يا حفصة)[2]، فصفية الآن أم للمؤمنين. أما زينب (فلم يقرب بيتها، وعطلت زينب نفسها، وعطلت بيتها، وعمدت إلى السرير فأسندته إلى مؤخر البيت، وأيست أن يأتيها رسول الله ﷺ. فبينا هي ذات يوم إذا رسول الله ﷺ فدخل البيت، فوضع السرير موضعه)[3].

كان بيت النبوة بيتًا كبقية البيوت.. يجري فيه ما يجري في البيوت من غيرة وخصومة، لكن رقي النبي ﷺ في التعاطي مع المشكلات الأسرية ذللها حتى كأنها

---

(١) سنده قوي، رواه النسائي في الكبرى ٥-٣٦٩ أخبرنا محمد بن خلف قال ثنا آدم قال نا سليمان بن المغيرة قال ثنا ثابت البناني عن أنس.. ابن خلف العسقلاني صدوق. التقريب ٤٧٧ وشيخه ابن أبي إياس ثقة عابد من رجال البخاري. التقريب ٨٦ وبقية السند صحيح على شرط مسلم.

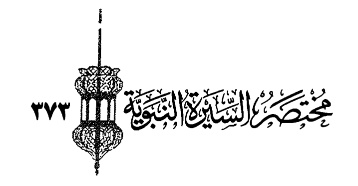
(٢) سنده صحيح، رواه عبد بن حميد ١-٣٧٣ وغيره من طريق عبد الرزاق أنا معمر عن ثابت البناني عن أنس بن مالك، وهو سند مشهور على شرط الشيخين.

(٣) سنده قوي، رواه النسائي في الكبرى ٥-٣٦٩ أخبرنا محمد بن خلف قال ثنا آدم قال نا سليمان بن المغيرة قال ثنا ثابت البناني عن أنس.. ابن خلف العسقلاني صدوق. التقريب ٤٧٧ وشيخه ابن أبي إياس ثقة عابد من رجال البخاري. التقريب ٨٦ وبقية السند صحيح على شرط مسلم.

غير موجودة. فالغيرة التي تلم بالمرأة واقع، لكن يفترض أن لا يتحول إلى عداوة أو شحناء، أو إضرار بالآخر. والتعامل معها فن يجيده النبي ﷺ، وهن معذورات، فالرجل الذي يغرن عليه ليس كبقية الرجال: إنه محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن يخيرهن في العيش معه أو الانفصال، فيقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾.

هذه الآيات قمة في الحرية للمرأة.. حين منحت زوجات نبي الأمة وقائد الدولة ﷺ حقًا في الانفصال عنه لا يملك كائن من كان نزعه منهن، بل وسوف يمنحن مالًا متعة للطلاق.. آيات تمنحهن حريتهن في الانفصال حتى دون أن يستشرن أهلهن، فمعظمهن شابات دون الثلاثين، ومنهن من هي دون العشرين وهن جميلات، وهو فوق الستين، والحياة أمامهن، والحرية بأيديهن، فلم لا ينفصلن ويتزوجن شبابًا من بعده؟

الإجابة حب لم تعرف له الزوجات مثيلًا.. سكن محمد ﷺ قلوبهن، وخلب عقولهن، ورفرف بأرواحهن حتى هامت برفقته هناك.. هناك في الجنة.. ثقفهن بكلمات الله، فأصبحن لا يرين الحياة إلا محطة نحو النعيم بجواره.. هناك حيث الفردوس.. حيث الجمال بلا حدود.. الجمال الذي لا يعرف التغير إلا إلى الأجمل.. حيث الأجساد الغضة التي لا تعرف التهدل أو الشيخوخة أو الأمراض.. الأجساد التي لا تفرز سوى العطور.. حيث الأمن الذي لا يعرف القمع أو التسلط أو الحروب أو الكوارث.. حيث العيش الذي لا يعرف المنغصات.. حيث القصور التي تأخذ العقول بتصاميمها وجمالها، والشوارع والميادين المرصوفة بالأحجار الكريمة.. حيث الحدائق والبساتين والزهور والورود التي لا حدود لألوانها وعطورها وأشكالها.



اخترنه ﷺ مباشرة دون أن يستشرن أهلهن، مع أن أهلهن لا يملكون حق منعهن.. اخترنه كلهن دون تردد حتى إن عائشة، وهي أصغرهن وأجملهن، لما قرأ ﷺ عليها الآية قال لها: (لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك) قالت دون تردد: (أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه، فقلن مثل ما قالت عائشة)[1]

اخترنه حتى أن سودة، وهي التي تجاوزت الستين خفق قلبها لرفقته في الجنة، فـ(وهبت يومها وليلتها لعائشة، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ)[2] ومع ذلك كانت عائشة من فرط حبها ووَلَهِهَا به تتحسس فراشه وهو نائم، خشية أن يغادره في ليلتها.

ذات ليلة استيقظت فمدت يدها تتحسس فراشه، فإذا الفراش خال منه ﷺ، فأخبرتها غيرتها أنه عند بعض نسائه، فانطلقت تبحث، فلما عادت وجدته راكعًا يقول: (سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت) فلما سمعت تسبيحه فدته بأمها وأبيها، وقالت: (بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر)[3].

إنه الحب الذي أذهل زوجاته وأذهل عائشة، فكررت تحسسها بحثًا عن قلبها الذي يحمله ﷺ أينما اتجه.

ذات ليلة، وحين أوى ﷺ إلى فراشه وضع رداءه، ثم خلع نعليه ووضعهما عند رجليه، ثم بسط طرف إزاره على فراشه المتواضع، واضطجع، فلما ظن أن عائشة قد نامت، نهض برفق وبمنتهى الذوق خشية أن يوقظها، فاستل رداءه ولبس نعاله رويدًا، ثم تهادى دون أن يحدث صوتًا نحو الباب ففتحه، ففتحت عائشة عينيها

---

(١) صحيح البخاري ٣- ١٣٥.

(٢) صحيح البخاري ٣- ١٥٩.

(٣) صحيح مسلم ١-٣٥١.

على طيفه الحبيب يغادر غرفتها يحمل قلبها، ثم أجاف الباب رويدًا، فلم تجد عائشة لذة للنوم:

إلى أيهن سيذهب؟ نهضت من فراشها، وارتدت حجابها، ثم تسللت خلفه ترصد طيفه في ظلام المدينة الآمن.

ما هذا؟ إنه ليس في طريقه إلى أي حجرة من حجرهن.. إنه يسلك طريقًا مؤلمًا يحمل الكثير من الذكريات والوجد.. طريق يؤدي إلى شواهد البقيع. توقف فتوقفت حبيبته من بعيد.. ترقب حزنه الذي طال، ثم رفع يديه ثلاث مرات لا تدري عائشة ما يقول فيهن، ثم انثنى عائدًا، فالتفت عائشة كي تسبقه، ومشت وهي تتلفت، فلمح ﷺ ذلك الطيف الذي كان يراقبه، فأسرع نحوه.

التفتت عائشة فرأته يسرع نحوها فأسرعت محتفظة بالمسافة نفسها، فارتاب ﷺ بحركة الطيف فهرول، فالتفتت عائشة وخافت فهرولت، فأحضر ﷺ أي صار يعدو فصارت تعدو حتى سبقته للبيت، وفتحت الباب بسرعة وألقت بجسدها على الفراش، وصدرها يعلو وينخفض، وأنفاسها تتقطع وقلبها يرجف.

دخل ﷺ فأنصت لأنفاسها المتقطعة، فاقترب منها وجلس ونظر إليها مستغربًا لباسها وارتجافها، فقال: (مالك يا عائش حشيًا رابية؟ فقالت: لا شيء. قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير) ففدته بأمها وأبيها، وقصت عليه قصة حبها وغيرتها التي حرمتها النوم، فقال: (فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟ قالت: نعم.) تقول عائشة (فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله؟ قال: نعم).

طمأنها ﷺ بعدله، ثم قص عليها قصة البقيع والوقوف على شاطئ الموت، فقال وهو يستشعر وداعًا لحبيبته التي خشي عليها أن تستوحش إن أيقظها،

قال لها: (إن جبريل أتاني .. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم. قالت عائشة: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)[1]. ما سر هذا الاستغفار لساكني البقيع؟

الإجابة بدأت بعد أيام حين أنزل الرحمن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فكان لنزول هذه السورة ظلالاً مؤثرًا شعرت به عائشة، فقالت: (ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه: إذا جاء نصر الله والفتح يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي)[2].

لم تترك هذه الفتاة العظيمة هذا الأمر يمر دون استفسار، فهي لا تحب رسول الله ﷺ فقط، بل تحب سنته وتعشق التتلمذ على يديه.. توجهت إليه فقالت: (يا رسول الله، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها: إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا)[3].

ومع تلك المؤشرات الحزينة يتعاظم خوف القائد ﷺ على شعبه وأمته، حتى بدأ يكثر الحديث عن مستقبلهم، فقد أشرق الفجر يومًا، فصلى بهم. يقول أحدهم: (ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٧٠.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٣) صحيح مسلم ١-٣٥١.

القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[١]

يا إلهي هل اقترب أجله ﷺ.. هل آن الأوان للرحيل؟ لم كل هذه الإشارات.. لماذا راجع معه جبريل القرآن مرتين هذا العام بدلًا من مرة واحدة كما كان يفعل كل عام؟ هل هي علامة الوداع أيضًا؟ حتى جسده بدأ يضعف، فهذا النبي الذي كان يقرأ البقرة وآل عمران والنساء قائمًا في ركعة واحدة، أصبح يصلي الليل جالسًا، وبرغم أنه في الثالثة والستين، وهي سن ليست بالكبيرة جدًّا خاصة لمن يتغذى تغذيته ﷺ، المقتصرة على الماء والتمر واللبن في معظم الأيام، برغم أنه يحكم الجزيرة العربية كلها، لكن هذا القائد ﷺ الذي (لم يشبع من خبز الشعير)[٢] يومًا و(لا رأى رغيفًا مرققًا)[٣] أتعب جسده شيء أخطر، وهم أثقل كشفت عنه حبيبته عائشة حين سئلت: (هل كان النبي ﷺ يصلي وهو قاعد؟ قالت: نعم، بعد ما حطمه الناس)[٤]. حطمت جسده المسؤوليات وهموم شعبه ودولته، والتفكير بهم وحل مشكلاتهم، والحدب على صغارهم قبل كبارهم.

لكن هموم الموت والوداع لم تكن لتأخذ النبي ﷺ بعيدًا عن مسؤولياته.. كان يغرس الحياة في النفوس.. كان يشعلها ويأخذها إلى الإنجاز بلا حدود، فذات يوم خاطب أصحابه محرضًا إياهم على زرع الحياة في تلافيف الموت.. خاطبهم خطابًا لا يعرف حدودًا للإبداع، ولا زمنًا للتوقف فقال لهم: (إن قامت الساعة

---

(١) سنده صحيح، رواه أحمد ٢٨-٢٧٣ وغيره من طرق عديدة .

(٢) صحيح البخاري ٧-٧٥.

(٣) صحيح البخاري ٧-٧٦.

(٤) صحيح مسلم ١-٥٠٦.

وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليفعل)[١] ترى ماالذي سيجنيه غارس فسيلة نخل تحتاج إلى سنوات لتنمو وتثمر؟ ما الذي سيعود عليه من غرسها والقيامة ستقوم بين لحظة وأخرى؟ لا شيء سوى أن الإسلام جاء لتظل حياة المسلم إبحارًا نحو اللا نهايات، وإبداعًا دون توقف.

كان ﷺ ينظر إلى ما بعد الموت، فالموت مرحلة لا أكثر في حياة المسلم. هاهي عيون الدولة ترصد تحركًا روميًّا نصرانيًّا ثالثًا، فلم يستدع ﷺ أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليًّا ولا سعد بن عبادة. استدعى فتى أسود في سن أبنائهم.. استدعى أسامة بن زيد وأمَّره على هؤلاء العظماء.. أمره على جيش، وطلب منه التوجه نحو الشام للتصدي لحملة الروم.

شعر بعض الرجال بنوع من التبرم لإمارة أسامة، فقام ﷺ يخطب محطمًا بقايا العنصرية.. خاصة بين من أسلم حديثًا فقال: (قد بلغني أنكم قلتم في أسامة، وإنهِ أحب الناس إليَّ)[٢] (إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله! وايم الله إن كان لخليقًا للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده)[٣].

كانت كلماته لأسامة ككلماته لأبي بكر في الحج، ولعلي في الغدير، ولعمر ولعثمان في تبوك، وككلماته لغيرهم.. لم تكن حدية تعني أن فلانًا بعينه والبقية تبع له، بل كانت تعني أن في الكل طاقات، وفي الكل مواهب لا تختزل أو تختصر في صحابي لوحده، فلا عصمة لغير محمد ﷺ، ولا نبي بعده، ولكنهم أخوة، ولكل جهده وجهاده، وما ضر الأمم شيء كالغلو، وقبل ذلك أمة هي الأهم.. هي الأهم

---

(١) سنده ثلاثي صحيح رواه الطيالسي ١ - ٢٧٥ حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن زيد عن أنس مرفوعًا. وهشام ثقة من رجال الشيخين التقريب ٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

حين قال: (لكل نبي دعوة قد دعا بها في أمته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)[١] وهي الأهم حين قال: (اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق به)[٢]، والأمة هي الأهم حين قال: (من خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه)[٣].

كانت كلماته ﷺ لأسامة كالوداع للدنيا، واقتراب الوداع مرير، فهل ستحتمله القلوب؟

ذات يوم عاد ﷺ من مقبرة البقيع، وهو يشعر بألم في رأسه، فتوجه نحو بيت عائشة، ولما دخل عليها وجدها تشعر بصداع أيضًا، وتقول: (وا رأساه. قال ﷺ: بل أنا والله يا عائشة.. وا رأساه)، ثم مازحها رغم معاناته، قائلًا: (ما ضرك لو مت قبلي، فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟) فردت عليه بمزحة جعلته يبتسم، حين قالت: (والله لكأني بك لو فعلت ذلك، رجعت إلى بيتي فأعرست ببعض نسائك)[٤].

ازداد وجعه ﷺ بعد ذلك الصداع شيئًا فشيئًا، حتى ثقلت حركته، وصار يتنقل بصعوبة بين أبيات زوجاته، وكان يحتاج إلى من يعينه في الحركة، حتى إنه انتقل إلى بيت ميمونة بصعوبة عاصب الرأس من شدة الألم، وفي ذلك اليوم شعر بأنه لايستطيع التنقل بين حجرهن، فاجتمعت أمهات المؤمنين في بيت ميمونة، وعيونهن الدامعة متعلقة بحبيبهن الذي بدأ جسده بالضعف، ولما اجتمعن استأذنهن أن

---

(١) صحيح مسلم ١-١٩٠.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٥٨.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٤٧٦.

(٤) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩، واللفظ له، والبيهقي في الدلائل ٧-١٦٩: حدثني يعقوب بن عتبة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة. يعقوب ثقة. التقريب ٦٠٨ والزهري ثقة ثبت. التقريب ٥٠٦.

يمرض في بيت عائشة. (فأذِنَّ له)، فتم استدعاء علي والفضل بن عباس، ورفعوا نبيهم وأسندوه بينهما، وخرجوا به نحو بيت عائشة، وفي أثناء سيره في الطريق كانت عيون المارة من الشعب تفيض، وهي ترى قائدها عاجزًا عن تحريك قدميه.. كانت قدما ترسم خطوطًا على الأرض وتحفر أخاديد في قلوب الرجال والنساء والأطفال. تقول عائشة: إنه كانت (تخط قدماه الأرض، عاصبًا رأسه حتى دخل بيتي)[1]. كان مشهدًا يدمي القلب لمن رآه.. نبي الله وقائد الدولة لا يستطيع السير لوحده، وهو الذي كان يقود شعبه قبل أشهر إلى مكة.

اضطجع ﷺ على فراش المرض.. تمرضه عائشة، وتزوره فاطمة والحسن والحسين وأمامة اليتيمة، وتزوره أمهات المؤمنين. افتقدته الشوارع والميادين، وطافت القلوب بحثًا عنه، وتعلقت العيون المارة ببابه علَّه يشرق منه.. علَّه يخرج، فيروي هذا العطش الذي استبد بطيبة.

أما هو ﷺ فشعر بدنو أجله، فالتفت إلى حبيبته عائشة، ثم طلب منها أن تنادي أباها الصديق وأخاها عبد الرحمن، وقال: (ادعي لي أبا بكر وأخاك، حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمن، ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)[2]، ثم تراجع، والنبي ﷺ إذا هم بشيء فلم يفعله، يعني أنه اجتهاد منه لا وحي، ولذا قال بعد ذلك مباشرة: (يأبى الله ويدفع المؤمنون)[3].

كانت أمته تتجول بين حناياه.. يخشى عليها من الفتن.. يخشى عليها من الفرقة.. يخشى على هذا الإنجاز من الانهيار، لذا وفي يوم الاثنين الموافق للخامس من ربيع الأول، وبينما كانت زوجاته عنده والألم يكاد يفقده الوعي شعر بحاجة إلى إلقاء خطاب يوصي فيه الأمة، فقال: (أهريقوا عليَّ من سبع قرب، من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم).

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩، وهو الحديث السابق.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٥٧.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٨.

انطلق أحدهم إلى بيت حفصة فأحضروا منه وعاء نحاسيًّا يستخدم للاستحمام، أو لغسل الثياب يسمى المخضب، فأحضروه، وانطلق آخرون فأحضروا قربًا فارغة، ثم توجهوا بها لآبار متفرقة فملأوها منها، فحُمل ﷺ، ووضع في المخضب، ثم حلت أمهات المؤمنين أفواه القرب، وبدأن بصب الماء على جسده المنهك، (حتى طفق يقول: حَسبكم حسبكم)[1]. تقول عائشة (حتى طفق يشير إلينا: أن قد فعلتن) بعد هذا الماء شعر ﷺ بانتعاش، فالتحف بلحاف، فتعطف به على منكبيه، وعصب رأسه بعصابة دسماء داكنة اللون، عليها أثر الزيت، ثم طلب من يسنده، ثم (خرج إلى الناس)[2] (فصلى بهم وخطبهم)[3]. (جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس)[4] (إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله)، حينها انطلقت الكلمات كالسهم في قلب أبي بكر الصديق فبكى، (بكى فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا)[5].

التفت أبو سعيد الخدري إلى دموع الصديق مستغربًا بكاءه، وقال في نفسه: (ما يبكي هذا الشيخ! إن يكن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله؟) لم يدرك الشاب أبو سعيد تلك الأحرف التي أبكت الصديق، حتى انتبه لنبيه ﷺ يناشد رفيق نضاله ووزيره وصاحبه في الغار أن يكف عن البكاء، ويقول بصوت يتهدج حزنًا وحبًّا: (يا أبا بكر، لا تبك)، ثم وجه الخطاب لشعبه، فقال: (إنَّ أمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر)[6]، عندها فهم أبو سعيد أول الخطبة، فقال: (كان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا)[7].

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق، وهو جزء من الحديث السابق.

(٢) صحيح البخاري ١-٨٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٤.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٨٣.

(٥) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.

(٦) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.

(٧) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.

اعتصرت القلوب، وفاضت أعين الرجال والنساء وهم ينصتون لحبيبهم وهو يخاطبهم بأسلوب حزين، هل سيمضي بعد أن قادهم للتوحيد بعد الله، ووحد شملهم، وبنى لهم دولة، وجعلهم أعز أهل الأرض، فـ:

هل هي آخر خطبة للنبي ﷺ

بعد أن أشار ﷺ إلى فضل الصديق وسبقه، جاء دور الوفاء للأنصار، خاطب ﷺ شعبه وأمته.. يوصيهم بأحب الأقوام إليه.. يوصيهم بالأنصار، وقال: (إن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا، أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم)[١].

كان ﷺ يكثر من الأحاديث السياسية حول الاجتماع وعدم التفرق، وكأنه يهيء الأمة لتولي أمورها بعد أن خط لها منهجًا، يقول فيه: (إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به، فإذا كان من أمر دينكم فإليَّ)[٢]، وقد أنزل الله أحكامًا أمر بالحكم بها، أولها العدل، وترك ما يستجد من أمور للأمة في مرونة تجعل منه دينًا مناسبًا لكل زمان ومكان. وإشاراته لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأسامة وغيرهم تشير إلى خيارات الأمة في انتقاء خليفته، وهو غير عاجز عن تحديد شخص، لكنه يدرك أن تحديد شخص بعينه قد يؤدي إلى الغلو فيه، كما يؤدي إلى تهميش الأمة على حساب الفرد. ولذا قال في خطبته مشددًا على خطورة الغلو: (إن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا. ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك)[٣].

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٨٣.

(٢) سنده صحيح على شرط مسلم، رواه أحمد ٢٠- ١٩ حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس. والثلاثة ثقات أثبات. وله شواهد عديدة.

(٣) صحيح مسلم ١-٣٧٧.

وبعد الخطبة نهض ﷺ نحو بيت عائشة الملاصق للمسجد، ليمكث فيه ما تبقى من أيامه، التي يبدو من شدة مرضه أنها قليلة. ومر الاثنين والثلاثاء والصحابة رضي الله عنهم يترددون لعيادته، والاطمئنان على حاله، وكان يخرج للمسجد ليصلي بهم جالسًا، ويصلون خلفه جلوسًا.

زاره حبيبه ابن مسعود (وهو يوعك فقال: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا؟ فقال ﷺ: أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم. فقال: ذلك بأن لك أجرين. قال: أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفرَّ الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها)[1].

خرج ابن مسعود وجاء زائر غيره.. كان الزوار يدخلون ويخرجون، إلا زائرًا ثقيلًا رفض الخروج.. زائر ثقيل رفض مغادرة جسده الشريف أو التخفيف عنه.. اشتد مرضه ﷺ حتى أغمي عليه، فطلبت نساؤه استدعاء عمه العباس، فأقبل قلقًا، ولما رآه تألم وقدم اقتراحًا على زوجاته الحاضرات (أم سلمة وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين، منهم أسماء بنت عميس) أن يقدم له علاجًا يسمى (اللد)، وهو أن يسقى المريض دواءً من أحد شقي الفم، فوافق الجميع، ففتحوا فم النبي ﷺ وسكبوا الدواء، وبعدما أفاق ﷺ احتج عليهم، وبعد أن عرف الدواء أشار إلى اتهام زوجة أبي بكر أسماء، لأنها كانت في الحبشة مع زوجها السابق جعفر بن أبي طالب. لذا أمر ﷺ بمعاقبة كل الحاضرات بعقاب ظريف. قائلًا: (من صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله، عمك العباس. قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة. ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب. فقال: إذن ذلك لداء، ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لد، إلا عمي. تقول عائشة: فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا)[2]. وهو عقاب أشبه

(١) صحيح البخاري ٥-٢١٣٩.

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

بالمزاح، وكان كلما اشتد به الألم تذكر محاولة اغتياله على يد اليهودية في خيبر، حيث خاطب حبيبته عائشة، فقال: (يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم)[١]. أي انقطاع عرقي من أثر ذلك السم، وفي هذا اليوم الخميس اشتد به الوجع حتى كأنه الموت، وكان حوله مجموعة من الصحابة، فهم مرة أخرى بكتابة كتاب، وقال: (ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا). (فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا، فقالوا: هجر[٢] رسول الله ﷺ. قال: دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم)[٣].

كان ذلك الكتاب همٌّ بشري.. هم به ﷺ كما هم قبل أيام أن يكتب كتابًا يوصي فيه لأبي بكر، وهو ليس من الوحي، ولو كان وحيًا لوجب عليه تبليغه كبقية رسالته لأن الله يقول له: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٤].

ترك ﷺ الكتابة، وظل منشغلًا بأمته وبضعفاء شعبه، وكان عامة وصيته: (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره، وما يفيض بها لسانه»[٥] من حرصه على الأخذ بهما.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١١ معلقًا، ووصله الحاكم، وله شاهد عند الدارمي١-٦٠.

(٢) تعب وبدأ يهذي من شدة الألم.

(٣) صحيح البخاري ٣-١١١١ والزيادة عند مسلم ٣-١٢٥٩.

(٤) المائدة: ٦٧.

(٥) سنده صحيح، رواه أحمد ٦-٣١٥ وغيره عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال حدث سفينة عن أم سلمة. رجاله أئمة ثقات. وسعيد أثبت الناس في قتادة، وله شاهد عن علي.



كان النبي ﷺ في يوم الخميس هذا يصلي بالناس وهو جالس، ولما حانت صلاة المغرب حمل ﷺ ليصلي بالمؤمنين فصلى بهم وقرأ: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

كان الرجال والنساء ينصتون إلى ذلك الصوت الخاشع الذي أنهكه المرض، حتى قالت إحدى النساء اللواتي كن خلف تلك التلاوة، وهي أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفًا، ثم ما صلى لنا بعدها)[1] فقد صلى ثم أُخذ إلى بيت عائشة، ولما حانت صلاة العشاء.. حاول ﷺ النهوض فلم يستطع.. حاول مرة، ومرتين، لكن جسده لم يساعده، فقد أقعده الألم، وأمسى يعاني من الإغماء تلو الإغماء، بينما كان الشوق يفتك بالصحابة.. ينتظرون خروجه بلهفة وحزن عظيمين. لكنه لم يخرج، ولم يستطع النهوض من مكانه. كانت عائشة رضي الله عنها تعاني معه، وتحكي معاناته فتقول: (ثقل النبي ﷺ فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماء في المخضب) ملىء المخضب بالماء، ووضع فيه واغتسل، ثم حاول النهوض و(ذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفاق، فقال ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة.

فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس)[2]. سمعت عائشة اسم أبيها على لسان النبي ﷺ، وهو يجعله أحق الصحابة بالصلاة، وإمامة المؤمنين، بعد أن

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١١.

(٢) صحيح البخاري ١ – ٢٤٣.

جعله إمامهم جميعًا في الحج، لكن عائشة التي تحب أباها خشيت عليه من التشاؤم الذي لا مبرر له، إلا في حزنها، فهي مشفقة على أبيها حزينة على زوجها.. ترحل بها الهموم والمخاوف، لذا قالت للنبي ﷺ: (إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء، فقال: مروه فيصلي، فعاودته: إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس). قال: (مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف) عندها همست عائشة لحفصة، وقالت لها: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة. فقال رسول الله ﷺ: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل للناس. فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرًا)[1]. وكأن حفصة ترى أن عائشة ورطتها، حتى قال لها حبيبها ما قال.

توجه المبعوث إلى أبي بكر (فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر ، وكان رجلًا رقيقًا: يا عمر، صل بالناس. فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر)[2].

كانت ليلة ثقيلة على سماء المدينة وأهلها.. ليلة تخنق صدورهم بالهموم والتفكير بنبيهم، لكن، لعل هذا الفجر يحمل فرجًا.

أشرق الفجر فلم يستطع النبي ﷺ النهوض أيضًا، فصلى أبو بكر رضي الله عنه فجر الجمعة بالمؤمنين، وحان وقت صلاة الجمعة، فجاء المؤمنون من كل المدينة، ووصل خبر عجز النبي ﷺ عن الصلاة إلى جيش أسامة، فعاد أسامة، ومن معه من الجيش إلى المدينة علهم يحظون بخطبة النبي ﷺ والصلاة خلفه، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فقد خرج أبو بكر رضي الله عنه وسلم على المصلين، وارتقى درجات المنبر وخطب الناس، وسط دموع الرجال والنساء ونشيجهم، وهم

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤١ والزيادة له ١-٢٤٠ و١-٢٤٠.

(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

لا يرون قرة أعينهم على منبره. وقد اعتادوا على سماع صوته العذب على هذا المنبر منذ عشر سنوات، سالت دموعهم وهم يشعرون بأناته وآلامه خلف تلك الستارة الصغيرة.. لا يستطيع الحراك مما به من الألم.

تهادت خطوات الأمير الأسمر (أسامة) رضي الله عنه إلى بيت النبي ﷺ يعوده.. دخل أسامة وسلم، فردت عليه عينا نبيه الذي لا يستطيع حتى الكلام. جلس أسامة بجانبه، فبدأ ﷺ يرفع يده ببطء نحو السماء ثم ينزلها على جسد حبه أسامة، الذي يقول: (لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يضعها عليَّ، فعرفت أنه يدعو لي)(١).

مضى أسامة ومضى يوم الجمعة والنبي ﷺ على فراشه، وجاء يوم السبت، فصلى أبو بكر الفجر، ولما حان وقت الظهر صلى بهم أيضًا، فحدثت المفاجأة:

النبي ﷺ يخرج للصلاة

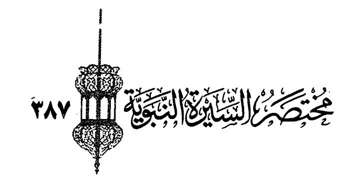
أذن بلال رضي الله عنه وأقام الصلاة، فتقدم أبو بكر للصلاة وكبر وأمهم، وفي أثناء الصلاة خرج علي بن أبي طالب والعباس من بيت عائشة رضي الله عنهم يحملان النبي ﷺ (لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر.. فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر.

قال ﷺ: أجلساني إلى جنبه. فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي، وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ)(٢). فتحول المسجد إلى ساحة من البهجة والسعادة والأمل بالشفاء، ثم التفت ﷺ إلى أنس (لما أراد

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٦٧ حدثني سعيد بن عبيد بن السباق عن محمد بن أسامة عن أبيه أسامة. سعيد ومحمد بن أسامة تابعيان ثقتان. التقريب٢٣٩ و ٤٦٧.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٤٣.



أن يقوم قال: ادع لي أسامة بن زيد فجاء فأسند ظهره إلى نحره)[١]. وأخذه إلى بيت عائشة، وفي إحدى الساعات خرج أسامة والعباس وعلي رضي الله عنهم من زيارة نبيهم فرأى العباس بفراسته تقاسيم الموت في وجه النبي ﷺ، والناس تسأل عليًا في الطرقات عن نبيه، وتقول: (يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا)، فالتفت العباس إلى علي وأخذ بيده، وقال له: (أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا. فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ)[٢].

كان الفتى الثلاثيني أوسع أفقًا.. كان يدرك أن الخلافة ليست هبة ولا منحة، ورسول الله ﷺ يدرك أنه في ساعات احتضار، وقد هم بالكتابة مرتين ثم تراجع، مما يعني أن وحيًا لم ينزل، وأن النبي ﷺ كان يرجع في تلك الأمور لأمته طوال حياته قائدًا للدولة، ولو كان هناك نص على شخص بعينه أو أسلوب بعينه لما أخفاه ﷺ، وهو الذي خطب فيهم وصلى بهم.

والعباس معذور في توجسه، فهو يرى العرب في دولة وتحت راية لأول مرة، أما النبي ﷺ فكان برغم آلامه مشغولًا بأمته يخشى على عقيدتها ووحدتها، وبما أن أمر خلافتها من أمور الدنيا، فقد جعل الأمة تبت فيها، أما أمر العقيدة فظل يبلغه حتى وهو يعاني من سكرات الموت، فالعقيدة نص والحكم اجتهاد، ولذا ظل ينقي العقيدة خشية أن تلتاث كما التاثت عقيدة اليهود والنصارى بالغلو كان مهموما بذلك حتى وهو في أشد ساعات المعاناة، فقد كان ﷺ يضع قطعة قماش على وجهه

---

(١) سنده صحيح، رواه البيهقي في الدلائل ٧-١٩٢ من طرق عن سعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثنا حميد الطويل عن ثابت عن أنس، وهذا السند على شرط البخاري، وقد رواه كثيرًا، انظر مثلًا صحيح البخاري (١-١٥٧ و١-٢٠٩).

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٥.

(فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه).. ثم يقول: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا)[1].

كان يدرك أنه بعد وفاة أي نبي تزداد العاطفة، وتجيش المشاعر، فتطيش بدعًا وخرافات، وزخارف ومزارات، حتى يتحول القبر من مجرد ضريح إلى وثن يطاف به ويتمسح، ويستقبل، وتشد الرحال إليه، ويذبح عنده، وتحيط به السرج والشموع والمصابيح، ويطلى بالذهب ويرصع بالجواهر، فيسيل لاستغلاله لعاب المخرفين، فيجعلونه مصدرًا للكسب والإثـراء.. لا يهمهم أنهم صرفوا الخلق عن الخالق سبحانه، ما يهمهم هو أنهم صرفوا الأموال إلى جيوبهم، وليذهب التوحيد ولتذهب العقيدة.. عندها ينهدم ما بناه النبي ﷺ خلال أكثر من ثلاث وعشرين عامًا، ويتسرب الشرك من جديد، لكن بدلًا من عبادة الصنم الذي على شكل صورة.. يصبح وثنًا على شكل قبر، وبالمبررات نفسها ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

كان ﷺ يخشى ذلك ويحذر منه.. برغم ما هو فيه من المعاناة والحمى، التي يزداد اشتعالها داخل جسده الشريف، مما أعجزه عن الخروج للصلاة، حيث صلى أبو بكر في الناس العصر والمغرب والعشاء والفجر، والناس يترددون على المسجد، وفي الطرقات وفي الأسواق فلا يرون حبيبهم:

وجاء يوم الأحد

وتوالى الزائرون للنبي من أهل بيته وغيرهم، وكانت ابنته فاطمة رضي الله عنها في طريقها إلى هناك، تنظر إلى هذا الأب الحاني الذي ما رآها يومًا إلا قام لها، وقبّل يدها، وأجلسها في مكانه، وها هي تدخل عليه، فلا يستطيع أن يقوم لها عن مكانه، ولا أن يجلسها فيه، كل الذي يستطيعه هو الالتفات والنظر

---

(١) صحيح البخاري ١-١٦٨.

إليها، فتدمع عينها وتبكي، وتتأثر لما هو فيه من الكرب، فيناديها ويقول: (مرحبًا بابنتي)، فتجلس بجانبه، ثم يحاول تخفيف ما بها من حزن، وسط نظرات أمهات المؤمنين الباكية، ويلتفت إليها، فتدني رأسها، وتجعل أذنها قريبًا من فمه، فيهمس في أذنها، ويقول: (إِنَّ جِبْرِيلَ كانَ يُعارِضُني الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّه عارَضَني الْعامَ مَرَّتَيْنِ، وَلا أَراه إلا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحاقًا بِي). عندها تدفقت دموعها، وبكت بكاءً شديدًا، فهمس بها ﷺ ثانية بكلمات كالمطر، وبشرها، فقال: (أَما تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ؟)، فرفعت رأسها شوقًا إلى الجنة، وتماهت دموع الحزن بالفرح، وضحكت لذلك، فتعجز عائشة الوفية عن مقاومة مشهد الحزن، فتهمس للزهراء: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن. فسألتها عما قال؟ فقالت فاطمة: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ)[1].

امتزجت أمواج الحزن بالسرور في أعماق الزهراء، ثم نهضت ثقيلة إلى بيتها وأطفالها، تتنازعها مشاعر لا تنتهي، وهي تتأمل أطفالها الحسن والحسين وأم كلثوم، تتأمل عيونهم البريئة التي تفتقد دلال جدهم، الذي لن يلاعبهم بعد اليوم، ولن يحملهم للمسجد كالأمس، ولن يردفهم كما اعتادوا، تتأمل عيونهم، فيعتصر قلبها ألمًا، وهي سترحل عنهم قريبًا، ترى من سيعتني بهم من بعدها، من سيغطيهم إذا ناموا، من سيطعمهم، من سيسرح شعورهم ويلبسهم، من سيقص عليهم، ويكفكف دموعهم؟

أسئلة تسافر كالخناجر في قلب أي أم تعلم أن رحلتها قد اقتربت، ومشاعر تعصف بفاطمة، وهي في طريقها إلى صغارها، فأي قلب ستعيش به بقية حياتها، تبكي فاطمة يومها، ويقبل الليل ويخيم الحزن على المدينة، وينجلي الليل، ولكن الحزن لا ينجلي.

---

(١) صحيح البخاري ٣ - ١٣٢٦. وقد أفشت فاطمة السر لعائشة بعد وفاته عليه السلام.

ويدخل فجر الإثنين

ويؤذن بلال ثم يقيم فيصلى أبو بكر بالمؤمنين الفجر، وفي أثناء الصلاة يحدث شيء مفرح كاد الصحابة معه أن يفتنوا في صلاتهم. فجأة ارتفع الستر الذي على يسار أبي بكر.. ستر بيت ابنته عائشة، فأشرق الحبيب منها، وقال أنس: (كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ. فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر)[١]. وعاد إلى فراشه فصلى الفجر، ثم ضعف ضعف:

الموت

الذي لا ينتظر أحدًا من البشر.. حتى الأنبياء، دخلت فاطمة ووالدها يتألم، ورأسه على صدر عائشة، وأما رجلاه ويداه فكانتا تتحرك بشكل مبك (جعل يبسط رجلًا ويقبض أخرى، ويبسط يدًا ويقبض أخرى. فقالت فاطمة: يا كرباه لكربك يا أبتاه.. فقال رسول الله ﷺ: أي بنية، لا كرب على أبيك بعد اليوم)[٢]. ثم رفع طرفه إلى السماء، وكأنه يرى منزله من الجنة. فـ(لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير، تقول عائشة: فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى)، وكان ﷺ (إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه، ثم قال: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا). فمدت عائشة يدها برفق نحو يده، لترقيه بما كان يرقيها به لكنه سحب يده.. لم يعد

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤٠ والزيادة عند مسلم ١-٣٤٨.

(٢) سنده صحيح، رواه أبو يعلى ٦-١١١ حدثنا القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا ثابت البناني عن أنس. عبيدالله بن عمر القواريري وشيخه ثقتان ثبتان. التقريب ٣٧٣ و ١٧٨.

بحاجة للشفاء..كان يشعر بالملأ الأعلى.. يشعر بشوق إلى الله.. سحب يده (ثم قال: اللهم اغفر لي، واجعلني مع الرفيق الأعلى)[١]، (وأخذته بحة وهو يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. تقول عائشة: فظننته خير حينئذ)[٢]، في أثناء ذلك دخل أخوها عبدالرحمن بن أبي بكر، وفي يده سواك، (فنظر إليه رسول الله ﷺ وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم. فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم[٣] فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن. فأعطانيه فقضمته.

ثم مضغته)[٤] (ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ، فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه، وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه. يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات[٥]. فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه، ثم قال:

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

ثم قضى)[٦] (ومالت يده)[٧] «فمات في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي، فقبضه الله، وإن رأسه لبين نحري وسحري، وخالط ريقه ريقي)[٨] (في

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٩٣. وكلمة (هو) ليست في النص.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٦) صحيح البخاري ٤-١٦١٣.

(٧) صحيح البخاري ٤-١٦١٦.

(٨) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة)[١] (فلما خرجتْ نفسه لم أجد ريحًا قط أطيب منها)[٢]. عندها أنت فاطمة وبكت والدها بحرقة بقلبها ودمعها، وقالت:

(يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه

يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه)[٣]

أما عائشة الشابة الثكلى، فقد أذهلها ما حدث، وتحدثت عن ذهولها، فقالت: (مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وفي بيت لم أظلم فيه أحدًا، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألدم مع النساء وأضرب وجهي)[٤] .. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجال، أما عمر فلم يجد البكاء له طريقًا إليه.. صدم بالخبر صدمة أذهلته، وفقد صوابه، وصار يخطب.. يهدد من يقول: إن حبيبه قد رحل، فطلب بعض الصحابة من رجل من أهل الصفة اسمه (سالم بن عبيد) أن ينادي أبا بكر، فقد اشتد غضب عمر، حتى قال: (لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. فسكتوا، وكانوا قومًا أميين لم يكن فيهم نبي قبله. قالوا: يا سالم، اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه)، ركب سالم منطلقًا إلى مكان شرقي المدينة، يقال له: السنح. يوجد فيه بيت لأبي بكر، ولما وصل وجد أبا بكر قائمًا في المسجد. نظر الصديق إلى وجه الرجل وهيئته، فقال والسكينة تغشاه: (مات رسول الله ﷺ؟) فقال سالم: (إن عمر يقول: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا)، مد أبو بكر يده فوضعها على ساعد سالم، ثم ركبا وانطلقا نحو بيت رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٢) سنده صحيح، رواه أحمد ٦-١٢١ ثنا عفان ثنا همام أنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. عفان ثقة ثبت. التقريب ٣٩٣ وشيخه (بن دينار ثقة) وبقية السند لا يسأل عنه، وقد مر كثيرًا.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

(٤) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي الدلائل ٧-٢١٣ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه سمعت عائشة. يحيى ووالده ثقتان، وقد مر معنا كثيرًا.

رأت الجموع إمامهم الصديق مقبلا فأفسحوا له الطريق، ثم نزل عن فرسه ودخل المسجد دون أن يكلم أحدًا، و(أقبل يمشي حتى دخل، فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها[١]، فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي ﷺ، حتى استبان له أنه قد مات. فقال أبو بكر: إنك ميت وإنهم ميتون)[٢]. ثم:

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج إلى هذا الشعب المفجوع بنبيه وقائده ﷺ، فشاهد عمر وقد بدأ يهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم، لكن كلمات عمر كانت كلمات مفجوع مصدوم، في ظرف ليس له سوى أقرب الناس من النبي ﷺ، وأكثرهم صحبة له.

خرج أبو بكر بهدوئه وحكمته، ليزيل عن العقول ذهول الفاجعة.. أخذ الأمة مما هي فيه إلى كتاب الله، فأفاقت العقول، ورضيت بقدر الله.. لم ينههم عن الحزن ولا عن البكاء، ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف، والانجراف في تيارها، فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة.

(خرج أبو بكر وعمر يصيح: والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم... فقال أبو بكر: أيها الحالف على رسلك. وعمر رضي الله عنه يكلم الناس. فقال: اجلس. فأبى. فقال: اجلس. فأبى.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

(٢) سنده صحيح، رواه النسائي في الكبرى ٤-٢٦٣ أنبأ قتيبة بن سعيد حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد. ونبيط صحابي صغير ونعيم تابعي ثقة. التقريب ٥٦٥ وهو ابن أبي هند وتلميذه ثقة. التقريب ١-٣١٩ وحميد الرواسي ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٢٤٨ وقتيبة ثقة ثبت. التقريب ٤٥٤.

فتشهد أبو بكر رضي الله عنه. فمال إليه الناس وتركوا عمر[١] ... فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢].

خج المسجد ببكاء المفجوعين، الذين أفاقوا على الحقيقة المرة.. أيقظتهم الآية، حتى قال أحدهم: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها من الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها)[٣]. وكان أكثر المتأثرين بتلك الآية عمر، حتى إنه قال: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها. علمت أن النبي ﷺ قد مات)[٤].

كان أبو بكر رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة.. أعاد الأمة إلى صوابها، وقال لها في غياب نبيها المفجع: إن هذا النبي الحبيب يظل بشرًا وعبدًا لله، وأن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين، وليس من هديه عليه السلام. فلم يبق سوى الصلاة عليه، واتباع رسالته والمشي على خطاه، وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي قال عنه النبي ﷺ وهو حي: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله)[٥].

كانت تلك اللحظات شديدة الدقة والخطورة والحزن، فقد رحل النبي ﷺ عن الدنيا، وهي مصيبة ما بعدها مصيبة. كما كان هناك أيضًا الفراغ الهائل الذي تركه

---

(١) صحيح البخاري ١-٤١٩.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٤١.
(٣) صحيح البخاري ٤ - ١٦١٨.
(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.
(٥) صحيح البخاري ٣-١٢٧١.

من بعده.. حيث غدت الأمة اليوم دون قائد يرأسها. وهذا الفراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائدًا عظيمًا، فكيف إذا كان الراحل اليوم ليس مجرد قائد عظيم فحسب، بل نبي يأتيه الوحي من السماء، وتحمله الأمة كلها في قلوبها.

شعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ، فرشحوا سعد بن عبادة لخلافة النبي ﷺ، بينما توجه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام حزينين إلى بيت فاطمة، في الوقت الذي كان فيه أبو بكر مشغولًا بالأمة، والأمة مشغولة بفجيعتها وبحزنها على نبيها. لكن أبا بكر يتجدد عظمة في مثل هذه الظروف الحرجة والعصيبة.

انطلق رضي الله عنه إلى حيث إخوانه الأنصار، بعد أن سمع باجتماعهم ليرى ما يجري هناك.. خشية أن تفترق الأمة بعد توحيدها، أو تتمزق بعد تلاحمها، أو أن تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين الذين التفوا حول أبي بكر رضي الله عنهم جميعًا.

السقيفة - الأمة تمارس أول مهامها

دنا أبو بكر ومن معه من السقيفة فشاهدوا الجمع من بعيد، فأقبل عليهم رجلان منهم فأخبروهم أنهم رشحوا سعد بن عبادة، وذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا لأبي بكر ومن معه: (أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقال عمر: والله لنأتينهم).

وصل أبو بكر ومن معه إلى سقيفة بني ساعدة، فوجدهم قد التفوا حول رجل مريض، قد غطوه بلحاف، وهم يريدون مبايعته بالخلافة. سألهم عمر: (من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك).

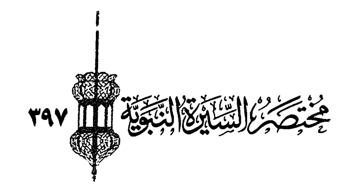
سلم أبو بكر ومن معه ثم جلسوا، فتشهد خطيب الأنصار، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال بكل أريحية وحرية: (أما بعد: فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر).

انتهى خطاب ممثلي بعض الأنصار، فتأهب عمر لإلقاء خطاب عن معظم المهاجرين، و كان قد هيأ في نفسه وزوره أي نمقه، لكن ما إن هم بالكلام حتى نظر إليه أبو بكر، وقال: على رسلك. ثم هم الصديق بإلقاء خطاب عنه.

يقول عمر: (فكرهت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري، إلا قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها، حتى سكت. فقال: ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. فأخذ بيدي، وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن).

انتهى خطاب الصديق الذي تضمن وجهة نظره، لكنه لم يلق قبولًا لدى الأنصار، بل قوبل بخطاب عنيف من الطرف الأقوى، وهم الأنصار، حين قال خطيبهم: (أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب: منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش).

لأول مرة يتحدث العرب بهذا المستوى من الرقي دون إراقة دم.. هم لا يتحدثون عن زعامة طيبة أو مكة.. هم يتحدثون عن قيادة دولة وأمة ونشر رسالة.. يتحدثون



من أعماقهم.. من أفكارهم.. تركهم نبيهم وقائدهم ﷺ يعتمدون عليها بعد الله. وها هم يمارسون السياسة بعقولهم وأفكارهم.. ليس لديهم نص سوى الاتجاه نحو العدل، وهاهم يفتحون أول أبواب السياسة في غياب القائد الفذ المسجى هناك.

اختلف الصحابة، فهم عقول.. اختلف الصحابة فهم بشر.. اختلف الصحابة وهذه هي سنة الحياة. لم يعثر أحد منهم على نص يرجح به رأي على رأي، وسكت إمامهم أبو بكر، وقائدهم في الحج، ورديف الهجرة، (فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، فأتاهم عمر رضي الله عنه، فقال: سيفان في غمد واحد!! إذًا لا يصطلحا).

ثم واصل عمر فغيب القبيلة عن المشهد، وغيب العنصرية وعرقية التفوق، وتحدث برقي عن الأهم: عن الأجدر، بعيدًا عن نسبه وحسبه، وكأنه يذكرهم بخطبة نبيهم قبل مدة، حين قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ).

لم يحدد منهم الخلفاء، لكنه أخبرهم بأنهم راشدون. أدهشهم عمر في السقيفة، وهو يقول: (يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه)[1]، (يا معشر الأنصار، يا معشر المسلمين، إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، أبو بكر السباق المتين. من هذا الذي له هذه الثلاث:

---

(١) سند الزيادة حسن، رواها أحمد ١-٢١ وغيره من طرق عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود وعاصم بن أبي النجود إمام القراء حسن الحديث من رجال الشيخين. التقريب ١-٣٨٣ والمعقوفان داخله من حديث سالم ابن عبيد السابق.

- إذ هما في الغار، من هما؟
- إذ يقول لصاحبه، من صاحبه؟
- لا تحزن إن الله معنا، مع من هو؟

فبسط عمر يد أبي بكر رضي الله عنهما، فقال: بايعوه. فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها[١]. فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار).

تمت البيعة بالأغلبية، ولا يمكن انتظار الإجماع إلا ممن لا إرادة له، وكان بإمكان الأنصار التعصب لمرشحهم سعد بن عبادة ورفض أبي بكر، وهم قادرون، والسيوف بأيديهم، والمهاجرون على أرضهم، لكن الثقافة التي نهلوها من نبيهم ﷺ جعلتهم يتركون مرشحهم لمن هو أفضل وأولى.. ثقافة غابت عنهم منذ أن وجدوا على أرض طيبة، فكان الدم هو الحكم، والثأر هو لغة الحوار.

تكلم أنصاري عن حالة سعد بن عبادة، فقال: (قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتل الله سعد بن عبادة)، ثم قال عمر : (فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه)[٢].

بويع لأبي بكر وهو من أسرة ليست قوية في قريش.. بويع لأبي بكر على أرض الأنصار، وهم الذين ما كانوا ليقبلوا رجلًا من غيرهم، لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة، بل ما كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيمًا من الخزرج، ولن يرضى الخزرج أن يتأمر عليهم زعيم من الأوس لو كانوا لا يزالون على ثقافتهم

---

(١) سند الزيادة صحيح، رواها ابن إسحاق ومن طريقه الضياء في المختارة ١-٢٨٨ حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر. عبد الله تابعي صغير ثقة من رجال الصحيح، وبقية السند سند البخاري، وداخل المعقوفان من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٥٠٦.

الخشبية الجاهلية.. ثقافة الأصنام التي أزاحها الإسلام عن قلوبهم وعقولهم إلى غير رجعة.. بويع الصديق لأنه الأجدى والأجدر، حيث عجز الحاضرون عن تفنيد جدارته، أو مقارنته بمن حضر أو حتى بمن غاب: كعلي والزبير، وتمت البيعة في دقائق دون إراقة دم واحدة، بشكل لم يحدث من قبل داخل مدينة أو حتى قبيلة.. ناهيك عن دولة مختلفة الأعراق والألوان والمناطق.

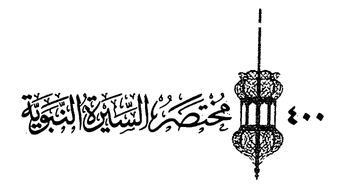
مر يوم الإثنين بسلام، وأصبح للدولة الإسلامية قائد جديد، هو الذي أعاد للمفجوعين رشدهم قبل قليل، وهو الذي ساقته طول صحبته لنبيه ﷺ إلى النظر للأمور بمنظار أبعد وأكثر اتساعًا، فاستحق أن يواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات، بعد أن استقر الوضع السياسي، ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ في يوم أسود، عاشه أنس بن مالك فقال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء)[1]. وسافرت شمس الإثنين بالفتنة.

وجاء يوم الثلاثاء

وقبل أن يصلي أبو بكر في الناس صلاة الصبح.. نهض عمر نحو المنبر مخاطبًا الصحابة، ومعتذرًا عما بدر منه بالأمس من أقوال، وداعيًا بقية الشعب لمبايعة أبي بكر رضي الله عنه، (فتشهد، وأبو بكر صامت لا يتكلم. قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا - يريد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به، بما هدى الله محمدًا ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى المسلمين

---

(١) سنده صحيح، رواه الترمذي ٥-٥٨٨ وغيره من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس، جعفر صدوق زاهد. التقريب ١-١٣١ وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.



بأموركم، فقوموا فبايعوه. وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر)[١].

وبعد أن انتهى عمر من خطبته نزل عن المنبر، وطلب من أبي بكر الصعود كي يبايعه المؤمنون، لكن أبا بكر رفض، فلم يزل عمر يلح عليه (حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة)[٢] (فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، فلما قعد أبو بكر رضي الله عنه على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير عليًّا رضي الله عنه، فسأل عنه؟ فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، ثم لم ير الزبير بن العوام رضي الله عنه، فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله.. فبايعاه فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال:

أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[٣].

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٨٢ حدثني الزهري حدثني أنس. الزهري أوثق طبقته، والمقطع الذي بين المعقوفين سنده صحيح، رواه الحاكم ٣-٨٠ والبيهقي في الكبرى ٨-١٤٣ من طرق عن وهيب ثنا داود بن أبي هند ثنا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري. أبو نضرة اسمه المنذر بن مالك بن قطعة تابعي ثقة. التقريب ٥٤٦ وداود تابعي صغير وثقة متقن. التقريب ٢٠٠ وتلميذه وهيب بن خالد بن عجلان ثقة ثبت. التقريب ٥٨٦.

فنهض الجميع إلى الصلاة خلف أبي بكر، وقد سكنت نفوسهم حول مستقبل دولتهم، لكن هذا السكون تلته ثورة للحزن، فرسول الله ﷺ قد رحل، فخالطت صلاتهم الدموع والوجد على أرحم الناس بهم، وأحناهم وأكثرهم رفقًا، ونشج البعض وهم يرون مكانه ومنبره، وبكى الأطفال والنساء والرجال إمامهم، وعاود الوجع أهل الصفة، فالذي كان يقاسمهم شربة اللبن وكسرة الرغيف قد رحل، واستيقظت بقية الأوجاع حين حانت لحظات الوداع الذي لا يطاق.. وبدأ الإعداد لـ:

تغسيله ﷺ وتكفينه

دخل مجموعة من أهل البيت على نبي الله ﷺ، فتولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه غسله، وشاركه بعض أهل البيت، (فقاموا إلى رسول الله فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم)[(١)].

أي أنهم يدلكون القميص على جسده الطاهر بعد سكب الماء على الثوب، وكان علي يتأمل رسول الله ﷺ وهو يغسله، وكأنه يبحث عن تلك المبالغات التي تقال عن الأموات، فقال: (غسلت رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئًا، وكان طيبًا حيًا وميتًا ﷺ)[(٢)] وبعد أن انتهوا من غسله ندمت عائشة قائلة: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه)[(٣)]، فهن في نظرها أولى من الرجال، وكأنها تتذكر ابتسامته عليه السلام لها قبل أسبوع، وحديثه العذب عندما رجع من جنازة بالبقيع، فوجدها تئن وتقول: وا رأساه. فقال ممازحًا: (بل

---

(١) سنده صحيح، مر معنا كثيرًا، رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٤ ومن طريقه الطبري ٢-٢٣٩ وغيره: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة.

(٢) سنده صحيح، رواه الحاكم ٣-٦١ والبيهقي في الدلائل ٧-٢٤٣ والكبرى ٣-٣٨٨ من طرق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن علي رضي الله عنه. وسعيد إمام طبقته، وكذلك تلميذه، ومعمر بن راشد إمام ثقة ثبت فاضل. انظر: التقريب ٢-٢٦٦.

(٣) هو آخر حديث عائشة السابق عند ابن إسحاق.

أنا يا عائشة وا رأساه، ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ثم دفنتك..؟)[١] وكأنها فهمت من هذا الحديث أن تغسيل الزوج لزوجته والعكس هو الأولى، لكن ذلك لم يحدث، وشرف الله عليًّا ومن معه بتغسيل نبيه، وفي آخر غسلة قام بها:

مزج الماء بالكافور

وهي تساعد على نقاء جسد الميت ونظافته[٢] وبعد أن انتهى علي ومن معه من تغسيله ﷺ قام بـ

تطييبه عليه السلام

صب المسك على جسده ومسحه، ثم أغلق علبة الطيب واحتفظ بباقيه كي يحنط به عند موته، (وأوصى أن يحنط به، وقال :هو فضل حنوط رسول الله ﷺ)[٣] أي باقيه، ولما انتهى من تطييبه بدأوا بـ:

تكفينه ﷺ

فجاء عبد الله بن أبي بكر الصديق بحلة يمانية غالية.. اشتراها لكي يكفن فيها النبي ﷺ، فكفن فيها، ثم تشاور الصحابة، فأحسوا بأن الأمر فيه تكلف،

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حبان ١٤-٥٥١ وغيره، وقد مر معنا بداية مرضه ﷺ.

(٢) سنده حسن، رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله بن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان، وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٣) سنده صحيح، رواه الحاكم ١-٥١٥ وغيره من طريق: حميد بن عبد الرحمن الرواسي ثنا الحسن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي وائل قال وأبو وائل مخضرم ثقة وتلميذه العجلي صدوق رمي بالتشيع والرفض وقيل رجع عنه. التقريب: ٢-٣١١ والحسن بن صالح ثقة فقيه عابد. التقريب ١٦١ وحميد ثقة من رجال الشيخين. التقريب ١٨٢.

فنزعوها عنه، ثم كفن ﷺ في ثلاث أثواب قطنية بسيطة.. ليس من ضمنها قميص أو عمامة، فأخذ عبد الله بن أبي بكر الحلة، وقال: (لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي. ثم قال: لو رضيها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها، فباعها وتصدق بثمنها)[1]، ولما فرغوا رضي الله عنهم من تكفينه أرادوا:

الصلاة عليه

كان الصحابة رضي الله عنهم قد سألوا أبا بكر، فقالوا: (يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ؟ قال: نعم)[2].

تأملوا مسجد النبي والطرقات المؤدية إليه، فإذا طوفان من القلوب رجالًا ونساء وأطفالًا ينتظرون وداع نبيهم، قد احمرت العيون، واكتوت الجفون، وعافت طعم النوم، لكن بيت عائشة لا يتسع لهم جميعًا، وقد قدم الملهوفون من أطراف المدينة وما حولها، ولا يمكن أن تحرم هذه الجموع المفجوعة من الصلاة على نبيها، ووداعه والدعاء له، فسألوا أبا بكر رضي الله عنه عن كيفية الصلاة على النبي ﷺ..؟ فقالوا: (وكيف يصلى عليه؟ قال: يدخل قوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون)[3].

قام مجموعة من الصحابة بتنظيم المحبين مجموعات مجموعات، وحددوا أحد أبواب عائشة للدخول، وآخر للخروج بعد أداء الصلاة. يقول أحد الذين شاهدوا تدفق أمواج الحب تلك: (لما قبض رسول الله ﷺ قالوا: كيف نصلي عليه؟ قالوا:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٩.

(٢) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٣) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

ادخلوا من ذا الباب أرسالًا أرسالًا، فصلوا عليه، واخرجوا من الباب الآخر)[1] فتحولت الحشود إلى مجموعات صغيرة، ودخلت بترتيب وسكينة وخشوع مخضبة بالدموع والبكاء، فتحول المكان إلى ساحة من النحيب والأنين، والرضا بقدر الله، فكيف كان حال المكان حين حان دور أمهات المؤمنين، وكيف كان حال الفقراء والمساكين وأهل الصفة، وهم يصلون على كافلهم والحاني عليهم..؟

انتهى الرجال والنساء والأطفال من الصلاة على النبي ﷺ، فإذا الدنيا مساء، وإذا الشمس قد غربت فلم يجدوا بدًّا من:

دفنه ليلا

وقد قرروا دفنه في غرفة عائشة، بعد أن سألوا أبا بكر فقالوا: (يا صاحب النبي هل يدفن النبي ﷺ؟ قال: نعم. قالوا: وأين يدفن؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه، فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة)[2] لكن الصحابة تحيروا من ذهولهم في كيفية شكل قبره.. هل يضرحون له أم يلحدونه..؟

وكان في المدينة (رجل يلحد، وآخر يضرح فقالوا: نستخير ربنا، فبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللحد فألحدوا له)[3].

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢-٢٨٩ أخبرنا عفان بن مسلم والأسود بن عامر قالا أخبرنا حماد بن سلمة قال أخبرنا أبو عمران الجوني أخبرنا أبو عسيم شهد ذلك.. وأبو عمران الجوني هو عبد الملك ابن حبيب تابعي ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٥١٨ وحماد ثقة وكذلك تلميذه عفان والأسود هو المعروف بـ: شاذان وهو ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٧٦.

(٢) جزء من حديث سالم بن عبيد الصحيح.

(٣) سنده قوي، رواه أحمد ٣-١٣٩ وابن ماجه ١-٤٩٦ من طريق المبارك بن فضالة حدثني حميد الطويل عن أنس ابن مالك. والمبارك صدوق وهو مدلس، لكنه صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة حميد الطويل، وله شاهد قوي صحيح السند، رواه ابن سعد بالسند السابق.

وصل الرجل الذي يلحد، وفجأة سمعت فاطمة وعائشة وأمهات المؤمنين شيئًا كالخناجر في قلوبهن.. صوت المساحي تحفر قلوبهن وقلوب الساهرين حول بيت نبيهم ﷺ.

تقول عائشة رضي الله عنها: (ما شعرنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل)[1]، وكان عدد الذين دخلوا القبر أربعة أو أكثر (علي والفضل وأسامة)[2] ثم (أدخلوا عبد الرحمن بن عوف) [3] وبعد أن أتموا حفر قبره الشريف، فرشوا على أرض القبر كساء أحمر يسمى (قطيفة)[4].

وبعد أن فرشت تلك القطيفة قال علي رضي الله عنه: (إنما يلي الرجل أهله)[5] فخرج عبد الرحمن، ونزل بدلًا منه قثم بن العباس رضي الله عنهم جميعًا.

وحانت ساعة الوداع المريرة.. حان وضع الحبيب في قبره، فلن تراه العيون بعد اليوم إلا يوم القيامة.. حانت ساعة النحيب المر، في ليلة كان السهر والسرج والحزن هو الجليس لأهل المدينة. حمل ﷺ فاستلمه علي ومن معه في القبر، فأدخلوه في اللحد على جنبه الأيمن باتجاه القبلة، ثم جعلوا اللَّبِنَ منصوباً على اللحد، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشهد المنظر ويقول لمن حوله:

---

(١) سنده قوي، رواه عبد الرزاق ٣-٥٢٠ عن ابن جريج وغيره عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة عن عائشة.. عمرة تابعية ثقة، أكثرت الرواية عن عائشة. وأبو بكر بن محمد عمرو بن حزم وابنه ثقتان، وابن جريج ثقة وقد توبع لأنه مدلس، كما رواه ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر، وفاطمة بنت محمد عمرة عن عائشة.

(٢) سنده صحيح، رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب. إسماعيل ثقة ثبت. التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٣) ورد ذلك بسنده صحيح، وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

(٥) سنده صحيح، رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين. التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

«ألحدوا لي لحدًا، وانصبوا عليَّ اللبن نصبًا كما صنع برسول الله ﷺ»[1] وبعد أن فعل علي ومن معه ذلك خرجوا، ليهيلوا التراب على القبر، وكان آخر من خرج من القبر قثم بن العباس.

يقول علي: (أحدث الناس عهدًا برسول الله ﷺ قثم بن عباس)[2] لكن المغيرة ابن شعبة كان يرقب المشهد بألم.. كان يفرك دهاءه كي يمس النبي ﷺ في قبره قبل أن يهال التراب عليه: فقال: (قد بقي من رجليه شيء لم يصلحوه. قالوا: فادخل فأصلحه، فدخل وأدخل يده فمس قدميه فقال: أهيلوا عليَّ التراب. فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه، ثم خرج فكان يقول: أنا أحدثكم عهدًا برسول الله ﷺ)[3].

أهالوا التراب والدموع عليه، وبكاه من في بيت عائشة، ومن في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل.. بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.. محمدًا الذي لم يبن له قصرًا، ولم يبن لهم سجنًا، ولم يضرب أحدًا منهم امرأة أو طفلًا أو عبدًا.

فارق الحياة جسدًا، وبقي سنة ومنهجًا.. نهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالكمد.. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.. نهض الصحابة بعد دفنه، ولم يعكفوا عند قبره، ولم يحولوا ذلك القبر إلى مزار مرصع بالجواهر مطلي بالذهب، بل

(١) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

(٢) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٧ حدثني أبي؛ إسحاق بن يسار عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل عن مولاه عبد الله بن الحارث عن علي. والد ابن إسحاق تابعي ثقة، وكذلك مقسم وعبد الله بن الحارث مجمع على توثيقه. انظر: التقريب.

(٣) سنده صحيح، رواه أحمد ٥-٨١ وغيره من طريق عن حماد بن سلمة عن أبي عمران يعني الجوني عن أبي عسيب. وأبو عسيب صحابي وأبو عمران الجوني اسمه عبد الملك بن حبيب وهو ثقة من كبار التابعين. التقريب ١-٥١٨ وحماد إمام ثقة معروف.

إن عائشة استمرت في السكن في حجرتها المتواضعة ولم تفارقه، أما الصحابة فلم يضيعوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا بقراءة القرآن.

لقد علمهم ﷺ كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته للعالم، لينقذوه بها كما أنقذهم هو قبل ذلك بها. فصلى الله عليه وسلم: عدد خَلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وجزاه عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وجمعنا به في جناته في الفردوس.



إن عائشة استمرت في السكن في حجرتها المتواضعة ولم تفارقه، أما الصحابة فلم يضيعوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا بقراءة القرآن.

لقد علمهم ﷺ كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته للعالم، لينقذوه بها كما أنقذهم هو قبل ذلك بها. فصلى الله عليه وسلم: عدد خَلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وجزاه عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وجمعنا به في جناته في الفردوس.

